الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الثالث والعشرون . السنة الثانية . ديسمبر ٢٠٠٠ . الثمن عشرة جنيهات Weghat Nazar - Volume 2 - Issue 23 - December 2000

محمد حسنين هيكل

موعد مع الحرب!

ومقال آخر..

أزمة السياسة فى انتخابات الرئاسة

مياه النيل فى سوق التجارة العالمية! / رشدى سعيد

عزمى بشارة / تحرير فلسطين.. تحرير الإنسان العربى

أدب المقاومة.. من المنفى إلى الإنتفاضة / فاروق عبد القادر

مصطفى عبد الرزاق نوفل / الآثار الصحية للعولمة.. غزو الهامبورجر!

الجمود السياسى.. وانتحال الديمقراطية! / سلامة أحمد سلامة

يوسف القعيد / فاتن حمامة.. فنانة من نور

«رمضان فى كتابات المؤرخين المصريين / قاسم عبده قاسم»



الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثانية
العدد الثالث والعشرون
ديسمبر ٢٠٠٠

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- رشدى سعيد.. أستاذ جيولوجيا مصرى، مقيم فى الولايات المتحدة
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى
- عبد العظيم أنيس.. أستاذ الإحصاء الرياضى المتفرغ بجامعة عين شمس
- عزمى بشارة.. مفكر فلسطينى ونائب فى الكنيست الإسرائيلى
- فاروق عبد القادر.. كاتب
- قاسم عبده قاسم.. أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق
- محمد حسنين هيكل... صحفى
- محمد فؤاد الذاكرى... باحث في التراث العلمى، من سوريا
- مصطفى عبد الرزاق نوفل... أستاذ علوم وتكنولوجيا الغذاء بجامعة الأزهر
- ناصر الرباط... أستاذ تاريخ العمارة الإسلامية بمعهد ماستشوستس للتكنولوجيا (M.I.T)
- يوسف القعيد... صحفى وروائى

رسوم العدد للفنانين: محمد حجى - نبيل تاج - سعد الدين شحاتة

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــة..

الــرجــل.. والــوطـــن
قـــراءة للانتــفــاضـــة

«اسمه عزمي بشارة. إنه عضو في الكنيست... وهو مفكر فصيح وديماغوجي من الطراز الأول. وهو كاره لإسرائيل من نوعية أكثر خطرًا بكثير من حسن نصر الله (زعيم حزب الله) الذي يعلن أنه من مؤيديه... إن يوم «نهايتك» سيأتي يا بشارة الأفعى. وسيكون يومك أقرب مما تعتقد. سيزال قناعك وستكشف الحقيقة...». السطور التي تحمل تهديدًا سافرًا بالقتل، تضمنها بيان تحريضي نشره موقع إسرائيلي على الإنترنت قبل أيام.

وكان منزل بشارة قد تعرض لمحاولة إضرام النار فيه، عندما هاجم اليهود الهوليجانز «مواطنيهم» من عرب ١٩٤٨ في الناصرة. بالضبط مثلما كان أعداء السامية يهاجمون اليهود في أوروبا. ولقد دشن هؤلاء نشاطهم بمسيرات مشاعل ليلية لإحراق بيوت العرب من دون خشية التشبه بعصابات كلوكس كلان الشهيرة. وتعددت أنواع الاعتداءات من تحطيم السيارات ونهب المتاجر وإحراقها - كما حصل في ذلك المطعم في تل أبيب لشبهة أن عربًا هم من بين رواده - وحتى القتل نفسه.

ووصلت الفضيحة إلى ذروتها عندما تدخلت الشرطة، لتفصل - رسميًا - بين الطرفين، فلا يسقط برصاصها «الحي» إلا العرب! والذين هم بموجب الأوراق الثبوتية، وادعاءات الديموقراطية اليهودية «إسرائيليون». الأمر الذي كشف عن تصدع يبقى من أبرز علامات الأحداث الأخيرة. وفي مواجهة تيار تنامى بعد «أوسلو» توهم إمكانيةَ «الدمج المتنور» لعرب ١٩٤٨، أثبت القائلون باستحالة ذلك في مجتمع عنصري بطبيعة تكوينه الديني، صحةَ حجتهم. وكان في مقدمة هؤلاء دكتور عزمي بشارة.

و بشارة الذي هو الآن عضو في الكنيست الإسرائيلي، بدأ نشاطه السياسي سنة ١٩٧٦، وعمره ١٩ عامًا، عندما شارك في تنظيم يوم الأرض احتجاجًا على مصادرة السلطات الإسرائيلية آلاف الفدادين من أراضي الفلسطينيين في الجليل. وقتل في تلك الاضطرابات يومها ستة فلسطينيين وجرح مئات، والأهم أنها ألقت الضوء، فعليًا على جانب لا يمكن إغفاله من جوانب الصراع المعقد في المنطقة، رغم النجاح الإسرائيلي في تكريس التجاهل الإعلامي - بل والتفاوضي - لذلك الجانب.

ذهب عزمي بشارة إلى برلين حيث حصل على دكتوراه في الفلسفة السياسية، ورغم أن أحدًا لا يحتاج إلى أن يكون فيلسوفًا ليعرف أن العرب في إسرائيل مواطنون من الدرجة الثانية، أو العاشرة، إلا أن النائب الأكاديمي، يوضح - بلغة يفهمها الجميع شرقًا وغربًا - أن ثمة تناقضًا في وصف إسرائيل بأنها يهودية وديمقراطية، ويقول بأن المهم في المعادلة هو أن تثبت أنك الطرف صاحب الحق. ويسهل إثبات ذلك إذا تم التعامل مع القضية الفلسطينية كآخر حالة أبارتهايد كولونيالية عنصرية. هذه لغة يفهمها العالم ولكنه لا يفهم لغة «الصراع مع اليهود الأنجاس» ومع «كيان إسرائيل الملعون» التي تسود الخطاب العربي أو بعضه على الأقل.

وبشارة الذي تطلبه الشرطة الإسرائيلية للتحقيق بتهمة التحريض وتأييد الانتفاضة، يمثل فعليًا إجهاضا لأفكار «الاجتثاث الواقعي» لفلسطينيي الداخل من جذورهم الحقيقية، وهو أحد قادة التجمع الوطني الديموقراطي وهو حزب «إسرائيلي» حديث التكوين، ورغم أنه بطبيعة الحال من الأعداء التقليديين لليمين الأشد تطرفًا والأقوى في إسرائيل «بدعوى أنه قومي متشدد وأحد أعداء الدولة»، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يرشح نفسه لرئاسة الوزارة في مايو عام ١٩٩٩.

ويرى عزمي بشارة أن القضية الفلسطينية برزت أساسًا كقضية لاجئين، ولكن على نحو ما قُلبت إلى أراضي العام ١٩٦٧ التي قُلبت إلى قضية القدس التي قُلبت إلى قضية دينية. وعلى نحو ما نسي بعض العرب والفلسطينيين - أو أنساهم الهادفون إلى ذلك - أن قضية اللاجئين هي جوهر القضية الفلسطينية. ويحذر من أن تضيع قضية اللاجئين وسط ضجيج الكلام «المعقول واللا معقول» حول السيادة على الأماكن المقدسة.

في «وجهات نظر»، اعتدنا أن يقدم كتابنا قراءتهم الخاصة لكتابٍ أو لوثيقة. إلا أن «قراءةً في الواقع» المتعيش والمتفاعل، تظلُ لها أهمية خاصة. عزمي بشارة النائب الذي يحملُ همومَ «أهله» ومواطنيه، إلى جانب شهادة للدكتوراه، وأوراق هوية إسرائيلية، يكتب لنا من الداخل، قراءة لما يجرى هناك ويتداعى هنا. محاولا التذكير بحقائق تضيع - عمدًا أو سهوًا - وسط التباسات قضية شديدة التعقيد، وأمام خصم - بحكم الإرث التاريخي على الأقل - يدمنُ المساومة، ويجيدُ المناورة، مثلما هو محترفٌ لخلطُ الأوراق.

ينبه بشارة إلى خطورة اختزال ما يجرى إلى حد وصفه بأنه «حربٌ دينية» إذ لا يوجد في الحرب الدينية ظالمٌ ومظلوم، ولا مستعمِر ومستعمَر، بل صراع بين حقَّين مطلقين لا يستطيع التمييز بينهما إلا المؤمنون بهما. وعليه فإنه لا ينبغي تصوير الأمر على أنه صراع بين الأقصى وحائط المبكى بل بين الشعب الفلسطيني والاحتلال، فالحرب ليست بين المسلمين واليهود بما هم كذلك، وإنما بين دولة إسرائيل كدولة احتلال وبين العرب كواقعين تحت الاحتلال. ويذكر بأن الأقصى كان تحت السيادة العربية الإسلامية في العام ١٩٦٤، عندما وُلدت منظمة التحرير الفلسطينية من رحم النضال من أجل عودة اللاجئين وتحرير فلسطين.

ويؤكد بشارة على أهمية وجود إستراتيجية تمثل مشروعا سياسيًا للانتفاضة «وإلا ضاع الدم المراق هدرًا». فالتجاوب الذي لا تخطئه عين لابد وأن يجد من يترجمه في النهاية إلى مشروع سياسي يتجاوز مجرد المساواة والتعاطف والتضامن والوعيد.

وإذا كنا نتفق جميعًا - الآن على الأقل - على أن سنوات ما بعد أوسلو الانتقالية (الثماني) والتي كان من المفترض أن تبني الثقة بين الطرفين أدت في الواقع إلى العكس، فإن أسئلة أوسلو (الخمسة) : اللاجئين، السيادة، الحدود، القدس، الاستيطان، ينبغي ألا تغيب عن الأذهان ونحن نقرأ في «أبعاد الانتفاضة، وسيناريوهات تداعياتها».

ويوضح بشارة في مقاله كيف أن هناك إجماعا صهيونيا (كاملا) حول الإجابة على أسئلة أوسلو الخمسة (قضايا الحل النهائي) في مواجهة غياب لمشروع قومي عربي - أو حتى وطني فلسطيني - يتضمن إجابة محددةً أو واضحة. وأنه «حين احتفلنا بهزيمة نتانياهو، لم نلتفت إلى أن لاءاته الأربع انتقلت حرفيًا إلى برنامج باراك». ويُذكر بشارة بأنه في الوقت الذي اضطر فيه نتانياهو إلى تجميد البناء في مستوطنة جبل أبو غنيم جنوبي القدس تحت ضغط دولي ومحلي إسرائيلي وفلسطيني، فإن باراك عاود البناء في هدوء، ويتم حاليا تسويق شقق هذه المستوطنة للبيع دون ضجة تُذكر.

لاءات نتانياهو التي انتقلت إلى باراك مع حقيبة الوزارة، والتي تمثل الإجابات النهائية للطرف الإسرائيلي عن أسئلة أوسلو تتلخص في التالي: لا عودة للاجئين الفلسطينيين إلى حدود عام ١٩٤٨، لا انسحاب إلى حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧، ولا سماح بدولة فلسطينية «ذات سيادة»، ولا تخلي عن القدس «موحدة». وأن غالبية المستوطنات باقية تحت السيادة الإسرائيلية.

وهنا يطرح عزمي بشارة سؤالا محوريًا: «هل أصر الطرف الفلسطيني المفاوض على موضوع القدس لأنه اختلف عليه وحده ووافق على جميع الأفكار الأمريكية - الإسرائيلية الأخرى، أم أنه تمترس خلف هذا الموضوع ذي الأبعاد والمعاني الرمزية من أجل إفشال الأفكار الأخرى كافة؟! ما زالت الإجابة عن هذا السؤال ضرورية لأنها تحدد كيفية استخدام رصيد الانتفاضة النضالي».

يطرح بشارة سيناريوهين لتطور نتائج الانتفاضة يُرجح في أحدهما «أن يتحول الدم المسفوك في هذه الانتفاضة المنطلقة من الأقصى إلى ضمان لعدم قبول الإملاءات الأمريكية الإسرائيلية»، وإن كان يخشى «أن الاحتمال مازال قائمًا لكي تستخدم الانتفاضة لتصوير العجز عن تغيير موازين القوى، وتخاذل الموقف العربي. مما يسوِّغ العودة إلى قبول ما لم يقبل في كامب ديفيد بعد أن بذلت القيادة الفلسطينية ما بوسعها دون فائدة».

يبقى أن قراءة بشارة لأحداث «اليوم» لا تكتمل إلا بقراءة هيكل لأوراق «الأمس» إذ يبقى صحيحًا تمامًا أن «متابعة» أوسلو، وواي بلانتيشن، وكامب دافيد، لا يمكن أن تنفصل عن «مطالعة» مشاهد تشكيل خارطة المشرق العربي في منتصف القرن.. فضلا عن تفصيلات ما سبق وما تبع ١٩٦٧ وتداعياتها.

إدراك هيئة تحرير «وجهات نظر» لهذه الحقيقة، دفعنا إلى تعديل في حساباتنا بعد أن كنا فكرنا في تأجيل «الحلقة الثالثة» من قراءة هيكل للوثائق الإسرائيلية، لنضع بدلا منها «قراءته» للمسرحية المثيرة - ثنائية البطلين - التي نتابع مشاهدها على الضفة الأخرى من الأطلنطي، والتي هي متصلة بطريقة أو بأخرى بما يجرى هنا. فخلصنا - بعد نقاشٍ - إلى أنه وإن كان «تكامل» الصورة يبقى مطلوبًا دائمًا، فإن «تتابع» الحلقات - بلا انقطاعٍ - في دوريةٍ شهرية، تبقى له ضرورته.

وجهات نظر



سياحة صيف فى الوثائق الإسرائيلية ٣

موعد مع الحرب



محمد حسنين هيكل

أخذتنى الوثائق الإسرائيلية فى رحلة معها طالت عما قدّرت، ومع أنها كانت قراءة صيف فإنها تحوّلت إلى كتابة خريف وشتاء، فهذا هو الشهر الثالث الذى أتوقّف فيه مع هذه الوثائق دارساً وفاحصاً بالقدر المتاح لرَجُلٍ لا يَزْعُم لنفسه اختصاصا فى كتابة التاريخ، لكنه يعرف فى نفسه اهتماما بقراءته.

ولقد أشرت فيما سبق إلى أن الميزة الأساسية للوثائق الإسرائيلية أنها تضيف إلى قارئها ما يمكن اعتباره خطاً يزيد ويُكمل الدائرة. بمعنى أننا اطلعنا على ما كان عندنا عَربياً (ومصرياً بالدرجة الأولى). ثم جاءت الوثائق البريطانية والفرنسية والألمانية والتركية (إلى حَدٍّ ما) - فوَسّعَت الأفق وفتَحَتهُ، ومع ذلك ظلت هناك بُقَعٌ أشبه ما تكون بالثقوب السوداء فى السماء - تلك التى يعتبرها عُلماء الفلك مقابر للنجوم، وبسبب هذه البُقع فإن الحقيقة ظلت ناقصة بعض الشىء، لأن طرَفاً من أهمّ أطراف صُنع التاريخ فى الشرق الأوسط الحديث كان يَحتفظ بشهادته وراء صَمت كلى أو جزئى!

وعندما أتيح لغَيرى ولى أن نُطلّ على الوثائق الإسرائيلية - أو بعضها - فإن خط الأفق المعرفى حولنا بانت عليه - ولو بخطوط شاحبة أحياناً - دائرة تحيط به، وترسِم له ما يمكن اعتباره شكلاً عاماً لما جرى وما زال يجرى مُتّصلاً مع بعضه لدرجة لم تكن مُتاحة من قبل. وتلك قيمة ما تَحويه الوثائق الإسرائيلية : خطٌ واحدٌ زائد لكنه يقفل الدائرة!

وهنا فإن مجال النظر يصبح قادراً أكثر من ذى قبل على رؤية «الأرضية» التى مَشَت وتمشى عليها الوقائع تاركة مَواقِع أقدامها أثراً يمكن تَتبُّعه فى صحارى الرمل والصخر، ومرات فى حُقول الطين والدَّم!

وربما أضفتُ أن لى مَنطقاً فى قراءة التاريخ أوثره، وقد أشرت إليه مرات من قبل - مؤداه أن «التاريخ» ليس «ذيل» الماضى بقدر ما هو «مُقدّمة» المستقبل،

ولعلى هنا مُتأثر بالفكرة التى طرحها «دين اتشيسون» وزير الخارجية الأمريكية الذى حضر مع الرئيس الأمريكى «هارى ترومان» مرحلة نهاية الحرب العالمية الثانية وبداية «الحرب الباردة». وكان ذلك عصراً شهد ظواهر عديدة راحت جميعها تتفاعل لتصنع فترة من أكثر فترات التاريخ الإنسانى حَيَوِيّة وخصوبة. وعندما قرّرَ «دين اتشيسون» كتابة مُذكراته عن وقائع ما عاشه، فقد اختار لها عنواناً يستحق التأمل نصه «الحاضر عند مرحلة الخلق الأولى». وتوقّف عنوان كتاب «اتشيسون» عند هذا الحد، والتكملة المنطقية بعده «والمستقبل عند مرحلة الطفولة» - وكلا القولين مُتناغم مع الآخر، وكلا القولين فيما أظن صادق،

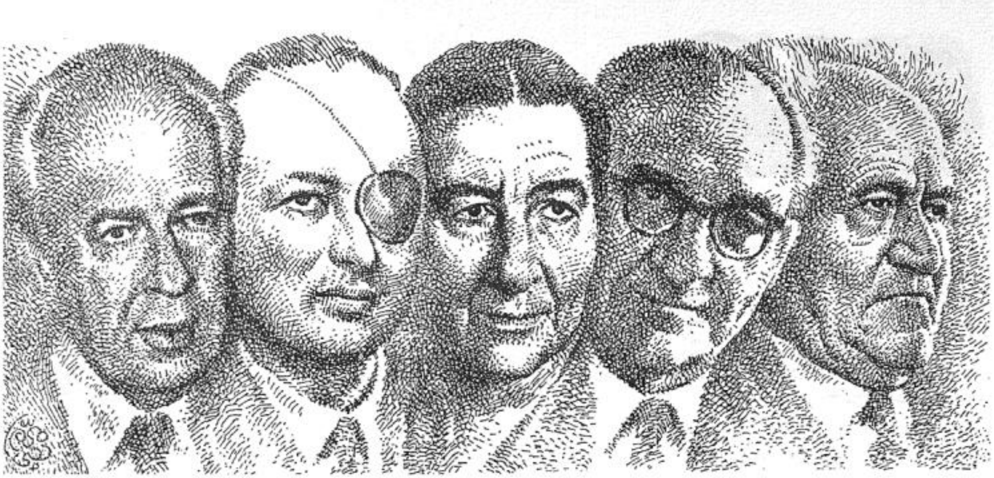
بمعنى أن ماضينا هو بالطبيعة حاضرنا - عندما كان يتخلق..

ثم إن حاضرنا هو بالفعل مستقبلنا - عندما بدا الآن يحبو!

والحقيقة أن منطق الفصل بين الماضى والحاضر والمستقبل مُصطلح زَمَن أكثر منه حقيقة موضوع.

وبصرف النظر عن «الحاضر عندما كان يَتَخلّق»، وعن «المستقبل عندما بدأ يحبو» - فقد يكون مُفيداً إدراك أن ما نراه «الآن» هو خير «كشف» لما لمحناه «من قبل» ولم نتمكن من رؤيته جَلياً، لكنه عندما جاء الظهر بان فى الحاضر جَسَداً ما كان فى الفجر ظِلاً. ونفس الشىء صحيح بالنسبة للمستقبل، فإذا استطعنا فى عِزّ الظهر أن نتطلع إلى المستقبل بهداية النور الساطع لذلك الظهر، فإن خياراتنا تُحَصِّن نفسها باستعداد يضيف إلى قوتها آخر النهار وهى تُرَتّب ليوم جديد.

يتداعى من ذلك فى اعتقادى أن التاريخ ساحة دراسة قصدها المعرفة الواسعة،



وليس ساحة محكمة مطلبها العقاب الصارم، ولكي لايكون هناك لبس فإن المحاكمة جائزة في نطاق السياسة، وهناك يصح أن يقال عن «سياسي» إنه جدير بالثواب، أو مستحق للعقاب ـ لكنه عندما تتحول السياسة إلى تاريخ فإن منطق الثواب والعقاب يفقد فاعليته حتى بالتقادم أو انتهاء الصلاحية. وإذا لم يقع ذلك فإن ساحة التاريخ تتحول إلى ثارات قبائل (فيها من يتشيع لـ«علي» وفيها من ينتصر لـ«معاوية»، وتلك فتنة طاردت الضمير العربي والإسلامي وما زالت تطارده). وفي كل الأحوال فإنه إذا ظل هناك من يسوغ «الفتنة المستمرة» في مجال العقائد الدينية، فإن الفتنة في مجال خيارات البشر تعسف في التعامل مع المستقبل يحوله إلى فعل ماض حتى نهاية العمر!

....

....

والحقيقة أنني أمهد بهذا القول لتساؤلات تكشفها أو تثيرها قراءة الوثائق الإسرائيلية، وقد يكون فيها ما يثير حساسية بعضهم هنا أو ضيق آخرين هناك.

لكنه إذا وقع الاتفاق على أن التاريخ ساحة دراسة للمعرفة الشاملة وليس ساحة تحقيق للمحاكمة الصارمة ـ وحتى على فرض أن السياسة خلفت وراءها جراحاً، فإن أي جرح يطلب أول ما يطلب مطهراً ورباطاً ومضاداً حيوياً، فلا يمكن للجرح ـ ولا يعقل ـ أن تكون أشواقه دائمة إلى سكين أو خنجر أو حتى شظية زجاج حادة تغوص فيه من جديد، ثم تتحول الندوب المتخلفة عن جراح قديمة إلى تهتك في الأنسجة يعود به نزيف الدم سيالاً، يدفع بالأمة إلى فراش المرض غائبة عن الوعي، عاجزة عن الفعل.

وذلك مرة أخرى ـ ثالثة ـ تمهيد وجدت مناسباً أن أعود به إلى هذا الحديث المتصل عن «سياحة صيف مع الوثائق الإسرائيلية».



١ مفاتيح

قراءة الوثائق الإسرائيلية تجربة مفيدة ومثيرة، وهي في نفس اللحظة تجربة مرهقة ومحزنة خصوصاً عندما تدخل الحوادث إلى ذلك المنحنى المتجه مباشرة إلى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧.

ويستحق الملاحظة أن أي قارئ للوثائق الإسرائيلية تطالعه أثناء القراءة علامات وإشارات دالة ولافتة للنظر، داعية لإطالة الفكر. ويخطر على بالي أن هذه العلامات والإشارات الدالة تستحق الوقوف أمامها قبل الدخول في تسلسل التطورات والوقائع، والسبب أن ذلك قد يوفر نوعاً من «المفتاح» لقراءة خريطة ما جرى منذ بداية سنة ١٩٦٧ وحتى قرب منتصفها (في يونيو). وبمقدار ما أن مفاتيح الخريطة الطبيعية تظهر المساحات، والمسافات، وتقاطعات الطرق، ومواقع المدن، وتضاريس الأرض : الزراعة بألوان خضراء، والصحاري بألوان صفراء، والجبال وقممها وسفوحها بألوان بنية متدرجة من الثقيل إلى الخفيف ـ فإن الخريطة السياسية لها نفس الكفاءة على الكشف والإبانة إذا أمكن تحديد الرموز بما يجعلها معبرة بأمانة عن النوايا، والخطط، والوقائع، والتصرفات، والاحتمالات بما فيها آمال تتحقق أو آمال تخيب!

ومفتاح قراءة الخريطة السياسية لما جرى على الطريق إلى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ـ وكما هو مكشوف ومقروء صراحة، أو ما هو محسوس وملموس ضمناً ـ يرسم مجموعة من العلامات والإشارات الدالة واللافتة تملك من الدقة ما يكاد ينقلها من رسم بالقلم والريشة إلى صورة بالفيلم والكاميرا لا تكتفي بتثبيت لوحة طبيعة، وإنما تمسك أيضاً ـ وهذه ميزة الفيلم والكاميرا ـ بلحظة أو لحظات من الحياة يتجدد فيها المكان والزمان!

ومجمل العلامات والإشارات التي تقول بها خريطة الطبيعة وخريطة السياسة ـ خريطة المكان وخريطة الزمان ـ كما أطل عليها صانع القرار الإسرائيلي ـ وكما يتبدى من ملفاته وأوراقه ـ تنبئ بما يلي :

١ ـ أن العرب أضعفوا أنفسهم بأكثر مما أضعفتهم قوة إسرائيل سنة ١٩٦٧، وأن التصدع بدأ في عقول الناس قبل أن تتصدع جبهات القتال. وكان ساسة إسرائيل وجنرالاتها أول من ذهل لما جرى على الناحية العربية من الخطوط، ولم يكن بينهم من توقعه على الأقل بهذه السرعة وبهذه السهولة. ولأيام بعد انتهاء معارك الأيام الستة (٥ ـ ١١ يونيو ١٩٦٧) فإن قادة الحكومة الإسرائيلية وقواد الجيش الإسرائيلي ظلوا جميعاً غير قادرين على استيعاب حجم ما تحقق لهم، وعندما أفاقوا من «صدمة النصر» ـ إذا جاز التعبير ـ فقد هالهم أن «انتصارهم أضخم من أن يكون حقيقياً» too good to be true ـ وكان رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلي الجنرال «إسحاق رابين» أول من سجل في محاضر مجلس الوزراء تقديره للموقف في جلسة بتاريخ يوم الأحد ١١ يونيو ١٩٦٧ ـ بقوله : «إنني أشعر بالحزن رغم ذروة الفرح التي نعيشها لأني أعتقد بأمانة أن ما حصلنا عليه جاء أكثر مما أردناه، واعتقادي أنه ليس أمامنا غير إعادته أو معظمه إلى أصحابه بشروط معقولة ـ والسبب «الحاكم» أننا لا نستطيع ولا نقدر على الاحتفاظ به كله بتكاليف مقبولة!»

٢ ـ أن مؤسسة الأمن ـ وهي صانع القرار الحقيقي في إسرائيل ـ كانت على وعي كامل بواقع أن الخلافات والصراعات بين الساسة العرب نوع آخر غير الخلافات الواقعة بين الساسة الإسرائيليين. وفي حين أن رجلين مثل «ليفي أشكول» (رئيس الوزراء الإسرائيلي سنة ١٩٦٧) و«دافيد بن جوريون» (مؤسس الدولة وأول رئيس لوزرائها) يستطيعان الإمساك بتلابيب بعضهما وحتى النهاية دون أن يؤثر ذلك على إستراتيجية الدولة اليهودية ـ فإن خلافات الساسة العرب تتحول بطبائع السلطة في العالم العربي إلى نزاعات دول تصل بالمختلفين إذا أمسكوا بتلابيب بعضهم إلى درجة الحرب المسلحة (الحرب الأهلية ـ عربية عربية) كما حدث بين «جمال عبد الناصر» من ناحية والملك «سعود» ثم الملك «فيصل» من ناحية أخرى بسبب الثورة في اليمن (١٩٦٢) : وكانت مصر تؤيدها والسعودية تعاديها، ثم أصبح الخلاف بين الطرفين تحريضاً وسلاحاً ودماً وخزائن مال بغير حساب، وأطرافاً خارجية تتدخل في الشأن العربي أو تدعى باستماتة إلى التدخل فيه!

ولقد كان تناقض الأفكار والمبادئ والرؤى بين الساسة العرب هو الذي قاد مباشرة إلى اتصال على مستوى القمة بين العرب وإسرائيل (هو الأول من نوعه بعد اغتيال الملك «عبد الله» ملك الأردن في القدس سنة ١٩٥١)، ثم إنه في إطار هذا التناقض ونتيجة له فإن الملك «حسين» قدم نفسه في لندن ممثلاً لجبهة أوسع من الأردن (على حد ما قال بنفسه للزعيم البرلماني المحافظ «جوليان إيمري» عندما التقى به في بيته في «إيتون سكوير») ـ وهي جبهة طلبت معاونة إسرائيل في حرب اليمن لمهمة عاجلة هي إسقاط معدات ومؤن على مواقع المرتزقة الأجانب الذين يحاربون مع الملكيين في جبال اليمن)، وقد استجابت إسرائيل فعلاً، وقامت طائراتها بالمهمة ثلاث مرات، ثم توقفت العملية لأن انكشاف أمرها إذا وقع محرج لأصحابه فوق أي حد، وقد رتب صانع القرار الإسرائيلي على ما استخلصه طرقاً وأساليب في إدارة الصراع مع العرب وصل مفعولها إلى المساس بالمحرم أو المقدس العربي، أو شيء شديد القرب من ذلك!

٣ ـ نقطة أخرى لاحظتها مؤسسة الأمن الإسرائيلية وهي تتصل بالجيوش العربية، وملخص هذه النقطة (كما يتبدى في تحليلات وتقديرات مستفيضة تملأ الوثائق الإسرائيلية) أن الجيوش العربية لا تربطها بمهامها نظرية

أمن قومي تَرَسَّخَت على المستوى الوطني بالجغرافيا وبالتاريخ، وإنما رباط هذه الجيوش الصق بحقائق الأمور مع سُلطة الدولة. وسُلطة الدولة في العالم العربي: تقليدية أو غير تقليدية (ثورية مثلاً أو انقلابية مَوروثة) هي سُلطة أمر واقع - أي أنها سُلطة فرد حاكم أو مجموعة أفراد يشاركون إلى جواره بنصيب أو آخر في صُنع القرار. وذلك لا يعطي الجيوش العربية ثقتها في قرار الحرب عندما تتخذه السُلطة الحاكمة، لأن قرار الحرب في هذه الحالة - وفي غياب نظرية أمن قومي تَرَسَّخَت بالجغرافيا وبالتاريخ - تُصبح مصلحة نظام يقوده فرد أو مجموعة أفراد - وكلهم - فرداً أو مجموعة أفراد - يَصعُب اعتبار قراراتهم صياغة دقيقة لنظرية أمن قومي. ثم إن تقدير هؤلاء - فرداً أو أفراداً - يَصعُب اعتباره مَرجعية نهائية لمحددات هذا الأمن القومي. وذلك في التقدير الإسرائيلي يجعل الجيوش العربية مُتَحَمِّسَة للقتال عندما تدعوها الدواعي لممارسة دورها المرسوم في ميادينه، لكنها وهي تفعله (وفي الظروف العربية الراهنة) تُقبِل عليه مُستجيبة لأوامر أو لأجواء أكثر منها مُستجيبة ليَقين تَرَسَّخ بالجغرافيا وبالتاريخ. وهنا فإن هناك مسافة بين الحماسة وبين اليَقين. وهذه المسافة (في الحسابات الإسرائيلية) «تُؤثِّر على كثافة وعُمق الجهد العسكري للجيوش العربية، وعلى مدى تَواصُل هذا الجهد إلى المدى الذي تطلبه الضرورات».

٤ - إن صانع القرار العربي - من منظور الملفات الإسرائيلية - «يقترب من قرار الحرب المسلحة مُتردداً، وأحياناً مُضطراً»، والسبب أن صانع القرار العربي ليس واثقاً من أن لديه القدرة العسكرية القادرة، أو الاحتياطي الإستراتيجي الكافي، أو المدد الدولي المضمون والمؤكد - في حين أن صانع القرار الإسرائيلي يملك التعامل بثقة وجرأة مع ظروف مُؤدِّيَة إلى قرار حرب مُطمئناً إلى أن الأسباب كلها مُتوافِرة ومُستعِدَّة في مواقعها.

بمعنى أن صانع القرار الإسرائيلي:

- متأكد من تفوق جيشه في أي حرب مع العرب (ولذلك فإن حساباته هي كيفية تقليل خسائر المعركة وليس الشك في نتيجتها).

- وهو عند اللزوم واثقٌ أنه يستطيع استعمال كل احتياطيه الإستراتيجي في ميدان المعركة عارفاً أنه يستطيع تعويض كل خسائره من السلاح وبقدر ما يلزمه (في حين أن الطرَف العربي «يمد ساقه بقدر لحافه» كما يقولون، وفي نفس الوقت فليس هناك ما يَضمَن أن لديه من الأصل «لحاف»).

- ثم إنه بعلاقات إستراتيجية دولية خصوصاً مع الولايات المتحدة لديه اليقين بأن هناك حَداً أدنى مضموناً يستحيل أن تسوء بعده أي ظروف! - بينما الطرَف العربي خائف في دخيلة نفسه من أنه إذا وقع المحظور مُعرَّضٌ للسقوط في فراغ بغير قاع.

....

....

● وكان ذلك ما تأكدت منه إسرائيل واختَبَرَتهُ عملياً في حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣، فحين خَسَرَت ١٠٤ طائرات وأربعمائة دبابة في الأيام الثلاثة الأولى من القتال (على الجبهة المصرية وعلى الجبهة السورية) - لم تتردد القيادة السياسية الإسرائيلية في الأمر بفتح مخازن الاحتياطي الإستراتيجي كي يخرج ما فيها على الفور إلى التشكيلات الإسرائيلية المقاتلة تعويضاً ومَدَداً. وحَدَثَ في بعض المرات أن طائرات الجسر الجوي الأمريكي عَبَرَت الأطلنطي وعَبَرَت البحر وأنزلت بعض سلاحها - خصوصاً من الدبابات - في مطار العريش مباشرة، ثم تَوَجَّهَت هذه الدبابات مباشرة إلى المضايق تشارك في معركة «بالوظة» يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٣ - لكن الحقيقة أن معظم ما حمله الجسر الجوي الأمريكي دخل إلى المخازن ليُعَوِّض الاحتياطي الذي استعملته إسرائيل منذ اليوم الرابع للمعركة، مُطمَئِنَّة إلى أن استعمالها له فجوة ساعات وأيام قبل أن يتم استعواضه، ليعود احتياطيها الإستراتيجي إلى مستواه المطلوب والمقرَّر في الجيش الإسرائيلي.

....

....

٥ - ويتصل بذلك وفي مُقابله أن القيادة الإسرائيلية كانت تَعرِف (بشهادة الأوراق والملفات) أن العرب في حروبهم يعتمدون على سلاح من الاتحاد السوفيتي (ولم يكن لديهم غيره يستطيع ولو نظرياً أن يقاتل إسرائيل) - لكن العرب الذين يعتمدون على السلاح السوفيتي لم يكونوا في أي وقت من الأوقات على علاقة إستراتيجية ثابتة مع الاتحاد السوفيتي، بل إنهم حرصوا أن يجعلوا علاقاتهم بالدولة السوفيتية علاقة «مشتري» السلاح بـ«تاجر» السلاح، وهذا نوع من العلاقة مُرتبك وأحياناً مهين للأطراف. في حين أن صانع القرار الإسرائيلي كان ينام راضياً على رباط وثيق مع الولايات المتحدة يَشتَمِل على تَعَهُّد يجعلها ملتزمة بأن تضمن للسلاح الإسرائيلي تَفَوُّقاً على سلاح كل الدول العربية مُجتمعة.

وبسبب الخِلافات بين صُنّاع القرار - وتَحَوُّل هذه الخلافات بطبائع السُلطة العربية إلى نِزاعات دُوَل - فإن صانع القرار الإسرائيلي كان يملك ميزة إضافية هامشية لكنها هائلة - مُؤداها أن إسرائيل لن تواجه كل العرب في ميادين قتال مهما قيل أو يقال، ومهما كان أو يكون، وإنما هي على أسوأ الاحتمالات سوف تواجِه دولة عربية واحدة، أو دولتين على أكثر تقدير!

٦ - ويتداعى من هنا على نحو ما أن مسئول الحرب النفسية في الجيش الإسرائيلي في ظروف سنة ١٩٦٧، وهو الجنرال «يوشفاط هاركابي»، كان له رأيٌ استطاع ترويجه في أوساط صانع القرار الإسرائيلي، مُؤداه «أن العَرَب - كل العَرَب - كفوا عن تجربة الحرب من قرون، وعلى الأقل منذ عَهَدوا بالمسئولية عن أمنهم إلى المماليك، ثم إلى العثمانيين، وتلك حقيقة واقعة ظلَّت قائمة حتى زَمَنٍ قريب». وضمن آراء «هاركابي» أن العَرَب عرفوا في تاريخهم ألواناً من المقاومة ضد الاستعمار والاحتلال الأجنبي، لكن تلك تجربة أخرى تختلف عن تجربة الحرب كما عاشتها الشعوب الأوروبية، وكما عرفتها وعاشتها لندن وباريس وفيينا وبرلين مثلاً، أو غيرها من حواضر إمبراطوريات عظمى. وعليه فقد كان تقدير الجنرال «هاركابي» أنه «إذا كان مُواطنو الدولة العبرية يخيفهم نزيف الدم اليهودي، فإن مواطني الدول العربية يخيفهم سقوط القنابل حتى قبل أن تسيل قطرات الدم!» ■

في حين أن رجلين مثل «ليفي أشكول»
و«دافيد بن جوريون» يستطيعان الإمساك
بتلابيب بعضهما وحتى النهاية دون أن يؤثر
ذلك على إستراتيجية الدولة اليهودية. فإن خلافات
الساسة العرب تتحول بطبائع السلطة في العالم
العربي إلى نزاعات دول تصل بالمختلفين
إذا أمسكوا بتلابيب بعضهم
إلى درجة الحرب المسلحة



موعد



٢ توقيت

■■ لا تكشف الوثائق الإسرائيلية (في حدود ما اطلعت عليه) - عن كثير جديد يُضاف إلى ما كان معروفاً لغيري ولي عن قرار إسرائيل بالحرب سنة ١٩٦٧.

والمفاجأة الكبيرة، وربما الوحيدة، أنه لم يكن في نِيَّة إسرائيل لأي عمليات تفكر فيها تلك السنة أن تدخل إلى الضفة الغربية والقدس [رغم كل هذا التعصب في شأنها الآن]، ولا أن تُوَجِّه ضربة إلى سوريا، ولا أن تحتل هضبة الجولان [رغم تَمَسُّك إسرائيل بها اليوم أرضاً ومَوقعاً ومَورد ماء]. والسبب الذي يَتَبَدَّى من الأوراق والملفات هو نفسه ما وصفه الجنرال «أهارون ياريف» عن الفارق بين سياسة «الصيد بالشباك» في الشام (سوريا - لبنان - الأردن) - وبين سياسة «الصيد بالرُمح المقذوف» Harpoon في سيناء - والداعي إلى اختلاف أساليب الصيد، أو أساليب العمل، أن إسرائيل في منطقة الشام كانت تقصد إلى أن «تنتشر» أو «تأخذ» أو «تستولي» دون أن تزرع عوامل ثار باقية في منطقة تريد أن تعيش وسطها بغير عوائق مادية أو نفسية. ولذلك فهي تطلب أن تكون حياتها فيها حاضراً ومُستقبلاً حياة مَحدودة المخاطر، مقبولة التكاليف، وخصوصاً أنها - كما تَتَصَوَّر - لا تُقابِل في هذه المنطقة دُوَلاً يمكن في يوم من الأيام أن تمثل خطراً قاتلاً لها - والعكس من ذلك الصيد بـ«الرُمح المقذوف» Harpoon مع مصر لأن القصد في هذه الحالة هو الإصابة الشديدة قتلاً أو عاهةً مُستديمة حتى يمتنع طرفٌ يقدر على التهديد في يوم من الأيام - عن أن يفكر أو يحلم بالخروج من سيناء إلى المشرق العربي في آسيا (بالتحديد إلى الشام الكبير أو الهلال الخصيب شاملاً العراق).

كان هناك ما هو أكثر من ذلك بالنسبة لتفكير إسرائيل في خطوط حركتها الإستراتيجية في منطقة الشام، بما في ذلك التفرقة ما بين دواعي الصيد بالشبكة فيها، مقابل استعمال الرُمح المقذوف والقاتل ضِدَّ مصر.

كانت هذه الخطوط الإستراتيجية للحركة الإسرائيلية شديدة الوضوح خصوصاً في



القدر المتاح من أوراق «بن جوريون» الخاصة، وما ظهر من أفكاره مُسَجَّلاً في يومياته، ومُلخصه:

● لا تحتاج إسرائيل إلى ثارات دَم على نطاق واسع في فلسطين - عليها أن تأخذ قرار التقسيم - ١٩٤٧ - كخطوة أولى، وتحاول استخلاص مساحته كلها (وحولها) دون جراحة كبيرة، وتُقيم عليها بناءً متيناً لدولة قوية، يُساعدها على ذلك أن قرار التقسيم الذى أنشأ إسرائيل أعفاها من بناء دولة على أرض خلاء. فقد كان هناك في فلسطين بلدٌ من أكثر بُلدان المنطقة نُمُوًا في مجالات الزراعة - وتَقدُّماً في هياكل البنية الأساسية اللازمة بما في ذلك الطرُق والموانىء والمطارات [وكانت هذه البنية الأساسية (حتى من قبل قيام دولة إسرائيل) مطلوبة لحركة الجيوش البريطانية الإمبراطورية في منطقة ما بين وادى النيل ووادى الفرات، ونفس الشىء من وقت الإمبراطورية العثمانية قبل الظهور البريطاني شرقى البحر الأبيض].

● ومع أن «بن جوريون» وَجَدَ مشروع دولته اليهودية يُواجَه بنوعٍ من المقاومة المحلية يَنشط أحياناً ويَخمد أحياناً، فقد كان ظنه أنه يستطيع تهدئة الأمور داخل الدولة اليهودية بينما تستطيع هذه الدولة «قضم» و«هضم» ما تَحَقَّق لها وهو في النوايا غير المعلنة بدايةٌ صالحة للتوَسُّع والاستيلاء على ما هو أكثر، وكان «بن جوريون» على يقين كامل بأن الدولة العربية (الفلسطينية) - إذا قامت (وفق قرار التقسيم) - سوف تتلهى بصراعاتها الداخلية بين القوى والأحزاب والعائلات (التى ظهَرَت في الحياة الدينية والاقتصادية والسياسية والثقافية، أثناء الحُكم العثماني لفلسطين - وبعده إبان الانتداب البريطاني).

● ولعرقلة إمكانية قيام دولة عربية في فلسطين (وفق قرار التقسيم) فقد وافق «بن جوريون» دون تَرَدُّد طويل على قيام الملك «عبد الله» ملك الأردن في ذلك الوقت - ١٩٤٨ - بضَمِّ غَرب فلسطين (الضفة الغربية) إلى مملكته. وقد وَجَدَ «بن جوريون» بعد تفكير أن ذلك «أسلم» لإسرائيل من قيام دولة فلسطينية تتناحر فيها القوى والأحزاب والعائلات، وكان تقديره أن «المملكة الأردنية الهاشمية» التى أعلن الملك قيامها بضَمِّ ضفتي الأردن - شرقاً وغرباً - يجعَل من هذه المملكة جِسراً بين الدولة اليهودية وبين شرق وجنوب الشام.

أوطبقاً لنفس الإستراتيجية فإن «بن جوريون» أثناء تنفيذ مشروع الدولة اليهودية حرص على بناء عِدَّة جسور إضافية تُساعِد ذلك الجسر عبر الأردن.

وقد خطر له أن الأقلية العربية الباقية في إسرائيل يمكن أن تكون جسراً إلى الفلسطينيين حيث كانوا.

وخطر له أن يكون «الدروز» سواء في جنوب سوريا أو في جَبَل لبنان جِسراً إلى داخل سوريا ولبنان.

وخطر له أنه إذا أعطى لبعض العناصر المارونية في لبنان وَقتاً فإنها في الوقت المناسب «مشروع جسر» - مُؤدٍّ إلى ميادين فسيحة من حول لبنان.

وكان حسابه أن تكون هذه الجسور كلها مفتوحة لحركة تفاعُل تنشط يوماً بعد يوم، وتساعد عملية «الصيد بالشِباك» بغير حاجة إلى سلاح كثير أو دَمٍ غزير.

لكن قرار مصر في العصر الملكى بالاشتراك في حرب فلسطين أفسد على «دافيد بن جوريون» بعض حساباته.

ثم حَدَث سنة ١٩٥٢ أن النظام الملكى سقط في مصر، وكانت المفاجأة أن النظام الجديد الذى حَلَّ محله تَشَدَّد أكثر في تَمَسُّكه بهوية مصر العربية وألقى بكل ثقله في الشام بما خَلَق حالة تَوَحُّد عربى زادت قوتها حين جاءت الثورة الجزائرية بالمغرب إلى قلب المشرق، وأدى ذلك إلى انقلاب في الموازين داخل المنطقة وحولها، وذلك أفسح الطريق لحالة فَوَران شديد أطاحت بأوضاع تقليدية بدت من قبل ثابتة ومُستَقِرَّة. وفي نفس الوقت فإن هذه الحالة من الفَوَران الشديد سَبَّبَت هَزَّات عنيفة جَرَت في الشام ومن نتائجها أن الجسور التى حسبتها إسرائيل طُرُقاً مفتوحة للصيد بالشِباك راحت تتقطع. ومع أن الانفصال بين مصر وسوريا - سنة ١٩٦٢ - وتَعَثُّر مفاوضات الوحدة بين مصر وسوريا والعراق - سنة ١٩٦٣ - قد أثبتت لإسرائيل أن تحقيق الوحدة العربية صعب، فإنها في نفس الوقت أثبتت لها أن استمرار الانفصال مستحيل، وأن تيار الوحدة العربية غالب برغم ما يجرى في دمشق (بعد الانفصال)، وما يجرى في بغداد (بعد تَتابُع الانقلابات). وكان التَحَسُّب الإسرائيلى أن ذلك الفوران الشديد في الشام قد يساعد مصر على صياغة جديدة لحركة القومية العربية. وكانت سلسلة مؤتمرات القمة العربية التى انعقدت بالذات سنة ١٩٦٤ - مُؤشراً إلى احتمال أن تصبح تلك الصياغة مُمكنة إذا تَحَوَّلت هذه المؤتمرات إلى مفردات جديدة لها.

ولحسن حظ إسرائيل (سوء حظ العَرَب) فإن ما كانت تتحَسَّب له من مؤتمرات القمة العربية (رغم ضآلة احتمالاته) - لم يَتَحَقَّق. ولم تتمكن مؤتمرات القمة المتلاحقة من صُنْع مُفردات جديدة تصلح لإعادة صياغة حركة القومية العربية من معدن أكثر صلابة.

وسنة ١٩٦٦ كان النظام الذى قام بعد الانفصال في دمشق يتخبط - وكان النظام الذى قام على أنقاض العرش الهاشمى في العراق يَتَرَنَّح خصوصاً بعد أن قام بدوره المعروف في عرقلة عودة وحدة بين مصر وسوريا، أو إقامة نوع مختلف من الوحدة ينضم فيه العراق إلى سوريا ومصر (١٩٦٣) - وكانت المملكة الأردنية الهاشمية في أوضاع قلقة بتأثير تيار وطني قوى، ولم يُسقِط ذلك التيار الوطني في عَمَّان رغم ضربات مُوجعة وُجِّهَت إليه، لكنه اضطر إلى السكون مؤقتاً حتى عَبَّرَ عن نفسه لاحقاً في التجاء سلاح الطيران الأردني كله تقريباً إلى مصر رافضاً المشاركة في ضرب ثورة اليمن - ثم كان الأخطر من ذلك كله (والإشارات إليه واضحة في الملفات والأوراق الإسرائيلية) هو التفاعلات التى جرت في المملكة العربية السعودية نتيجة لثورة اليمن، وأبرزها في ذلك الوقت التجاء الملك «سعود» ملك السعودية السابق إلى مصر غضَباً من أخيه الذى رَتَّبَ لعزله عن العرش: الملك «فيصل».

ولم يكن التجاء الملك «سعود» إلى مصر أواخر سنة ١٩٦٦ حَدَثاً كبيراً في حَدِّ ذاته، لكنه كان إشارة إلى أن القاهرة ما زالت تستطيع برغم التَوَتُّرات الشديدة في العلاقات العربية أن تكون قوة جذبٍ لا تُقاوَم.

صانع القرار العربى .
من منظور الملفات الإسرائيلية .
«يقترب من قرار الحرب المسلحة مترددا،
وأحيانا مضطرا» ، والسبب أن صانع القرار
العربى ليس واثقا من أن لديه القدرة
العسكرية القادرة، أو الاحتياطى
الإستراتيجى الكافى،
أو المدد الدولى المضمون

وزاد على ذلك في ربيع سنة ١٩٦٧ أن الملك «سعود» كان بنفسه في اليمن يحاوِل مُساعَدة الثورة اليمنية على كسب تأييد قبائل مناطق الحدود الشمالية مُناوَأة لأخيه. ومع أنه كان يفعل ذلك بالطريقة التقليدية - أى توزيع أكياس الذهب - إلا أن رنين الذهب مُتفاعلاً مع نداءات الثورة كان يمكن أن يصنع مزَيجاً يُصعِّب حساب تفاعلاته في شبه الجزيرة العربية.

وكان أول المخاطر وأهمها أن إسرائيل سوف تجد نفسها - إذا وَصَلَت هذه التداعيات إلى نهاياتها المنطقية - مُضطرَّة إلى الصيد بالـ«هاربون» في الشام أيضاً كما هى مُضطرَّة له في حالة مصر، وذلك آخر ما كانت تريده.

في الشام ظَلَّ اعتقادها أن الجراحة ليست لازمة - والمخدِّر يكفى.

على عكس حالة مصر حيث الجراحة كانت في اعتقادها لازمة - والمخدِّر ليس ضرورياً.

وكان من شأن ذلك إذا تُرِكَ وفعله أن يفسد الإستراتيجية الإسرائيلية التى تريد - على المدى الطويل - أن تتعايش مع الشام، وأن تتسلل وتنفذ وتتحكم فيه بأقل قدر ممكن من التكاليف خصوصاً في الدَم، وأملاً في يوم تنطفئ فيه نيران الفتنة والكراهية والثأر داخل البيت الواحد أو داخل الحَىِّ الواحد (كذلك كانت الظنون).

ومن نتيجة ذلك وغيره فقد بدا على نحو عام أنه مع نهاية سنة ١٩٦٦ وبداية سنة ١٩٦٧ أصبحت إسرائيل على اقتناع بأن «الصيد بالرمح المقذوف» مُصَوَّباً إلى مصر قد حان موعده ووَجَب.

ومن المفارقات التى تثيرها قراءة الوثائق الإسرائيلية أن النظام السورى لحزب البعث في ذلك الوقت (وقبل الحركة التصحيحية لـ«حافظ الأسد») كان هو الذى يَملأ أجواء المنطقة بضرورات حروب التحرير، وحقوق العودة، وأهمية العَمَل «الثورى» و«الفورى» ضدُّ إسرائيل - في حين كانت مصر هى الطَرَف المطالب بالحرص والحذر (وقد اختار «جمال عبد الناصر» في تلك الظروف وأمام وفد فلسطينى يرأسه الأستاذ «أحمد الشقيرى» رئيس منظمة التحرير الفلسطينية - أن يقول للجميع صراحة في نوفمبر ١٩٦٦: «سوف أخدعكم إذا قلت لكم أن لدينا خطة لتحرير فلسطين. ذلك هَدَف مُؤَجَّل الآن، وما يهمنى الآن بالدرجة الأولى هو أن تكون الدول العربية قادرة على الدفاع عن نفسها، مالكة لحرية العمل في مشروعاتها (يقصد مياه الأردن) داخل حدودها. وأما ما هو أكثر فأنا لا أعد به الآن لأنه يحتاج إلى ما هو أكثر مما لدى الأمة من قوة وإرادة ووحدة عَمَل - لكنه حين «تؤذن الحقائق» فلن تكون الجمهورية العربية المتحدة في حاجة إلى من يُحَرِّضها، أو يُذَكِّرها»).

برغم ذلك ومع بداية سنة



مـــوعـــد

١٩٦٧ كان الشعور السائد في مؤسسة الأمن الإسرائيلية - وكما تظهر الوثائق الإسرائيلية - أن الوقت قد حان للتفكير في ضربة «رُمح مقذوف» Harpoon إلى مصر (وليس إلى غيرها) - مع الإصرار على أنه كلما كان الجرح أعمق - كلما كان ذلك أفضل !

وهكذا فإنه في بداية سنة ١٩٦٧ لم يَعُد السؤال المطروح على مستوى صنع القرار في إسرائيل هو سؤال بـ«هل ؟» - وإنما كان السؤال بـ«متى ؟» ثم بـ«كيف ؟»

أى أن عنصر التوقيت أصبح النقطة المركزية في القرار، ثم تُبدى أن سنة ١٩٦٧ هي ذلك الموعد مع «متى ؟» - وكانت الأسباب التي تطرحها الوثائق الإسرائيلية مُتَعَدِّدة :

١ - أن مشروع إسرائيل النووى بدأ تشغيله سراً، وقُدِّرَ إنتاجه من البلوتونيوم بما طاقته ٢٥ كيلوجراماً. وفي تقرير تلقاه رئيس وزراء إسرائيل في ديسمبر ١٩٦٦ من هيئة «رافائيل» المشرفة على برامج التسليح الإسرائيلي وَرَدَ بالنص «أن مشروعاً معيناً له أولوية خاصة سوف يُصبح قادراً على الأداء في ظرف شهور أقصاها نهاية ١٩٦٧».

وأشار تقرير آخر إلى أنه بالتوازى مع ذلك فقد «جرى حسم التَّرَدُّد في شأن وسائل «حَمل» و«توصيل» هذا السلاح إلى أهدافه - وقد جرى حَسمه لصالح الصاروخ (وضدُّ الطائرة)». وبالتحديد لصالح صاروخ مُعَيَّن جرى تطويره بالتعاون مع شركة «داسو» الفرنسية، وأطلق عليه اسم «جيريكو» (أى «أريحا»).

وعلى هامش تقرير «رافائيل» وَرَدَت ملاحظة تنبيه تقول «أن تركيب «المطلوب» لـ«الأداء» عند إتمام المهمَّة - نهاية ١٩٦٧ - يمكن أن يستغرق ستة أسابيع من صدور قرار سياسي بذلك !»

وعلى الناحية السياسية فقد كان هناك تقرير للـ«موساد» مفاده أن هذا «التطور» يَصعُب أن يظل سراً، ومن المُهِم والحال كذلك أن تَضَع الحكومة الإسرائيلية في حسبانها وتتذكر أن «ناصر» سبق له أن أبلغ الأمريكيين أن «مصر سوف تجد نفسها مُضطرة لشن حرب وقائية إذا تأكد لها أن إسرائيل على وشك أن تدخل مجال إنتاج الأسلحة النووية حتى لو بدت الحرب عملاً انتحارياً».

وللدقة فإن المؤسسة الأمنية الإسرائيلية (طبقاً للملفات) كانت واثقة من أنها تستطيع رَدَّ أى «ضربة وقائية» تُوجِّهها مصر استباقاً للخطر النووى، لكن حساب التكاليف جَعَلَ «رئاسة الأركان» توصى أن تأخذ إسرائيل في يدها زمام المبادأة وتضرب، وتختار هي التوقيت ولا تنتظر غيرها يفرضه عليها، وذلك لتَجنُّب الخسائر الزائدة لهجوم مصرى مُباغت يمكن رَدُّه وإحباطه - لكنه سوف يَستوفى ضرائبه قبل حرمانه من تحقيق مطلبه !

وبشكل ما فإن المؤسسة الأمنية الإسرائيلية دَخَلَت في سباق لكسب الوقت، فنصحت رئيس الوزراء «بخطوة سياسية لتحويل الأنظار تُغطيةً للنوايا إلى حين اتِّخاذ قرار»، وهنا (أواخر ١٩٦٦) وقف «ليفى أشكول» في الكنيست الإسرائيلي يقول ما نصه:

«إن رئيس مصر (يقصد «جمال عبد الناصر») يحاول إبعاد الشبهات التي تحيط ببرامج التسليح المصرية بإشارات مُكَرَّرة إلى أسلحة نووية إسرائيلية. وأريد أن أعلن أمام الكنيست أن هذه الأسلحة لا وجود لها في منطقة الشرق الأوسط، ونحن لا نريد أن نراها هنا. ولقد قلت من قبل، وأؤكد الآن، أن إسرائيل لا تملك سلاحاً نووياً، ثم إنها لن تكون البادئة بإدخال الأسلحة النووية إلى المنطقة !».

ثم تَقَدَّم «أشكول» من منبر الكنيست بمبادرة عامة عرض فيها نزع السلاح على الجانبين العربي والإسرائيلي، واقترح إنشاء «نظام للمراقبة تُقَرِّر فيه القوى الكبرى ما هو المسموح وغير المسموح به في المنطقة»، ثم أعلن عن «استعداد إسرائيل للمشاركة مع العَرَب في نظام للمراقبة قائم على تبادل المعلومات وتحديد الموازين المقبولة بين الطرفين !».

٢ - وبالتوازى مع ذلك فإن قيادة الأركان، ومعها المخابرات العسكرية والمدنية، أخذت تُلِح على أن ضربة إسرائيل الاستباقية لأى ضربة وقائية مصرية لا بد أن تَحدُث «الآن» (نهايات ١٩٦٦ وبدايات ١٩٦٧) وأثناء وجود الجيش المصرى (الجيش المصرى «الثالث» كما تُسَمِّيه الوثائق الإسرائيلية) في اليمن، لأن الجيش المصرى في هذا الوضع انقسم نصفين، بين أحدهما والآخر أكثر من ألفى كيلومتر - علاوة على أن طول مدة عمل الجيش المصرى في اليمن طالت (ما بين ١٩٦٢ إلى سنة ١٩٦٧) قرابة خمس سنوات، وقد أحدثت التجربة اليمنية في الجيش المصرى ما أحدثته التجربة الفيتنامية في الجيش الأمريكي. وكان الجنرال «موشى ديان» الذى تابَعَ الحرب في جنوب شرق آسيا (وزار ميادينها فيما بعد) قد أدرَكَ أنه (في فيتنام) أمام تجربة قتال يمكن أن تُقاس عليها أحوال الجيش المصرى في اليمن، مع الفارق الكبير في الحجم وفي الإمكانيات المادية والعلمية والتكنولوجية بين الجيش الأمريكي بمَوارده الهائلة وجيش بَلَد عربي يعتمد على السلاح السوفيتي.

٣ - يَتَّصِل بذلك أن هذه الضربة الاستباقية لمصر قبل احتمال ضربة وقائية منها - سوف تكون حرباً مع مصر وحدها على نحو شبه مؤكد، فذلك ما تقول به أوضاع المنطقة وأحوالها.

وكان ما تخشاه إسرائيل وتَتَحَسَّب له وتريد أن تسبقه «هو أن «ناصر» قد يجد لنفسه مَخرَجاً من حرب اليمن ينهى تَوَرُّط الجيش المصرى هناك ويُقلِّل من العبء المعنوى والنفسي الذى يتحمله هذا الجيش».

ووفقاً للتقديرات الإسرائيلية فإن الخيارات المفتوحة أمام «ناصر» كانت ثلاثة :

- أن يستطيع «ناصر» «بطريقة ما» تحقيق انتصار حاسم يحشد له أكبر قدر من القوة، وينهى «ورطة اليمن»، ويُعلى من هَيبَته.

- أن يصل «ناصر» إلى اتفاق مع الملك «فيصل»، وذلك احتمال يُزَكِّيه أن الملك يشعر بضغوط رأى عام تطالبه برفع يده عن اليمن، ثم إن أحوال الملكيين الذين يناصرهم الآن (وهو يَكرَهُهم من الأصل) غير مُرضِيَة، بدليل أنهم يعتمدون الآن بالكامل على مُرتَزِقَة من الأجانب (إنجليز - فرنسيين - ألمان - أسبان) والملك هو الذى يدفع أجورهم ويتكلف بسلاحهم وإمدادهم. بينما الإمام «البدر» في معركة مع عَمِّه الأمير «الحسن»، كلاهما يَدَّعى لنفسه أحقية في إرث أسرة «حميد الدين»، أولهما بحقه عن والده (الإمام «أحمد»)، والثاني بأحقية بدئه بمقاومة الثورة.

- والخيار الثالث أن يُصاب «جمال عبد الناصر» بيأس كامل من أعباء النظام الثورى في اليمن، ويُقَرِّر الانسحاب تاركاً هذا النظام لمصائره بعد أن يُزَوِّده بما يكفيه للصمود «فترة تُفصل ما بين الانسحاب المصرى المطلوب والسقوط المحَتَّم للنظام الثورى اليَمَنى، ويكون هذا الفاصل الزَمَنى ذريعة لإنقاذ ماء الوجه لا أكثر ولا أقل». - ومعنى ذلك أن السعودية بمواردها (النفطية والمالية) لن تكون مع مصر إذا حاربتها إسرائيل الآن، لكنه إذا تَغَيَّرَت الأحوال فقد تختلف الاحتمالات !

وبعيداً عن اليَمَن فقد بدا في نفس الوقت أن صانع القرار الإسرائيلي مُقتَنِع بأن القيادة الحاكمة في سوريا لن تحارب، لأسباب أولها أنها ليست قادرة على الحرب، ثم إن لبنان له وضعٌ خاص، والأردن ظرف مختلف. وأما البلاد العربية في النطاق الثانى وراء الدُوَل العربية المجاورة مباشرة لإسرائيل فحُجَّتها قائمة على أنها لا تستطيع الوصول إلى إسرائيل على فرض أنها كانت تملك وسائل جاهزة تسمح لها بالعمل المباشر ضدَّ إسرائيل. ومن المحزن أن سفارة إسرائيل في لندن كتبت (يناير ١٩٦٧) تقول «إن دُوَلاً عربية معنية «لن تُصاب بانهيار عَصَبى إذا استطاع جيش الدفاع (الإسرائيلي) توجيه هزيمة ساحقة لناصر» ! - وتُكَرِّر الأوراق والملفات الإسرائيلية استشهادها بعبارة مأثورة عن الملك «فيصل» مَلِك السعودية قال فيها إنه «سوف يجعل من اليمن مَقبَرة للجيش المصرى».

٤ - إن الموقف الدولى - في تلك الظروف - بدا لصانع القرار الإسرائيلي مُلائماً، وأول أسباب الملاءمة أن حكومة حزب العُمَّال البريطانية أعلنت عن سياسة أطلقت عليها سياسة «شرق السويس»، وبمقتضاها فإن القوات البريطانية سوف تنسحب من الخليج كما انسحبت من مناطق أخرى في العالم لأن لندن لم تَعُد تَتَحَمَّل أعباء الإمبراطورية.

ولأن الانسحاب الإمبراطورى البريطانى من قواعد الخليج، خصوصاً قواعد الشارقة والبحرين وعُمان - سوف يُحدث بالتأكيد فراغاً في القوة تراه الولايات المتَحدة مُهَدِّداً لموارد البترول وطُرُق مواصلاته - فإن الولايات المتحدة سوف تبدأ في طرق أبواب المنطقة طالبةً دخولها لملء الفراغ من ناحية، والحفاظ من ناحية أخرى على مصالح حيوية للغرب عموماً وللولايات المتحدة خصوصاً. والمشكلة أن هناك نداءً عربياً مسموعاً وعالياً يُطارد خروجاً بريطانياً من الخليج، ويُعَرقِل دخولاً أمريكياً في أعقابه، وهذا النداء صادر من القاهرة، وبالتالى فإن الخطوة المنطقية الأخيرة للإمبراطورية البريطانية قبل الخروج هي صَدُّ هذا النداء عن أسماع أهل المنطقة (وربما تسوية حسابات السويس وإغلاق دفاترها) - كما أن الخطوة المنطقية الأولى للإمبراطورية الأمريكية قبل الدخول هي «كتم» هذا النداء تماماً وخنق حنجرته إذا أمكن. وكانت الولايات المتحدة قريبة من الاقتناع بأن التعامل مع القاهرة باللين مَضيَعة للوقت. وكان منطقياً بالنسبة للاثنتين (بريطانيا والولايات المتحدة) أنه إذا ظهر طرف ثالث، ومن قلب المنطقة، قادر

لعرقلة إمكانية قيام دولة عربية في فلسطين (وفق قرار التقسيم) فقد وافق «بن جوريون» دون تردد طويل على قيام الملك «عبد الله» ملك الأردن في ذلك الوقت - ١٩٤٨ - بضم غرب فلسطين (الضفة الغربية) إلى مملكته. وقد وجد «بن جوريون» بعد تفكير أن ذلك «أسلم» لإسرائيل من قيام دولة فلسطينية تتناحر فيها القوى والأحزاب والعائلات



مع الحـــــــــرب

على الفعل فقد يكون مناسباً أن تُترَك له الفرصة ليقوم بنزع إبَر النحل ويترك لهم العَسَل بعد أن يقتطع لنفسه قسطاً منه، وذلك هو العدل بعينه.

وقد وَرَدَ تعبير «إبَر النحل وعَسَله» على لسان الوزير «المخضرم» أيامها «إسرائيل جاليلى» فى مناقشة لمجلس الوزراء المصَغَّر جرت (مارس ١٩٦٧) فى بيت «ليفى أشكول»، وسَجَّلَتهُ صاحبة البيت «مريم أشكول»، رواية شاهد أصلى.

والترتيب الزَّمَنى المعقول على هذا الأساس أن نزع «إبَر النحل» (لاستباحة عسله) يجب أن يتم قبل الموعد المقرر لسياسة «شرق السويس» والتى يتحقق بمقتضاها إكمال الانسحاب الإمبراطورى البريطانى من الخليج قبل سنة ١٩٦٨.

٥ ـ وكان هناك بالزيادة على ذلك كله سببٌ أخير يَرُدُّ على السؤال: «متى ؟» بجواب: «١٩٦٧». وملخص هذا السبب أن برنامج التسليح المصرى غير التقليدى يُكثف جهوده فى مجال الصواريخ. وقد بدا للمخابرات الإسرائيلية أن «مصر» عرفت بأن السبق الإسرائيلى فى المجال النووى زادت وتيرته، واتسعت المسافة بينه وبين المشروع الإسرائيلى فى معظم التقديرات (الظاهرة فى الملفات) بما يُقدَّر بخمس أو ست سنوات لصالح إسرائيل، وترتيباً على ذلك فإن «مصر» (كما رَصَدَت أجهزة الأمن الإسرائيلية) قررت «سَدَّ الفجوة بتكثيف إنتاج الأسلحة الكيماوية والجرثومية لكى تكون رادعاً ضِدَّ الخطر النووى» ـ على أن كفاءة سَد الفجوة كانت لا تزال مُتوقفة على قُدرة مشروع الصواريخ المصرى على حَلِّ مشكلته الأساسية وهى مشكلة دِقَّة جهاز التوجيه.

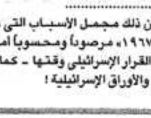
ثم كان أن علمَت المخابرات الإسرائيلية أنه «بعد أن جرى تخويف عدد من العُلماء الألمان (ودفعهم إلى السفر أو إلى الهرب من مصر، وعلى رأسهم الدكتور «وولفجانج بيلز» الذى قصد إلى الصين ووَضَع خبرته تحت تصرفها) ـ أن القاهرة بدأت فى بحث مُعضلة أجهزة التوجيه مع الاتحاد السوفيتى، وبالتحديد مع عناصر فى وزارة الدفاع السوفيتية يشجعها الماريشال «أندريه جريتشكو» وزير الدفاع، والأميرال «جورشيكوف» قائد الأساطيل السوفيتية، وكلاهما كان شديد الاهتمام والحرص على البحر الأبيض وما حوله، وموازين التواجد العسكرى والبحرى من البحر الأحمر إلى القرن الأفريقى إلى المحيط الهندى.

وكان التَّخَوُّف الإسرائيلى من «أن الماريشال والأميرال ـ كليهما أو أحدهما ـ قد يمارس ضغطاً أو يقوم على مسئوليته بمبادرة تؤدى فى أى لحظة إلى حل مُعضلة جهاز التوجيه فى الصواريخ المصرية، ومن ثم تكتسب إستراتيجية الردع المصرية مصداقية فى اعتمادها على الأسلحة الكيماوية والجرثومية كمُوازِن ومُعادل ـ ولو مُؤقت ـ للقنبلة الذرية الإسرائيلية.»

....

....

كان ذلك مجمل الأسباب التى وَضَعَت رقم «١٩٦٧» مرصوداً ومحسوباً أمام عيون صُنَّاع القرار الإسرائيلى وقتها ـ كما تقول به الملفات والأوراق الإسرائيلية !



٣ مـــــلابســـــات

■ ■ إلى جانب الأسباب التى أعطت لموعد سنة ١٩٦٧ أهمية خاصة، تُواجدت مُلابسات دَفَعَت هى الأخرى ـ وكما يتضح من الملفات والأوراق ـ فى اتجاه نفس التوقيت بحيث أصبح هذا الموعد نقطة لقاء لاتجاهات كثيرة تتطلع كلها نحوه بأسبابها ودواعيها :

□ أولى الملابسات ومن أكثرها تأثيراً على مسار الحوادث أن الخلافات استحكمت فى إسرائيل بين القيادة السياسية التى يمثلها رئيس الوزراء «ليفى أشكول»، وبين القيادة العسكرية التى تَتلمَذت فترة إنشاء الدولة على سلَفه فى رئاسة الوزارة «دافيد بن جوريون»، وتلك علاقة رَبَطت كثيرين منهم بأستاذهم فراحوا يأتمرون بأمره رغم ابتعاده عن السلطة، وكان الجنرال «موشى ديان» هو الأول على كافة الفصول فى هذه المدرسة، والآن أصبح هو المُحَرِّك من وراء ستار فى الضغط على رئيس الوزراء الجديد، وتطويقه بمطالب للمؤسسة العسكرية وَصَلت به مرات إلى درجة الغضب ودَفَعَتهُ فى إحداها إلى أن يطلب من زوجته «مريم» أن تُسَجِّل نقلاً عنه فى مذكراتها رسالة اعتبرها نوعاً من الوصية. وقد سَجَّلت «مريم» فى مذكراتها بالفعل عن زوجها قوله : «مريم.. سجلى أننى أول رئيس لوزراء إسرائيل أجىء إلى هذا المنصب من خارج الجيش وبعيداً عن نفوذه المباشر، وفوق ذلك فإننى أول رئيس وزراء لا يقبل أن يكون لعبة فى يَدِ العسكريين». ليلتها كان «أشكول» قد عاد من مكتبه مُرهقاً وفى مزاجٍ دَفَعَه إلى أن يُفضى لزوجته بهمومه [وكانت «مريم أشكول» هى الزوجة الثانية لرئيس الوزراء، وكانت سكرتيرة لمكتبة الكنيست حين تَعَرَّف «أشكول» عليها وأحَبَّها وتَزَوَّجها (رغم فارقٍ فى السن يجعل عمره ضعف عمرها)]. وبالفعل سَجَّلت «مريم»، ودخلت شهادتها المسَجَّلة فى وثائق الدولة اليهودية وملفاتها وأوراقها.

لكن الخلاف بين «أشكول» وبين المؤسسة العسكرية زادَت أثقاله عندما راح الكبار من أعوانه العسكريين يختلفون أيضاً فيما بينهم حول طلباتهم من السلاح، وكذلك تقاتل الجنرالات «إسحاق رابين» (رئيس الوزراء)، و«إيزر وايزمان» (قائد الطيران)، و«حاييم بارليف» (مدير العمليات)، و«أهارون ياريف» (مدير المخابرات العسكرية)، و«إسرائيل تال» (قائد القوات المدَرَّعة). ثم بدأت الأمور تأخذ منحى خطيراً حين اتفقوا جميعاً ـ ورغم خلافاتهم ـ على طلب واحد قَدَّموه إليه وهو «نقل «مشروع مُعَيَّن» (صنع القنبلة الذرية) من رئاسة الوزارة إلى اختصاص جيش الدفاع». وعندما حاول رئيس الوزراء تذكيرهم بأنه هو نفسه وزير الدفاع، وأن المبدأ المتَّفق عليه من الأصل هو أن يُوضَع «المشروع المعَيَّن» تحت اختصاص رئيس الوزراء، فإن الجنرالات تمسكوا برأيهم، وحُجَّتهم أن هناك فارقاً بين وضع مشروع فى مرحلة الإنشاء تحت إشراف رئاسة الوزارة لزيادة دعمه وإضفاء أكبر قدر من قوة الدفع السياسى وراءه ومن حوله ـ وبين أن يَظَلَّ هذا الإشراف وضعاً نهائياً ودائماً، لأنه وقد قارَب المشروع درجة مُحَدَّدة (أى قارَب الاكتمال) ـ فإن «هذا السلاح» لابد له أن يأخذ مكانه مع غيره من الأسلحة. هذا مع التسليم بضرورة إبقاء استعماله مُقَيَّداً مَرهوناً بقرار سياسى. وكان رَدُّ «أشكول» أن «كل سلاح مُقَيَّد بقرار عسكرى وليس فقط ذلك السلاح «المعَيَّن» ـ وبالتالى فهو لا يرى الآن داعياً للتغيير».

وأصرَّت المؤسسة العسكرية.

ولم يكن «أشكول» مُستعِداً لحلٍ وسط.

....

....

[وربما بدا لـ«أشكول» وموعد سنة ١٩٦٧ يطرح نفسه على الجميع ـ أن الحل الوسط النموذجى يكمُن فى توجيه ضربة إلى مصدر التهديد الرئيسى لإسرائيل، وحينئذ تنتهى الحاجة إلى تنازع اختصاصات الإشراف على القنبلة الذرية ـ فى الوقت الراهن على الأقل !]

....

....

□ وكان البند الثانى فى الملابسات ـ المُلحَّة على موعد سنة ١٩٦٧ ـ أن التعامل الإسرائيلى مع فرنسا أصبح مُثيراً للانزعاج يوماً بعد يوم.

والسبب أن الجنرال «شارل ديجول» رئيس فرنسا لم يَعُد يخفى ضيقه بالسياستين الأمريكية والبريطانية، فالدخول الأمريكى فى جنوب شرق آسيا إلى الحَدِّ الذى جرى فى فيتنام كان يثير لديه شكوكاً تضاف إلى هواجسه السابقة ـ والمستمرة ـ فى أن الولايات المتحدة ورثت بالفعل إمبراطورية فرنسا، ثم إن فرنسا لم تَعُد قادرة بسبب عراقيل ـ أمريكية ـ على أداء ما يُسَمِّيه الجنرال «رسالتها الحضارية» إزاء الشعوب التى ارتبطت بها سابقاً (فى شمال أفريقيا ـ وسوريا ولبنان ـ بالإضافة إلى جنوب شرق آسيا وفى قلبه فيتنام ولاوس وكمبوديا).

وفيما يتعلق بالشرق الأوسط فقد تَبَدَّى للجنرال «ديجول» أنه «إقليمٌ» آخر يهم فرنسا، لكنه يَرى الآن عملية توريثه ـ بسياسة شرق السويس ـ من الإمبراطورية البريطانية إلى الإمبراطورية الأمريكية ـ بينما باريس لا رأى لها ولا مشورة تُطلَب منها.

وزيادة على ذلك فإن «ديجول» المهتم بمشروع أوروبا المُوَحَّدة ـ متمثلة فى مشروع السوق الأوروبية ـ لم يَعُد يعتبر أن بريطانيا ما زالت جزءاً من أوروبا، بل إنها هى قبل غيرها لم تَعُد تعتبر نفسها كذلك، فقد تَصَرَّفت طول سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية وكأنها مُرتكَزٌ على هذه الناحية من المحيط لأمريكا الشمالية (للولايات المتحدة).

والهاجس الذى بدأ يُؤرق ممثلى إسرائيل فى باريس «أن قصر الإليزيه (مَقَر الرئيس الفرنسى) بدأ يُوَجِّه أسئلة لوزارة الدفاع لم تكن تُسمَع من قبل، ويطلب إجابات بطريقة غير مُعتادة (حتى من شركات صُنع سلاح مثل شركة «طومسون» وشركة «داسو»)». وبدا من تصرفات قصر الرئاسة «أن الجنرال «ديجول» تساوره شكوك

للدقة فإن المؤسسة الأمنية الإسرائيلية (طبقاً للملفات) كانت واثقة من أنها تستطيع رد أى «ضربة وقائية» توجهها مصر استباقاً للخطر النووى، لكن حساب التكاليف جعل «رئاسة الأركان» توصى أن تأخذ إسرائيل فى يدها زمام المبادأة وتضرب، وتختار هى التوقيت



فى أن إسـرائيل تتصـرف داخل «المؤسسـة الفرنسيـة» مُعتمدة على مسالك تعرفها وعلى مـواقع مـواليـة لها حـتى فى جـمـهـوريتـه الخامسـة».

وكـانت إسـرائيل (وهو واضح فى الأوراق والملفات) تشـعر أن «ديجول» يتصرف بتقدير أنها (إسرائيل) ملـحـق بالتحالف البريطانى (الخـارج) من شـرق السـويس والأمـريكى (الداخل) إليــه، وقـد بَـدَرَت عن الجـنرال إشارات يمكن تفسيـرها بوجـود نزعـة لديه تُغريه بأن يتخـذ لفرنسـا سياسة مستقلة فى المشـرق العـربى. وعندمـا وَجَّـه الجنرال «ديجول» دعـوة خاصة إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» لزيارة باريس (قام بها المشير «عبد الحكيم عامر» نيابة عنه) ـ فإن تقديرات وزارة الخارجيـة الإسرائيلية تَوَصَّلت إلى أنه «يصعـب على فرنسـا أن تضـع نفسها خارج التحالف الغربى الأمريكى الأوروبى مهما كانت حساسيات الجنرال «ديجول»، وأن قصارى ما يمكن أن يصـل إليـه الرئيس الفـرنسـى فى الواقع الإستراتيجى الأطلسـى هو «أن يُعَبِّر بحُرِّيـة الخطابة عـمـا لا يقدر عليه بحُرِّيَّة الفعـل»».

لكن صانع القـرار، خصوصاً إذا كان قـرار الحـرب والسلام ـ كان عليه أن يضـع إشارات الجنرال «ديجول» بمقتضى ما يلمحه منها، وذلك كـان يجـعل تل أبيب بادية التَّوَجُّس مما تُسَمِّيـه الوثائق الإسـرائيلية «خطـر إغلاق الأبـواب ـ أو حـتى مواربتها ـ على ضِفَّتَى نهـر السين»!

□ وكـان البند الثـالث ضمن الملابسات ـ المُلِحَّـة على موعد سنة ١٩٦٧ ـ أن إسـرائيل أحَسَّـت ومنذ منتصف سنة ١٩٦٥ أن هناك مناقشـات جادة تدور فى الكرملين حـول السياسة السوفيتية فى العالم العربى، وكان بين مُسوغـات الانقلاب على الزعيم السوفيتى «نيكيتـا خـروشـوف» فى أكتـوبر ١٩٦٤ ـ إسرافه الزائد فيما قَدَّمَه للعـرب، وقد اتُّهِمَ بأنه ربط الاتحاد السوفيتى ببرامج مساعدات اقتصادية وعسكرية ضخمة لمصر والجزائر وسوريا والعراق واليمـن، ثم وَصَلَ إلى دَرَجَة الهـرطقـة بأن أهدى وسـام «بطل الاتحـاد السـوفـيتى» فى سنة واحـدة لثلاثة من الساسـة العـرب («بن بيلا» و«جمال عبد الناصر» و«عبد الحكيم عامـر») دون استحقاق عقائدى يبرره، بل على العكس فإن الثلاثة كـانوا من «القوميين» المُتَعَصِّبين فى مُعاداة الشيوعية.

....

....

وكان ذلك الـرأى رائجاً فى موسكو بـالفعل تلك الأيـام. وأتذكـر مـرة فى الكرملين وأثناء حـوار مع وزيـر الخارجية السوفيتى «أندريه جروميكو» أنه قـال لى دون لَفٍّ أو دَوَرَان :

[«هل تعـرف مـاذا يقولـون لنـا ؟

يقـولون إن غـرامكم الأول هو أمـريكـا، وعندما لم تبادلكم أمريكا الغـرام واختـارت غيركم فقد كنا نحن (السوفييت) «زواج» المصلحة الذى فرضته عليكم الظروف.

يقولون لنا إنكم تعتبرون أن «أمريكا» هى «الخيار المطلوب أولاً باعتبار الرغبة»، وأما نحن فإننا «الخيار الباقى باعتبار الضرورة»!

ماذا تقول فى هذا الذى نسمعه منهم ؟!]

....

....

والوثائق الإسرائيلية فصيحة فى الإبانة عن حجم ما كان مُتَوَفِّراً لإسرائيل من مصادر المعلومات فى موسكو رغم أن سفارتها هناك كانت تحت المراقبة (حتى أغلقت فى ظروف حــرب سنة ١٩٦٧)، لكنه من الواضح أن إسرائيل كانت تُتابع بكفاءة ما يجرى فى الحزب وفى الحكومة وإلى حَدٍّ ما فى الـ«كى. جى. بى»، وربما أن الموقع الذى ظَلَّ عَصِيّاً عليها ـ إلى وقتٍ مُتأخِّر ـ هو وزارة الدفاع ومؤسساتها.

وطوال سنة ١٩٦٥ و١٩٦٦ تبدو الوثائق الإسرائيلية وتركيزها على السياسة السوفيتية دءوب. وفى تلك الفترة ـ وكما يبدو من الأوراق والملفات ـ فإن المخابرات الإسرائيلية كانت مأخوذة بمتابعة ما رأته خلافاً بين مدرستين فى القيادة السوفيتية الحاكمة :

● مدرسة يقودها «ليونيد بريجنيف» رئيس الحزب، وهى بتأثير المؤسسة العسكرية التى يقودها «جريتشكو» ترى أن السياسة السوفيتية فى العالم العربى تُبَرِّر تكاليفها وزيادة بما تحققه من مزايا إستراتيجية واقتصادية وعسكرية ومعنوية، وهذه المزايا لا تقتصر على الشرق الأوسط وحده، لكنها منه واصلة إلى أفريقيا وإلى شبه القارة الهندية.

● ومدرسة يقودها «أليكسى كوسيجين» رئيس الوزراء (وهو فى الأصل مهندس) ترى أن السياسة السوفيتية فى الشرق الأوسط زادت تكاليفها عن كل حساب، خصوصاً أن دُوَلاً كثيرة فى «المجموعة الاشتراكية» ـ حتى فى أوروبا ـ أخذت تشكو من أن تُعامِل موسكو مع «الأبعد» أكثر كرماً منه مع «الأقرب».

وفى دورة اللجنة المركزية فى سبتمبر ١٩٦٦ وَقَفَ «كوسيجين» يطالب بضرورة إعادة تقييم السياسة السوفيتية فى العالم العربى على أساس من الأرقام وليس على أساس من الأوصاف المطاطة التى تقبل التفسيرات الواسعة للحزب أو للجيش!

وكانت إسرائيل تَحسب أن المدرسة التى يمثلها «بريجنيف» سوف يرجح رأيها، وأن احتدام النقاش حول «دراسة الجدوى» و«حساب التكاليف» قد يفتح «نافذة فرصة» تطلق يدها لعَمَل فى الشرق الأوسط ـ لأن هذه النافذة قد تُغلَق فى زَمَنٍ قريب، ومن ثم يكون هناك إجماع داخل القيادة السوفيتية على خطٍّ مُوَحَّد وقد يكون مُؤيداً دون تردد للعرب.

□ وكان البند الرابع ضمن الملابسات ـ فى الإلحاح على موعد سنة ١٩٦٧ ـ أن الفترة ما بين سنة ١٩٦٤ إلى سنة ١٩٦٦ شهدت تَوَقُّفاً ثم تراجعاً فى مسيرة حركة التحرر الوطنى التى كانت مصر تقوم فيها بدور رئيسى وتعتبرها واحدا من مصادر طاقاتها الحيوية فى حركتها الدولية ـ فقد توفى «جواهر لال نهرو» وانفسح المجال لخصمه العنيد «مورارجى ديساى». وكان قنصل إسرائيل فى بومباى بالغ النشاط وزائراً لبيت «مورارجى» ومكتبه مرة ومرتين كل شهر.

(وراح هذا القنصل الإسرائيلى يُسَجِّل فى كل واحد من تقاريره إعجاب «مورارجى» بالتجربة الإسرائيلية).

وفى نفس الفترة كان «أحمد سوكارنو» مضيف مؤتمر «باندونج» الشهير يواجه شبه حصار يفرضه عليه الجيش الإندونيسى، بينما قنصلية إسرائيل فى «هونج كونج» تراقب وتتابع عن قرب ما يجرى فى إندونيسيا.

(وكانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية قريبة، تدير وتُوَجِّه من هونج كونج).

وكانت رياح التغيير فى أفريقيا قد عكست اتجاهها، فإذا القيادات التى قادت معركة الاستقلال الوطنى، وأولهم «باتريس لومومبا» فى الكونجو، و«قوامى أنكروما» فى غانا، و«أحمد سيكوتورى» فى غينيا، و«موديبو كيتا» فى مالى ـ يختفون من الساحة بالاغتيال والانقلاب، أو بالشحوب والغياب، ثم إن المخابرات الإسرائيلية كانت موجودة فى كل هذه العمليات : ظاهرة فى ظروف اغتيال «لومومبا» وظروف الانقلاب على «أنكروما» ـ ومن وراء الستار فى الظروف الضاغطة على «سيكوتورى» و«كيتا».

والوثائق الإسرائيلية ـ على الأقل ما وصل إلىَّ منها ـ لا تتحدث عن مشاركة إسرائيل مباشرة فى هذه العمليات الأفريقية (فيما عدا عملية اغتيال «لومومبا»)، لكن السعادة التى تعكسها الأوراق والملفات توحى بأن إسرائيل فى هذه «الأفراح» لم تكن مجرد مدعو فيها وإنما هى ضمن أصحاب الفرح!

وفى إشارة لـ«باتريس لومومبا» تشير فقرة فى مذكرة عن السياسة الإسرائيلية فى أفريقيا إلى أن «لومومبا كان يَعتَبِر «ناصر» أستاذه ومُلهِمه». ثم تقول عن «أنكروما» إنه «الرجل الذى كان صديقاً لنا ثم أقنعه «ناصر» بتغيير رأيه عندما قدم له إسرائيل بوصفها مشروعاً استيطانيا عنصرياً من نوع مشروع «الأفريكانس البيض فى جنوب أفريقيا».

وهكذا فإن دائرة من الدوائر الهامة التى تحيط بمصر بدت مع نهاية سنة ١٩٦٦ مليئة بالثغرات ومكشوفة، لكن السؤال المطروح هو : هل يترسخ هذا الوضع أو تنجح السياسة المصرية على نحوٍ ما فى تغطية مواضع الانكشاف؟!

□ وكان البند الأخير فى الملابسات ـ المُلِحَّة على موعد سنة ١٩٦٧ ـ هو ظهور حركة المقاومة الفلسطينية «فتح».

ولا يَظهَر فى الوثائق سنة ١٩٦٦ أن العمليات الصغيرة والمحدودة التى قامت بها المقاومة الفلسطينية سواء من الأردن أو من سوريا سَبَّبَت قلقاً زائداً لإسرائيل، لكن بعض الإشارات بدت مُتَحَسِّبة من تأثير هذه العمليات على منظمة التحرير الفلسطينية [التى أنشأها مؤتمر القمة العربى الأول (١٩٦٤)]، والخوف من أن العَمَل الفدائى قد يؤدى إلى «تثويرها» ـ وإلى جانب ذلك كان هناك التأثير المحتمل لهذه العمليات على المواطنين العرب الذين يعيشون داخل حدود دولة إسرائيل، وأخيراً ـ وهو الأهم فيما يبدو من كل الإشارات فى الوثائق ـ فإن عمليات المقاومة الفلسطينية راحت تُؤثر على العلاقات بين إسرائيل وبين الملك «حسين» ومملكته الأردنية الهاشمية.

وقد جاءت الغارة التى قام بها الجيش الإسرائيلى على قرية «السموع» الأردنية (جنوب الخليل) انتقاما من عملية فدائية محدودة لكى تكشف صعوبة المأزق الذى يَعتَرِض علاقات إسرائيل مع الملك «حسين».

وفى حالة الغارة على «السموع» (١٣ نوفمبر ١٩٦٦) فإن رئيس الوزراء «ليفى اشكول» وافق على قيام القوات الإسرائيلية

عندما وجه الجنرال «ديجول» دعوة خاصة إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» لزيارة باريس فإن تقديرات وزارة الخارجية الإسرائيلية توصلت إلى أنه «يصعب على فرنسا أن تضع نفسها خارج التحالف الغربى، وأن قصارى ما يمكن أن يصل إليه الرئيس الفرنسى هو «أن يعبر بحرية الخطابة عما لا يقدر عليه بحرية الفعل»



مع الحـــــــرب

الخاصة بـرَدٍّ محدود، لكن الملفات الإسرائيلية تظهره شديد الغضب مُستَفَزاً عندما عَرَف بحجم العملية التي قامت بها قوات «جيش الدفاع» ضدّ الأردن انتقاما للعملية، بل إن إحدى المذكرات تصف مشاعر «اشكول» في قوله قاصداً جنرالاته : «إنهم خانوني وقصدوا إحراجي وإفساد سياساتي وعلاقتي مع الملك حسين» !

ويبدو مَلِك الأردن نفسه مُتّفقاً في التقدير مع رئيس وزراء إسرائيل، ويسجل الملك «حسين» بصوته أمام الدكتور «آفي شلايم» أثناء لقاء بينهما في لندن فيقول بالنص :

«إن الغارة على السموع كان لها تأثير مُدَوٍّ في الأردن، والحقيقة أنني لم أستطع فهم التصرف الإسرائيلي في هذا الموضوع. وعلى فرض أنه كان هناك عمل معين قام به «أحدهم» أو «جماعة منهم» (يقصد المقاومة الفلسطينية) انطلاقا من الأراضي الأردنية - فقد كان من الواضح للجميع أن ذلك لا يمكن أن يحدث بموافقة أو برعاية أو بتأييد منا بأي شكل من الأشكال. وبحسب تفكيري فإنني لا أستطيع أن أفهم كيف أن ضرراً بسيطاً يلحق بقناة رَيّ أو بأنبوب ماء - على فرض أن ذلك حَدَث - يُبَرِّر أن تتصرفوا على هذا النحو معنا ؟ - وهل كان هناك أي قدر من التوازن بين العمل وبين الرَّدّ عليه ؟ - لماذا لم تفكر إسرائيل في الرد بطريقة أخرى ؟ ولماذا لم تُنسِّق معنا ؟ - لقد كان تصرفكم صدمة لي، خصوصاً وقد جاءت في يوم عيد ميلادي، ولم يكن في مقدوري أن أعتبرها هدية مُناسبة!».

ويظهر في الملفات والأوراق الإسرائيلية أن رئيس أركان الحرب الجنرال «إسحاق رابين» انزعج من الغضب الذي ظهر من رئيس الوزراء أثناء مناقشة دارت في لجنة الأمن والدفاع. وفي محاولته للتنصّل من المسئولية - فإن رئيس الأركان ألقى اللوم في اتساع نطاق عملية «السموع» على الضابط المسئول عن تنفيذها. وقال «رابين» في نفس الاجتماع: «إن تعليماتي كانت مُشدَّدة للوحدات التي قامت بالعملية أن تتجنب إصابة ضباط الجيش الأردني». لكن القائد الميداني ترك نفسه ينقاد لعواطفه وفتح نيرانه بحيث أصاب وقتل أكثر من عشرين ضابطاً وجندياً في الجيش الأردني غير آخرين من سكان قرية «السموع». ثم أمَرَ قواته قبل انسحابها من القرية بتدمير أكثر من خمسين بيتاً !

وهكذا فإن التداعيات التي نشأت عن عمليات «فتح» حرّكت عقارب الساعة خطاً أو خطين في اتجاه موعد بدأ يعرض نفسه، ثم يطرح نفسه، ثم يَفرِض نفسه على مسار الحوادث في الشرق الأوسط.

ويلفت النظر أن سجلات مجلس الوزراء الإسرائيلي عن شهر فبراير ١٩٦٧ تبين أن «ليفي أشكول» قام بزيارة مفاعل «ديمونة» لأول مرة، واستمع مُطوَّلاً إلى تقرير من مدير مشروع «رافائيل» وإلى شرح تفصيلي لإمكانيات «السلاح المعَين» الذي تُحَقِّق لإسرائيل. وكان انطباعه الأول، وكما سجله الدكتور «نيمان»، هو صوت صَدَرَ عنه بما يعني انبهاره بما رأى وسمع، قائلاً : «ياه»، ثم كان أول تعليق مفهوم له بعد ذلك : «لقد حققنا حلماً باهراً». ثم واصل كلامه قائلاً : «مع أن «بن جوريون» هو صاحب الفكرة في إقامة هذا المشروع - فإن المقادير شاءت أن أكون أول رئيس وزراء لإسرائيل يدير صراعاً يدخل السلاح النووي عنصراً في خططه!». ■



٤ ألـــــــوان

■■ كانت إسرائيل مُطلَقة اليد في اختيار توقيتها، ولم تكن في حاجة (طبق النظرية المعروفة للجنرال «ديان» - تلك التي كتبها في مذكرة إلى رئيس الوزراء «دافيد بن جوريون» سنة ١٩٥٥ - إلى اصطناع الذرائع لأن العَرَب يتكفلون بصنعها دائماً. وتكون مهمة صانع القرار الإسرائيلي في التحضير لما يريد أن يختار فرصة من الفرص ويُحَوِّلها إلى أزمة، مُضيفاً إليها ما يستطيع أن يسوقه (ساعتها) من مضاعفات وتعقيدات. وعندما تصل الأزمة إلى حافة الهاوية، يكون الخيار مفتوحاً أمام صانع القرار الإسرائيلي وفق ما يُقدِّر من حسابات اللحظة الأخيرة : يتراجع عن حافة الهاوية، أو يدخل ويدفع الكل إليها.

وكان العنصر الأكبر والأهم في حسابات اللحظة الأخيرة من أيامها وحتى اليوم، هو موقف الولايات المتحدة ونوعية لون الإشارة التي تظهر في واشنطن :

حمراء تُؤَخِّر السير.. - أو صفراء تطلب الانتظار.. - أو خضراء تأذن بالانطلاق !

وحتى أوائل سنة ١٩٦٧ كان الضوء من واشنطن أمام إسرائيل أحمر اللون، معناه : انتظر !

وتُظهر قراءة الوثائق الإسرائيلية نقلة نوعية بالغة الأهمية في العلاقة بين إسرائيل وبين الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة ما بين سنة ١٩٦٤ إلى سنة ١٩٦٧.

وفي ظاهر الأوراق إيحاء بأن جزءاً مما طرأ على هذه العلاقات نشأ ونما في جو من القرب جَمَع بين رَجُلين وَصَلا إلى القمة في تل أبيب وواشنطن في ذات التوقيت وذات المناخ، وهما «ليفي أشكول» رئيس وزراء إسرائيل، و«ليندون جونسون» رئيس الولايات المتحدة، ثم إن الظروف بينهما تشابهت، وحوارهما معاً لم يَعُد لغة مصالح وتأثيرات نافذة، وإنما زادت على الحوار نبرة دفء إنساني، متبادل وحميم، وهو ما يمكن تفسيره بتشابه الظروف بين الرَّجُلين.

وتشابُه الظروف بين الرَّجُلين أوجدته مجموعة عوامل :

- كلاهما جاء بعد شخصية غير عادية بلغت درجة «البطل» أو درجة «النجم». وفي حالة «أشكول» فإن «البطل» قبله كان «بن جوريون» مؤسِّس الدولة - وفي حالة «جونسون» فإن «النجم» قبله كان «كنيدي» الرئيس المُبَشِّر بحدود جديدة. new frontiers

- وخلافاً لـ«البطل» و«النجم» فقد كان الرَّجُل الذي لحق بكل منهما («أشكول» و«جونسون») رَجُلاً عادياً تفاعلت مَلَكاته الكامنة مع المناخ الذي أحاط به ومع السُّلطة المستَجَدَّة عليه. ثم إن هذا الرَّجُل العادي استطاع أن يثير في الداخل آمالاً عملية وغير أسطورية مثل زيادة موارد المياه في حالة إسرائيل، ومثل سياسة الضمان الاجتماعي التي قدمها «جونسون» في برنامجه المشهور تحت شعار «المجتمع العظيم» The Great Society.

- ولم يكن بين الرَّجُلين ذلك التنافُس - إلى درجة التنافُر - مما يَحدُث عادة بين «الأبطال» و«النجوم» تنازعاً على مساحات الاهتمام والضوء العام التي يحتلها كل واحد منهم - بل ربما كانت الحقيقة على العكس. فقد احتاج كل منهما (الرَّجُل الذي لم يكن «بطلاً» والرَّجُل الذي لم يكن «نجماً») للآخر : أي أن «جونسون» (احتاج إلى «أشكول») في زيادة اعتماده على يهود أمريكا - وأن «أشكول» (احتاج إلى «جونسون») في زيادة المساعدات العسكرية لإسرائيل.

- ومن اللافت في التشابه بين تجربة الرَّجُلين وشخصيتيهما أن الناخب في البلدين (الولايات المتحدة وإسرائيل) شجعهما بما يوحي بأن هذا الناخب في البلدين معاً سئم عصر «البطل» و«النجم»، وفَضَّلَ - على الأقل في تلك المرحلة - أن يعطي صوته لصالح الرَّجُل العادي : «أشكول» و«جونسون». ففي انتخابات (نوفمبر) سنة ١٩٦٤ حصل «جونسون» على أغلبية لم يكن يحلم بها «كنيدي». ونفس الشيء جرى في انتخابات إسرائيل (ديسمبر) سنة ١٩٦٥، وفيها حصل «أشكول» على أغلبية تمكن حزبه («الماباي») من الحكم بيُسْر (لأول مرة في تاريخ إسرائيل)، في حين أن الحزب المنشق من «الماباي» وهو حزب «رافي» الذي رعاه «بن جوريون» نفسه انكمش إلى أقلية هزيلة - ثم لم يلبث أن اختفى بالكامل من الساحة السياسية الإسرائيلية.

- وكان بين الرَّجُلين وجه شبه آخر تظهره الوثائق الإسرائيلية بشدة. وهو أن كليهما وَقَعَ تحت ضغوط المؤسسة العسكرية في بلده بما جَعَله يَجهَر بالشكوى :

«جونسون» يضغط عليه العسكريون الأمريكيون (وأولهم الجنرال «ويستمورلاند») يطلبون تدخُّلاً أوسع وأعمق في فيتنام، بما في ذلك ضرب فيتنام الشمالية لإسقاط نظام «هوتشي منه».

و«أشكول» يضغط عليه العسكريون (وبالذات «ديان» و«رابين» و«وايزمان») وكلهم يطلب إليه استعمال القوة بسرعة للخلاص من حركة القومية العربية كما يمثلها «ناصر».

- وأخيراً فقد كانت تجمَع بين الرَّجُلين نوازع إنسانية كامنة في نفس كل منهما تلح عليه كي يثبت نفسه في مجال السياسة الخارجية مثل سلفه سواء كان «بطلاً» أو «نجماً» («جونسون» إزاء «هوتشي منه» في فيتنام - و«أشكول» إزاء «ناصر» في مصر).

- ويستحق الملاحظة أن كلاً من الرَّجُلين كان يعتبر نفسه فلاحاً يفهم في الزرع، وفي الماء، وفي الأرض الصحراوية ذات التربة الرملية (تكساس لـ«جونسون»، والنقب لـ«أشكول»).

- ومن المفارقات أن كلا الرجلين في تلك الفترة كان واقعاً في غرام امرأة أصغر منه :

طبقا للوثائق الإسرائيلية، فإن «جونسون» وجه إلى «السادات» تحذيرا شديدا طلب منه نقله إلى الرئيس «ناصر» مؤداه أن الوقت قد حان لكي تراجع الجمهورية العربية مواقفها من الولايات المتحدة وأصدقائها، وبينهم السعودية «التي نرتبط معها بتاريخ طويل من التعاون المثمر للطرفين»



«أشكول» في غرام زوجته الثانية «مريم» (هي ٣٥ سنة وهو ٦٩)، وقد نسى من أجلها زوجته الأولى ووجد السعادة معها لأول مرة في حياته (على حَدّ قوله).

و«جونسون» في غرام «ماتيلدا كريم» (هو ٦٥ سنة وهي ٣٤ !!) وهي نجمة مجتمع يهودية كانت بالفعل جميلة (كما يصف الذين عرفوها).

وربما كان ذلك كله صحيحاً، لكن دوره في الغالب كان من تأثير «عامل كيميائي مساعد» catalyst.

والحقيقة أن الأوراق تُؤكد ذلك الاستنتاج، ولعل التوافق بين شخصيتي الرَجُلين فعَلَ فعله لأن العوامل الموضوعية في التعامل بين البلدين (الولايات المتحدة وإسرائيل) دَعَت إلى تقارب أكثر (ومن هذه العوامل الموضوعية درجات عالية من التعاطف النفسي، والتلاقي السياسي، والاتصال المؤسسي تربط إسرائيل بالولايات المتحدة) وقد دَفعَت كلها إلى ضرورة الفعل المباشر في توقيت مُحَدَّد بالذات إزاء هَدَف مُحَدَّد بالذات في منطقة مُحَدَّدة بالذات : يُهَدِّد مصالح حيوية لأحدهما (البترول للولايات المتحدة)، ويُهَدِّد أمن الثاني (وهو أمن بمعنى التَفَوّق والتَوَسُّع).■



٥ السادات

■■ وفي بداية الفترة التي حدثت فيها النقلة النوعية في العلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة (توافق «أشكول» و«جونسون») بدا واضحاً من الوثائق الإسرائيلية أن الرئيس الأمريكي لم يَتَحَمَّس بعد لكي يمنح إسرائيل «حرية العمل» في الشرق الأوسط - بما في ذلك إدخال السلاح النووي إلى المنطقة.

وفي الملفات الإسرائيلية رسالة من «جونسون» إلى «أشكول» بتاريخ ١٩ مارس ١٩٦٤ يقول فيها ما نصه :

«إنني لست مقتنعاً بأن سعي إسرائيل إلى صُنع سلاح نووي يمكن أن يَردَع «ناصر» عن مهاجمتها. والعكس قد يكون هو الصحيح، والمعلومات المتوافرة لدينا تظهر أن «ناصر» يخشى من احتمال قيام إسرائيل بصنع سلاح نووي لأنه سوف يجد نفسه في هذه الحالة أمام خيارين :

- الاندفاع بكل قوته في تطوير برنامجه العسكري.

- أو المغامرة بضربة وقائية ضد إسرائيل حتى ولو كانت يائسة.

وكلا هذين الاحتمالين مؤثر على أمن إسرائيل. ونحن نعتقد أن سياستكم الخاصة بإبقاء «ناصر» في الظلام بشأن خططكم سياسة هشة إذا قورنت بالمخاطر التي قد تتعرضون لها. إننا أيضاً نخشى أن يستغل «ناصر» جهودكم النووية - حتى لو طمأناه جميعاً بأن مقاصدها سلمية - في الإضرار بإسرائيل، وتعبئة العالم العربي ضد مخاطر وجودها. ولقد سبق لنا أن أخطرناه بشيء من هذا القبيل، لكن الواقع بعد ذلك قد يفرض أحكاماً أخرى».

وفي ١٥ أبريل تُظهر الوثائق الإسرائيلية رَداً من «أشكول» إلى «جونسون» يقول فيه ما نصه : «إنك لا تستطيع أن تَتَصَوَّر مدى انكشاف إسرائيل وتَعَرُّضها، فالمجال الجوي للبلد محصور، والتكدس السكاني فيه مُرَكَّز في منطقة محدودة تجعل خطر أي هجوم مفاجئ مسألة حياة أو موت. وأريد أن أضيف - بكل أمانة - إلى ذلك أن أي تَعَهُّد بالحماية تقدمه لنا الولايات المتحدة لن يكون كافياً عندما نحتاجه. ونحن لا نمانع من أن يستنتج «ناصر» ما يريد أن يستنتجه بشأن ما نقوم بصنعه، لأن قوة الردع الكامنة فيما يمكن أن نصنعه سوف تفعل فعلها بأكثر من أي اعتبار آخر».

....

....

[كانت الولايات المتحدة الأمريكية - طبقاً للوثائق الأمريكية وليس الإسرائيلية (للحظة واحدة) - قد مشت مراحل متعددة ومُختلفة في علاقتها مع النظام الثوري في مصر : في البداية وفي عصر «أيزنهاور» كانت هناك مرحلة من «الغواية». وبعد السويس، وفي أعقابها دَخَلَت الولايات المتحدة إلى الشرق الأوسط بمقتضى مبدأ «أيزنهاور» (يناير ١٩٥٧) - وكانت تلك مرحلة من «الاحتواء». وفي عهد «كنيدي» كانت سياسات البيت الأبيض مزيجاً من مَرحَلَتَي «الغواية» و«الاحتواء»، يمكن وصفها بمرحلة «الحصار». وعندما جاء «جونسون» كانت مرحلة «الحصار» في أوجها لأن أسباب الخلاف بين القاهرة وواشنطن زادت وتراكمت فوق بعضها، وتَحَوَّلت إلى «قطار» واحد متحرك، وهو في حركته يَجُر وراءه كل حمولاته : من رفض القاهرة للأحلاف العسكرية - إلى رفضها لمشروع «أيزنهاور» - إلى إقامة علاقات قوية مع الاتحاد السوفيتي، ضمنها صفقات سلاح متزايدة، إلى بناء مشروعات ذات أثر بعيد المدى (السد العالي) - ثم إلى تلك النزاعات التي تشتعل مرة وتخبو مرة بين النظام الثوري في القاهرة ونظم تقليدية صديقة للولايات المتحدة ومُعتَمِدة عليها في الحماية - ولدى هذه النُظم مصالح بترول أصبحت مكشوفة عندما تحقق تواجد مصري - سياسي وعسكري - في شبه الجزيرة العربية بعد ثورة اليمن.

ثم أخيراً - وأولاً في الواقع ضمن هذا القطار المتحرك بكل حمولاته على خط واحد - فقد كان هناك رفض مصر عَقد اتفاقية صلح وسلام مع إسرائيل تنفتح بها منطقة الشرق الأوسط لخريطة جديدة بالكامل (أمريكية - إسرائيلية في الواقع).

على أن «جونسون» ظلَّ حتى قرب نهاية سنة ١٩٦٦ يحاول مع مصر، ويشجعه على استمرار المحاولة - وتأجيل الضيق ونفاد الصبر (من وجهة نظر أمريكية) - مدرسة «مشرقية» لها مجموعات مؤخرة في وزارة الخارجية ووزارة الدفاع، وحتى في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (وهذه مدرسة تُخَصِّص لها الوثائق «الإسرائيلية» صفحات بعد صفحات مُتَوَهِّمة نفوذاً لها بأكثر من الحقيقة، وحاملة على أفرادها - كما تَتَصَوَّرهم - بأكثر مما يستحقون، ومُتَعَقِّبة لهم إلى درجة المطاردة - أحياناً بأكثر مما هو إنساني) - وكان ملخص آراء هذه المدرسة «المشرقية» الأمريكية كما تُصَوِّره الوثائق (الأمريكية) :

١ - أن البديل لحركة القومية العربية إذا ضُرِبَت في القاهرة واحدٌ من اثنين : إما التيار الشيوعي الموالي بالكامل لموسكو، وإما التيار الديني الذي يحلم بخلافة جديدة تقوم على الكتاب والسيف !

٢ - أن حركة القومية العربية في نهاية المطاف قوة تحديث في العالم العربي، وأن العناصر التقليدية المعادية لها في المنطقة لا تستطيع صنع «عالم عربي جديد» - بل على العكس فإنها سوف تأخذ منطقة الشرق الأوسط كلها إلى الوراء، وهذا يُحَوِّلها إلى ساحة فراغ يقبل كل الاحتمالات.

٣ - أن مشروع «ناصر» الطموح ما زال ممكناً «إغراؤه» بأن «يدعم» نفسه في مصر «ويَكُف عن التَدَخُّل في شئون بلاد أخرى» إذا أوفت الولايات المتحدة بوعدها لمساعدته في عملية تحديث تُساير أحلامه وتُغطي على «أوهامه الإمبراطورية» (فكذلك كان تَصَوُّر الولايات المتحدة لحركة القومية العربية).

وفي الواقع أن هذه المدرسة لم تتوقف عن «تذكير «جونسون» حتى قرب اللحظة الأخيرة بأن «ناصر» في كل ما قام به كان في موقف «رَدّ الفعل» وليس «الفعل» - كذلك كان في مقاومته للاحتلال البريطاني لبلاده، وفي تأميمه لقناة السويس، وفي التعويض عن التخلف بالقفز إلى التقدم سواء كان ذلك بالسد العالي الذي دارت حوله معركة السويس، أو ببرامج التصنيع التي تبدو مُتَخَطِّيَة لقدراته أحيانا - وحتى «غزو ناصر لليَمَن !!» كما تُسَمِّيه الوثائق الأمريكية فإن المدرسة «المشرقية» في وزارة الخارجية اعتبرته نوعاً من «الرَدّ على مؤامرة الانفصال بين سوريا ومصر» !

٤ - أن التدخل علناً ضدّ «ناصر» كفيل بأن يُحَوِّل «الشارع العربي» إلى شلال نار يهدر عَداء للولايات المتحدة، وذلك معناه أن الولايات المتحدة سوف تجعل نفسها العدو رقم (١) للأمة العربية، في حين تتراجع إسرائيل إلى دور العدو رقم (٢)، وذلك وَضع لا مصلحة فيه له، فضلاً عن أنه خطر مُحقق على المصالح الأمريكية في المنطقة وعلى الرعايا الأمريكيين فيها، وحساب ذلك سوف يوضع عليه («جونسون») شخصياً في حال وقوعه - بل إن التهديد الناشئ منه واصل بالتأكيد إلى المصالح الغربية ومواطني دول الغرب جميعاً، وذلك سوف يَستوجب لَوماً للولايات المتحدة حتى من أقرب أصدقائها وأخلص حلفائها.

٥ - أن مثل ذلك أيضاً سوف يؤدي للإساءة إلى صورة الولايات المتحدة في العالم الثالث نظراً لصداقات «ناصر» القوية في الهند وفي الصين، وبصفة عامة في آسيا وأفريقيا - وصورة الولايات المتحدة لا تحتاج إلى تشويه زائد لأن فيتنام تكفلت بما هو كافٍ وأكثر.

....

....

ويتوقف الآن هذا الاستشهاد (للحظة واحدة) بالوثائق الأمريكية.]

....

....

ثم تعود الوثائق الإسرائيلية (وهي موضوع هذا الحديث أصلاً) لتكشف متابعة إسرائيلية من قريب لزيارة قام بها إلى

الحقيقة أن هناك كنزا من المعلومات والأسرار عن السياسات والتقديرات والخطط الإسرائيلية موجود معظمه الآن في المخابرات المصرية العامة، وفي المخابرات العسكرية المصرية، وكذلك أيضا في مجموعة أوراق «جمال عبد الناصر» التي كانت في منشية البكري والتي نقلت إلى محفوظات قصر «عابدين»



الولايات المتحدة - رئيس مجلس الأمة المصرى «أنور السادات»، وهو عضو فى مجلس قيادة الثورة و«واحد من «أعوان» و«أصدقاء» «جمال عبد الناصر»».

وفى برنامج زيارة «أنور السادات» لواشنطن فإن الرئيس «ليندون جونسون» اجتمع به لأكثر من ساعة، ودعاه للغداء معه فى البيت الأبيض.

وطبقاً للوثائق الإسرائيلية [بالذات مجموعة ملخصات لوقائع جلسات مجلس الوزراء المصَغَّر برئاسة «أشكول» (ديسمبر):] فإن «جونسون» وَجَّه إلى «السادات» تحذيراً شديداً طلب منه نقله إلى الرئيس «ناصر» مؤداه أن الوقت قد حان لكى تُراجع الجمهورية العربية مواقفها من الولايات المتحدة وأصدقائها، وبينهم السعودية «التى ترتبط معها بتاريخ طويل من التعاون المثمر للطرفين»، و«بتعهدات أمن لا سبيل إلى التحلل منها». ثم إن مصر عليها أن تُغَيِّر سياستها تجاه إسرائيل، وأن «تكف عن إرهاق نفسها وغيرها ببرامج تسليح تؤدى إلى زيادة التوتر فى منطقة لا ينفعها غير السلام وأوله السلام بين العرب وإسرائيل»، وأخيراً فإن تعاون مصر مع الكتلة السوفيتية قد «يخدمها فى أسلحة الحرب لكنه لن يساعدها فى ضرورات السلام»، إلى جانب أن «تعاطف العرب الظاهر مع الفيتناميين يثير ضيق الشعب الأمريكى، وأن هذا الضيق هو الذى دفع به إلى «الوقف المؤقت» لشحنات مبيعات القمح الأمريكى لمصر وفق القانون «ب. ل. ٤٨٠»!

ثم أضاف «جونسون» قائلاً لـ«أنور السادات» (وفق ملخصات محاضر مجلس الوزراء الإسرائيلى المصَغَّر) إنه «فى الفترة القادمة سوف يراقب ما يجرى فى المنطقة ويأمل أن تجد الأطراف وسيلة للتَّصَرُّف بحكمة وتَبَصُّر».

....

....

[وفيما أعرف فإن السيد «أنور السادات» قَدَّمَ بعد انتهاء رحلته تقريراً عن وقائعها (كتبه السيد محمد عبد السلام الزيات) من ست صفحات - لكنه لم يضع فى هذه الصفحات الست أى تفاصيل عن المحادثات بين «جونسون» و«أنور السادات»، مشيراً إلى أن «السيد أنور السادات سوف يَتَحَدَّث فيها مع الرئيس جمال عبد الناصر». ثم أشار التقرير إلى أن «السفير مصطفى كامل (سفير مصر فى واشنطن وقتها) حضر اللقاء وكتب محضراً بوقائعه أرسله بالشفرة إلى القاهرة».

وأذكر أننى قرأت برقية السفير «مصطفى كامل» عن وقائع اللقاء.

كما أنى - ولو لم أحضر لقاء «جمال عبد الناصر» مع «السادات» عندما عاد من رحلته - سمعت من الاثنين تفاصيل وتعليقات على المقابلة بين «السادات» و«جونسون»، ولم أشعر مما سمعت أنه كان هناك تحذير صريح، أو ما يُشبِه التحذير!] ■

....

....



٦ كـــــنز

....

....

■ ■ إن ما أذيع من الوثائق الإسرائيلية وانفتح من الملفات والأوراق يخف، أو يجف - بشكل ملحوظ مع نهاية سنة ١٩٦٦ - والسبب أن الأكثر من وثائق وملفات وأوراق ما بعد هذا التاريخ بقى مختوماً محجوباً حتى الآن رغم انتهاء أجل السرية، وبرغم ذلك فإن عدداً من الباحثين (وبينهم الأستاذ «مايكل بريشر») عثروا على محفوظات قَيِّمة فى مجموعات الأوراق الخاصة لعدد من السياسيين والعسكريين الإسرائيليين، إلى جانب مُذَكَّرات كتبها بعضهم - وشهادات بالغة الأهمية وَرَدَت فى أقوال صَدَرَت عن مسئولين كبار من وزراء وسُفراء وجنرالات، وحتى مسئولين عن الأمن فى «الموساد» و«أمان».

والحقيقة أن هناك كنزاً من المعلومات والأسرار عن السياسات والتقديرات والخطط الإسرائيلية موجود معظمه الآن فى المخابرات المصرية العامة، وفى المخابرات العسكرية المصرية، وكذلك أيضاً فى مجموعة أوراق «جمال عبد الناصر» التى كانت فى منشية البكرى والتى نُقِلَت إلى محفوظات قصر «عابدين».

وكانت الظروف التى جمعت مقتنيات هذا الكنز من المعلومات والأسرار - هى فى الواقع ظروف ما بعد وقف إطلاق النار ليلة ٩ يونيو ١٩٦٧، وعندما فوجئت إسرائيل (حكومةً وجيشاً وشعباً) بحجم الانتصار الذى تحقق «لهم» فى حرب الأيام الستة - وقد فاق غاية الخطط وتجاوَزَ سَقف الأحلام!

كانت ردة الفعل الأولى لدى الجميع ساسة وجنرالات، دبلوماسيين وخبراء (وقد أشرت إلى ذلك من قبل) - نوعاً من الذهول إلى درجة عدم التصديق too good to be true تعبير «رابين» نفسه. لكن هذا غير القابل للتصديق - كان أمراً واقعاً على الأرض لا بد من تصديقه بقوة الأشياء. وهكذا فإن القيادات الإسرائيلية السياسية والعسكرية كان عليها أن تقتنع بأنها قامت بعَمَلٍ عبقرى، ومن ثم فإن كل مُشارك فى النصر خصوصاً من العسكريين لا بد أن يكون معجزة بَشريَّة خارقة للعادة، وكذلك بدأ كلٌ منهم يتصرف «على هذا الأساس»، وبداية تصرفه «على هذا الأساس» أن يحكى للدنيا وللخلود ما قام به فى الحرب على طريقة «يوليوس قيصر»: «جئت ورأيت وانتصرت».

وللإنصاف فإن اللواء «حسن البدرى» (وهو وقتها المؤرخ الرسمى للجيش المصرى) - كان أول من تنبه إلى أن القادة السياسيين والعسكريين الإسرائيليين، وبتأثير النشوة التى أخَذَتهُم، تركوا ألسنتهم تَتَحَرَّر من أى ضوابط وتتخلى عن أى قيود وهُم يتحدثون عن تجربة الحرب. وفى طوفان الكلام فقد أفلتت آراء وتَوَجُّهات وسياسات ووقائع وقرارات هى بطبيعتها سرية.

ولم يلتزم «حسن البدرى» بتسلسل القيادة، وإنما كتب مباشرة إلى «جمال عبد الناصر» يقترح أن تتولى المخابرات جمع كل ما قاله القادة العسكريون (والسياسيون) الإسرائيليون فى «نشوة النصر وسكرته» مكتوباً على ورق، أو منطوقاً وراء ميكروفون، أو مُصَوَّراً أمام عدسة، حتى يُوضع كله «تحت المجهر لدراسة مُعَمَّقة» يمكن منها - حسب تعبير «حسن البدرى» - استخلاص «دروس مُستفادة، وربط وقائع مُتفَرِّقة، وفَهْم «سيكولوجية» الجيش الإسرائيلى (والحكومة الإسرائيلية والرأى العام بالتبعية) فى هذا الظرف الذى اعتبره «البدرى» فى مذكرته «بداية وراءها ما وراءها» (يقصد حتمية عودة مصر إلى ساحات القتال).

وكان اللواء «البدرى» مسئولاً فى نفس الوقت عن وحدة الدراسات العسكرية فى مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية فى الأهرام، وكان وجوده فيها يسبب حساسية زائدة لدى عدد من القادة العسكريين، بمن فيهم القائد العَام للقوات المسلحة فى المرحلة المستجدة بعد يونيو ١٩٦٧ وهو الفريق أول «محمد فوزى»، وكان ظنُّ الجميع - وهو إلى حَدٍّ ما مَنطقى - أن وجود اللواء «البدرى» فى مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية فى الأهرام معناه أن لديه خطاً واصلاً مباشرة إلى «الرئيس جمال عبد الناصر».

وقبل «جمال عبد الناصر» باقتراح «حسن البدرى»، بل وتحمس له مُقَدِّراً فائدته فى الإعداد لمرحلة جديدة من العَمَل العسكرى. وفى ظرف أسبوعين كانت كل إمكانيات الدولة المصرية فى الخارج قد استطاعت الحصول على أوراق بالأكوام، وتسجيلات بالصوت تزيد على ستمائة ساعة، وشرائط مُصَوَّرة تزيد المدة اللازمة لعرضها على ١٣٠ ساعة، وضمنها ١١ مقابلة تلفزيونية للجنرال «موشى ديان» (وزير الدفاع الإسرائيلى)، و٨ مقابلات للجنرال «إسحاق رابين» (رئيس هيئة الأركان)، و٨ مقابلات للجنرال «موردخاى هود» (قائد الطيران)، و٦ مقابلات للجنرال «إيزر وايزمان» (مهندس الضربة الجوية، وهو يومها مدير العمليات)، و٣ مقابلات للجنرال «إسرائيل تال» (قائد المدرعات)، ومقابلتان للجنرال «حاييم بارليف» (مدير عمليات الجبهة الجنوبية)، ومقابلتان للجنرال «دافيد إليعازر» (قائد الجبهة الشمالية)، ومقابلتان للجنرال «أوزى ناركيس» (قائد الجبهة الوسطى)، ومقابلة واحدة للجنرال «جوزيف أفيدان» (رئيس عمليات الجبهة الوسطى)، وغير ذلك كثير بما فيه مقابلات مع الملاحق العسكريين الإسرائيليين فى واشنطن ولندن وباريس.

وكانت حظوظ السياسيين الإسرائيليين تحت الأضواء أقل من العسكريين، ومع ذلك فقد تكلم كثيرون منهم وأفاضوا، وبينهم «أشكول» نفسه رغم إيثاره بطبيعته للصمت، ثم كان أكثرهم

يمكن أن يقال باطمئنان شديد أنه فى الفترة ما بين أوائل سنة ١٩٦٧ وحتى منتصف أبريل من هذه السنة - استطاعت إسرائيل إقناع «ليندون جونسون» بأنها قادرة، ولديها الإرادة، وتملك الاستعداد (حسب تعبير «رابين») للقيام بعملية عسكرية قوية ضد مصر تؤدى إلى إسقاط «نظام ناصر» أو على الأقل «إسقاط هيبته»



مـوعـد

كالعادة وزير الخارجية «آبا إيبان» - بطبيعة غرام دائم له مع الكلام .

....

....

[وقد لقيت هذه «المواد الوثائقية» التي وصلت إلى القاهرة مقروءة ومسموعة ومرئية اهتماما مُرَكَّزاً من «جمال عبد الناصر»، وطلب تخصيص قاعة في مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة في «مدينة نصر» تكون جاهزة بالأوراق والملفات، والشاشات وآلات العرض، ثم تكون هذه القاعة مفتوحة للقادة المصريين الذين اختارهم لرئاسات الجيش وتشكيلاته المقاتلة، وهُم طلائع معركة إزالة آثار العدوان - وبالنسبة للأفلام التلفزيونية المصَوَّرة خصوصاً مع العسكريين الإسرائيليين - فقد حضر بنفسه مع الفريق «محمد فوزى» القائد العام، والفريق «عبد المنعم رياض» رئيس أركان الحرب، وقرابة عشرين ضابطاً من كبار قادة القوات المسلحة المصرية - وراحوا يتابعون، ويُسَجِّل بعضهم (ومعهم «جمال عبد الناصر») ما يلفت اهتمامهم فيما يسمعون ويرون.

وأذكر أنه بعد إحدى الجلسات، وكانت الشرائط المصَوَّرة ثلاثة أحاديث مُتَواصلة لـ«موشي ديان» - أن الفريق «عبد المنعم رياض» اخذني جانباً وسألني هامساً : «ما الذي يفعله «الرَجُل الكبير» بنفسه - لماذا يُصر على سماع ورؤية كل هذه التسجيلات والصُوَر ؟»

وأضاف «عبد المنعم رياض» : «هذه جرعات من السم يعطيها لنفسه كل يوم - وبصرف النظر عما فيها من معلومات فإنها تحوى الكثير من المبالغات، وأيضاً الكثير من الأكاذيب».

وكان رأيي «أن التجربة مهما كان عذابها مفيدة، فإذا لم يجلس «هو» ليرى هذا كله بنفسه فإن الجميع سوف يعفون أنفسهم منه، وتلك لو سُمِحَ بها خسارة - ثم إنني أعتقد أن «جمال عبد الناصر» يستفيد كثيراً من مُلامَسة جانبٍ آخر من الوقائع مهما كان كئيباً وغليظاً». - ولم يَظهَر على «عبد المنعم رياض» ما يشير إلى أنه اقتنع !].

....

....

وفي كل الأحوال فإنه إذا اعتبرت نشوة الفرح وسكرته داعية لنوع من البوح فإن هذا البوح يمكن إلى درجةٍ ما قبوله في عِداد الوثائق، وإذا أضيف إليه ما جرى الكشف عنه في مجموعات الأوراق، والمذكرات - إذن فنحن أمام إضافة يمكن قبولها مُلحَقة بالوثائق الإسرائيلية ومُكَمِّلة لها ولو مؤقتاً، وحتى تسقط المحاذير وتنكسر الأختام عَن مَلَفّات أخرى.

والشاهد أن هذه الإضافة يمكن الاعتماد عليها خصوصاً إذا ساندها أو أكدها مصدر وثائقي مُعتَمَد، مثل الوثائق الأمريكية بالتحديد !■



٧ متـغـيـرات

■ ■ ويمكن أن يقال باطمئنان شديد أنه في الفترة ما بين أوائل سنة ١٩٦٧ وحتى منتصف أبريل من هذه السنة - استطاعت إسرائيل إقناع «ليندون جونسون» بأنها قادرة، ولديها الإرادة، وتملك الاستعداد able, willing, and ready (حسب تعبير «رابين») للقيام بعملية عسكرية قوية ضدُ مصر تؤدى إلى إسقاط «نظام ناصر» أو علَى الأقل «إسقاط هيبته»، وأن ذلك سوف يكون في صالح الولايات المتحدة كما هو في صالح إسرائيل.

وتبدو الإشارات المتوافرة والعلامات الظاهرة من مجمل «الوثائق المؤكد والمحقق والمتاح» - أنه في تلك الشهور تمكنت إسرائيل من الرَدّ على تحفظات الرئيس الأمريكي القديمة (بتأثير المدرسة «المشرقية» في واشنطن) تحفظاً بعد تحفظ :

١ - أنه لا داعي للقلق من أن يكون البديل لحركة القومية العربية واحداً من اثنين (الأحزاب الشيوعية - أو الأحزاب الدينية)، فذلك قلقَ لا مبرر له (طبقاً لتقرير كتبه «لوك باتل» سفير الولايات المتحدة في القاهرة في فبراير ١٩٦٧) لأن «عملية الحراك الاجتماعي التي جَرَت نتيجة لعملية التنمية الشاملة في مصر - أدت إلى خلق قوى اجتماعية وسياسية موجودة الآن على الساحة، وهي قوى مُتَنَوِّرة لا تُقنعها الدعاوى الشيوعية بضرورة سيطرة البروليتاريا، ولا يكفيها في العصر الحديث أن «تُصَلّي وتصوم» (فتلك ناحية مُهِمَّة في حياتها، لكن حياتها في هذه الدنيا لها مطالب وشروط أخرى).

٢ - إن مخاوفه من حركة القومية العربية هذه اللحظة لا داعي لقبولها قَدَراً مَحتوماً، لأن العالم العربي تَحَوَّل في السنوات الأخيرة إلى مُعسكرات وفِرَق مُتَقاتِلة فكرياً وسياسياً وحتى عسكرياً.

وبالتالي فإن الشارع العربي يعيش الآن حالة تَمَزُّق في ولاءاته تساعد عليها زيادة الثروة النفطية لدى الدول العربية التقليدية الصديقة لواشنطن، وبالتالي فإنه الآن - وليس غداً - يمكن الوثوق إلى أن موازين التأثير لا تسمح بتعبئة شعبية من الخليج إلى المحيط كما كان يَحدُث من قبل (وكان «آبا إيبان» وزير خارجية إسرائيل أكثر الشارحين «فصاحةً» لهذه النقطة) .

٣ - وكانت لدى «جولدا مائير» (التي انتقلت من رئاسة الوزارة إلى رئاسة الحِزب) فتوى بأن «ناصر» في «حال مواجهته لصدمة قوية» لن يجد بجانبه نظاماً عربياً يسنده، بل إن أنظمة عديدة، وبينها أنظمة تُبدى الصداقة والود حياله، سوف تكون سعيدة إذا وجدته يختفى من الساحة، أو إذا وجدته «مَسخوطاً» في حجم أصغر - على فرض أنه بقى في مكانه بعد الصدمة. ورَوَت «جولدا مائير» أنها سمعت نقلاً عن الملك «الحسن» ملك المغرب أنه «لن يذرف دمعة علَى «ناصر» إذا واجه مصيره المحتوم!»

(وفيما بعد نقل الجنرال «ديان» في مذكراته عن الملك «الحسن» قوله له مباشرة «إنه لم يشعر طول عمره بتعاطف مع «جمال عبد الناصر» لأنه رجل لم يكذب على أعدائه فقط وإنما كذب على أصدقائه أيضاً !)

٤ - إن تقديره («جونسون») لـ«مشروع ناصر التحديثي» قضية تستحق إعادة المراجعة، فهذا المشروع إذا حقق أهدافه حتى داخل حدود مصر «وحدها» سوف يَتَحَوَّل بقوة الأشياء إلى «مشروع نموذج» يُحتَذى من بقية العرب، وذلك يعيد تأثير مصر على العالم العربي ولا يُقَلِّصه، وأى شيء آخر «سراب» يتوهمه بعض «الموظفين» في وزارة الخارجية الأمريكية من بقايا موظفي شركات البترول العربية القدامى الذين فقدوا اتصالهم بآخر التطورات (وكان السفير الإسرائيلي «جدعون رافائيل» أنشط دُعاة هذه الفكرة) .

٥ - إنه حتى شركات النفط الأمريكية العاملة في المنطقة (التي كانت تخشى على مصالحها وتُراعيها) - بدأت تأخذ لنفسها منحى آخر، فقد تغيرت الظروف من زَمَنٍ كانت هذه الشركات تحرص فيه على مشاعر الرأى العام العربي وتدعو إلى تَجَنُّب استثارته (ولو علَناً) - إلى زَمَنٍ تجد فيه هذه الشركات أن النظم العربية التي مَنَحَتها امتيازات النفط تواجه - هي نفسها - من الرأى العام العربي ضغوطاً تثير هواجِسَها وتدفعها أحياناً إلى التردُّد وإلى التشدُّد مع الشركات - والتحريض المولِّد لهذه الضغوط قادم من القاهرة (وتظهر في الوثائق الإسرائيلية مجموعات تقارير متواصلة لشركة «جولف» وهي من كبريات الشركات الأمريكية العاملة في الخليج - تشكو من مظاهر عدائية تواجه نشاطها في المنطقة و«تُشَوِّش عليه» حتى على مستوى الدول - وبخاصة في الكويت حيث أصبحت عائلة «الصباح» تخاف من نفوذ القوميين العَرَب !) .

٦ - ثم قدم الجنرال «موشي ديان» أكثر الحجج إقناعاً لـ«ليندون جونسون» (في لحظة نفسية قاسية)، وكان عرض «ديان» لحجته الحاسمة بما معناه : «إن الجيش الإسرائيلي قادر على إلحاق هزيمة مُؤَكَّدة بالجيش المصري في الظروف الراهنة، وهذه حقيقة أقرُّها «رؤساء أركان حرب القوات الأمريكية» أنفسهم وفي حضور «روبرت ماكنمارا» وزير الدفاع في أكثر من مؤتمر مشترك (١٩٦٦-١٩٦٧) في إطار التنسيق الإستراتيجي بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

وما يعرضه الجنرال «ديان» أنه «إذا تكفلت الولايات المتحدة بمنع الاتحاد السوفيتي من التدخل في مسار معركة في الشرق الأوسط بين إسرائيل وبين مصر، وهذا ممكن في رأيه، بل إنه سهل نظراً للأحوال السياسية والاقتصادية في الاتحاد السوفيتي (وأيضاً نظراً لسوء علاقات الاتحاد السوفيتي بالصين وتَوَجُّسه منها، إلى جانب كل أعباء حرب فيتنام التي تتحملها موسكو وهي فادحة) - فإن إسرائيل تستطيع حسم المعركة لصالحها بسرعة».

وبالإضافة إلى ذلك (وهنا الذروة) فإن انتصار إسرائيل المحقق سوف يؤدى بالضرورة إلى هزيمة الاتحاد السوفيتي، بمنطق أن هزيمة أصدقائه هزيمة له - وليس في مصر وحدها وإنما في كل مكان، بما في ذلك فيتنام».

وهكذا (يلوح «ديان» أخيراً) «فإن «جونسون» الذي يُزعِجه دور الاتحاد السوفيتي في جنوب شرق آسيا، لديه فرصة لضرب الاتحاد السوفيتي ذاته في الشرق الأوسط ضربة تصل موجاتها عائدة إلى فيتنام».

وكان «جونسون» يَتَحَرَّك كل يوم - وحسب ما رواه أحد مُعاونيه في مجلس الأمن القومي وهو «ويليام كوانت» - بعيداً عن منطقة الضوء الأحمر (انتظر) - مُقتَرباً من منطقة الضوء الأصفر (استعد).■

كانت لدى «جولدا مائير» فتوى بأن «ناصر» في «حال مواجهته لصدمة قوية» لن يجد بجانبه نظاما عربيا يسنده، بل إن أنظمة عديدة، وبينها أنظمة تبدى الصداقة والود حياله، سوف تكون سعيدة إذا وجدته يختفى من الساحة، أو إذا وجدته «مسخوطا» في حجم أصغر - على فرض أنه بقى في مكانه بعد الصدمة





٨ تحـــــذيـــر

■■ ومما هو ظاهر فى كل «المواد الوثائقية الإسرائيلية» - أنه فى وقت ما - بين فبراير ومارس ١٩٦٧ - اتخذت إسرائيل قراراً بأن هذه السنة لا يجب أن تمُرَّ دون حرب مع مصر، ثم إن الولايات المتحدة عَرَفت بما تُقرِّر، وكان قصداً مقصوداً أن تعرف به وأن تأخذ لنفسها الفرصة الكافية لتتَقبَّله وتُرَتِّب نفسها إزاءه.

ويَظهَر من كل الشواهد ما يَدُل - بطريقة لا تَحتمل كثرة الظنون - على أن هذا «القرار» الذى وَصَلَ إلى الولايات المتحدة تَسَرَّبَ وقتها أو بعدها بقليل إلى أطراف أخرى عَرَفت على نحو أو آخر أن هناك «نِيَّة عَمَل كبير»، إسرائيلى مُسَلَّح ومباشر، مُوَجَّهُ إلى مصر بالذات - ومصر وحدها!

....

....

وكان الدليل دامغاً على أن القرار اتُّخِذ، وعلى أنه وَصَلَ إلى الولايات المتحدة الأمريكيَة، وعلى أن أطرافاً أخرى فى المنطقة وخارجها عَرَفت به! - والشاهد أنه فى يوم ٢٨ أبريل سنة ١٩٦٧ تلقى «اللواء» عبد المنعم رياض، الذى كان رئيساً لأركان حرب القيادة العربية الموَحَّدة رسالة من الملك «حسين» مَلِك الأردن تستدعيه لمقابلته فى أسرع وقت ممكن.

وكان «عبد المنعم رياض» قد ارتبط من خلال عمله فى القيادة العربية الموحدة بعلاقة عن قُرب مع الملك «حسين». ومع ذلك فقد بَدا ذلك الاستدعاء غير متوقع لأن حكومة الأردن كانت قد اتخذت قراراً بتجميد التعاون مع كل مؤسسات العمل العربى المشترك التى أنشأتها مؤتمرات القمة العربية، بما فى ذلك القيادة العربية المُوَحَّدة.

وبالطبع فإن «عبد المنعم رياض» عندما تلقى رسالة الملك عَرَضَها على رئيسه فى القيادة الموحَّدة الفريق «على على عامر» ليسأله: كيف يَتَصَرَّف؟ - وتشاور القائد العام للقيادة العربية الموحدة مع المشير «عبد الحكيم عامر» وهو رئيسه الفعلى (بصرف النظر عن الرسميات الشكلية) - وتلقى «عبد المنعم رياض» إذناً بأن يقبَل دعوة الملك ويتوجه إلى عَمَّان.

ويوم أول مايو أذاعت وكالة «رويتر» البريطانية للأنباء برقية من بيروت نصها:

«استقبل الملك حسين اليوم الفريق عبد المنعم رياض رئيس أركان حرب القيادة العربية الموحدة الذى وصل اليوم فى زيارة مُفاجِئة للأردن. ولم يَعرف أحد لماذا حضر وإلى متى يبقى؟ وقد أعرب المراقبون فى بيروت عن دهشتهم لهذه المقابلة لأن الملك حسين كان قد أعلن أنه لن يتعامل مع أية مَنظمة أنشأتها مؤتمرات القمة السابقة. والقيادة العربية الموحدة هى إحدى ثلاث مؤسسات أنشأتها المؤتمرات السابقة (منظمة التحرير الفلسطينية - هيئة تحويل روافد الأردن - والقيادة العربية الموحدة)».

....

....

وقد حكى لى «عبد المنعم رياض» بنفسه وقائع لقائه مع الملك «حسين»، ونشرتُه بالفعل فى كتاب «الانفجار ١٩٦٧» (صفحة ٤٣٧). ثم حَدَث بعد سنوات، وفى لقاء مع الملك «حسين» (فى شهر فبراير ١٩٩٢ - وفى حضور مستشاره السياسى وقتها السيد «عدنان أبو عودة»، وهو الآن أحد مستشارى الملك «عبد الله» الثانى) - أن أكد لى الملك «حسين» بنفسه رواية «عبد المنعم رياض».

وكانت تلك الرواية وبلسان «عبد المنعم رياض» على النحو التالى:

«حينما دخلت إلى مكتب الملك واتخذت مقعدى بدعوة منه أمامه، لاحظت على الفور أنه مهمومٌ - أو هكذا أحسست. كان سؤاله الأول لى عن «الأحوال». وانصرف ذهنى إلى أنه يسألنى عن الأحوال العامة. وكان ردى «أن الأحوال تبدو لى فى منتهى الخطورة. فعدا ما يعرفه الملك بالتفاصيل عن أوضاع العمل العربى الموحد - فإن الأحوال فى إسرائيل نفسها لابد أن تثير قلق كل من يهمهم أمر العالم العربى ومستقبله. فهناك أزمات بدأ ظهورها فى الاقتصاد أدت إلى زيادة عدد العاطلين فى إسرائيل. ثم إن هناك ظاهرة هجرة من يهود إسرائيل إلى مواطنهم الأصلية التى جاءوا منها. كما أن هناك خلافات داخلية على مستوى السياسة العليا فى إسرائيل، يتعلق بعضها بمشكلة الأمن. وهذا من شأنه أن يجعل الإسرائيليين فى حالة عصبية يحتمل معها أن يُقدِموا على أية مغامرة».

ومرة أخرى لاحظتُ أن الملك كان شارداً حتى عما أقول له. وسكتُ منتظراً أن أسمع منه. وكان ما سمعته مفاجئاً لى. وكان الملك فى بداية حديثه متردداً تجىء كلماته بطيئة وكأنه يفكر فى كل كلمة يقولها وفى كل حرف. وأحسست أن ما أسمعه خطير. واستأذنت الملك أن يسمح لى بكتابة بعض النقاط مما أسمع حتى لا يضيع منه شىء. وسَمَحَ الملك مع طلبه معاملة ما يقوله بأقصى درجات السرية، وأن يكون نقله إلى شخصٍ واحدٍ فقط وهو الرئيس «جمال عبد الناصر».

وكان مُجمَل ما قاله الملك «حسين» لـ «عبد المنعم رياض» على النحو التالى:

«إن الفريق رياض يعرف ويتابع بلا شك كل أسباب ودواعى الخلافات القائمة بينه وبين القاهرة. لكن هناك موضوعات تعلو على أى خلافات لأنها تمس الأمن القومى فى الصميم. وباختصار فإن الملك لديه الآن ما يدعوه إلى اليقين بأن هناك فخاً يُدَبَّر للجمهورية العربية المتحدة وللرئيس «جمال عبد الناصر». فهناك محاولة لتوريطهم فى حرب مسلحة لا تلائمهم ظروفها. و(الحقيقة) أن «الجماعة» فى سوريا مخترقون، وبعضهم متواطئ مع جهات لديها خططها. والفكرة الأساسية فى هذه الخطط هى إشعال الموقف على الجبهة السورية بما يفرض على مصر أن تقوم بأى عمل لنجدة سوريا، وهنا تصبح مصر هى الهدف الأول للمؤامرة ويجرى ضربها. وهو (الملك) يريد أن تصل رسالته هذه إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» بأسرع ما يمكن، ويرجو أن يتأكد الرئيس أن دافعه إليها هو واجبه القومى وليس أى سبب آخر. وهو يتمنى أن تؤخذ رسالته جداً ولا تُحمل على محمل موقفه من بعض الأطراف المعنية فى دمشق».

وحاول الفريق «عبد المنعم رياض» أن يستوضح الملك أكثر، فقد بدا له أن الملك يتحدث بمقتضى معلومات يعرفها أكثر مما يتحدث بوحى شكوك تراوده. ولكن الملك لم يُبدِ أى استعداد لتجاوز ما قاله.

وتَوَجَّه الفريق «عبد المنعم رياض» من المطار عائداً من عَمَّان إلى مكتبه فى القيادة العليا الموحدة لجيوش الدول العربية، وجلس يكتب تقريراً بخط يده إلى الرئيس «جمال عبد الناصر»، ثم تَوَجَّه إلى مكتب الفريق أول «على على عامر» يستأذنه (طبقاً للتقاليد العسكرية وتسلسل مراتب القيادة) أن يتولى إرساله مُغلَقاً إلى الرئيس. وطبقاً لنفس التقاليد فإن الفريق أول «على على عامر» بعث بالخطاب إلى المشير «عبد الحكيم عامر» طالباً إرساله إلى مكتب رئيس الجمهورية (كان ذلك يوم ٥ مايو). لكنه حتى يوم ١٣ مايو لم يكن هذا الخطاب قد وصل إلى يَدِ الرئيس «جمال عبد الناصر».

....

....

[وشاءت الظروف أن ألتقى بالفريق «عبد المنعم رياض» فى قاعة المحاضرات بالأكاديمية العسكرية العليا وكنت فيها مع الماريشال «مونتجمرى» قائد معركة «العلمين» الأشهر (وقد دارت وقائعها فى صحراء مصر الغربية، وفيها بدأت هزيمة القائد الألمانى الأسطورى «روميل»).

كان «مونتجمرى» وقتها يزور مصر وفق ترتيبات خاصة شارك فيها «الأهرام» مع «الصنداى تيمس» فى مناسبة مرور ربع قرن على معركة «العلمين» (١٩٤٢). وبعد أن انتهت محاضرة قدمها ماريشال «العلمين» جاءنى الفريق «عبد المنعم رياض» («يريدنى لمسألة هامة» - حسب تعبيره)، وتوجهنا معاً إلى مكتبى فى «الأهرام» وهناك قال لى إنه يريد أن يتأكد أن تقريراً كتبه بخط يده للرئيس «جمال عبد الناصر» قد وصل إليه وأنه اطلع عليه لأهمية ما فيه. واتصلت تليفونياً بالرئيس أسأله إذا كان قرأ تقريراً كتبه له «عبد المنعم رياض» بخط يده. ولم يكن التقرير قد وَصَل إليه].

....

....

كان ذلك مساء ١٣ مايو ١٩٦٧. وظُهر اليوم التالى ١٤ مايو كان تقرير «عبد المنعم رياض» على مكتب الرئيس «جمال عبد الناصر»، وقرأه، وكانت عجلة الحوادث قد بدأت دورانها.

فقد كان الفريق «محمد فوزى» رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة المصرية ساعتها فى الطريق إلى دمشق يتقصى أخبار «حشود إسرائيلية» تُهَدِّد بضرب سوريا وبالزحف إلى دمشق!

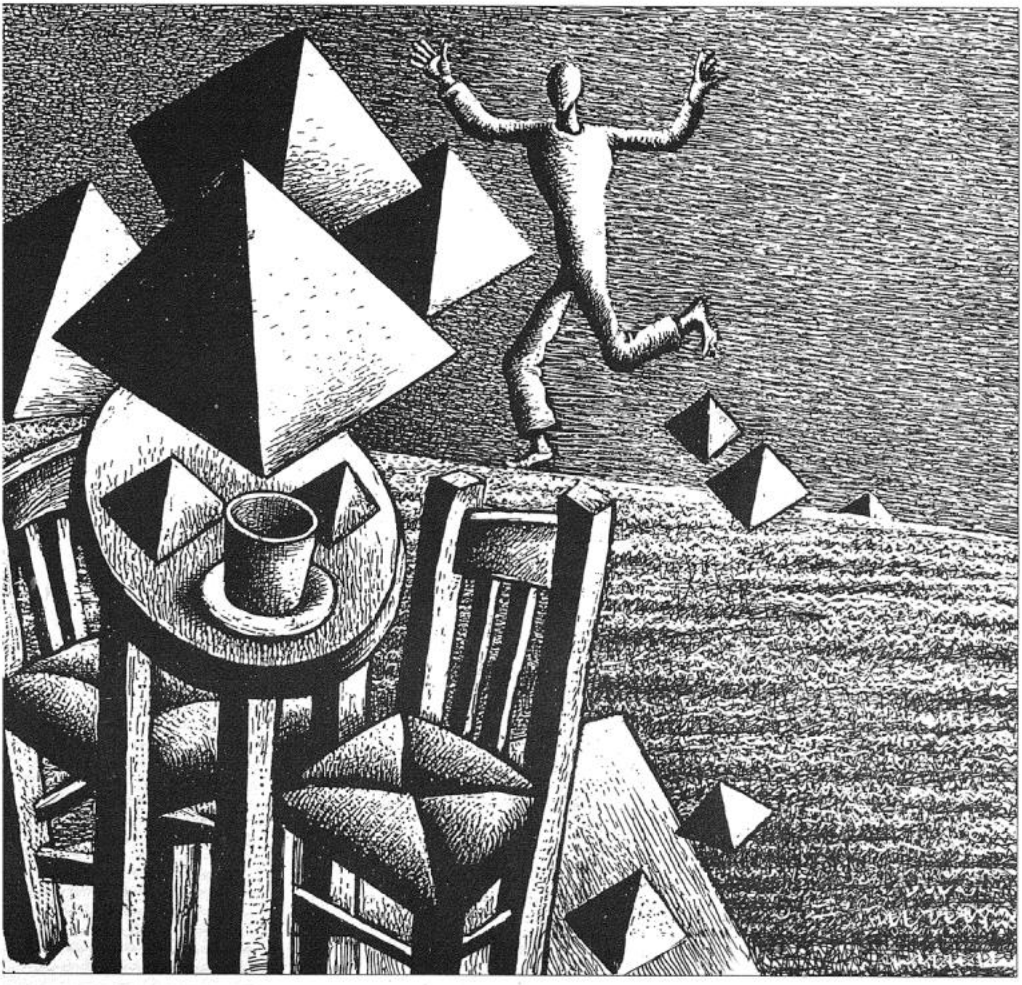
هكذا فإن الملك «حسين» فى عَمَّان كان يعرف بخطة ما هو مُدَبَّر. ولم يكن معقولاً أن يكون هو وحده الذى يعرف. والواقع أنه طبقاً للوثائق الإسرائيلية - فقد كان هناك آخرون غير الملك «حسين» - داخل المنطقة - يعرفون شكل ما هو قادم - وفى الغالب نتيجته!

كان الشرق الأوسط كله على برميل بارود، وكان اللهَب يجرى بسرعة فى الفتيل المشتعل إلى برميل البارود، وتوقيت وصوله: الساعة ٨ و١٧ دقيقة صباح يوم ٥ يونيو ١٩٦٧. ■

الملك «حسين» فى عمان كان يعرف بخطة ما هو مدبر. ولم يكن معقولا أن يكون هو وحده الذى يعرف. والواقع أنه طبقا للوثائق الإسرائيلية. فقد كان هناك آخرون غير الملك «حسين». داخل المنطقة. يعرفون شكل ما هو قادم. وفى الغالب نتيجته!

■■ هذا مقال أعرض فيه للخطط التى تدبر فى الوقت الحاضر لضبط مياه النيل بغرض إعادة توزيع انصبتها بين دول الحوض. وهى الخطط التى يجرى إعدادها فى الوقت الحاضر تحت رعاية المؤسسات الدولية وشركات صناعة المياه العالمية بعيدًا عن الأنظار، ودون مشاركة من أحد فيما عدا قلة من الخبراء الدوليين والمحليين من ممثلى حكومات دول الحوض. يجرون أعمالهم فى سرية ودون أن يكونوا مسئولين أمام أحد. ويبدو من الأخبار التى تسربت من عديد من الاجتماعات التى جرت بهذا الشأن منذ تأسيس مجلس وزراء الموارد المائية لدول حوض النيل فى سنة ١٩٩٨، بأن هذه الخطط على وشك الاستكمال، وانها تشمل عددًا من المشروعات التى سيتم عرضها على مجموعة من الدول المانحة التى وافقت على حضور اجتماع سيعقد بمدينة جنيف بسويسرا تحت رعاية البنك الدولى فى شهر فبراير سنة ٢٠٠١ بغرض البحث فى تمويلها تمهيدًا لإقامتها على نهر النيل.

وتثير السرعة المذهلة التى تم بها الوصول إلى هذا الاتفاق على المبادئ والمشروعات المنظمة لمياه النيل بين دول الحوض، الكثير من التساؤلات والشكوك فى الأهداف الحقيقية وراء هذه المشروعات التى جرى إعدادها فى سرية ودون مشاركة أو تغطية إعلامية، تتناسب والأبعاد التى ستاتى بها على حياة شعوب هذه الدول. ومما يزيد من مصداقية هذه التساؤلات والشكوك أن هذه المشروعات تجئ فى إطار الحملة التى يقوم بها البنك الدولى منذ سنوات لكى يجعل من المياه، والتى كانت منذ القدم حقًا طبيعيًا للبشر، سلعة من السلع شانها شان أى سلعة أخرى لها سعر وسوق وشركات عالمية تعمل فى الإتجار فيها. وجاء تتويج هذه الحملة وإقرار هذا المبدأ فى المؤتمر العالمى الذى نظمه البنك الدولى وعدد كبير من المؤسسات الدولية فى مدينة لاهاى بهولندة فى شهر مارس سنة ٢٠٠٠، حضره وزراء الموارد المائية لعدد كبير من الدول وما لا يقل عن ثلاثة آلاف خبير فى شئون المياه من مختلف أرجاء العالم يمثلون بلادهم والهيئات العاملة فى حقل المياه والشركات التى تتجر فيها، والتى يجئ فى مقدمتها شركة السويس - ليون الفرنسية (وهى من مخلفات الشركة العالمية التى كانت تدير قناة السويس منذ إنشائها فى آخر ستينيات القرن التاسع عشر وحتى تاميمها فى سنة ١٩٥٦) - وفى هذا المؤتمر تمت مناقشة تقرير اللجنة العالمية للمياه (World Water Commission) التى كان مقررها الدكتور إسماعيل سراج الدين نائب رئيس البنك الدولى والتى تشكلت من عشرين خبيرًا من خبراء المياه فى العالم. وأبرز تقرير هذه اللجنة وبشكل درامى الأزمة التى تعانى منها الكثير من دول العالم فى الوقت الحاضر من نقص فى إمدادات المياه العذبة فيها وهوّل منها، وحاول أن يثبت أنها ستلحق بمعظم الدول إن لم يكن اليوم فغدا حين يزيد البشر وتزداد الاحتياجات. واقترح التقرير حلاً لهذه الأزمة النظر إلى المياه كسلعة يجرى تنظيم استخدامها بواسطة القطاع الخاص الأكثر كفاءة من القطاع الحكومى أو العام، ويجرى تسعيرها حتى يتم ترشيد هذا الاستخدام، وأثار تقرير اللجنة اعتراضات كبيرة من الكثير من المشتغلين بشئون المياه والبيئة الذين كانت لهم تحفظات كثيرة على ما جاء فيه من بيانات أو نتائج. ومن الكثير من المنظمات غير الحكومية التى رأت فى التقرير انه معد بواسطة ولصالح الشركات العملاقة متعددة



الجنسيات ممن تخطط لتوسيع أعمالها على حساب المستهلكين، وشاركت الكثير من هذه المنظمات فى احتجاجات صاخبة صاحبت المؤتمر وبنفس الطريقة التى صاحبت اجتماعات منظمة التجارة العالمية التى عقدت فى مدينة سياتل الأمريكية بعد ذلك، وعلى الرغم من هذه الاعتراضات والاحتجاجات، فقد وافق المؤتمرون من ممثلى الحكومات على التقرير وعلى مبادئه، وكانت مصر والتى مثلها وفد كبير برئاسة الدكتور محمود أبو زيد وزير الأشغال والموارد المائية من أكثر الدول حماسًا وتأييدًا لتقرير المؤتمر، وكان وزيرها أحد أهم من شاركوا فى إعداده وفى تنظيم المؤتمر وفى رئاسة جلساته، وجاءت موافقة مصر على التقرير على الرغم من أن الكثير مما جاء فيه يتعارض وما فتئت تردده على طول تاريخها من أنها ضد تسعير الماء بأى شكل من الأشكال وأنها ضد تحكير توزيع المياه لشركات القطاع الخاص.

وجاء تقرير اللجنة العالمية للمياه مؤكدًا للدور المؤثر الذى أصبحت تلعبه اليوم شركات صناعة المياه العالمية والتى توسعت أعمالها فى العقود الأخيرة بفضل تصاعد موجتى الخصخصة والاتجاه إلى العولمة وامتداد أعمال هذه الشركات إلى أسواق أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. والقارئ للتقرير الذى أصدرته هذه الصناعة (واشنطن سنة ٢٠٠٠) والذى يباع بسعر النسخة ٨٩٥ دولارًا، سيرى الحجم الكبير لهذه الصناعة التى أصبحت لها اليوم سوق بازغة، تقدر فى الوقت الحاضر بحوالى ٨٠٠ مليار دولار، ينتظر أن ترتفع إلى ضعف هذا المبلغ خلال العشرين سنة القادمة بدخول دول العالم الثالث فى سوقها. ويسيطر على هذه الصناعة فى الوقت الحاضر ما لا يزيد على خمس عشرة شركة عملاقة تقع معظمها فى فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة وتعمل فى توزيع المياه وبيعها وفى إدارة الخزانات وإقامة المشروعات العملاقة على الأنهار.

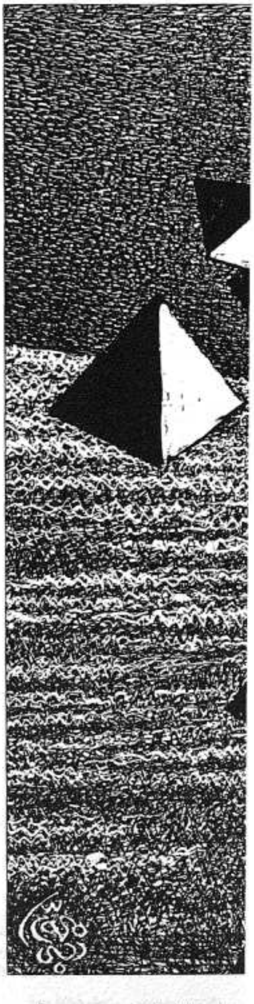
حقيقة أزمة المياه فى العالم

كان من أهم ما جاء فى تقرير اللجنة العالمية للمياه التأكيد على أزمة المياه العذبة فى العالم والتى تحيق اليوم ببعض البلاد وخاصة تلك التى تقع فى حزام الصحارى المدارية فى كل من نصفى الكرة الأرضية الشمالى والجنوبى، وأصبحت هذه الأزمة حديث الناس ووجدت تصديقًا بسبب الظروف المناخية التى حاقت بالكثير من البلاد النامية التى تزايد سكانها وفسدت أنظمة حكمها وظهرت فيها أزمة الغذاء بشكل بارز أثار عطف الناس عندما أذيعت مآسيها على شاشات التليفزيون عبر العالم.

وليس هناك من خلاف حول ما جاء فى تقرير اللجنة حول أزمة المياه فى هذه البلاد ذات المصادر المحدودة منها، ولكن الخلاف يقع فى الحل الذى اقترحه التقرير للخروج منها عن طريق ترشيد استخدامها وإيقاف التبذير فيها بإعطائها سعرًا كأى سلعة أخرى من السلع التى تنظمها قوى السوق، وهذا الحل بالإضافة إلى تعارضه مع الكثير من ثقافات وحضارات العالم فإنه لا يحل أزمة المياه، بل لعله يساهم فى تفاقمها ويزيد من متاعب مستخدميها كما حدث فى الحالة الوحيدة التى تم تطبيقه فيها وهى حالة دولة بوليفيا، عندما صمم البنك الدولى على خصخصة مرفق المياه فى إحدى مقاطعاتها وبيعها للناس بتكلفتها مما تسبب فى رفع سعرها وإحداث قلاقل أدت إلى المصادمات الدموية والمظاهرات والإضرابات العامة.

وقد وجدت الكثير من البلاد حلولاً أخرى لأزمة المياه فيها لم تنل من تقرير اللجنة أى اهتمام. فعلى سبيل المثال، هناك الحل الذى أخذت به دول شبه الجزيرة العربية ذات المصادر المحدودة من المياه العذبة والتى وجدت فى استخدام التقنيات الحديثة لتحلية مياه البحر سبيلاً لزيادة مواردها المائية لمقابلة المتطلبات الأساسية للحياة كالاستخدام المنزلى وإدارة أقل القليل من الأنشطة التى تحتاجها أساسيات العيش وأبطلت كل تفكير فى ممارسة النشاط الزراعى الذى يستخدم الماء بوفرة، وهو الأمر الذى لم يكن صعبًا بسبب أن هذا النشاط لم يكن يمثل شيئًا مهمًا فى حياة شعوب هذه الدول على طول التاريخ، وقد حدث فى سبعينيات القرن العشرين تفكير فى بعض دول هذه المنطقة للبدء فى نشاط زراعى فيها، سرعان ما هُجر بسبب عدم جدواه وجوره على مخزون المياه الأرضية فيها، وغنى عن البيان أن الذى أتاح هذا الحل لهذه البلاد إمكانياتها المادية الكبيرة التى توافرت لها بوجود النفط بكميات هائلة، مما جعل إدخال هذه التقنيات ممكنًا ومما جعل الماء الناتج عنها متاحًا وبسعر مقبول لبعض الاستخدامات الأساسية للإنسان، وأتاح وجود البحار حول شبه الجزيرة سهولة تركيب محطات تحلية المياه بحيث تكون على بعد مقبول من التجمعات السكانية فيها.

وفى بلاد الشام (سوريا وفلسطين/ إسرائيل والأردن) أزمة فى المياه العذبة يزيد من حدتها كمياتها المحدودة والتى لا يبدو أن فرص زيادتها كبيرة فى ضوء البحث العلمى الكثيف الذى أجرى على مصادرها وتزايد السكان الذين يعيشون على رقعة محدودة المساحة من الأرض، وفى هذه البلاد فإن حل هذه الأزمة يكمن فى القدرة على ترشيد استخدام المياه المتاحة، وتطوير نهج الحياة للعيش فى حدودها بالاستغناء أو بتقليل الأنشطة الكثيفة الاستخدام للمياه كالزراعة المروية التقليدية والاعتماد على التقنيات الجديدة لبناء مجتمع معلومات حديث تتولد فيه الثروة بطرق الإنتاج الإلكترونية الجديدة التى تتطلب أقل القليل من الماء، وللحق فإنى لا أرى من بين بلاد الشام من أدرك هذا الطريق غير إسرائيل التى هى فى طريقها لهجر الزراعة التقليدية والانتقال إلى مجال الإنتاج والخدمات الإلكترونية الجديدة، ويمكن للراغب فى معرفة تبعات هذا الطريق أن يراجع البحث الذى كنت قد قرأته أمام مؤتمر «أزمة المياه فى الوطن العربى» الذى نظمه مركز البحوث العربية بالقاهرة فى سنة



تساؤلات وشكوك

حول «المبادرة»

مياه النيل فى سوق التجارة العالمية

رشدى سعيد

اقترح التقرير حلاً لهذه الأزمة النظر إلى المياه كسلعة يجرى تنظيم استخدامها بواسطة القطاع الخاص الأكثر كفاءة من القطاع الحكومى أو العام، ويجرى تسعيرها حتى يتم ترشيد هذا الاستخدام، وأثار تقرير اللجنة اعتراضات كبيرة من الكثير من المشتغلين بشئون المياه والبيئة الذين كانت لهم تحفظات كثيرة على ما جاء فيه من بيانات أو نتائج

١٩٩٨، ونشر في كراسة المركز رقم ٧، كما نشر ملخص له بمجلة الهلال في شهر يناير سنة ١٩٩٩.

ومن التجارب التي تستحق الاهتمام في مجال ترشيد استخدام مياه الأنهار في البلاد التي تقع في أحواضها، تلك التي حاولت فيها كلٌ من سوريا وأثيوبيا الاستفادة من هذه الأنهار دون اللجوء إلى بناء المشروعات الكبيرة التي تدعو إليها شركات صناعة المياه العالمية، والتي عادة ما تأتي بالمشكلات التي تصاحب بنائها، كالاقتراض والدخول في المفاوضات المطولة مع غيرها من دول الحوض. لقد لجأت هاتان الدولتان إلى بناء السدود الصغيرة على أنهارها التي أقامها فلاحوها بأقل التكاليف ودون الحاجة إلى تدخل أحد.. وقد بدأت سوريا إقامة هذه السدود على نهر اليرموك واستطاعت أن تحصل على كميات إضافية من مياهه دون الدخول في مجابهة مع إسرائيل التي تشاركها فيه، ولحقت بها أثيوبيا التي أقامت أكثر من مائتي سد على فروع نهر النيل التي تنبع من أراضيها استخدمت بواسطتها حوالي نصف مليار مترٍ مكعب من المياه دون أن يثير إنشاؤها إزعاجًا لأحد أو أثرًا يذكر في انسياب مياه هذه الأنهار أو أن تمد يدها إلى أحد.. ومن قبل تسببت إقامة سد صغير على نهر فنشا - أحد فروع النيل الأزرق - بموافقة البنك الدولي في كثير من الإزعاج على الرغم من أنه لم يستخدم إلا أقل من خمس كمية المياه التي دبرتها أثيوبيا من سدودها الصغيرة التي أقامتها دون القيام بأية مفاوضات مع أحد، وتنوي أثيوبيا إقامة مئات أخرى من هذه السدود على أنهارها.

على أن هذه التجارب الصغيرة والناجحة ليست في جدول أعمال البنك الدولي أو كبار المقاولين أو شركات صناعة المياه العالمية، ولذا فلم يكن مستغربًا أن يجيء في إحدى توصيات تقرير اللجنة العالمية للمياه دعوة دول أحواض الأنهار المشتركة لإقامة المشروعات على النهر الذي تقع فيه لحسن استخدام مياهه، وهي الدعوة التي تمت بعد صدورها وفي إطارها الاجتماعات المتسارعة والمحمومة لوزراء الموارد المائية لدول حوض النيل للنظر في ضبط مياه النهر بغرض إعادة توزيعها فيما بينها والتي انتهت بموافقتهم على ما سمي بمبادرة حوض النيل، وبقبول مصر المشاركة في هذه المبادرة تكون قد حادت عن موقفها التاريخي بعدم فتح ملف إعادة توزيع مياه النيل ووافقت على ما درجت دول أعالي الحوض على المطالبة به لاعتبارات سياسية كانت تؤججها بيوت الخبرة الأجنبية وشركات المقاولات والمياه العالمية بسبب أن مصر تحصل على النصيب الأكبر من مياه النيل ولا تترك إلا القليل لغيرها من دول الحوض.

وجاء تمرير هذه المبادرة وطمأنة المصريين والمسئولين فيها على أنها لن تمس كمية المياه التي تصلهم بالإعداد لحملة بدأها وزير الري والموارد المائية المصري بتقرير فاجأ به الناس في شهر فبراير الماضي نشرته الجرائد في صفحاتها الأولى وقام بعرضه على المسئولين ورئيس الجمهورية، بين فيه أن إيرادات نهر النيل هائلة لا تحصل مصر إلا على أقل من ٥٪ منها، وأنها تتبعثر في كل مكان في حوض النيل، وعلى الرغم من مبالغات الأرقام عن إيرادات النهر التي جاء بها التقرير، فقد كان المعنى الباطن لهذا الإعلان المفاجئ وفي هذا الوقت بالذات هو إقناع السلطات المصرية لتغيير سياستها المائية التي درجت عليها لتسمح بالمضي قدمًا في الموافقة على مبادرة حوض النيل التي كان العمل يتقدم فيها في ذلك الوقت تحت رعاية البنك الدولي ولقبول تنفيذ المشروعات على نهر النيل لضبط مياهه وهي المشروعات التي درجت مصر على طول تاريخها على الاعتراض عليها والنظر بعين الريبة إليها.

مبادرة حوض النيل

مبادرة حوض النيل هي المبادرة التي وافق عليها المجلس الوزاري لوزراء الموارد المائية لدول حوض النيل، والذي تأسس في سنة ١٩٩٨ بهدف دراسة وتنمية الحوض لصالح دوله، وكون المجلس بمجرد تأسيسه آلية لتنفيذ هذا الهدف هي اللجنة الفنية الاستشارية التي ضمت خبيرًا واحدًا (زيد إلى اثنين في اجتماع لاحق) من كل دولة من دول الحوض وسكرتارية دائمة اتخذت مقرًا لها في مدينة عنتيبي بأوغندة عين لها سكرتير بعقد لمدة سنتين قابلة للتجديد، وقد تم الاتفاق على المبادرة ووضعت خطوطها الأولى في اجتماع عقد بمدينة دار السلام في شهر فبراير سنة ١٩٩٩، ووفق على صيغتها النهائية في اجتماع تال عقد في مدينة أديس أبابا في شهر مايو من نفس العام، وفي هذا الاجتماع الأخير اتفقت مصر وأثيوبيا والسودان على إنشاء برنامج خاص في الجزء الأكبر من مياهها من المرتفعات الأثيوبية.

واستهدفت مبادرة حوض النيل وضع المشروعات المشتركة التي تعالج النهر كوحدة متكاملة بما يكفل الفائدة لجميع دول الحوض ودعوة البنك الدولي لإنشاء «كونزوريتوم» من الشركات والمؤسسات الدولية العاملة في حقل المياه لتمويل هذه المشروعات، وتواصلت اجتماعات المجلس الوزاري لوزراء الموارد المائية لدول حوض النيل على فترات متقاربة حتى وقع الثامن منها في مدينة الخرطوم في شهر أغسطس سنة ٢٠٠٠، ولما تمض سنتان على إنشائه، وفي خلال هذه الاجتماعات المتسارعة تم وضع المشروعات التي قاربت اليوم على الإعداد للعرض على مؤسسات التمويل الدولية التي تقرر عقد اجتماعها في شهر فبراير سنة ٢٠٠١، وتثير السرعة المذهلة التي تم بها وضع هذه المشروعات والموافقة عليها والتي تم فيها قبول الدول المانحة والمؤسسات الدولية تمويلها دون تردد أو نقاش يذكر، الكثير من التساؤلات، فقد حدثت كل هذه الأمور فيما لا يزيد إلا قليلاً على العامين. ومما يزيد من مصداقية هذه التساؤلات التحول المفاجئ لكثير من دول الحوض التي رحبت بالمبادرة ووافقت على حضور اجتماعاتها وهي التي كان يصعب الحصول على قبولها الاشتراك في أية مبادرة أو مشروع مشترك في السابق.

ولم ينشر حتى اليوم أي شيء عن شكل مشروعات هذه المبادرة والتي قيل أنها ستمس تنمية الموارد الطبيعية والزراعة والطاقة والبيئة والتنمية البشرية لدول الحوض كما أنها ستشمل دراسة لأثر التغيرات المناخية المرتقبة نتيجة الارتفاع المتوقع لدرجة حرارة الجو العالمي على إيرادات نهر النيل، وتحاط تفاصيل هذه المشروعات بكتمان شديد، وهذا أمر يدعو في حد ذاته إلى أشد القلق نظرًا لتعلق هذه المشروعات بمستقبل إمدادات مصر من المياه، وهو الأمر الذي يشكل القلب فيما يخص مصالح مصر الحيوية وأمنها القومي، ولذا فإن ترك البت في هذا الأمر في يد حفنة من الخبراء المعينين من قبل الحكومات وغير المسئولين أمام شعوبهم هو ما يبعث على الشك، ومهما كان شكل هذه المشروعات التي ستحتويها مبادرة حوض النيل وبغض النظر عن تفاصيلها فإن مجرد الدخول فيها يشكل تحولاً كاملاً في سياسة مصر المائية التي درجت عليها منذ وقت طويل، وهو التحول الذي جاء دون تبرير مقبول غير ذلك الإعلان المفاجئ الذي جاء على لسان وزير الموارد المائية في شهر فبراير الماضي، والذي أبلغنا فيه أن مياه النيل كثيرة جدًا تبرر الدخول في مشروعات لتنظيمها لصالح جميع دول الحوض، ولم يعرض إعلان الوزير أو النتائج المترتبة عليه للمناقشة العامة.

وتقع خطورة الدخول في مبادرة حوض النيل والمشروعات والمخططات الناجمة عنها في أنها جاءت من خارج دول الحوض وفي أن مصر وافقت فيها ولأول مرة على مبدأ إعادة توزيع مياه النيل بين دول الحوض وإن كانت قواعد توزيع أنصبة كل دولة حسب ما عرف مما تسرب من اجتماعات اللجان التي انبثقت عن هذه المبادرة لم يتحدد بعد بسبب اختلاف الآراء حولها وعما إذا كانت ستتحدد حسب مساحة الدولة أو حسب مساحة ذلك الجزء القابل للزراعة فيها أم حسب عدد السكان، وبدخول مصر هذه المبادرة تكون مصر قد وافقت أيضًا وبطريقة ضمنية على مبدأ اعتبار المياه سلعة تحكمها قواعد السوق واتفاقية الجاتس (Gats) لتجارة الخدمات وهو مبدأ قد تكون له تبعات خطيرة عليها كدولة مصب تصلها المياه من دول أخرى قد تجد في هذا المبدأ أساسًا للمطالبة بثمن المياه التي تأتي منها في مستقبل الأيام.

وبقبول هذين المبدأين تكون مصر قد حادت عن ثابتين من أهم الثوابت التي حكمت سياستها المائية عبر التاريخ، فقد كانت مصر وحتى قبولها مبدأ إدخال مياه النيل في سوق المياه العالمية تعتبر المياه التي تصلها حقًا وهبة من الله ليس للبشر سلطان عليها أو سلطة منعها عنها ولم يدر بخلد أحد أن يأتي يوم ينفتح فيه الكلام عن تسعير المياه التي تصلها أو التي تطلقها في حقولها، أما عن مبدأ إعادة النظر في توزيع مياه النيل بين دول الحوض وعلى الأخص بين دول شرق النيل، فقد تم قبوله على الرغم من أن مصر ستكون الخاسرة فيه تحت كل الظروف.

ماذا وراء إعادة فتح ملف إعادة توزيع مياه النيل؟

ولا بد هنا أن نؤكد ومن البداية على أن الملف الذي نقصده هنا والذي يثير موضوع إعادة فتحه أكبر المخاوف، هو ذلك الذي يتعلق بالمياه النابعة من المرتفعات الأثيوبية، فهي محدودة وليست كتلك التي تنبع من هضبة البحيرات الاستوائية والتي يتوافر فيها ماء كثير يتبدد أكثره ويتبعثر في منطقة السدود وأحواض نهر السوباط وبحر الغزال، وينبغي هنا ألا نخلط بين الملفين، فحياة المرتفعات الأثيوبية والتي تشكل المصدر الأساسي لإمدادات المياه لمصر وشمال السودان ليس فيها فضاء كبير يسمح بزيادتها وهي مقسمة اليوم بين مصر والسودان. وأي كلام عن إدخال أثيوبيا كشريك فيها لا بد أن يكون على حساب



كانت مصر - التي مثلها وفد كبير برئاسة الدكتور محمود أبو زيد وزير الأشغال والموارد المائية - من أكثر الدول حماسا وتأييداً لتقرير المؤتمر، وكان وزيرها أحد أهم من شاركوا في إعداده وفي تنظيم المؤتمر وفي رئاسة جلساته، وجاءت موافقة مصر على التقرير على الرغم من أن الكثير مما جاء فيه يتعارض وما فتئت تردده على طول تاريخها من أنها ضد تسعير الماء بأي شكل من الأشكال وأنها ضد تحكير توزيع المياه لشركات القطاع الخاص

مصر أو السودان أو كلتيهما معًا، وليس هناك من طريق آخر.

وقد يقول قائل وماذا عن طريق تعويض ما سوف يؤخذ من نصيب كل من مصر والسودان من مياه المرتفعات الأثيوبية في حال إعادة توزيعها من فائض المياه الكثيرة والمتوافرة في أحواض هضبة البحيرات الاستوائية ما دمنا نتكلم عن تنمية حوض النهر ككل، والرد على ذلك أن هذا أمر صعب التحقيق ليس فقط بسبب التكاليف الباهظة التي سيحتاجها توفير هذا النصيب من المياه، بل بسبب صعوبة نقله عبر شريان النيل الأبيض القليل الانحدار والمحدود القدرة على حمل المياه، هذا بالإضافة إلى صعوبة حماية هذه المشروعات كما أثبتت تجربة قناة جونجلي التي شاركت مصر السودان في إقامتها ووجداها مثيرة للنزاع، وفي الحقيقة فإن الكلام عن أية مشروعات مشتركة في هضبة البحيرات الاستوائية هو كلام سابق للأوان ولا يمكن أن يؤخذ بأية جدية قبل تسوية عديد من النزاعات السياسية سواء في جنوب السودان أو في دول الهضبة نفسها.

إن السياسة المائية التي سارت عليها مصر في معالجة موضوع توزيع مياه النيل النابعة من المرتفعات الأثيوبية وقبل أن يصبح للبنك الدولي وغيره من المؤسسات الدولية قول، هو المحافظة على نصيبها من المياه وعدم الدخول في أية مفاوضات بشأنها إلا في إطار يأخذ في الاعتبار كافة المصادر الأخرى للمياه المتاحة لدول الحوض، ولم تحد مصر عن هذا الموقف مع كل دول الحوض وعلى الأخص مع أثيوبيا التي تشقها أنهار أخرى غير نهر النيل لم يتم ضبطها حتى اليوم والتي تطولها أمطار كثيرة مما يجعل مصادرها من المياه كبيرة، يمكن أن تفي باحتياجاتها دون الحاجة إلى مشاركة مصر في مصدر مياهها الوحيد، وبالإضافة إلى ذلك فإن إقامة السدود الكبيرة على فروع النيل النابعة من أثيوبيا هي من المشروعات المشكوك في فائدتها لأي من الدول التي ستتأثر بها فهي بالإضافة إلى النزاعات وحالة عدم الاستقرار التي ستتسبب فيها، فإن ضررها أكيد على كل دول الحوض، وهو أمر واضح وأكيد في حالة مصر لأنها ستقلل من نصيب مصر من المياه وهي العطشى إليها، أما في حالة أثيوبيا فإن مثل هذه المشروعات باهظة التكاليف والتي ستقام على أنهار شديدة الانحدار وسريعة الإطماء سيكون بغير جدوى ولن يكون مردودها سواء استخدمت في توسيع رقعة الزراعة أو في إنتاج الطاقة مبررًا لإقامتها، فلم تعد الزراعة المروية اليوم ذات عائد يمكن أن يبرر الإنفاق الكبير عليها، كما أن إنتاج الطاقة الضخم الذي سينجم عنها لن يكون اقتصاديًا بسبب أنه لن يكون لها مستخدم محلي نظرًا لأن أثيوبيا وكل البلاد المحيطة بها بلاد غير صناعية تستخدم القليل من الطاقة مما سيجعل أمر تصديرها إلى البلاد النائية بما يستتبعه ذلك من تبذير بلا فائدة تذكر، هذا بالإضافة إلى أن تصدير الطاقة هو من المكروهات لما يسببه من حرمان الأجيال المقبلة من إمكان استخدامها نظرًا لأن عقود تصديرها عادة ما تمتد إلى سنوات طويلة، وقد أثبتت التجربة العملية لأهل أثيوبيا ذاتهم عقم وضع الآمال على هذه المشروعات الكبيرة على الأنهار، فبدأوا وبسواعدهم وكما بينت فيما سبق في بناء السدود الصغيرة عليها التي وجدوا فيها فائدة سريعة ومحققة وغير مثيرة للنزاع، فالمياه التي يستقطعونها بواسطتها ليست من الكبر بحيث تسبب خللاً مؤثرًا في ميزان إيرادات النهر.

ولمصر تاريخ طويل وتجربة كبيرة مع دول الحوض منذ أن بدأت تتشابك علاقاتها معها حين دخلت زراعة القطن في السودان في عشرينيات القرن العشرين مما دعا إلى مطالبة السودان بحصة من مياه النهر الذي كان وحتى ذلك الوقت نهرًا مصريًا خالصًا تتم دراسته ووضع خطط الاستفادة منه في القاهرة وفي وزارة الأشغال المصرية التي كان يعمل بها في ذلك الوقت بعض من أكفأ خبراء المياه في العالم، وعندما أدخلت زراعة القطن بالسودان احتاج أمر تزويدها بالماء إلى استقطاع جزء من المياه التي كانت تنساب إلى أرض مصر تم تحديد حجمها بعد أخذ وعطاء استمرا منذ توقيع اتفاقية سنة ١٩٢٩، وحتى سنة ١٩٥٩ عندما تم حسم الأمر بالاتفاقية التي وقعت بين مصر والسودان بمناسبة بناء السد العالي لتوزيع مياه التخزين فيه، ولم تعترف أثيوبيا بهذه الاتفاقية على الرغم من أنها لم تكن تستخدم مياه روافد النيل التي تنبع منها.

وفي ستينيات القرن العشرين رأت الولايات المتحدة استخدام ورقة مياه النيل للضغط على مصر التي كانت تنهج في ذلك الوقت نهجًا استقلاليًا لم تكن الولايات المتحدة راضية عنه، فأوفدت بعثة كبيرة من خبرائها لدراسة منابع النيل بأثيوبيا واقتراح المشروعات المناسبة لاستغلال مياه هذه المنابع، ولم تكن أثيوبيا في ذلك الوقت أو فيما تلى ذلك من أوقات في حاجة إلى بناء السدود على النيل الأزرق بغرض الزراعة، فليس حول هذا النهر أراض صالحة كثيرة، كما أن انحدار النهر الكبير واندفاع مياهه وكثرة الرواسب التي يحملها يجعل بناء السدود صعبًا والاستفادة منها في الزراعة باهظ النفقة، ولكن الدراسة تمت لأن الغرض منها لم يكن خدمة أثيوبيا قدر ما كان توصيل رسالة إلى مصر الستينيات بأن الإضرار بها سهل وأن حياتها مرهونة بمن يحكمون منابع النيل.

وهذه الرسالة في حد ذاتها كانت حرية بأن تبين العواقب الوخيمة التي يمكن أن تنجم من تدخل طرف من خارج النهر في شئونه وأن تقنع صاحب القرار في مصر على تفادي الدخول مع طرف ثالث عند الكلام مع دول النهر، وللحق فإن الباحث وراء الكثير من المشاكل التي تثار بين دول الحوض حول توزيع مياهه يجد وراءها بيوت الخبرة الأجنبية وكبار المقاولين الدوليين وشركات صناعة المياه العالمية التي تسعى لأن تفتح لها طريقًا وسوقًا في هذه الدول البكر فترسل لها المندوبين والخبراء لتهول لها مشاكلها في نقص المياه التي تحدث بسبب استيلاء مصر على الجزء الأكبر منها وهي المالكة لمصادره، هذه المقولة بلا أساس فأثيوبيا من أغنى البلاد الأفريقية في المياه مما يحق معه وصفها بالنافورة، ولا تمثل روافد النيل إلا نصف مصادرها منها، أما النصف الآخر فهو في صورة أمطار ومياه جوفية وأنهار أخرى كثيرة يصب بعضها في البحر الأحمر وأكثرها في المحيط الهندي ولهذه الأنهار ميزة كبرى فهي قليلة الانحدار تسهل إقامة السدود عليها وتجعل من الاستفادة من مياهها التي تذهب اليوم هدرًا إلى البحر في الزراعة أكثر رشدًا وفائدة، هذا بالإضافة إلى أن استخدامها لن يتسبب في خلق نزاع مع أحد، ومع ذلك فإنك لا تجد الخبراء يوجهون جهودهم لهذه الأنهار أو لتعظيم عائد الزراعة المطرية أو تلك المعتمدة على المياه الجوفية.

وينطبق الشيء نفسه على السودان ذي المساحات الشاسعة ومصادر المياه المتنوعة والذي تشتغل فيه النخبة الحاكمة من أهل الشمال بتنمية الجزء القاحل الذي تعيش عليه وهي ترصد الأموال وتوجه المياه وكافة مصادر الثروة إلى هذه الأرض دون اعتبار لمناطق السودان الأخرى مما يتسبب في نشوء النزاع الذي وصل إلى حد الحرب الأهلية مع غير سكان أرض الشمال.

ليس هناك إذن من سبب يلح على أي من دول أعالي حوض النيل لخلق نزاع حول مياه النهر فلدى هذه الدول بدائل كثيرة لزيادة مياهها وتوسيع رقعة أراضيها الزراعية، ولكننا نجدها وتحت ضغط توصيات الخبراء الذين يفدون عليها سواء من الشركات العالمية أو المؤسسات الدولية والتي أصبحت اليوم تعمل في رباط وثيق معها تتزاحم على نهر النيل وتندفع في خلق النزاع مع جيرانها، وبقبول مصر الدخول في مبادرة حوض النيل تكون قد سلمت بتوصيات هؤلاء الخبراء وهي التوصيات التي لن تؤدي في محصلتها النهائية إلا للإضرار بمصالح مصر الحيوية وإذكاء النزاع بين دول الحوض، ولا عجب لذلك أن يكون من بين طاقم الخبراء الذين يوفدون لبلاد حوض النيل خبراء فيما يسمى بعلم إدارة وحل النزاع وهو علم جديد استحدثه الإسرائيليون في سبعينيات القرن العشرين لتقنين وضبط حالة النزاع المستمر الذي تؤججه إسرائيل في منطقة الشرق الأوسط وتنوي العيش في ظله، وأغلب الظن أن هؤلاء الخبراء يتوقعون أن تحل بدول حوض النيل حالة مماثلة من النزاع المستمر.

ومما يزيد من مخاوفي مما قد تتمخض عنه مبادرة حوض النيل مسلك مجموعة الخبراء الذين يقفون وراء البنك الدولي، المحرك الأساسي لهذه المبادرة فهم مجموعة محدودة العدد، مغلقة على نفسها تدير أمورها في سرية ودون إعلان وهي وثيقة الصلة بمخابرات الدول الكبرى ومراكز التمويل الدولية ووسائل الإعلام العالمية ولها صلات واسعة بإدارات دراسة وصنع القرار في جميع دول الحوض وعلى الأخص بمراكز الأبحاث فيها والتي يتم تمويل معظم بحوثها عن طريق المعونات الأجنبية التي تنفق في معظمها على صورة مكافآت مجزية لموظفيها، ويعتبر مركز بحوث النيل في مصر واحدًا من أكثر هذه المراكز تلقيًا للمعونات والمنح، ومما يزيد من المخاوف قلة المعلومات التي تنشر عن المبادرة والتي تجري دون أي مشاركة وبواسطة فنيين جرى اختيارهم دون أن يعلم أحد شيئًا عن مدى خبرتهم أو ثقافتهم السياسية.

نهر النيل هو حياة مصر لا يجوز أبدًا أن يترك أمر تنميته والحفاظ عليه إلى غير أهله، ولمصر في هذا المجال دور مهم، فهي الوحيدة من بين دول الحوض المؤهلة لتقديم مشروع جديد ومتكامل وقابل للتصديق لتنمية حوض النيل يمكن أن يجعل من النهر جسرًا للصداقة بدلاً من مصدر للنزاع بين دوله.

وقد أعطيت في هذا المقال بعضًا من الأمثلة لما يمكن أن يحل مشاكل توزيع المياه دون الحاجة إلى تدخل أجنبي أو اللجوء إلى الاقتراض، فقد أثبتت التجربة أن للمشروعات والسدود الصغيرة أثرًا كبيرًا في الاستفادة من مياه الأنهار، وأن حسن الاستفادة من مصادر المياه المتاحة خارج وادي النيل مما يمكن أن يقلل فرص النزاع ويزيد من إمكانيات كل بلاد الحوض. ■



بقبول مصر المشاركة في هذه المبادرة تكون قد حادت عن موقفها التاريخي بعدم فتح ملف إعادة توزيع مياه النيل ووافقت على ما درجت دول أعالي الحوض على المطالبة به لاعتبارات سياسية كانت تؤججها بيوت الخبرة الأجنبية وشركات المقاولات والمياه العالمية بسبب أن مصر تحصل على النصيب الأكبر من مياه النيل ولا تترك إلا القليل لغيرها من دول الحوض

كتاب الزاوية

المسحراتى
من أشعار فؤاد حداد

فؤاد حداد أحد شعراء العامية الكبار فى مصر، ومن الذين طوروا قصيدة العامية ونقلوها من مرحلة الزجل المباشر إلى مرحلة القصيدة . . عبّرت قصائده عن آمال قومية ورؤى حضارية جسورة، بدا ذلك واضحًا منذ ديوانه الأول «أحرار وراء القضبان» ثم فى دواوينه التالية: «حنبنى السد»، «بقوة العمال وبقوة الفلاحين»، «كلمة مصر»، «من نور الخيال فى صنع الأجيال» وديوانه الذى نعرض لمختارات منه «المسحراتى». توفى فؤاد حداد فى ١٩٨٥ .

١- يا هادى

إصحى يا نايم
وَحّدْ الدايم
وقول نويت
بكره إن حييت
الشهر صايم
والفجر قايم
إصحى يا نايم
وَحّدْ الرزّاق
رمضان كريم

**

مسحّراتى
منقّراتى
وانا بانادى
بعلو حسّى
يا دنيا حسّى
الحق بيّن
ومصر أولى
حققنا ثورة
وقمنا صخرة وعرقنا زيّن

تحرير الإنسـان العـربى

عـــزمى بشـــارة

■■ فى إحدى تلك الليالى العربية التى جمعت هذه الأمة أمام شاشات التلفاز ظهر حشدٌ من عشرات آلاف العراقيين وهو يستقبل فى مطار بغداد جرحى من شبابٍ وأطفالِ فلسطين قدموا للعلاج فى العراق. ظهر الشعبُ العراقى وهو يحمل الشباب والأطفال الفلسطينيين على الأكتاف ويهتف من أجل فلسطين. جرى ذلك فى عراق الحصار والظلم ونقص الأدوية والأغذية.

تفوق رمزية القضية الفلسطينية بالنسبة للعرب كل تصور، إنها القضية التى تبرِّر التظاهر فى دولٍ لا يبرّر فيها الجوع التظاهر، ولا يشفع فيها الظلّم للصراخ ضده. ولكن القضية الفلسطينية، التى تتحوّل إلى قضية إجماع قومى عندما يقرر الفلسطينيون أن يواجهوا (وفقط فى هذه الحالة)، تضع الحد بين الحق وبين الباطل فى أعينِ العربِ وتشقُّ فى المجتمع السياسى المتصحّر أخدوداً تتدفق فيه كل الإحباطات وكل النقمة وكل مشاعر الظلم، مشاعر الظلم المحلى التى أُسقطت نحو الخارج، ومشاعر الظلم الخارجى التى أقلقت راحة الداخل. الاحتجاج العربى يؤمن بالحق الفلسطينى إلى درجة اللجوء إليه من التناقضات الداخلية وإلى درجة تجعل لغة الألم التى تُتَرجَم إليها كل الآلام، مثل لغة الصلاة العربية أو اللاتينية التى يُترجم إليها شوق العذارى وتضرعات العجائز وآمال الفقراء.

كانت مسيرات الملايين فى المغرب واليمن وسوريا والعراق وفلسطين وعمان واتحاد الإمارات العربية ومصر تعبيراً عن غضبٍ وسخط وتضامن. كانت هذه باختصارٍ مسيراتَ احتجاج. ووجود أو غياب مشروع سياسى عربى على المستوى المحلى فى كل بلد على حدة وحده يقرّر إذا ما كان الغضب العربى، وإذا ما كانت مسيرات الاحتجاج مجرد سيلٍ عربيٍ صحراويٍ لا يكاد يروى ظما الأرضِ التى شقها حتُى يختفى مخلفاً وراءه شقاً أكبر من شقوق الجفاف العادية.

ولكن الاحتجاج لم يكن عادياً بل عاصفاً ومنتشراً يرافقه الغضب الليلى الذى تثيره الفضائيات العربية ويصلح على الأقل مؤشراً لما يجرى على الساحة العربية، سواء كان ذلك بالنسبة للأنظمة العربية أو بالنسبة للسفارات الأمريكية. ولذلك كان انعقاد القمة العربية الأخيرة والزعماء يشعرون فى مؤخرة رؤوسهم بنفس المتظاهرين الساخن ولهاثهم وهتافاتهم أكثر أهمية وأعظم مغزى مما تعود الناس على الاعتقاد. فالزعماء لا يحبّون الاجتماع بضغط من الجماهير.

كان اجتماع القمة تنازلا من قبل الأنظمة، وانضواء العراق تحت لوائه تنازل منها أيضاً، وتأكيد الثوابت العربية إنجاز جماهيرى، ومطالبة القمة العربية بإعلان الجهاد والحرب والتعامل مع انعقادها كمؤامرة تفريغ للانتفاضة من معناها وغير ذلك من ضروب الثرثرة هى من باب تحوّل العامية السياسية العربية ذات الطابع الخرافى الشعبوى إلى بث تليفزيونى حى بواسطة الهاتف، فـ«للديموقراطية الفضائية» وجهان، وجه حرية التعبير واجتياز الحدود القطرية والتحدث بالعربية الفصحى ووجه الشعبوية والخرافية والغيبية.

تحوّلت الانتفاضة بفعل العنصر الأول إلى قضية عربية حاضرة فى كل بيت وأعادت للقضية الفلسطينية أبعادها العربية، ولكن العنصر الثانى كاد يحوّلها إلى قضية دينية جعلت قضية الأقصى جوهر الصراع. ليست معركة التحرر الوطنى الفلسطينى حرباً دينية ولا انتفاضة القدس والأقصى حرباً عقيدية رغم بعدها الدينى ورموزها الدينية. لا يوجد فى الحرب الدينية ظالم ومظلوم، ولا مستعمِر ومستعمَر، بل صراع بين حقّين مطلقينَ لا يستطيع التمييز بينهما إلا المؤمنون بهما. ومع ذلك تكاد لا توجد حرب تحررية دون بعد دينى أو رمزى يُضاف إلى دوافع المجاهدين المقاتلين وإلى رموز الوطن والوطنية ولا يخلو الأمر حتى من بعد عقيدى فى بعض الحالات وذلك عندما تصبح العقيدة من مكوّنات الهوية. لا تلغى هذه الأبعاد ويجب ألا تلغى خصوصية التحرر الوطنى كتحرر من الاحتلال أو الاستعمار أو الأبارتهايد. معركة الفلسطينيين هى معركة مستعمَر بمستعمر، وقد وُلدت منظمة التحرير الفلسطينية من رحم النضال من أجل عودة اللاجئين وتحرير فلسطين فى القدس الشريف عندما كان الأقصى تحت السيادة العربية الإسلامية فى العام ١٩٦٤.

ليست انتفاضة الأقصى انتفاضة دينية بل انتفاضة وطنية شاملة اتخذت من الحرم القدسى الشريف رمزاً لها. والأقصى مقدّس للمتدينين وغير المتدينين كرمز وطنى فلسطينى، والخلاف مع إسرائيل ليس على قدسيته للمسلمين بل على احتلاله من قبل إسرائيل، ليس الصراع بين الأقصى وحائط المبكى بل بين الشعب الفلسطينى والاحتلال، وليست الحرب بين المسلمين واليهود بما هم كذلك، وإنما بين دولة إسرائيل كدولة احتلال وبين العرب كواقعين تحت الاحتلال أو كدول وشعوب معتدى عليها، شعوب تعتبر إسرائيل عائقاً أمام تطورها.

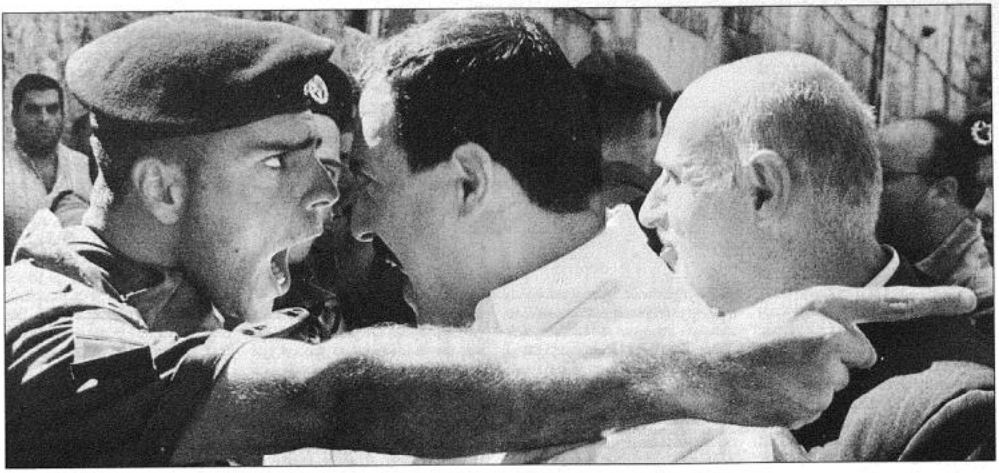
الانتفاضة صراع بين ظالم ومظلوم، بين ضعيف وقوى. ولكن صورة المظلوم الضحية غير كافية لإثارة التضامن. فمن أجل أن يتحول التعاطف من مجرد شفقة إلى تضامن يجب أن تكون الضحية ذات سياسة فاعلة وصاحبة مشروع. هذا هو التضامن السياسى، إنه تضامن مع مشروع سياسى. الضحية الضعيفة تستدر الشفقة، ومن أجل التضامن لا يكفى أن تكون الضحية صاحبة حق، بل يجب أن تكون أيضاً صاحبة إرادة سياسية لإحقاق هذا الحق.

لا توجد قوات إسرائيلية داخل المدن الفلسطينية (عدا الخليل والقدس) منذ انتهاء المرحلة الانتقالية ولقد تكرّست فى الأذهان أكثر مما ينبغى صورة الشبان الباحثين عن الجنود الإسرائيليين خارج المدن الفلسطينية لا من أجل مقاتلتهم بل من أجل الاستشهاد بتزويد القناصة الإسرائيليين بأهدافٍ متحركة.

لقد استشهد فى انتفاضة الأقصى خلال أول أسبوعين أكثر مما استشهد خلال أربعة أشهر من الانتفاضة الأولى، وذلك ليس فقط لأن أجهزة إسرائيل الأمنية قد استنتجت ما استنتجته من استمرار الانتفاضة الأولى سنين طويلة فواجهت المظاهرات الغاضبة بنيرانها الغزيرة إلى درجة التعامل معها كأنها خصم مسلح يمثّل مباشرةً الكيان الفلسطينى الناشىء، وإنما أيضا لأن الشباب الفلسطينيين قد خرجوا للمواجهة بصدور مشرعة. كان هذا النمط من النضال صالحاً فى المواجهات مع الجنود الإسرائيليين داخل المدن التى سرعان ما كانت تتحول إلى ملاحقات بين الأزقة، على الأقل فى السنة الأولى للانتفاضة الأولى عندما كان المجتمع الفلسطينى بأسره فى مواجهة مع الاحتلال

انتفاضـــة الأقصـــى

انتفاضة وطنية شاملة اتخذت من الحرم القدسى الشـــريف رمزاً لها. والأقصى مقـدّس للمتدينين وغير المتدينــين، والخـلاف مـع إسرائيـل ليــس علـى قدســيته للمسـلمين بل على احتلالــه مــن قبـل إســرائيل



بأشكال مختلفة ما لبثت أن تحولت إلى تنظيم خلايا مسلحة.

هذه المرة انطلقت مظاهرات الاحتجاج الشبابية لملاقاة الجنود خارج التجمعات السكنية مقدمة للجنود الإسرائيليين دون أن يتحركوا من مواقعهم أهدافاً للقنص. ولأن الكيان الفلسطيني الوليد قائم وحي يرزق بأربعين ألف شرطي فلسطيني مسلح فإن معنى تنظيم الخلايا المسلحة هو مبادرة إسرائيل لتحويل المواجهة إلى ما يشبه الحرب غير المتكافئة والتي يصعب تحويلها إلى حرب عصابات دون عمق عربي تلجأ إليه. فإسرائيل تحيط المناطق الفلسطينية من جميع الجهات كما أنها قادرة على محاصرة كل مدينة وقرية فلسطينية على حدة، وسوف يكون من الصعب جرها لمعاودة احتلال التجمعات السكنية الفلسطينية لتعود المواجهة المسلحة وغير المسلحة المباشرة ضد من يحكم المجتمع الفلسطيني مباشرة.

استراتيجية الانتفاضة غير واضحة إذاً، ويصعب تحويل التعاطف العربي الحقيقي إلى تضامن سياسي فعال مع ما يبدو كاستمرار للمواجهات على نقاط التماس مع إسرائيل كما كان الحال في كل أزمة تفاوضية في الأعوام الأخيرة مع الفرق أنها على نطاق أوسع وأشمل، ولكن التفاوض هذه المرة يدور حول الحل الدائم والعناصر الأساسية المكونة للقضية الفلسطينية.

لا يقارب التحرك الجماهيري العربي ولا يشبه باتساعه وصدقه وحماسه إلا التحرك العربي عام ٥٦ تضامناً مع مصر. ولكن في حينه لم يكن التضامن مع ضحية عدوان فحسب بل مع مشروع وطني قومي بدا مبشراً بالخير وبالنصر وبالكرامة، وربما أيضاً مع نموذج يبشر بحياة أفضل في كافة أرجاء الوطن العربي. هل كان هذا الإيمان الحقيقي وهماً؟ ربما، ولكنه غير متوافر حالياً. لا يوجد إيمان بمشروع لأنه لا يوجد مشروع. وما يعوض عن غياب المشروع هو رمزية ومركزية القضية الفلسطينية والقدس والأقصى التي حولت محمد الدرة إلى شهيد ليس ككل الشهداء. لقد استثارت الانتفاضة الجماهير العربية بفضل البعد القومي للقضية الفلسطينية، ولكن الانتفاضة ليست تعبيراً عن مشروع قومي فهل هي تعبير عن مشروع وطني فلسطيني على الأقل؟

انتفاضة الأقصى والقمع الإسرائيلي الدموي هي استمرار للصراع الذي دار في مفاوضات كامب ديفيد بوسائل أخرى. لقد انتهت المرحلة الانتقالية من مفاوضات أوسلو دون أن يتوصل «الطرفان» إلى اتفاق حول المبادئ التي يجب أن يصاغ على أساسها الحل الدائم للقضية الفلسطينية، وذلك كتسوية تاريخية «بين الطرفين». ولقد حدد اتفاق أوسلو في حينه قضايا الحل الدائم بالعناصر التالية: اللاجئين، السيادة، الحدود، القدس، الاستيطان.

ولكن اتفاق أوسلو حدد الأسئلة ولم يجد الأجوبة. وتجربة الثماني سنوات الانتقالية التي كان من المفترض أن تبني الثقة بين الطرفين أدت في الواقع إلى العكس. فقد حاول الطرف الإسرائيلي أن يستغلها لتحويل وجهة نظره حول الحل الدائم إلى وقائع على الأرض، وتحولت الإجابات الإسرائيلية حول مسائل الحل الدائم بالتدريج إلى قضايا إجماع صهيوني تجلت في برنامج باراك الانتخابي الذي لم يأخذه العرب بالجدية الكافية إذ كانوا مشغولين بالاحتفال بهزيمة نتانياهو.

وقد قلنا وكتبنا في حينه أن باراك ونتانياهو يمثلان وجهتي نظر متقاربتين بالنسبة لعدم جدوى «التنازلات» الإسرائيلية في المرحلة الانتقالية، أي دون التزام فلسطيني بوجهة الحل الدائم. وهذا يعني أن نتانياهو وباراك لم يرغبا بتطبيق أي التزامات لها علاقة بالانسحاب وإعادة الانتشار أو إطلاق سراح السجناء «مجاناً» في إطار المرحلة الانتقالية ودون تنازلات فلسطينية فيما يتعلق بالحل الدائم. وقد حاول نتانياهو عرقلة «إعادات الانتشار»، الأمر الذي أدى إلى أزمات متوالية وإلى ضغط دولي ومحلي إسرائيلي عليه، أجبره على تنفيذ بعض منها في اتفاقيات «واي». ولكن باراك الذي يشارك نتانياهو وجهة النظر هذه لم ينفذ أي إعادة انتشار سوى ما التزم بها نتانياهو. مع الفارق أنه لم يوجه لباراك أي ضغط دولي ولا محلي، بل على العكس فالضغط المحلي الموجه لباراك يأتي من اليمين. لقد اضطر نتانياهو إلى تجميد البناء في مستوطنة جبل أبو غنيم جنوبي القدس تحت ضغط دولي ومحلي إسرائيلي وفلسطيني، ولكن باراك عاود البناء. ويتم حالياً تسويق شقق هذه المستوطنة للبيع دون ضجة تذكر.

النقاش بين شقي المجتمع الإسرائيلي الأساسيين لا يحتدم حول التزامات المرحلة الانتقالية إذاً، وكان هذا موضوع التظاهرات السابقة على نقاط التماس طيلة الأعوام الماضية، كما أنه لا يدور حول مبادئ الحل الدائم، وإنما يدور النقاش حول الحل الدائم ذاته تحت سقف هذه المبادئ. أي إذا اتفق الليكود وحزب العمل على أنه لن تكون عودة للاجئين الفلسطينيين إلى حدود عام ١٩٤٨، وأنه لا انسحاب إلى حدود الرابع من حزيران ٦٧، وأن القدس الشرقية لن تكون تحت السيادة الفلسطينية وأن غالبية المستوطنين باقية تحت السيادة الإسرائيلية، يبقى الخلاف على مساحة الدولة الفلسطينية ونوع صلاحياتها وطبيعة علاقتها بإسرائيل وبالدول العربية المحيطة. ولا شك أن النقاش على حجم ومساحة الدولة ومدى ممارستها لسيادتها على الحدود هو النقاش الأكثر أهمية. وضمن هذا النقاش ذهب باراك بعيداً إلى درجة طرح سيادة فلسطينية على أحياء عربية في القدس وإلى توسيع مساحة الكيان الفلسطيني مع بقاء ٨٠٪ من المستوطنين تحت السيادة الإسرائيلية على مساحة لم تحدد بعد من الأرض تتراوح بين ٨ ـ ١٥٪ من أرض الضفة (دون القدس)، وبقاء مساحات أخرى تحت سيطرة أمنية إسرائيلية خاصة في الأغوار.

لم يطرح باراك هذه الأفكار في كامب ديفيد بل طرحتها الولايات المتحدة التي تفاهمت مع إسرائيل قبل طرحها، أي أن أمريكا في كامب ديفيد فاوضت لأول مرة باسم إسرائيل. ولم ترغب إسرائيل بالالتزام بهذه الأفكار قبل أن تسمع الرد الفلسطيني عليها كاقتراحات أمريكية أولاً.

هكذا اعتقد باراك ومعه ائتلافه الحاكم أن هذه الأفكار التي كفلت فك الائتلاف الحاكم وانسحاب وزير الخارجية وكتلة المهاجرين الروس منه سوف تلقى قبولاً إن لم يكن ترحيباً لدى القيادة الفلسطينية. لأن الحسابات التي يجب أن تتم من وجهة النظر الفلسطينية برأيهم هي حسابات منطق عملية السلام ذاتها، أي حسابات موازين القوى المحلية والإقليمية والعالمية.

وبموجب هذا المنطق يحسب «الفلسطيني المُفتَرَض» إسرائيلياً ما يلي: (١) لا يمكن تحصيل ما هو أفضل من هذه الاقتراحات ضمن الخارطة السياسية الإسرائيلية القائمة؛ (٢) لا يمكن تحصيل ما هو أفضل منها ضمن الخارطة الأمريكية القائمة؛ (٣) قوى التسوية العربية أكبر وزناً وأهمية من القوى المعادية للتسوية، والقوى العربية المؤيدة للتسوية (مصر والأردن) تقبل هذا المنطق وتفهمه، بل وتدفع من أجل قبوله. وفعلاً لم تبذل أي دولة عربية مؤيدة أو معارضة للتسوية جهداً يذكر لإثناء الفلسطينيين عن قبول هذه الاقتراحات في كامب ديفيد، وسادت حالة انتظار عربية أن يوقع ياسر عرفات، أو حالة تكهن في أفضل الحالات ودون محاولات جدية للتأثير على القرار.

ولكن مشكلة الإسرائيليين أنهم يفاوضون «فلسطينياً مفترضاً»، تماماً كما حاولوا مفاوضة سورياً مفترضاً طيلة العام المنصرم. ومقابل اليمين الإسرائيلي يشعر اليسار أنه أكثر أهلية لافتراض نوايا ودوافع الطرف الآخر ضمن عملية التسوية. يفترض اليمين أن العرب هم خصم لا يمكن أن يسلم بوجود إسرائيل وبالتالي فإن التسويات تفرض عليهم فرضاً، بغض النظر عن النوايا. أما اليسار الصهيوني فيفترض تاريخياً أنه قادر على إقناع الشعوب العربية بوجاهة منطقه. والمشكلة برأيه تكمن دائماً عند «الزعماء المتطرفين» أو «المتخلفين» الذي يستخدمون القضية الفلسطينية كوسيلة لتقوية نفوذهم بصرف أنظار شعوبهم عن مآسيها الداخلية وعن تخلف ممارسات الأنظمة والزعامات.

وعلى أية حال فقد افترض باراك أن سوريا سوف تقبل ما يعرضه عليها، أي الجولان بأكمله ما عدا الشاطئ الشمالي الشرقي لبحيرة طبريا. هكذا وضع باراك خيارين أمام السوريين، إما قبول ما يقترح أو الانسحاب من لبنان من طرف واحد. وقد بلغت صورة السوري بأعين الإسرائيليين من اتساع الانتشار وعمق القناعة أن بعض العرب صدقوا أن المقاومة اللبنانية ليست بنظر السوريين إلا ورقة تفاوضية في الجولان. وثارت شائعات لم يعتذر عنها أحد لسوريا، إن سوريا عملياً قد اتفقت مع إسرائيل وما على الفلسطينيين إلا المسارعة بدورهم لقبول ما يطرحه باراك.

وانتهت الأمور كما انتهت. لم تغير سوريا موقفها بشأن ضرورة انسحاب إسرائيل إلى حدود الرابع من حزيران وانسحبت إسرائيل من طرف واحد من لبنان.

تحرير فلسطين

وهنا فى هذه الحالة بالذات يظهر أن المفاهيم الإسرائيلية والعربية فى الصراع يأتيان من سياقين مختلفين لا علاقة بينهما. فقد تصور باراك أن انسحابه من لبنان من طرف واحد يشكل ضغطاً على العرب، كما اعتقد مخطئاً أن الانسحاب من طرف واحد يشكل انتصاراً لإسرائيل لمجرد انه قطع وعداً للناخبين الإسرائيليين والتزم به.

ولكن فى ذلك العالم الآخر الذى لم يلجه باراك إلا مقاتلاً، بل قل قاتلاً، بدا الانسحاب الإسرائيلى من طرف واحد كهزيمة مادية، وكهزيمة معنوية تبلغ قيمتها أضعاف تلك المادية. وقد ثبت بدرجة عالية من اليقين أن انتصار المقاومة اللبنانية المعبر عنه باضطرار إسرائيل إلى الانسحاب دون اتفاقيات كان عاملاً أساسياً فى نشوء الحالة العربية الشعبية التى نراها. وفى تصليب الموقف التفاوضى الفلسطينى وفى رفع معنويات الشعب الفلسطينى الكفاحية. كان باراك قادراً لو تفاوض مع السوريين واللبنانيين الحقيقيين إلى الخروج باتفاقيات سلام مع سوريا ولبنان، ولكنه تفاوض مع بشر من صنع خياله وليس مع العرب الفعليين. وهذا هو الفرق بين السياسى فى المفاوضات والقائد العسكرى فى الحرب. القائد العسكرى يفترض نوايا الطرف الآخر ويضع خططه وبرامجه بناءً على تقدير لنوايا وخطط الطرف الآخر. ولكن المفاوض السياسى يستطيع أن يحاور الطرف الآخر والتشكيك بنواياه ويتعرف عليه. لقد أصر باراك أن يتصرف فى المفاوضات كقائد عسكرى. وتتكرر هذه الحالة فلسطينياً مع فارق واحد: أن بعض الفلسطينيين فى القنوات المتعددة التى فتحت مع الإسرائيليين أثناء التفاوض جعلوا الطرف الإسرائيلى يعتقد أن اقتراحاته مقبولة، وكان هؤلاء مشغولين فى عملية تنافس فلسطينى داخلى على الزعامة. ومن مقومات الزعامة الأساسية فى حقبة أوسلو اكتساب القبول الإسرائيلى الأمريكى. وفى الحالة الفلسطينية يضيع الفرق بين موظف الخارجية الذى يفاوض وبين السياسى، وتتحول القنوات المختلفة للتفاوض إلى علاقات متشعبة لنخب سياسية فلسطينية متنافسة على ود أمريكا وإسرائيل. ويبدو أنه حتى النخب الفلسطينية المتنافسة فى قنوات تفاوضية متنافسة، لم تدرك حتى لقاء كامب ديفيد حقيقة موقف صانع القرار الفلسطينى، ومدى قدرته على الصمود أمام الضغوطات الأمريكية والإسرائيلية. وحتى هذه اللحظة ورغم تفجر الانتفاضة الشعبية لا يستطيع أحد أن يفصل بيقين حقيقة الموقف الرسمى الفلسطينى، خاصة فيما يتعلق بالحدود والمستوطنات واللاجئين.

هل أصر الطرف الفلسطينى المفاوض على موضوع القدس لأنه اختلف عليه وحده ووافق على كافة الأفكار الأمريكية - الإسرائيلية الأخرى، أم أنه تمترس خلف هذا الموضوع ذى الأبعاد والمعانى الرمزية من أجل إفشال كافة الأفكار الأخرى؟! ما زالت الإجابة عن هذا السؤال ضرورية لأنها تحدد كيفية استخدام رصيد الانتفاضة النضالى.

مطالبة القمة العربية بإعلان الجهاد والحرب والتعامل مع انعقادها كمؤامرة تفريغ للانتفاضة من معناها وغير ذلك من ضروب الثرثرة هى من باب تحول العامية السياسية العربية ذات الطابع الخرافى الشعبوى إلى بث تليفزيونى حى بواسطة الهاتف

والأرجح أن يتحول الدم المسفوك فى هذه الانتفاضة المنطلقة من الأقصى إلى ضمان لعدم قبول الإملاءات الأمريكية الإسرائيلية. ولكن مازال الاحتمال قائماً لكى تستخدم الانتفاضة لتصوير العجز عن تغيير موازين القوى، وتخاذل الموقف العربى، وعدم قدرة الشعب الفلسطينى على احتمال هذه الضحايا اليومية دون إنجازات ملموسة. وهذا يبرر العودة إلى قبول ما لم يقبل فى كامب ديفيد بعد أن بذلت القيادة الفلسطينية ما بوسعها دون فائدة، والمطلوب فى هذه الحالة أن تتعاون أمريكا لتعديل بعض الاقتراحات الخاصة بالسيادة على الحرم القدسى الشريف. هكذا قد تتحول قضية الحرم من أصعب القضايا إلى أسهلها مقابل موضوعات مثل اللاجئين والحدود وليتبين أن الصراع فى نهاية المطاف ليس مجرد صراع على السيادة الإسلامية على الحرم.

بعد أن طرحت الأفكار الأمريكية فى كامب ديفيد «انتقلت الكرة» باللغة الأمريكية إلى الملعب الفلسطينى، وهذا يعنى أن رفضها من قبل الفلسطينيين يعنى رفض «السلام». وقد اتخذت الإدارة الأمريكية موقفاً واضحاً بعد المؤتمر يحمل الفلسطينيين مسئولية الفشل. واعتبرت إسرائيل كما هو متوقع هذه المرحلة إنجازاً دبلوماسياً لها. وبعد أن «خذل» عرفات باراك تبين أيضاً أن الموقف الأوروبى ليس مناصراً للسلام العادل وإنما لعملية السلام فحسب، هذا عدا تضامنها شبه الغريزى مع تيار حزب العمل فى السياسة الإسرائيلية.

الائتلاف الحاكم فى إسرائيل فى عهد باراك ومعه أوروبا الغربية التى تعتبر مجرد وجود هذا الائتلاف إنجازاً يجب أن يحافظ عليه العرب لا يكتفيان بوضع تصور خاطئ للعرب بل يشعران بخيبة الأمل والمرارة عندما لا يتصرف العرب بموجب صورتهم المتشكلة فى ذهن «قوى السلام» الإسرائيلية والأوروبية.

هذه العناصر الذهنية والنفسية لدى «قوى السلام» الحاكمة حالياً فى إسرائيل تضيف إلى القمع الاحتلالى الدموى ضد الانتفاضة عنصراً جديداً هو الغضب والنقمة وتصفية الحسابات وخيبة الأمل وتلقين الفلسطينيين درساً على «إفسادهم لعملية السلام» وإحراج «قوى السلام» الحاكمة أمام شعبها، فقد حاولت هذه أن تقنع الإسرائيليين بقبول كل «التنازلات» فى كامب ديفيد لأن الفلسطينيين يريدون السلام، وتأتى أحداث الانتفاضة لتثبت أن الفلسطينيين لا يريدون السلام. بهذه الفجاجة يتم التعامل مع الموضوع.

ولكن على أية حال لم تترك مفاوضات كامب ديفيد والحملة الدبلوماسية والإعلامية الإسرائيلية التى تلتها من مخرج أمام الشعب الفلسطينى إلا أن تلجأ لشعبها وفى هذه الصورة تبدو زيارة شارون غير المرحب بها فى الأقصى مجرد تفصيل.

ومع ذلك بالإمكان تخيل قدوم شارون إلى الحرم القدسى الشريف مستفزاً لعملية السلام دون انتفاضة تتلوه. ولكنه جاء فى فترة الأزمة بعد أن اتضحت المواقف، وربما أتى كنوع من ممارسة استفزازية للسيادة الإسرائيلية على الحرم. «والزيارات البريئة» دون هدف، أى بهدف الزيارة فحسب تثبت السيادة أكثر مما يثبتها الاحتلال العسكرى. ولكن شارون أراد أن يثبت السيادة كأمر مفروغ منه إلى درجة القيام بزيارة «بريئة» دون مناسبة فأثبت العكس، أى أنه لا توجد زيارة كهذه إلا وتتحول إلى إعادة احتلال عسكرى للحرم.

وبهذا الاحتلال أراد شارون أن يمتحن نوايا باراك. هل سيحرس باراك زيارة زعيم المعارضة إلى الحرم مثبتاً السيادة رغم أنف العرب أم سيتنازل عنها خوفاً من رد الفعل العربى. وقد نجح باراك فى امتحان شارون.

لقد اعتبرنا الانتفاضة والرد الإسرائيلى الحربى عليها، أو الاستفزاز الإسرائيلى والرد الفلسطينى النضالى عليه استمراراً للصراع الذى دار فى كامب ديفيد بوسائل أخرى. إنها تعبير عن صراع إرادات بين الحد الأدنى المقبول فلسطينياً كتسوية تاريخية ضمن الشرعية الفلسطينية والحد الأقصى المقبول ضمن الإجماع الوطنى الإسرائيلى، والذى يصر باراك أن يحافظ عليه عندما يتم الحديث عن تسوية دائمة مع الفلسطينيين. وما «لاءاته» التى فضحنا أمرها فى خضم معركته الانتخابية لرئاسة الحكومة إلا تعبيراً عن هذه السياسة.

بدأت الانتفاضة الفلسطينية كتعبير عن طلب الشعب الفلسطينى حق الكلام وكملجأ لجأت إليه القيادة الفلسطينية بعد أن حاصرها «الكرم» الإسرائيلى الباراكى دبلوماسياً، وبعد أن عُرضت أمريكياً بعد كامب ديفيد من أعلى مصدر ألا وهو الرئيس الأمريكى كرافضة «للسلام»، أى للأفكار الأمريكية المنسّقة مع باراك سلفاً وغير المتعارضة مع الإجماع الصهيونى الإسرائيلى.

وقد أفرزت شرنقة هذه الانتفاضة منذ بداياتها، خيطاً حديدياً يربط الشعب والقيادة الفلسطينية، لا فكاك منه دون المساس بقدس الشعب الفلسطينى وحرمه الشريف، وهى وحدته الوطنية فى مرحلة التحرر الوطنى. لقد أصبح من غير الممكن القبول بإملاءات باراك ـ كلينتون من كامب ديفيد حتى مع تعديلات وتغييرات فى التسميات.

ويخشى بعض الفلسطينيين أن الدم الفلسطينى المسفوك بسخاء (والإسراف بدم الشعب من قبل القيادة أمر غير محمود)، لن يمنع البعض الآخر من استخدامه لتبرير العجز. خاصة وأن حجة عدم تحرك العرب رسمياً كدول جاهزة دائماً، والحجة والتبرير حاضران: «حاولنا ولم يسعفنا أحد، ولا نستطيع الاستمرار بهذا العدد من الشهداء يومياً ـ وما علينا إلا قبول ما لم يُقبل قبل الانتفاضة». وبهذا تتحول الانتفاضة من سند لرفض الإملاءات إلى مبرر لقبولها. والحقيقة أنه على من يريد الاستمرار فى النضال والكفاح، وعلى من ينشد حلاً عادلاً لا مجرد تسوية ناجمة عن موازين القوى اللحظية وعن براجماتية لحظية، أن ينطلق من بعض المسلمات من أجل وضع استراتيجيته: (١) أنه لا يوجد حل عادل ودائم للمسألة الفلسطينية على المدى القريب؛ (٢) هذا الأمر لا يستثنى تسويات مؤقتة لا تنهى الصراع شريطة ألا تحمل توقيعاً فلسطينياً يتنازل عن حق العودة أو عن القدس؛ (٣) إن الصراع من أجل حل عادل ودائم هو صراع طويل الأمد وموضوعه ليس «الأقصى» المبارك أو القدس الشريف بل موضوعه هو العدالة للشعب الفلسطينى والتحرر من آخر استعمار واحتلال سافر، وبهذا المعنى فإن الأقصى والقدس هى أراضٍ واقعة تحت الاحتلال وأن قدسيتها هى حافزٌ للنضال من أجل تحريرها. ولكن قدسيتها لا تجعل احتلال أراضٍ فلسطينية أخرى والاستيطان فيها أموراً مبرَّرة بغياب القدسية؛ (٤) أنه إذا لم يتم إيجاد أو فرض حل مقبول لقضية الاحتلال بواسطة تقسيم فلسطين بين دولتين سينشأ تقسيم جديد هو بين شعبين على نفس الأرض وفى نفس نطاق الهيمنة، أى فى نظام الأبارتهايد.

على هذه المسلمات تبنى استراتيجية التحرير التى لا تفصل بين تحرير الوطن وتحرير الإنسان. ولا تستطيع إسرائيل أن تحافظ على نظام أبارتهايد مع الشعب الفلسطينى فى الضفة والقطاع دون استيراده إلى داخل الخط الأخضر.



كل من يستعجل الحل حالياً يعني القبول بالاقتراحات الأمريكية الإسرائيلية وقد عدلتها الانتفاضة الفلسطينية في بعض نواحيها إيجابياً، وسلبياً في نواحٍ أخرى متعلقة بالاحتياطات الأمنية الإسرائيلية. رفض الاقتراحات الإسرائيلية المعدلة والتي سوف تتعدّل سلباً مع كل خطوة تنفيذ وكلما اقتربت من ملامسة الواقع ذاته، رفض هذه الاقتراحات يعني الاستعداد للنضال على المدى البعيد. والنضال على المدى البعيد يعني عدم تبذير جاهزية الشعب الفلسطيني الكفاحية بسرعة وقصر نفس نضالي يرافقه عدد كبير من الضحايا وإنجازات لا تتناسب مع حجم التضحيات وصولاً الى اليأس والقنوط. واليأس والقنوط يعني القبول بالتسويات غير المقبولة سابقاً، اي الاستسلام. في حين يعني النفس الطويل ترشيد التضحية ووسائل النضال وتوزيع العبء على فئات اجتماعية واسعة.

من الممكن تحويل الجاهزية الكفاحية العلية للشعب الفلسطيني إلى نضال مستمر ترافقه حياة وإنتاج مادي وروحي وفكري، دون تمكين الاحتلال الإسرائيلي من محاصرة المدن والقرى الفلسطينية لا واقعياً ولا مجازياً، بل بالإمكان محاصرته هو على الارض كاستيطان، وعالمياً كمحاولة استعمارية بقيت مدللة حتى اليوم.

يجب أن نعلم العالم، والمقصود ليست ملكة السويد ولا آل جور، بل الشعوب ومؤسسات المجتمع والقوى السياسية الفاعلة فيه أن إسرائيل هي نظام أبارتهايد يقمع حقوق الإنسان والمواطن. ولا تستطيع الدول العربية أن تقنع أحداً بذلك لأنها بذاتها لا تحترم حقوق مواطنيها تحديداً. المجتمع الفلسطيني والمجتمعات العربية هي القادرة على إقناع العالم بشرط أن تفرز قواها الاجتماعية والسياسية خطاباً سياسياً إعلامياً متنوراً ووطنياً صلباً في الوقت ذاته، وليس غيبياً ومزايداً على مستوى الشعار ومتقاعساً وواقعياً إلى درجة تغييب كل شيء عدا المصلحة المادية المباشرة عند التطبيق.

وبإمكان هذه القوى الاجتماعية أن تبتز الدول العربية والإسلامية ذاتها لتضع إمكانيات كبيرة تحت تصرفها.

تصعب الانتفاضة حتى مجرد البحث عن بنية لها. ويبدو واضحاً أنها تفتقر إلى بنية هرمية على الأقل. إذ لا توجد قيادة ميدانية واحدة توجه فعالياتها في كافة الأقاليم، واشك إذا كانت توجد قيادة ميدانية واحدة على مستوى المدينة الواحدة. إذ يبدو واضحاً ان التنافس بين الاجهزة الامنية الفلسطينية قد انتقل إلى صفوف تنظيم فتح ذاته. وإذا سلمنا بوجود قيادة سياسية واحدة متفق عليها ألا وهي السلطة الفلسطينية أو ياسر عرفات تحديداً، فلا يبدو أن الانتفاضة تفجرت بناء على استراتيجية محددة أو أن هنالك استراتيجية سياسية تحكم استمراريتها.

اتفاق أوسلو حدد الأسئلة ولم يجد الأجوبة. وتجربة الثماني سنوات الانتقالية التي كان من المفترض أن تبني الثقة بين الطرفين أدت في الواقع إلى العكس. فقد حاول الطرف الإسرائيلي أن يستغلها لتحويل وجهة نظره حول الحل الدائم إلى وقائع على الأرض

وإذا توافرت استراتيجية سياسية تتعامل مع الانتفاضة كتكتيك يهدف إلى تحسين الموقع الفلسطيني التفاوضي من أجل تعديل الاقتراحات الأمريكية فمن الواضح أن الهدف يكون تكثيف الانتفاضة والتلويح بعدم الاستقرار الذي تثيره لكي تؤدي إلى ضغط عالمي على إسرائيل. وإذا تم التعامل مع الانتفاضة كاستراتيجية بعيدة المدى، أي كنضال مفتوح بغض النظر عن صوره وأشكاله يكون المهم هو ديمومة الانتفاضة، وهذا يتطلب التقليل من حجم الخسائر الفلسطينية مما يناقض التباهي بعدد الشهداء، والقيام بنشاطات نضالية تؤذي إسرائيل دون جرها إلى محاصرة القرى والمدن الفلسطينية.

ولا أعتقد أن السلطة الفلسطينية قد اختارت أحد الخيارين ولذلك فإن الانتفاضة تدار من يوم إلى آخر بانتظار الفرج، أو بانتظار تغيير إقليمي أو دولي، أو بانتظار حدث عظيم يقع نتيجة لديناميتها الداخلية مثل أن ترتكب إسرائيل حماقة كبرى.ومع ذلك يبدو أن السلطة الفلسطينية في فترة إدارة الأزمات هذه، تحمل الرأي العام الفلسطيني على محمل الجد وتضطر إلى مسايرته أو تختار التجاوب معه بشكل لم يسبق له مثيل. وحتى في المراحل التي تجاوبت فيها القيادة الفلسطينية مع دعوات دولية للتهدئة مثل قمة شرم الشيخ واجتماع عرفات - بيريز وغيرها، حتى هنالك تبين أن إدانة هذه الاجتماعات جاءت متسرعة وأن القيادة الفلسطينية كانت في الواقع في كل مرة تمتص ضربة عسكرية إسرائيلية محتملة وتجهضها.ولكن هذا التجاوب مع الرأي العام الفلسطيني لم يكن تعبيراً عن استراتيجية بقدر ما هو تشخيص لحالة الانسداد التي تواجهها المفاوضات وبالتالي عدم توافر مبرر للصدام مع الرأي العام الفلسطيني.

لقد اتضح في كامب ديفيد وطيلة سنوات التفاوض السابقة أن القيادة الفلسطينية تفهم التسوية التاريخية في الواقع على أنها مبادلة حقوق الشعب الفلسطيني من العام ١٩٤٨، بحقوق الشعب الفلسطيني في العام ١٩٦٧، أو المساومة بين الغبن الذي لحق بهذا الشعب عام ١٩٤٨ بالغبن الذي لحق به عام ١٩٦٧، وبهذا المعنى تتنازل القيادة الفلسطينية عن حق العودة إلى فلسطين فعلياً وتطالب إسرائيل بالاعتراف به رمزياً، كما تتنازل عن أي مطلب متعلق بارض فلسطين في العام ١٩٤٨، كل هذا مقابل تطبيق إسرائيل لقراري مجلس الأمن ٢٤٢ و-٣٣٨ وإقامة دولة فلسطينية وعاصمتها القدس الشريف.

ولكن القيادة الفلسطينية وجدت نفسها تفاوض على أراضي عام ١٩٦٧ بما في ذلك قبول ٨٠٪ من المستوطنين على الأرض تحت السيادة الإسرائيلية، دون تحقيق سيادة فعلية في القدس الشريف أو على الحدود. وهكذا تبين أن إسرائيل لا تتنازل عن كل ما احتلته عام ١٩٦٧، من أجل تثبيت شرعية وجودها بأمن وسلام في حدود ١٩٤٨، وإنما تطمع لتثبيت بعض مما احتلته في عدوان ٦٧، كما تبين أن إسرائيل تتعامل مع موضوع اللاجئين ليس كموضوع تفاوض وتنازل فلسطيني، وإنما كموضوع مفروغ منه ويكاد يكون خارج التفاوض.

تفاوض إسرائيل من أجل تحقيق فصل ديموغرافي يحافظ على الدولة اليهودية، ولديها أسبابها للاعتقاد أن هذا الفصل الديموجرافي على أساس دولتين واحدة يهودية والأخرى عربية يتنافى تماماً وحق العودة. وحق العودة لا يعني العودة بقوة التحرير بل يعني التزام الأطراف بالعودة في اتفاق، أي عودة اللاجئين إلى دولة إسرائيل، وهذا أمر مستحيل التحقيق في المبنى السياسي القائم.

على أية حال لا تفاوض إسرائيل من أجل إحقاق العدالة للشعب الفلسطيني، وإنما بغرض إحقاق الشرعية والأمن لها في المنطقة ضمن أكبر فصل ديموغرافي ممكن مع العرب يحافظ على يهودية الدولة اليهودية. وهي تعلم أن الثمن الذي عليها أن تدفعه هو قبول الدولة الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات ومحاولة تحديد سيادتها قدر الإمكان.

وقد تجذرت في الآونة الأخيرة في السياسة الخارجية الأمريكية والأوروبية والإسرائيلية قناعة مفادها أن أولوية القيادة الفلسطينية الأساسية هي قضية الدولة، وأن الدولة تحول بقية القضايا إلى تفاصيل ثانوية يمكن الوصول إلى حل وسط بشأنها، مثل قبول ضم ١٥٪ من الأرض إلى إسرائيل مثلاً وعليها ٨٠٪ من المستوطنين (وبالإمكان تضييق الرقعة أكثر في المفاوضات «كتنازل إسرائيلي» وزيادة عدد المستوطنين عليها)، وبدون سيادة فلسطينية على عاصمة دولة فلسطين شرقي القدس، تسمى أحياء معينة باسم القدس ويمنح الفلسطينيون فيها إدارة ذاتية.

ما الذي يحصل هنا؟ إسرائيل تفاوض على الحل الدائم بتجزئة القضايا بمنطق المرحلة الانتقالية. والفلسطينيون بدأوا المفاوضات بالحد الأقصى من التنازلات وبعد قبول مبدأ التسوية التاريخية على أساس خطوط ٦٧. وهذا يعني أن أي تفكيك وتجزئة لما تبقى ولم يتنازل عنه الفلسطينيون في وثيقة أوسلو ذاتها هي عبارة عن قطع باللحم الحي بالنسبة للشعب الفلسطيني.

لا يمكن التوصل إلى حل دائم بين هذين المنطقين المختلفين. أي أن التسوية التاريخية تتطلب إما تنازل أحد الطرفين عن نهجه التفاوضي ومنطقه أو تنازل كليهما. والطريق إلى مثل هذا التنازل حالياً هو كسر الإرادة الفوري أو استنزاف الطرف الآخر على المدى البعيد. ولا يستطيع الفلسطينيون كسر إرادة إسرائيل فورياً وإنما إجراء بعض التعديلات على اقتراحاتها.

ما يلزم إذاً هو استراتيجية بعيدة المدى. وهذا يتجاوز مجرد لعب دور الضحية. وكل إنجاز اقتصادي وإداري واجتماعي وسياسي على الأرض دون التوقيع على تنازل عن حقوق الشعب الفلسطيني هو إنجاز ضد إسرائيل وضد الاحتلال.

وسوف يكون لزاماً على أي قيادة فلسطينية شرعية أن تجد السبل لترك القضية الفلسطينية مفتوحة دون توقيع على تنازل عن أي مركب من مركباتها، وفي الوقت ذاته أن يتاح للشعب الفلسطيني بناء ذاته واقتصاده وتطوير نفسه كمجتمع وأن يتواصل النضال ضد الاحتلال. والمطلوب هو وضوح الهدف وتوفر عنصري الإرادة والمثابرة من أجل تحقيق هذا الهدف دون البحث عن طرق مختصره ووعرة.

وتتطلب هذه الاستراتيجية النضالية استراتيجية إعلامية ترافقها على مستوى الرأي العام العالمي. ولدى العرب بشكل عام ميل للاستخفاف بالرأي العام العالمي كونه منحازاً بصورة قبلية لإسرائيل. والواقع أن هذا الموقف العربي الشعبوي لا يتجاوز «فشة الخلق» بالعامية الفلسطينية. وهو في الواقع العملي اعتراف بالعجز، أو تعبير عن عدم رغبة بتوفير متطلبات الصراع مع إسرائيل على الرأي العام. فالذي يريد أن يدافع عن حقوق الإنسان الفلسطيني لا بد ان يسأل عن مدى احترامه هو لحقوق الإنسان والمواطن في بلده.

لا تستطيع الأنظمة العربية أن تدافع عن حقوق الإنسان الفلسطيني التي ينتهكها الاحتلال الإسرائيلي، وليست لديها مصداقية لذلك، وهي لن تغير تعاملها مع حقوق المواطن في بلدها من أجل تحسين صورتها ليصبح بإمكانها الدفاع عن حقوق الإنسان الفلسطيني. وهي تفضل، لو

أمريكا في كامب ديفيد فاوضت لأول مرة باسم إسرائيل. ولم ترغب إسرائيل بالالتزام بهذه الأفكار قبل أن تسمع الرد الفلسطيني عليها كاقتراحات أمريكية أولا. هكذا اعتقد باراك ومعه ائتلافه الحاكم أن هذه الأفكار التي كفلت فك الائتلاف الحاكم وانسحاب وزير الخارجية وكتلة المهاجرين الروس منه سوف تلقى قبولاً إن لم يكن ترحيباً لدى القيادة الفلسطينية

استطاعت، أن تنهى الصراع مع إسرائيل على أن تقف أمام هذا الخيار.

إن القوى القادرة على مواجهة العالم بحقوق الإنسان الفلسطيني في ظل الاحتلال الذي يتخذ شكل نظام فصل عنصري «أبارتهايد» هي القوى الاجتماعية والسياسية غير الرسمية العربية. فتضامنها مع الشعب الفلسطيني هو تضامن مشروع عربياً، ولا تستطيع الأنظمة العربية أن تواجهه بالقمع، وفي نفس الوقت يعتبر نضالها التضامني مع الشعب الفلسطيني، ومع حرية الإنسان الفلسطيني، نوعاً من التحرير الذاتي ونوعاً من التمرن والتمرس على النضال من أجل حرية الإنسان العربي. فالدفاع عن حرية الإنسان الفلسطيني لا بد أن يؤدى في النهاية إلى تطوير الانعتاق الذاتي كهدف وكحلم.

وحتى على مستوى المعارك القومية العامة فإن إقامة جهاز إعلامي عربي مشترك ومستقل عن الأنظمة العربية رغم اضطرارها لتمويله، يهدف إلى اختراق الرأى العام الغربي ويجند خيرة المثقفين العرب من أوروبا والولايات المتحدة في جهد مشترك لاختراق الخطاب الغربي السائد حول القضية الفلسطينية، إن إقامة مثل هذا الجهاز تخدم في نهاية المطاف قضايا عربية مشتركة أخرى مثل قضية العراق وغيرها.

والأهم من هذا كله أن التوجه نحو الرأى العام العالمي يجبر القوى السياسية والاجتماعية العربية المؤهلة لذلك أن تعقلن وترشد خطابها السياسي ليصبح مقنعاً ومثيراً للتعاطف وليس فقط مهيجاً أو مثيراً. إذ لا يمكن التوجه إلى الرأى العام العالمي بشعار مثل «خيبر خيبر يا يهود، جيش محمد على الحدود»، وعلى فكرة لا علاقة لهذا الشعار بأهداف الانتفاضة أو بواقعها أو حتى بمزاجها السياسي. الانتفاضة الفلسطينية المجيدة ما زالت تبحث عن الخطاب الإعلامي والسياسي الناضج الذي يرافقها ويصل إلى مستوى تضحياتها، والقادر على استثمار هذه التضحيات لا تضييعها.

يقود التضامن العربي مع تحرر الإنسان الفلسطيني إذا ما تم بناؤه على استراتيجية صحيحة ليس فقط إلى تحرير القدس ولا الإنسان الفلسطيني فحسب وإنما أيضا الى تحرير الإنسان العربي. وبهذا المعنى فإن الشعب الفلسطيني يتحرر عندما يتحرر الإنسان العربي والعالم العربي من فلسطينيته.

لقد وقع الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال في نفس الحقبة التاريخية التي شهدت انعتاق الشعوب الأخرى من الاستعمار، وكلما تقدمت حركة التحرر من الاستعمار في العالم الثالث كانت القضية الفلسطينية تزداد تعقيداً. ولا شك أن هنالك عناصر مشتركة عديدة تجمع القضية الفلسطينية ببقية القضايا الوطنية في العالم الثالث، ولكن تعقيدها كامن فيما يميزها:

(١) تشابكها دولياً مع المسألة اليهودية؛

(٢) تشابكها مع المسألة القومية العربية.

لقد أدى تشابكها مع المسألة اليهودية إلى صعوبة التعامل معها دولياً كقضية استعمار

كان بـاراك قـادراً لو تفاوض مـع السـوريين واللبنـانيين الحقيقيين على الخروج باتفاقيـات سـلام مع سـوريا ولبنـان، ولكنه تفاوض مع بشـر من صنع خيالــه وليس مع العـرب الفعليين. وهـذا هـو الفرق بين السيـاسى فى المفاوضات والقائد العسـكرى فى الحـرب

لغياب دولة استعمارية أم، ولأن اليهود يشكلون قضية أقليات في كافة أنحاء العالم بما في ذلك ما يسمى بمسألة العداء للسامية التي وصلت حد محاولة إبادة يهود أوروبا. وأدى تشابكها مع المسألة القومية العربية إلى عدم وضوح التميز الفلسطيني كشعب واقع تحت استعمار استيطاني مباشر وهو جزء من قومية ذات ٢٢ دولة ذات سيادة. مع عدم تمكن الأمة العربية من التعامل مع فلسطين المحتلة كجزء محتل من أراضيها لأنها لم تنجح بالتشكل من قومية إلى أمة ذات سيادة على أرضها.

هذا مع التأكيد أنه من الخطأ الاستخفاف بالرابط القومي المعنوي واللغوي والعاطفي وعناصره الدينية أيضاً. وقد بينت وسائل الاتصال الحديثة أهمية الرابط اللغوي العربي في توحيد السوق الإعلامية ومعها توحيد أجندة الناس السياسية. وقد ثبت أيضاً أن الرابط القومي لا يكفي لتحويل الاحتجاج والتعاطف مع الشعب الفلسطيني إلى مشروع سياسي دون وجود مؤسسات عربية فاعلة في مجال الإعلام نحو الخارج وفي مجال تقديم الدعم المادي والمعنوي للشعب الفلسطيني.

قضية النضال ضد الأبارتهايد هي قضية منتصرة. وقد انتصرت في جنوب أفريقيا على المستوى الدولي رغم أن غالبية الدول الأفريقية التي يحكمها الأفارقة السود لم تكن دولاً ديموقراطية ذات مصداقية في قضايا حقوق الإنسان. انتصرت قضية الشعب في جنوب أفريقيا دولياً، ونجحت بإثارة كل هذا التعاطف الدولي القاطع والواضح والذي لا يفسر على وجهين، ولا يحاول الموازنة بين طرفين، كما يتم في حالتنا الفلسطينية. لم نسمع ادعاءً غربيًا أن الأمهات الأفارقة يرسلن أولادهن إلى الموت في سويتو، كما لم نسمع عن مطالبة «الطرفين» بوقف العنف. كما تتعامل اللغة الأوروبية والأمريكية مع انتفاضة الشعب الفلسطيني كحالة من العنف تجر عليها عنفاً إسرائيلياً مضاداً، لا يمكن فهم هذا التعامل مع الفلسطينيين دون فهم مشكلة أوروبا مع ذاتها ومع المسألة اليهودية.

وبدل أن يطرح الفلسطينيون أن عنفهم هو عنف الضعفاء وأصحاب الحق في الوقت ذاته، وهو عنف مبرر،نرى بعضهم ينكر العنف والنضال ويعتبره مجرد دفاع عن النفس، والبعض الآخر ينجر إلى مقارنة بين الشباب الفلسطيني وبين جيش الاحتلال، وكان الموضوع هو أن تثبت أنك الطرف الأضعف. ولكن المهم في المعادلة هو أن تثبت أنك الطرف صاحب الحق. ويسهل إثبات ذلك إذا تم التعامل مع القضية الفلسطينية كآخر حالة أبارتهايد كولونيالية عنصرية. هذه لغة يفهمها العالم ولكنه لا يفهم لغة «الصراع مع اليهود الأنجاس» ومع «كيان إسرائيل الملعون» التي تفوه بها رئيس وفد عربي في مؤتمر القمة الإسلامي الأخير في الدوحة، في عملية قلب كلي للأدوار إذ يتظاهر الضعيف بالقوة ويتخلى عن لغة الحق لصالح لغة العداء للسامية التي تحول الصهيونية مباشرة من قاتل الى ضحية. لم يعد بالإمكان فهم تعقيدات المسألة الفلسطينية دون الإحاطة بتعقيدات المسألة اليهودية، هذا الكلام ليس منصفاً ولا عادلاً، ولكنه مع ذلك واقع.

قضية فلسطين كما تطرحها الانتفاضة هي قضية أبارتهايد وإذا لم يتم التوصل إلى حل دائم فإن حلها برأى إسرائيل هو تثبيتها من طرف واحد، أى تثبيت الانفصال من طرف واحد، بحيث يبقى الفلسطينيون في كانتونات ليست ذات سيادة ومنفصلة عن إسرائيل. وغني عن القول أن خطوة إسرائيلية من هذا النوع لعزل الفلسطينيين ومحاصرتهم في أقل من ٤٠٪ من أرض الضفة (وهي خطة شارون الأصلية، والأساس للتفاهم بينه وبين باراك في حكومة وحدة وطنية) لا يمكن أن تستقر أو تؤدى إلى استقرار، لأن التماس مستمر على محاور الطرق وعلى الحدود الفلسطينية العربية وبالاقتصاد وبغيره، وأخيراً بالنضال ذاته الذي يستمر ضد الجيش وضد المستوطنات «لمن استطاع إلى ذلك سبيلا». الانفصال من طرف واحد ليس حلاً إذاً، وإنما تثبيت لحالة أبارتهايد، أقول هذا حتى لو تم الانفصال بإعلان دولة فلسطينية من طرف واحد. فمثل هذا الإعلان بالظروف الحالية لا يقيم دولة فلسطينية، بل يثبت نظام الأبارتهايد القائم شرعياً.

ولا تستطيع إسرائيل أن تثبّت نظام أبارتهايد خارج الخط الأخضر دون استيراده إلى داخل الخط الأخضر بشكل يجمع الفلسطينيين على جانبي الخط الأخضر (السكان الأصليين) في النضال ضد «شعب الأسياد». وهذا سبب آخر يمنع إسرائيل من المحافظة على هذا الشكل من النضال لفترة طويلة. من الواضح إذاً أن الدولة العبرية بحاجة إلى حل دائم والوقت ليس لصالحها إطلاقاً، أقول هذا حتى لو استمر بناء الاستيطان الذي يتخذه العرب حجة من أجل الإسراع بالتوصل إلى حل ولو بالشروط الأمريكية. فالاستيطان المستمر يعقد في نهاية المطاف قضية الفصل الديموجرافي الضرورية للدولة اليهودية إلى حد جعلها مستحيلة.

في هذه المرحلة يجب التأكيد أن إسرائيل بحاجة قصوى إلى حل دائم وشرعي، وهي المعنية بالإسراع. ليست العجلة إذاً من الشيطان في هذه المرحلة وإنما من إسرائيل.

قد تتخذ الانتفاضة أشكالاً عديدة قادرة علي إجبار إسرائيل دفع ثمن احتلالها، المهم أن يبقى الصراع مفتوحاً وأن يظهر الشعب الفلسطيني والقيادة الفلسطينية قدرة على الصمود والاستمرارية وأن يبقى بمقدور الشعب الفلسطيني أن يستمر بعملية بناء الذات من النظام السياسي إلى الاقتصاد إلى الثقافة.

لا يمكن أن يدوم نظام الأبارتهايد طويلاً إذا طرح كذلك، وتم التعامل معه على هذا الأساس، كما لا يمكن إنهاؤه إلا بأحد خيارين: (١) إقامة دولة فلسطينية مستقلة بشكل يمكن اعتباره تسوية تاريخية وليس مجرد ترجمة لموازين قوى لحظية، لكي يتم هذا يجب أن يأخذ عنصر العدالة النسبية والإنصاف بعين الاعتبار؛ (٢) التحول نحو دولة ديموقراطية تعترف بوجود قوميتين في إطارها، وهذا حل قابل للتحقيق على المدى البعيد إذا فشل خيار الدولة الفلسطينية بأن يكون خياراً منصفاً وواقعياً في الوقت ذاته.

وربما قد آن الأوان لمواجهة الخداع الذاتي الذي مارسته حركة التحرر الوطني الفلسطيني مع ذاتها طيلة المرحلة التي تم الحديث فيها عن حل الدولتين (دولة عربية وأخرى يهودية) وتقسيم فلسطين مع الإصرار على إلصاق حق العودة للاجئين بهاتين الدولتين كان «واو» العطف كافية لتشكيل رابط منطقي، لا توجد إمكانية لتطبيق حق عودة للاجئين فلسطينيين إلى دولة يهودية!! وهنالك تناقض بنيوى بين حل الدولتين وحق العودة للاجئين الفلسطينيين الذين يغيرون الطابع الديموجرافي للدولة اليهودية كمواطنين وبحيث يتم هذا بإذن وبموافقة الدولة اليهودية ذاتها. على حركة التحرر الوطني الفلسطيني أن تقرر فيما إذا كانت الدولة الفلسطينية دون حق العودة تشكل تسوية تاريخية ما دامت صاحبة سيادة في المسجد الأقصى المبارك، وما دامت تسمح للاجئين بالعودة إلى حدودها هي، أو تزودهم بجواز السفر وبحق المواطنة فيها.

أما إذا كانت هذه التسوية التاريخية متعذرة وغير قابلة للتحقيق فلسطينياً وإسرائيلياً، فأمامنا صراع مستديم ضد الأبارتهايد أساسه عنصر المواطنة الواحدة في بلد واحد لشعبين، بحيث يلتقى تحرير الوطن مع تحرير الإنسان. وعلى أى حال فقد تفضل إسرائيل خيار الحرب الشاملة على هذا الخيار الأخير. هذا ما سوف توضحه الانتفاضة. ■

الآثار الصحية للعولمة

غزو الهامبورجر!

مصطفى عبدالرزاق نوفل

العولمة الغذائية تعتبرها الدول المتقدمة طريقا لزيادة مصالحها الاقتصادية بفرض سيادة تسويق منتجاتها الغذائية فى أسواق الدول النامية، بينما تهدف الدول النامية بدورها إلى استخدام العولمة الغذائية كوسيلة للخروج من المشاكل التى تواجهها مثل نقص الغذاء وضعف مستويات التغذية بين المواطنين وزيادة معدل انتشار الأمراض وما يصاحبها من مظاهر وقيود الفقر والتخلف

مع انتشار استخدام كلمة العولمة فى مختلف المجالات والأنشطة العالمية، إلا أن ارتباطها بمجال الأغذية والتغذية أصبح يمثل أكثر صور العولمة وضوحًا فى مفهوم المواطن العادى فى كل دول العالم.

لذلك لم يكن غريبا أن تستخدم الأغذية كأهم وسيلة تعبير فى الاحتجاجات المتكررة لدول العالم المعادية للعولمة. فمثلاً اختتمت أعمال الاجتماع السنوى لصندوق النقد والبنك الدوليين مبكرًا عن موعدها المحدد فى أواخر سبتمبر ٢٠٠٠ فى العاصمة التشيكية براغ، وذلك عقب تصاعد أعمال العنف والاحتجاجات المناهضة للعولمة والتى كان من أهم مظاهرها تحطيم نوافذ عدة مطاعم أمريكية شهيرة بوسط العاصمة التشيكية.

وقبل ذلك، أصدرت محكمة فرنسية حكمًا بالحبس لمدة ثلاثة أشهر ضد جوزيه بوفيه الفلاح الفرنسى الشهير المعادى للعولمة، وذلك بسبب قيامه مع آخرين بتحطيم أحد المطاعم الأمريكية الشهيرة قيد الإنشاء فى وسط فرنسا بوصفه أحد رموز الغزو الأمريكى تحت ستار العولمة الغذائية.

وكان بوفيه قد ذهب مع الوفد الفرنسى إلى الولايات المتحدة أثناء انعقاد مؤتمر «الجات» الفاشل فى «سياتل»، وكان يحمل معه الجبن الفرنسى الشهير وبعض نوعيات أخرى من الأطعمة الفرنسية كوسيلة اعتراض ضد العولمة، وأيضًا للدفاع عن خصوصية كل دولة- ليس فقط فى مجال الاقتصاد والسياسة، ولكن أيضاً فى مجال الأنماط الغذائية وعادات التغذية والتقاليد المرتبطة بها والمتوارثة محليًا- منذ القدم- فى كل دولة من دول العالم.

العولمة الغذائية

ومن أهم أسباب اعتراض الدول ضد العولمة، أنها لا تمكن جميع الشعوب من الاستفادة من مكاسبها، ويرجع ذلك أساسًا إلى الاختلاف القائم بين دول العالم حول تحديد الأهداف الحقيقية لمفهوم العولمة.

فالعولمة الغذائية مثلاً، تعتبرها الدول المتقدمة طريقًا لزيادة مصالحها الاقتصادية بفرض سياسة تسويق منتجاتها الغذائية فى أسواق الدول النامية، بينما تهدف الدول النامية بدورها إلى استخدام العولمة الغذائية كوسيلة للخروج من المشاكل التى تواجهها مثل نقص الغذاء وضعف مستويات التغذية بين المواطنين وزيادة معدل انتشار الأمراض وما يصاحبها من مظاهر وقيود الفقر والتخلف.

ومن الخطأ أن ننظر إلى انتشار الأغذية الأمريكية والغربية فى أسواق الدول النامية- تحت ستار العولمة- باعتباره يفيد المستهلك صحيًا، لأن نوعيات هذه الأغذية غالبًا ما تكون مستحدثة ومنخفضة القيمة المغذية وتختلف كثيرًا عن مثيلاتها التى تقدم فى أسواق الدول المتقدمة. ومما يؤكد هذه الحقيقة ذلك الخلاف الحاد الذى نشب فى أواخر سبتمبر ٢٠٠٠ بين هيئة حماية المستهلك الكينية والسفارة الأمريكية فى نيروبى حول المعونات الأمريكية من الأغذية المقدمة للدول الأفريقية- ومن بينها كينيا- التى تتعرض لموجة قاسية من الجفاف منذ عدة سنوات. حيث ذكرت صحف كينيا أن الإدارة الأمريكية قامت بإرسال شحنات من الذرة المعالجة بالهندسة الوراثية والضارة بصحة الإنسان عن طريق الأمم المتحدة إلى الدول الأفريقية للتخفيف من حدة الآثار السلبية للجفاف المنتشر حاليًا فى عدد منها.

ومع وضوح اختلاف أهداف دول العالم من انتشار العولمة الغذائية، فإن أمريكا والدول الغربية فقط هى التى قطعت شوطًا كبيرًا لتحقيق أهدافها من العولمة، بينما نجد أن موقف الدول النامية مازال ضعيفًا وغير مؤثر فى اتجاه العولمة الغذائية، مما يحرمها من التمتع بأى مميزات أو مكاسب من انتشار هذه العولمة.

ويمثل الاختلاف بين دول العالم فى تحديد أهداف العولمة جانبًا واحدًا من المشكلة العالمية التى أصبحت أكثر تعقيدًا بظهور جوانب أخرى، وهى الجوانب التى قد يمكن وصفها بالاتجاهات المتناقضة للعولمة الغذائية. فمثلاً تدفع العولمة الغذائية الدول النامية إلى تغيير الكثير من تشريعاتها ومن أنماط استهلاكها الغذائى المعتادة محليًا، بهدف تسهيل تسويق منتجات العولمة الغذائية بها وتأكيد سيادة تواجدها فى الأسواق المحلية لدول العالم النامى.

وفى الجانب الآخر، تعمل الدول المتقدمة على إيجاد تشريعات لديها لمنع دخول أى منتجات غذائية من الدول النامية، مالم يتبع فى إنتاجها نفس النظم المطبقة فى الدول المتقدمة، وحيث إن الوضع الاقتصادى المتواضع للدول النامية لا يسمح بذلك، فإن العولمة تظل قائمة فى اتجاه واحد نحو مصالح الدول المتقدمة.

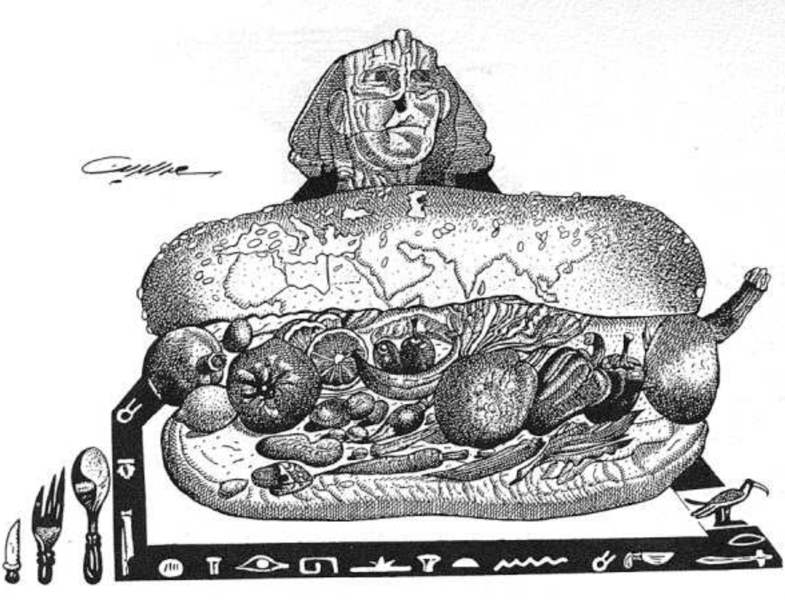
هرم الغذاء الأمريكى

ومن أهم صور تناقضات العولمة الغذائية أنها تعمل على استخدام الإعلام الأمريكى والغربى لنشر ماكولاتها المختلفة مغلفة بثقافة وعادات غربية أمريكية تزيد من قوة اختراقها لأسواق الدول النامية، مما يعمل على هدم الهوية الغذائية المحلية وبخاصة ما يرتبط منها بحضارات قديمة. بينما من جانب آخر تقوم الدول المتقدمة باستخدام ماكولات هذه الحضارات كنظم غذائية صحية تقدمها لمواطنيها، وتعمل على تطوير هذه الماكولات لإنتاج أغذية صحية ووقائية.. بل وعلاجية أيضًا فى أسواقها التجارية فقط.

ولقد بدأ هذا الاتجاه المتناقض فى مجال العولمة الغذائية خلال النصف الأخير من عقد الثمانينيات، عندما اهتمت المؤتمرات والندوات العالمية الغذائية بضرورة إيجاد وسيلة مبسطة توضح قواعد التغذية السليمة للمستهلك، وتحدد له مكونات الوجبات الغذائية الصحية وكمياتها المناسبة التى يجب أن يتناولها من كل مادة غذائية. وكانت المفاجأة أن تتفق جميع هذه المؤتمرات على أن هرم قدماء المصريين هو أفضل شكل يمكن استخدامه كوسيلة لنشر قواعد التغذية الصحية للمستهلك.

وقامت الولايات المتحدة بأول تصميم فعلى لهرم غذائى يمكن استخدامه كدليل يرشد المستهلك إلى مكونات الوجبة الصحية اليومية. وعندما قدّم وزير الزراعة الأمريكى هذا الهرم الغذائى الصحى فى مؤتمر عالمى فى عام ١٩٩٢، كانت المفاجأة الثانية أن تعتمد الوجبة الصحية فى هذا الهرم الأمريكى على تناول الخبز والأرز والبقول كالعدس وغيرها، وأن تتساوى اللحوم والدواجن والأسماك مع البقول والبيض ليصبح للمستهلك حق اختيار تناول أى مادة غذائية منها مع تمتعه بنفس الفوائد الغذائية التى تتكامل مع تناول بقية أغذية الهرم.

وعندما وجد خبراء التغذية فى الدول المتقدمة أن هناك تقاربًا بين ما يدعو إليه هرم الغذاء الأمريكى الذى صمم فى عام ١٩٩٢ مع وجبات أغذية قدماء المصريين التى كانت متبعة منذ حوالى ٤٥٠٠ عام،



قامت الإعلانات التجارية لأغذية العولمة- في المجلات العلمية الأمريكية- بوضع صورة «أبوالهول» فوق هرم أمريكا الغذائي تأكيداً على أن أحدث نظم التغذية الصحية في أمريكا- في عصر العولمة- تعتمد أساسًا على الغذاء الصحي لقدماء المصريين. ومع ذلك تنتشر في الأسواق المصرية منتجات العولمة الغذائية التي تنتجها أمريكا والدول المتقدمة، والتي تبتعد في تكوينها وفي فوائدها المغذية عن أسس التغذية الصحية المرتبطة بالحضارة المصرية القديمة، والتي بدأت أمريكا- منذ عام ١٩٩٢- في إعادة اكتشافها وتقديمها إلى المستهلك الأمريكي، ولعل في ذلك تأكيدًا آخر يوضح الجوانب المتناقضة في مجال العولمة الغذائية.

والوجبة الصحية- طبقًا لأحدث قواعد التغذية الأمريكية- يجب أن تتضمن تناول المواطن الأمريكي مادة غذائية واحدة على الأقل- يوميًا- من كل مجموعة من المجموعات التالية والمرتبة تنازليًا تبعًا لزيادة كميتها المتناولة يوميًا.

* المجموعة الأولى: الخبز والأرز والمكرونة والحبوب ومنتجاتها والنشويات وهي تمثل أكبر كمية في الوجبة اليومية.
* المجموعة الثانية: الخضروات
* المجموعة الثالثة: الفواكه
* المجموعة الرابعة: الألبان
* المجموعة الخامسة: اللحوم والدواجن والأسماك والبقول والبيض
* المجموعة السادسة: الزيوت والدهون والحلوى

ويلاحظ أن اللحوم والدواجن والدهون والحلوى التي يجب أن تمثل أقل الكميات المتناولة يوميًا طبقًا للتغذية الصحية الأمريكية، تعتبر أساس منتجات العولمة الغذائية التي تقدمها أمريكا إلى مواطني العالم النامي، مما يؤكد على تناقضات مفهوم العولمة الغذائية وخطورة تأثيرها الغذائي والصحي.

غذاء البحر المتوسط

ولقد قامت مؤسسة المحافظة على الأصول القديمة للطعام الصحي (وهي مؤسسة علمية مقرها كامبريدج بولاية ماساشوسيتس الأمريكية) بدراسة تفاصيل قواعد التغذية الصحية التي ارتبطت عبر الحضارات القديمة الأخرى غير المصرية، بالصحة الجيدة للإنسان. وتوصلت في عام ١٩٩٤ إلى أن الوجبات التقليدية والمعتادة لدول البحر الأبيض المتوسط تمثل نظمًا صحية متميزة للتغذية. ويرجع ذلك إلى ما سجلته التقارير العلمية القديمة من انخفاض معدل الإصابة بالأمراض المزمنة في منطقة البحر الأبيض المتوسط مقارنة بمناطق العالم الأخرى، مع ارتفاع متوسط عمر الفرد فيها- في ذلك الزمن البعيد- بالرغم من أن الخدمات الطبية كانت محدودة في ذلك الوقت.

وكان من المثير للانتباه، أن هذه المؤسسة العلمية الأمريكية قد قدمت أسس وجبات دول البحر الأبيض على شكل هرم غذائي حتى يسهل للمستهلك أن يستخدمه في تكوين وجبات يومية منه.

وتعتمد الوجبة الصحية التي كانت متبعة في دول البحر الأبيض المتوسط، والتي أعادت اكتشافها دراسات الدول المتقدمة، على ثلاثة أسس رئيسية:

أولاً: تناول مادة غذائية واحدة- على الأقل- يوميًا من كل مجموعة من المجموعات الغذائية التالية:

١ ـ الخبز والأرز والمكرونة والبرغل والكسكسي والبطاطس والحبوب الأخرى ومنتجاتها
٢ ـ الخضروات
٣ ـ الفواكه
٤ ـ البقول والمكسرات
٥ ـ زيت الزيتون
٦ ـ الجبن والزبادي

ثانيًا: تناول كميات قليلة وبمعدل اسبوعي ـ وليس يوميًا ـ من مادة غذائية واحدة من المجموعات التالية :ـ

١ ـ الأسماك
٢ ـ الدواجن
٣ ـ البيض
٤ ـ الحلوى

ثالثًا: تناول اللحوم بكمية صغيرة جدًا في الوجبة، وأن يكون معدل تناولها الشهري قليلاً.

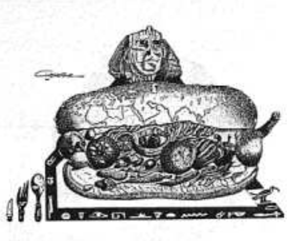
رابعًا:استخدام كميات صغيرة جدًا (أو في المناسبات الخاصة فقط) من الزبد والكريمة، مع تناول الحلوى ومشروبات المياه الغازية بمعدل قليل أو يقتصر تناولها على المناسبات الخاصة فقط.

وفي عام ١٩٩٥، أضافت الدكتورة أرتيميس سيموبيولوس رئيس مركز الجينات والتغذية والصحة بالولايات المتحدة تفاصيل لقائمة الأغذية الصحية التي كانت معتادة منذ القدم في وجبات دول البحر الأبيض المتوسط، والتي منها زيت الزيتون والليمون والخل والزيتون والخبز والجبن والزبادي والفواكه وعصائرها والمكسرات والثوم والبصل والخضروات والأعشاب والتوابل والمكرونة والأرز والبطاطس. ويلاحظ أن ترتيب ذكر هذه الأغذية تم تبعًا لأهميتها الصحية، وأنها تخلو من أنواع المسلي والمرجرين والدهون المشبعة الأخرى.

ومن أهم مميزات الوجبة الصحية لدول البحر الأبيض المتوسط اعتمادها أساسًا على الأغذية النباتية، بينما تعتبر أغذية المنتجات الحيوانية مكونات ثانوية في الوجبة. لذلك تنتشر في المنطقة وجبات البطاطس مع الخضروات، ووجبات البقول بأنواعها المختلفة، ووجبات الكسكسي، ووجبات المكرونة المختلفة وغيرها. كما ينتشر تناول الفاكهة والمكسرات مثل الفول السوداني وغيرها والبذور الغذائية المختلفة والزيتون.

ومن المثير للانتباه أنه بينما تقرر المؤسسة الأمريكية للمحافظة على الأصول القديمة للطعام الصحي أن دراسات الوجبة الصحية التي كانت قائمة في منطقة دول البحر الأبيض المتوسط قد حققت فائدة كبيرة لدول العالم في مجال فهم المزيد من قواعد التغذية الصحية. تنتشر في أسواق المنطقة نوعيات منتجات العولمة التي تتعارض غذائيًا وصحيًا مع أسس التغذية الصحية التي كانت سائدة في هذه المنطقة من العالم منذ القدم. ويعمل ذلك على حرمان شعوب المنطقة من التمسك بأصول قواعد التغذية السليمة التي ارتبطت بتاريخهم القديم.

لذلك لم يكن غريبًا- في ظل تناقضات العولمة الغذائية- أن تعلم هذه المؤسسة العلمية الأمريكية أن نشر دراسات إعادة اكتشاف قواعد التغذية الصحية لدول منطقة البحر الأبيض المتوسط يجب أن يكون دافعًا لشعوبها للمحافظة على تراثها الغذائي الأصيل وإعادة إحياء تقاليدها الغذائية القديمة المفيدة التي ارتبطت- في التاريخ القديم- بمقومات السلامة الصحية لهذه الشعوب.



النمـــوذج الآســـيــوى

وإذا كانت الدراسات قد اتجهت أولاً للأغذية التى عرفتها حضارة قدماء المصريين ومنطقة البحر الأبيض المتوسط بحثًا عن قواعد التغذية الصحيحة للإنسان، فهى لم تهمل قارة آسيا التى تمثل مساحة عريضة وتضم نوعيات مختلفة من البشر والثقافات والحضارات والعادات الغذائية التى ارتبطت تاريخيًا بالصحة الجيدة للإنسان القديم فى آسيا.

ولقد تم تحديد نموذج الوجبة الغذائية الآسيوية الصحية وتقديمها- فى عام ١٩٩٥- على شكل هرم غذائى أيضًا، وهى تعتمد أساسًا على ما يلى:

أولاً: تناول مادة غذائية واحدة يوميًا من كل مجموعة من المجموعات الخمس التالية:-

١- الأرز ومنتجاته والمكرونة والخبز والذرة وغيرها من الحبوب، وهذه الأغذية تمثل أكبر مكون فى الوجبة

٢- الخضروات

٣- البقول والمكسرات والبذور الغذائية

٤- الفواكه

٥- الزيوت النباتية

ثانيًا: اختيار غذاء واحد من الأسماك أو الأسماك القشرية أو منتجات الألبان ليتم تواجده فى الوجبة اليومية.

ثالثًا: يجب أن يكون تناول البيض والدواجن والطيور بصفة عامة والحلوى بمعدل أسبوعى وليس يوميًا.

رابعًا: يجب أن يتم تناول اللحوم الحمراء بمعدل شهرى، وليس يوميًا، ويمكن زيادة عدد مرات تناول اللحوم فى الشهر بشرط أن تكون كمية اللحوم المتناولة فى كل مرة صغيرة جدًا.

ومن الغريب أنه رغم الفوائد الصحية للأنماط الغذائية التقليدية التى عرفتها آسيا منذ القدم، يحدث لها الآن تحول غير صحى بسبب كثرة انتشار مطاعم الهامبورجر والوجبات السريعة ومنتجات العولمة فى مناطق آسيوية متعددة وبخاصة فى اليابان والصين وغيرها.

ولعل ظهور الهرم الغذائى الأسيوى الصحى على مائدة البحث العلمى كنموذج للوجبات الصحية، يكون دافعًا لشعوب آسيا- فى ظل العولمة الغذائية- لإعادة الاهتمام بوجباتهم الصحية التقليدية التى ارتبطت تاريخيًا بمقومات الصحة الجيدة عبر تاريخهم القديم.

واستمرارًا للدراسات الغذائية الحديثة التى تبحث عن قواعد التغذية الصحية المرتبطة تاريخيًا بالحضارات الإنسانية القديمة، قامت جامعة بايلور الأمريكية فى عام ١٩٩٦، وبالتعاون مع مدرسة هارفارد للصحة العامة والمؤسسة العلمية الأمريكية للمحافظة على الأصول القديمة للطعام الصحى، بتقديم هرم غذائى آخر يوضح الوجبة الغذائية الصحية التى كانت تتناولها- عبر التاريخ القديم- شعوب دول أمريكا اللاتينية.

وتعتمد مقومات هذه الوجبة أساسًا على ما يلى:

أولاً: تناول مادة غذائية واحدة على الأقل فى الوجبة اليومية من الخضروات (مثل الباذنجان أو اللفت أو السلق أو الكوسة أو البصل أو البامية أو السبانخ أو الخس أو الطماطم أو الفلفل)، ومن البقول مثل الفاصوليا أو الحبوب مثل الذرة والأرز والخبز أو الدرنات مثل البطاطس أو البطاطا أو القرع العسلى أوالخرشوف أو المكسرات مثل الفول السودانى أو البيكان، ومن الفواكه (مثل الليمون المالح (البلدى) أو الموز أو البرتقال أو التفاح أو الجوافة أو المانجو أو البطيخ أو التمرهندى).

ثانيًا: تناول مادة غذائية واحدة على الأقل بمعدل أقل من التناول اليومى من الدواجن والطيور بصفة عامة، ومن الزيوت النباتية (مثل زيت الذرة والزيتون وفول الصويا) أو من منتجات الألبان مثل اللبن أو الزبادى، ومن الأسماك والأسماك القشرية.

ثالثًا: تناول اللحوم والحلوى والبيض بكميات صغيرة أو فى أغذية المناسبات فقط.

ولعل ذلك يوضح أيضًا أن نوعيات منتجات العولمة التى تنتشر حاليًا فى أسواق أمريكا اللاتينية على حساب منتجاتها (المحلية) تتعارض مع القواعد الصحية للتغذية المعتادة التى كانت سائدة منذ القدم بين شعوب هذه الدول.

هل نسـينا النبـات ؟

ومن الدراسات الحديثة التى تمت حول التأثيرات الوقائية والعلاجية التى تتصف بها بعض الأغذية الطبيعية ضد العديد من الأمراض وبخاصة المزمنة منها والتى فشل القرن العشرون فى علاجها، أعلن عن اكتشاف مكونات نباتية جديدة أطلق عليها اسم مركبات «الفيتو» والتى أصبح من الضرورى تناولها يوميًا ضمن الوجبات الغذائية. ولقد اعتبر هذا الاكتشاف بداية حقيقية للعصر الذهبى الجديد للتغذية الصحية المواكب لبداية القرن الحادى والعشرين.

ومن بين أهم الأغذية التى تمت دراستها وتكونت منها أول قائمة غذائية متميزة بمحتواها المهم من مركبات الفيتو المفيدة صحيًا فى منع الأمراض المزمنة: الثوم والعرقسوس والموالح (البرتقال والليمون المالح البلدى وغيرها) والسمسم والزنجبيل والبصل والطماطم والكرنب والجرجير والقرنبيط والفجل والكرات والكركم والجزر والكرفس والشاى الأخضر وحبوب البن وغيرها، وهى أغذية معتادة ومألوفة على المائدة المصرية منذ القدم.

ولقد أدى اكتشاف مركبات الفيتو النباتية إلى تزايد الاهتمام العالمى بالتغذية النباتية. وتم فى عام ١٩٩٧ فى كاليفورنيا تقديم أحدث دليل غذائى للتغذية الصحية النباتية، وكان هذا الدليل أيضًا على شكل هرم غذائى يعتمد فى وجباته الصحية النباتية على الأغذية التالية..

أولاً الحبوب: ومنتجاتها وهى تمثل أكبر جزء فى تركيب الوجبة وتضم حبوب القمح والذرة والأرز وغيرها، ومنتجات الحبوب مثل الخبز والمكرونة بأنواعها المختلفة وغيرها.

ثانيًا البقول: وهى من الأغذية المكونة الأساسية فى الوجبة النباتية وتضم الفاصوليا الجافة والعدس واللوبيا والحمص والفول وفول الصويا ومنتجاتها المختلفة.

ثالثًا الخضروات: وهى تمثل ثالث أكبر مكون فى الوجبة النباتية (بعد الحبوب والبقول).

رابعًا الفواكه: وهى تلى مباشرة الخضروات فى كميتها كمكون أساسى أيضًا فى الوجبة النباتية مع التأكيد على أهمية تناولها على صورتها الكاملة أكثر من مجرد تناولها عصائر.

خامسًا المكسرات والبذور الغذائية ومنتجاتها: وهى أيضًا من الأغذية الأساسية فى الوجبة النباتية ولكن يتم تناولها بكميات تقل كثيرًا عن بقية مكونات الوجبة.

سادسًا أغذية اختيارية فى الوجبات النباتية: ومنها الزيوت النباتية الغنية بنوعية الدهون المفيدة وحيدة عدم التشبع مثل زيت الزيتون وزيت السمسم (المعروف فى مصر منذ القدم باسم زيت السيرج)، مع ضرورة تحديد كمية ما قد يستخدم من الزيوت الاستوائية (مثل زيوت جوز الهند وزيوت النخيل) وتفادى تناول أو استخدام الدهون المهدرجة مثل المسلى بأنواعه المختلفة.

كما تمثل الألبان ومنتجاتها والبيض والحلوى أغذية اختيارية أخرى يمكن إضافتها إلى مكونات الوجبة النباتية الصحية.

ومع اهتمام أمريكا- والدول المتقدمة- بالتغذية النباتية ونشر إرشاداتها المبسطة للمستهلك ليسهل عليه تطبيقها، تعمل على زيادة تسويق منتجات العولمة ومطاعمها السريعة التى تتعارض مع كل قواعد التغذية الصحية النباتية، فى أسواق الدول النامية.

وبالرغم من أن الوجبات السريعة ومطاعمها المنتشرة فى العالم قد ارتبطت بأمريكا وبالدول المتقدمة، إلا أن هناك حملات توعية فى هذه الدول تهدف للحد من استهلاك الوجبات السريعة وتدعو إلى تناول المزيد من الخضروات والفواكه فى الوجبات اليومية مع خفض تناول الدهون وزيادة تناول البقول والأغذية الغنية بالحبوب ومنتجاتها.

ومن المثير للانتباه أن هناك دعوة غذائية أمريكية حديثة تهدف إلى إنتاج أغذية سريعة جديدة ومبتكرة تعتمد أساسًا على الخضروات والفواكه، كما تتضمن هذه الدعوة ضرورة العودة إلى نوعيات الأغذية السريعة الأصيلة التى كانت سائدة فى مجتمع الحضارات الإنسانية القديمة، والتى كان يستخدم فى تحضيرها ما يتوافر فى هذه المجتمعات من خامات غذائية طبيعية تتناسب مع احتياجات بيئة المجتمع الإنسانى.

وفى هذا المجال، ذكرت المجلة العلمية الأمريكية لتكنولوجيا الغذاء فى مايو ٢٠٠٠ أن دراسة الدكتور بول لاتشانس من جامعة رتجرز عن الأغذية التى تتميز بأعلى قيمة

تدفع العولمة الغذائية الدول النامية إلى تغيير الكثير من تشريعاتها ومن أنماط استهلاكها الغذائى المعتادة محليًا، بهدف تسهيل تسويق منتجات العولمة الغذائية بها وتأكيد سيادة تواجدها فى الأسواق المحلية لدول العالم النامى. وفى الجانب الآخر، تعمل الدول المتقدمة على إيجاد تشريعات لديها لمنع دخول أى منتجات غذائية من الدول النامية، مالم يتبع فى إنتاجها نفس النظم المطبقة فى الدول المتقدمة

وفائدة غذائية عند تناولها بكمية معتادة ومألوفة، تشير إلى تربع الجزر والبطاطا على قمة الخضروات من ناحية احتوائها على أعلى نسب من الفيتامينات والمعادن المهمة مقارنة بالخضروات الأخرى.

وتأتى هذه الدراسة بعد سنوات قليلة من الدعوة التى قام بها أحد العاملين فى وزارة الزراعة الأمريكية والتى تهدف إلى جعل البطاطا غذاء أساسيًا على المائدة الأمريكية، وليس مجرد غذاء موسمي. ولقد أدى ذلك إلى توافر منتجات عديدة من البطاطا فى الأسواق الأمريكية على صورة مجمدة (مثل قطع الحلوى المجمدة من البطاطا) وعلى صورة صوابع مقلية أو على صورة شيبسي، أو على صورة فطائر (بطاطا باتيه)، أو على صورة رقائق، أو على صورة دونتس بالبطاطا، وأخيرًا على صورة سجق بطاطا.

وهذه النوعية من المنتجات- التى تهتم بإنتاجها الصناعات الغذائية الأمريكية- تمثل التحول الصحى نحو منتجات أغذية سريعة مفيدة للمستهلك الأمريكي، وإذا كانت الدول النامية التى تستهلك البطاطا على صورتها الطبيعية، ليست فى حاجة إلى منتجات العولمة المصنَّعة من البطاطا، إلا أنها تحتاج إلى ضرورة التأكيد على أن تناول ما يتوافر طبيعيًا فى بيئتها المحلية يتفوق غذائيًا وصحيًا على أى منتجات تغزو أسواقها تحت ستار العولمة.

غذاء العولمة الصحى.. أصله مصرى

وكما ذكرت المجلة العلمية الأمريكية لتكنولوجيا الغذاء فى أغسطس ١٩٩٩، ثم أكدته مرة أخرى فى يونيو ٢٠٠٠، فإن أهم عمل نفسي يؤثر على اتجاه نوعيات المنتجات الغذائية فى القرن الحادى والعشرين هو مدى اعتبار الطعام مألوفًا ومعتادًا بالنسبة للمستهلك فى بيئته المحلية، وبخاصة من ناحية نكهته (رائحته ومذاقه). ومعنى ذلك فإنه فى ظل العولمة- وطبقًا لما حددته المجلة الأمريكية- سوف يُحد من انتشار سلسلة المطاعم الأجنبية التى ترتبط بمذاق أطباق خاصة بدول معينة مثل المطاعم الصينية والمكسيكية واليابانية والإيطالية وغيرها، فيصبح عددها محدودًا بعد انتشارها الكبير فى كل دول العالم. وسوف يُفسح ذلك- بالطبع- المجال لتسويق منتجات العولمة دون منافسة من هذه المطاعم المرتبطة بهوية غذائية أصيلة.

إن ما تؤكده المجلة العلمية الأمريكية لتكنولوجيا الغذاء من أن المستهلك سوف يعود إلى تفضيل منتجات الطعام ذات النكهة المألوفة والمعتادة له محليًا، بل سوف يبحث عن نوعيات الأطعمة التى تمثل هويته التى كانت ترتبط بتراثه الغذائى فى الماضى البعيد، ليوضح بعض أسباب غزو الأسواق المصرية بمنتجات العولمة المصنَّعة من الفول المدمس والطعمية والعدس وغيرها من المأكولات المصرية المرتبطة بهوية المائدة المصرية منذ القدم.

ولعل ذلك يوضح سبب سرعة واهتمام أخصائي الصناعات الغذائية الأمريكية لإعداد وتحضير أنواع جديدة من الأغذية باستخدام المأكولات الشعبية للحضارات القديمة- وبخاصة الحضارة المصرية- للاستفادة من نكهتها المألوفة والمميزة ومن فوائدها الصحية والمغذية، وتقديم هذه المأكولات فى صورة منتجات تغزو أسواق العالم تحت ستار العولمة.

ومن هذه المأكولات- كما حددتها المجلة العلمية الأمريكية- البقدونس والزنجبيل والكركم والحلبة والنعناع والعرقسوس والثوم والبصل والبطاطا والترمس والرجلة والتين الشوكى، والحبهان والكسبرة والتمر هندى والسمسم وطحينة السمسم وزيت السمسم والزعتر والنعناع والعدس والبقول والريحان وخلطة توابل الدقة وروائح الأزهار وبتلاتها الطازجة وزهورها الجافة.

الهوية الغذائية

.. إن استعراض جملة هذه التناقضات فى اتجاهات العولمة الغذائية، ليؤكد على ضرورة المحافظة على هوية طعامنا المصرى الأصيل الذى ثبتت حديثًا فائدته الصحية، وبخاصة أن أى سياسة غذائية فى أى دولة أو منطقة يجب أن تعتمد أولاً على طبيعة الغذاء المألوف محليًا ونظم التغذية المعتادة وتركيب الغذاء المتاح فى البيئة المحلية، وأن تتفق بالتالى مع العادات الغذائية السائدة بين المواطنين فى الدولة.

ولن تتحقق المحافظة على هوية الطعام المصرى إلا بمساعدة المستهلك بكل وسائل الإعلام لكى يحتفظ بثقافته الغذائية المحلية وبعاداته وتقاليده المتوارثة التى يجب أن تتواجد- دائمًا- إعلاميًا فى وضعها اللائق. كما يجب أن يتطور الطعام المصرى بما يناسب احتياجات ورغبات المستهلك لكى يستطيع أن يواجه بقوة المتغيرات السريعة فى منتجات العولمة الغذائية التى يراها فى أسواقه المحلية.

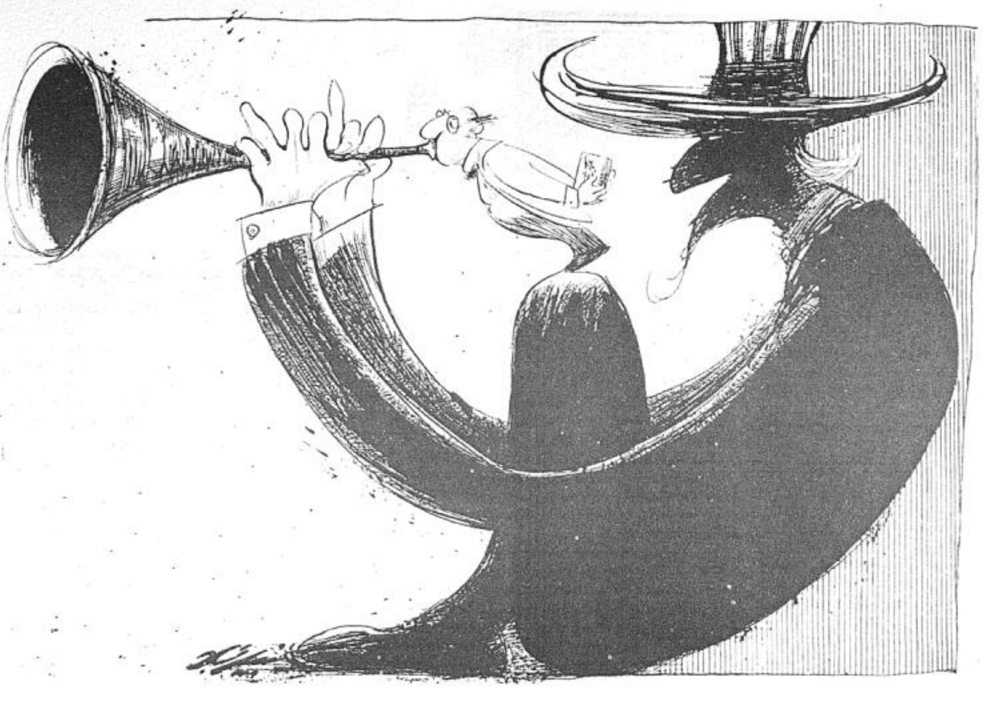
إن سيادة تواجد الطعام المصرى فى السوق المحلية يعتمد أساسًا- فى ظل العولمة- على المستهلك صاحب الكلمة الأخيرة فى فرض نوعية المنتجات الغذائية التى تعرض فى أسواقه.. فهل نساعده على ذلك.. أم نتركه يلهو مع الإعلانات الجذابة وجوائز وهدايا المسابقات التى تغير من هوية طعامه المصرى المفيد.. وتدفعه إلى طعام العولمة.. الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع. ■

كتاب الزاوية

المسحراتى

٢ـ صاحب ندا

مسحراتى صاحب ندا
منقراتى كدا وكدا
فى إيدى طبلة مِجَوِّدَه
أمشى على ريحة الندى
والنسمة فى الجو منشدة
توالى موالى والحدا
يا مصر يا واحة مسعدة
نطقْت والفجر كان صدى
حتى الشجر فى الحجر شدا
لما بدأت التاريخ بدا
لحمه وطول الزمن سدى
أنت الأميرة المجاهده
الإنسانية أم الفدا
أم الحضارة يا والده
ضميت الأزهر والسيده
وألف مادنة يداً يدا
سياج لأمه موحده
يا مصر عيشى على المدى
واهدينا ثانيه مخلده
إما الشهادة أو الهدى
النصر الأكبر على العدى
يا كحل عينى يا منجدة



هذا التعبير هو عنوان هذا الكتاب، الذى يعنى فى حقيقة الأمر السؤال عمن يقف وراء العازف.

والمقصود بالعازف هنا، مجموعة الكتاب والفنانين والمجلات الثقافية التى صدرت فى الغرب بعد الحرب العالمية الثانية كجزء من نشاط الحرب الباردة الثقافية ضد المعسكر الاشتراكى وأيديولوجية الشيوعية. وسوف يرى القارئ من قراءة هذا العرض أن المخابرات الأمريكية هى التى كانت تقف وراء هذا النشاط الثقافى تمويلاً وتوجيهًا، ولذلك فإن العنوان الفرعى لهذا الكتاب هو:

«المخابرات الأمريكية فى الحرب الباردة الثقافية»

والكتاب استغرق من مؤلفته سنوات فى الحصول على الوثائق ودراستها. ويقول الدكتور إدوارد سعيد فى تعليقه عنه فى مقال له فى مجلة London Review of Books إنه عمل رئيسى من أعمال البحث التاريخى.

والقيادات الأساسية التى بدأت النشاط الثقافى للحرب الباردة كانت فى الغالب الأعم عناصر من روسيا أو أوروبا الشرقية هاجرت عائلاتها من الشرق إلى أمريكا، إما زمن القيصرية أو بعد ثورة ١٩١٧، وهم من يهود هذه المناطق.. وقد التحق بعضهم بالجيش الأمريكى خلال الحرب، وعملوا ضمن سلطات الاحتلال الأمريكى لألمانيا عقب انتهاء الحرب، وقد تم تجنيدهم فى المخابرات الأمريكية تباعًا بعد ذلك.

وغنى عن البيان أن العداء للاشتراكية وللاتحاد السوفيتى هو الذى كان يجمع بينهم جميعًا.

ومن أمثلة هؤلاء، وربما أهمهم جميعًا، مايكل جوسلسون Josselson.. وهو ضابط أمريكى من أصل ليتوانى، يتحدث أربع لغات بطلاقة، وقد عمل ضمن قوات الاحتلال الأمريكى فى برلين، يهودى ابن تاجر أخشاب فى ليتوانيا. وصل إلى برلين لأول مرة بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧، وقد عادى معظم أقاربه الثورة فاعتقلوا أو أعدموا، ولذا لم تعد الأسرة إلى ليتوانيا أبدًا. ومن عمله فى قوات الاحتلال الأمريكى تم تجنيده فى المخابرات الأمريكية، وأصبح مسئولاً بعد ذلك فى باريس عن نشاط «مؤتمر حرية الثقافة» وأحد المسئولين الرئيسيين عن مجلة «مواجهة» Encounter، وهى المجلة التى كانت المخابرات الأمريكية تمول إصدارها فى لندن بعد الحرب، وكان رئيس تحريرها زمنًا طويلاً الشاعر الإنجليزى ستيفن اسبندر.

ومن هؤلاء أيضًا نابوكوف، روسى أبيض يهودى عاش فى برلين قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٣، عمل مع سلطات الاحتلال الأمريكى فى برلين بعد انتهاء الحرب، فنان وموسيقار له مقطوعات مشهورة، وكان يتردد على شقته فى برلين مجموعة من المثقفين المعادين للدولة السوفيتية وفى مقدمتهم مايكل جوسلسون، وقد عمل ضابطًا بقسم المخابرات فى هيئة الاحتلال الأمريكى فى برلين.

ثم هناك ثالثهم ميلفن لاسكى تعلم لغة اليديش من جده اليهودى أصلاً، هاجرت عائلته إلى أمريكا بعد ثورة أكتوبر، ولد فى نيويورك وتعلم فى جامعتها، وتميز بأنه حاد فى مواقفه الفكرية، عمل أيضًا ضابطًا فى وحدة المخابرات الأمريكية فى برلين، وهو أول من نادى بالحرب الباردة الثقافية ضد السوفييت، أنشأ مجلة Der Monat كجسر أيديولوجى بين المثقفين الأمريكيين والألمان المؤيدين للفكر الرأسمالى، وقد عمل محررًا لمجلة «مواجهة» Encounter بعد استقالة ستيفن اسبندر من المجلة عام ١٩٦٧، بعد أن ذاعت فضيحة قيام المخابرات الأمريكية بتمويل المجلة وتوجيهها.

تصاعدت الحرب الباردة بين الشرق والغرب إثر إعلان موسكو عن نجاحها فى صناعة القنبلة الذرية فى أغسطس عام ١٩٤٩، وبعد إنشاء الكومنفورم عام ١٩٤٧ كهيئة تنسيق بين الأحزاب الشيوعية وتبادل المعلومات والخبرات، وازداد الموقف حدة بعد إدانة موسكو لتيتو قائد يوغسلافيا عام ١٩٤٩، وسحب خبرائها العسكريين وإيقاف معوناتها الاقتصادية لبلجراد.

وقد تمثل الرد البريطانى على هذا فى إنشاء إدارة جديدة، تتبع رسميًا وزارة الخارجية البريطانية، سميت «إدارة البحث الإعلامى» Information Reseach Dep. ورغم اسمها البرىء، فإن هذه الإدارة التى كان مهندسها وزير الخارجية إيرنست بيفن كانت إدارة سرية للحرب الباردة، وقد اعتمدت فى ميزانيتها على المصروفات السرية للحكومة البريطانية، وكان بيفن يقول: «لا نستطيع أن نأمل فى هزيمة الشيوعية على أسس مادية فقط، إنما ينبغى أن نضيف إلى ذلك نداءً إيجابيًا على أسس المبادئ المسيحية والديمقراطية، ينبغى أن نقدم أيديولوجية منافسة للشيوعية».

ولقد كانت مشكلة الإعلام البريطانى هى انه رسم خلال الحرب صورة وردية للاتحاد السوفيتى ولستالين، وأصبحت المشكلة بعد الحرب هى: كيف يمكن التخلص من هذه الصورة القديمة وإحلال صورة معادية لها. تلك كانت مهمة «إدارة البحث الإعلامى».

ومن أول خبراء هذه الإدارة كاتب هنغارى الأصل، كان شيوعيًا فى الماضى ثم تحول إلى العداء للشيوعية، وكتب رواية «الظلام وقت الظهر» عن قسوة النظام السوفيتى. هذا الكاتب هو أرثر كوستلر، وقد اشترت الإدارة البريطانية من كتابه ٥٠ ألف نسخة وزعت عن طريق المجلس البريطانى.

وقد قام كوستلر بإلقاء العديد من المحاضرات فى بريطانيا وأمريكا، هى بمثابة دعوة للمثقفين للتعاون مع قادة السلطة فى بلادهم والتخلى عن الأفكار «الساذجة» التى تدعو إليها الماركسية، وكانت محاضراته هذه وزياراته هى فرصة للتعرف على خبراء الخارجية الأمريكية ومساعدى الرئيس والصحفيين وأخيرًا بالطبع موظفى المخابرات! وكانت المخابرات الأمريكية مشغولة آنذاك بفكرة أن أفضل وسيلة لمحاربة الشيوعية هى استخدام الشيوعيين السابقين الذين تخلوا عن فكرهم. وبالنقاش مع كوستلر أخذت هذه

Who Paid the Piper

(من كان يدفع لعازف المزمار)

By Frances Stoner Saunders

Granta,1999,

تجنيد الكتاب والفنانين أثناء الحرب الباردة

من يدفع للزمار؟!

عبدالعظيم أنيس

«كانت مشكلة الإعلام البريطاني هي أنه رسم خلال الحرب صورة وردية للاتحاد السوفيتي ولستالين. وأصبحت المشكلة بعد الحرب هي: كيف يمكن التخلص من هذه الصورة القديمة وإحلال صورة معادية لها. تلك كانت مهمة «إدارة البحث الإعلامي»»

الفكرة ثوبًا جديدًا.. هو محاربة الشيوعية عن طريق اليسار غير الشيوعي. وأصبحت هذه الفكرة هي الأساس النظري لعمل الوكالة خلال عقدين بعد الحرب.

ناقش كوستلر الفكرة مع ريتشارد كروسمان النائب العمالي البريطاني الذي عمل رئيسًا لإدارة الحرب النفسية خلال الحرب، واتفقا على نشر كتاب يضم مقالات الشيوعيين السابقين الذين تحولوا ضد الشيوعية بعنوان «أوهام ضائعة». وكان من الطبيعي أن يتصل هذا العمل بميلفن لاسكي المسئول الإعلامي الأمريكي في ألمانيا، وقد أسهم في تحرير هذا الكتاب كل من إنجازيو يوسيلوني، أندريه جيد، ريتشارد رايت، آرثر كوستلر، ستيفن اسبندر، لويس فيشر، أندريه مالرو.. إلخ.

وكل هؤلاء عبروا عن خيبة أملهم في التجربة الشيوعية. وقد نشر الكتاب بعنوان «الإله الذي فشل». وبالطبع قامت المخابرات الأمريكية بتمويل إصدار هذا الكتاب مع وزارة الخارجية الأمريكية، ووزع الكتاب على نطاق واسع في بريطانيا وأمريكا ودول أوروبا الغربية.

وبينما كان الكتاب يوزع على نطاق واسع قام آرثر كوستلر بمقابلة ميلفن لاسكي وناقش معه مشروعًا أكثر طموحًا وأعظم دوامًا.

لقد كان الكومنفورم يستعد لمؤتمر السلام في باريس عام ١٩٤٩، وكان السؤال هو: كيف يمكن مواجهة هذا المؤتمر وآثاره الدعائية؟

وكانت المخابرات الأمريكية ووزارة الخارجية مشغولتين بنفس هذه القضية. وكان الاقتراح الذي تبناه ويزنر Wisner مسئول العمل المخابراتي في الخارجية الأمريكية هو ترتيب يوم يدعى «يوم المقاومة» في مواجهة مؤتمر باريس، يشترك فيه قادة الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية.

كانت المهمة صعبة. فمؤتمر باريس للسلام تشترك فيه أسماء عالمية كبيرة مثل إيليا إيهرنبرج، والكسندر فادييف، والمغني الزنجي الأشهر بول روبسون والكاتب الأمريكي هوارد فاست ورئيس الطاقة الذرية الفرنسية فردريك كوري والكاتب الدانمركي مارتن أندرسون والاشتراكي الإيطالي بيترو نيننى إضافة إلى رسائل تأييد من الفنان الكبير بيكاسو والممثل العظيم شارلي شابلن، وقد أطلق بيكاسو حمامته المشهورة بهذه المناسبة.

تمثل الرد على مؤتمر باريس للسلام في تنظيم «اليوم الدولي لمقاومة الدكتاتورية والحرب» في ٣٠ أبريل عام ١٩٤٩، وجاءت رسائل التأييد لهذا الاجتماع من آبتون سينكلر، جون دوس باسوس، وجوليان هكسلي، وريتشارد كروسمان. ومن العناصر التي وصلت لحضور هذا اليوم على نفقة المخابرات إنجازيو سيلوني وكارل ليفي وسيدني هول وجيمس فارلو وفيني برموكواي.

وعلى الرغم من الإعداد الدقيق لهذا اليوم إلا انه كان عملاً فاشلاً بكل المقاييس. ففي المساء استولى الفوضويون على الميكروفون وأدانوا الاجتماع وهاجموا سياسة الولايات المتحدة، وبالطبع أصيب ويزنر مسئول الخارجية الأمريكية بخيبة الأمل، وأعد هول دراسة عن جهل المثقفين الأوروبيين بحقيقة الأوضاع في أمريكا في محاولة لتهدئة ويزنر.

وفي ضوء هذا أخذت مجموعة من المثقفين الألمان والأوروبيين المتعاونين مع قوة الاحتلال الأمريكي في برلين في الاجتماع لوضع خطة جديدة في مقاومة الشيوعية .. خطة تقوم على إقامة بناء ثابت للمقاومة الثقافية للفكر الشيوعي. وقد تم الاجتماع في فندق في فرانكفورت، حضره ميلفن لاسكي، روث فيشر، فرانز بوركينار، كما حضره مايكل جوسلسون، وفي هذا الاجتماع نوقشت فكرة إقامة مؤتمر لحرية الثقافة Congress for culture freedom، وعرف هذا الموضوع باسم «اقتراح جوسلسون».

ولم تكن هناك مشكلة في تمويل هذا العمل، فأموال مشروع مارشال كانت بمثابة الصندوق الدائم المستخدم من المخابرات الأمريكية في كل مكان في أوروبا. واعتمدت ميزانية متواضعة مبدئية لهذا العمل، قدرها خمسون ألف دولار فقط، وأرسل المشروع إلى ويزنر في واشنطن الذي وافق عليه فورًا.

وكان لابد من عمل للترويج لهذا المشروع، وهكذا عقد اجتماع في برلين حضره مثقفون أمريكيون كُثُر، منهم علماء وصحفيون وأدباء، وفيه تشكلت سكرتارية للإعداد للمشروع من مايكل جوسلسون ولاسكي وكوستلر وبراون وسيلوني واتخذ مقرًا مؤقتًا لها منزل لاسكي في برلين.

لقد ادعى البعض أن سيلوني لم يكن يعرف أن المخابرات الأمريكية وراء هذا العمل، لكن أرملته قالت فيما بعد إنه كان مترددًا في قبول فكرة المؤتمر، لأنه كان يشك في أنها عملية وراءها وزارة الخارجية الأمريكية.

دعي إذن لأول اجتماع لهذا المؤتمر في ٢٥ يونيو عام ١٩٥٠ بالمنطقة الأمريكية من برلين، وجاء من فرنسا ريمون آرون وأندريه فيليب، أندريه مارلو، ومن بريطانيا حضر جوليان إمري وهربرت ريد، وهيو تروفر روبر، وهارولد ديفز وآخرون، وافتتح المؤتمر بخطاب من عمدة برلين الغربية إيرنست روتير، ولمدة أربعة أيام دار الحوار حول الموضوعات الآتية: العلم والشمولية، الفن والفنانون والحرية، المواطن في مجتمع حر، الدفاع عن السلام والحرية، ثقافة حرة في عالم حر.

وبدا في المؤتمر اتجاه حاد يدعو إلى تعبئة الانتلجنسيا الأوروبية ككتيبة نضال ضد الشيوعية، كما بدا هذا الاتجاه في بحث بيرنهام الذي ميز بين قنبلة ذرية طيبة (أمريكية طبعًا) وقنبلة ذرية شريرة (روسية)، وفي الهجوم على سارتر وموريلي بونتي لرفضهما حضور الاجتماع.

وكان بعض أعضاء الوفد البريطاني (وبخاصة هيو تروفر روبر) منزعجين من اللهجة الاستفزازية التي بدأها كوستلر وآخرون في المؤتمر، وقال هيو فيما بعد إنه لم يكن هناك في المؤتمر إلا القليل الذي يمكن مناقشته وانه تذكر خطب جورنج ضد الشيوعية، وهو يسمع عددا من المندوبين.

ولم يفت هيو أن يفكر أن جهة حكومية أمريكية لابد أن تكون وراء هذا المؤتمر، وبعد ذلك بسنوات قال توم برادي من رجال المخابرات الأمريكية معترفًا: «إن التفكير البسيط كان كافيًا لإدراك من وراء هذا المؤتمر، إذ علينا أن نتذكر أنه عندما عقد هذا المؤتمر كانت أوروبا في حالة إفلاس».

ولقد أوضح موقف الوفد البريطاني أمام جوسلسون ورؤسائه في المخابرات أنه لابد من بذل مجهود جديد لكسب المثقفين البريطانيين لهذا المشروع.

كانت الخارجية الأمريكية - وويزنر على وجه الخصوص - راضية عما تم تحقيقه في المؤتمر. لقد أصبح لدى المخابرات مخزن من المثقفين الأوروبيين يمكن الاعتماد عليهم في أي موقف تود اتخاذه، لكن ظهور ميلفن لاسكي بشكل بارز في المؤتمر، وهو المسئول الإعلامي المعروف في سلطة الاحتلال الأمريكي أغضب ويزنر، وكان من رأيه أنه مالم يستبعد لاسكي من مؤتمر حرية الثقافة فإنه يستحيل أن تستمر المخابرات الأمريكية في دعم المؤتمر، وأرسل مذكرته إلى ألمانيا بذلك. واضطر جوسلسون إلى قبول هذا الوضع على أن يظل لاسكي مستشاره الأول - بشكل غير رسمي - في كل قضايا المؤتمر.

وكان ويزنر هو في الحقيقة المنظم الخفي لكل أعمال المؤتمر، فهو الذي عرض على جوسلسون وظيفة إدارة أعمال المؤتمر، وهو الذي أصدر قرار نقل مكان المؤتمر من برلين إلى باريس. كما عين في اللجنة الإدارية لمؤتمر حرية الثقافة جيمس بيرنهام (تروتسكي سابقا) الذي كان يمثل خبرة في فهم الأحزاب الشيوعية. والغريب أن يتكشف من هذا الكتاب أن بيرنهام هذا لعب مع كيرميت روزفلت دورًا رئيسيًا في عملية Ajax التي أزاحت مصدق عن كرسي السلطة في طهران وأعادت الشاه!

اجتمعت اللجنة الإدارية وبعد مناقشات طويلة تم تبني الهيكل الذي اقترحه لاسكي وجوسلسون: لجنة دولية من ٢٥ عضوًا، خمسة رؤساء شرف للجنة الإدارية، لجنة تنفيذية من خمسة، مدير تنفيذي عام، مدير تحرير، مدير لمكتب باريس، مدير لمكتب برلين، أمين عام للمؤتمر مماثل للأمين العام في تنظيمات الشيوعيين.

وكانت المشكلة الأولى التي تواجه المؤتمر هي كيفية كسب المثقفين المترددين والمحايدين. إن تحدي الأساس الفكري للحياد كان أحد الأهداف الأساسية



لسياسة الحرب الباردة الأمريكية. وكان من رأى جوسلسون أن المنظمة فى حاجة إلى نغمة معتدلة لكسب المترددين والمحايدين. وأغضب هذا كوستلر الذى تميز بالعنف فى جميع مقولاته. وقد أدى قبول رأى جوسلسون فى المخابرات إلى إزاحة كوستلر الذى أخذ يرقب مؤتمر حرية الثقافة بمرارة وهو يبتعد عن أفكاره.

وبدأت سياسة إنشاء فروع المؤتمر فى العواصم الأوروبية المختلفة، فتم إنشاء «الاتحاد الإيطالى لحرية الثقافة» فى أواخر عام ١٩٥١، تحت قيادة سيلونى، لكنه سرعان ما انهار وأرسل نابوكوف لمعرفة السبب فتبين أنه رئاسة سيلونى لهذا الاتحاد.

وسافر نابوكوف إلى لندن لتأسيس فرع للمؤتمر فى بريطانيا، وقابل من أجل ذلك اليوت، وإيزيا برلين، ورؤساء المجلس البريطانى والمسئولين عن البرنامج الثالث فى B.B.C وريتشارد تروسمان الذى كان آنذاك الأمين العام لحزب العمال، وأبلغ نابوكوف زملاءه فى باريس أنه وجد تأييدًا وتشجيعًا واسعًا فى بريطانيا، لكنه أبلغ مسئولى المخابرات أن الكثير من البريطانيين يعتقدون أن المؤتمر منظمة أمريكية يقودها هذا المسئول، وبالتالى فإن أهم عمل فى رأى نابوكوف هو أن يوضح للمثقفين الأوروبيين أن مؤتمر حرية الثقافة ليس منظمة سرية أمريكية.

ولقد تشكل الفرع البريطانى فى نهاية الأمر وعلى رأسه ستيفن اسبندر ومالكون ماجريدش، ومع ذلك فقد ظل المثقفون البريطانيون يرتابون فى مصادر تمويل هذا الفرع، حتى أن بعض الأعضاء كانوا يقولون: عندما كنا ندعو أحدًا للعشاء ويعرض أن يدفع الحساب نقول له: لا تقلق.. فدافع الضرائب الأمريكى هو الذى يدفع الحساب!

فى أوائل عام ١٩٥١ اقترح نابوكوف عمل مهرجان للفنون تقدم فيه أعمال الفن الأمريكى والأوروبى لإثبات أن ما يدعيه البعض عن هبوط الفن الأمريكى غير صحيح.

ومع أن الاقتراح قوبل بتردد من جانب براون وجوسلسون ولاسكى إلا أن «وحدة المنظمات الدولية» فى المخابرات بقيادة توم براد، كانت متحمسة لهذا الاقتراح. فى ١٥ مايو عام ١٩٥١ أصدرت اللجنة التنفيذية لمؤتمر حرية الثقافة أمرًا لنابوكوف بالإعداد لهذا المهرجان.

وفى أول أبريل عام ١٩٥٢، افتتح المهرجان فى باريس، فى البداية لأوركسترا بوسطن السيمفونية، ولمدة شهر كامل هبطت على باريس مئات السيمفونيات والأوبرات لحوالى سبعين من مؤلفى القرن العشرين.

كما نظمت معارض لأعمال النحت والرسم، ولقد حقق المهرجان بعض النجاح إلا أنه هوجم من الصحافة الشيوعية فى فرنسا باعتباره جزءًا من الخطة الماكرة للاحتلال الأيديولوجى الأمريكى لفرنسا.

على أن من أهم التطورات التى ارتبطت بهذا المهرجان فى جانب التمويل هو ظهور مؤسسة تدعى مؤسسة «فارفيلد» تولت عملية التمويل والحقيقة أن هذه المؤسسة لا تزيد على مسئول وحساب فى البنك. أما الممول الحقيقى فهو المخابرات الأمريكية، ولقد دأبت المخابرات الأمريكية على إنشاء مثل هذه المؤسسات لتسهيل عمليات التمويل، فمؤسسة فارفيلد ليس لها مكان محدد، ويكفى أن تتفق المخابرات مع مليونير تثق فيه وتضعه على رأس هذه المؤسسة بعد تمويلها حتى تنساب الدولارات باسم غير اسم المخابرات، لكن المثير للضحك أن نابوكوف ادعى فيما بعد أنه لم يكن يعرف أن تمويل المهرجان قد تم من مؤسسة للتجسس!

ولقد اتضح أنه خلال السبعة عشر عامًا التالية ضخت المخابرات الأمريكية عشرات الملايين من الدولارات لمؤتمر حرية الثقافة هذا، فكأنها كانت بمثابة وزارة ثقافة أمريكية، ولم يقتصر ضخ هذه الأموال عن طريق مؤسسات وهمية مثل مؤسسة فارفيلد، بل استخدمت المخابرات مؤسسات حقيقية مثل مؤسسة فورد ومؤسسة روكفلر ومؤسسة كارينجى كغطاء للعديد من عمليات التمويل، وكانت وجهة نظرها أن هذا الأسلوب ملائم تمامًا لمنظمات ديمقراطية لأنه يؤكد للمستفيدين من هذا التمويل أن مصادرهم فى التمويل بريئة ونظيفة.

رغم الجهد الذى بذل فى تنظيم مهرجان الفنون كانت هناك حيرة حول اتجاه العمل فى الحرب الثقافية ضد الشيوعيين، لكن رجلاً واحدًا كان له الجهد الأكبر فى وضع أجندة الحرب الباردة الثقافية، هو جاكسون C.D. Jackson، وقد عمل مع إيزنهاور خلال الحرب العالمية الثانية، وبعد انتخاب إيزنهاور رئيسًا للجمهورية فى يناير عام ١٩٥٣ عين جاكسون «المستشار الخاص للرئيس فى شئون الحرب النفسية». وأعطى تعيين جاكسون لمؤتمر حرية الثقافة زخمًا قويًا، فإذا احتاج المؤتمر إلى غطاء فى مجلات يمولها تكفل جاكسون بذلك، وإذا احتاج المؤتمر إلى أموال خاصة سرعان ما يتصل جاكسون برجل من رجال الأعمال من أصدقائه لضمان التمويل وهكذا. وفى هذا الإطار ازدهرت مجلات أمريكية تقف المخابرات الأمريكية وراءها مثل مجلة Partisan Review التى رأس تحريرها سيدنى هوك ومجلة New Leader التى رأس تحريرها ليفيتاس Levitas، وهو مهاجر روسى عمل مع تروتسكى وبوخارين فى السنوات الأولى لثورة أكتوبر، ومن المفيد أن نذكر أن تمويل المخابرات لمجلات تصدر فى أمريكا هو أمر يخالف نص ميثاقها الذى ينص على عدم مساعدة أى منظمات داخلية.

على أن أهم مشروع ثقافى أسسته المخابرات الأمريكية (بالاتفاق مع المخابرات البريطانية) هو مشروع مجلة «مواجهة» En-counter التى صدرت من لندن عام ١٩٥٣، واستمر صدورها حتى عام ١٩٩٠.

لقد كانت المخابرات الأمريكية حريصة على تأسيس مجلة تتصدى لمجلة نيو ستيتسمان New Statesman البريطانية اليسارية، وكانت هذه المجلة قادرة على الصمود فى السوق لأنها كانت توزع مائة ألف نسخة أسبوعيًا، فقامت المخابرات بتأسيس مجلة «القرن العشرون» بهدف الدخول فى محاورات ومساجلات مع «نيو ستيتسمان»، ولم تنجح فكرة هذه المجلة.

كانت المخابرات الأمريكية مشغولة آنذاك بفكرة أن أفضل وسيلة لمحاربة الشيوعية هى استخدام الشيوعيين السابقين الذين تخلوا عن فكرهم. وبالنقاش مع كوستلر أخذت هذه الفكرة ثوبًا جديدًا.. هو محاربة الشيوعية عن طريق اليسار غير الشيوعى

عين فى اللجنة الإدارية لمؤتمر حرية الثقافة جيمس بيرنهام (تروتسكى سابقا) الذى كان يمثل خبرة فى فهم الأحزاب الشيوعية، والغريب أن يتكشف من هذا الكتاب أن بيرنهام هذا لعب مع كيرميت روزفلت دورًا رئيسيًا فى عملية Ajax التى أزاحت مصدق عن كرسى السلطة فى طهران وأعادت الشاه!

ومن هنا نشأت فكرة تأسيس مجلة أنجلو أمريكية تعبر عن تيار يسار الوسط، بشرط أن تكون رسميًا بعيدة عن مؤتمر حرية الثقافة، إذ أن أمريكا كانت قد التزمت بألا تقوم بأى نشاط دعائى داخل بريطانيا.

ولقد نوقش مشروع المجلة بين المخابرات الأمريكية والمخابرات البريطانية، وقام ويزنر بالاتصالات الأولى فى هذا الميدان، وفى لندن تم اجتماع ضم وود هاوس Wood House (لعب دورًا أساسيًا فى إسقاط مصدق بإيران) وجوسلسون ودى نيفيل، واتفق على إنشاء مجلة ثقافية تصدر من لندن ويكون رئيس تحريرها بريطانيا تدفع بريطانيا راتبه، على أن تشترى الخارجية البريطانية عددًا متفقًا عليه من النسخ يتم توزيعه عن طريق المجلس البريطانى British Council، وبالإضافة إلى ذلك سوف يتولى مؤتمر حرية الثقافة تمويل المجلة سرًا، وأكد جوسلسون أن الأموال التى ستصل المجلة ستكون عن طريق مؤسسة فارفيلد. كما اتفق على أن يكون هناك محرر أمريكى مشارك. وكان المرشح البريطانى لرئاسة التحرير هو الشاعر ستيفن اسبندر، أما الأمريكى المشارك فقد اتجه الترشيح إلى إيرفنج كريستول.

لقد اختير اسبندر لأنه شاعر وأديب معروف من خريجى اكسفورد، كان عضوًا بالحزب الشيوعى البريطانى فترة قصيرة من حياته، ثم انشق عن الحزب وعرف بمقالاته بعد الحرب فى اتجاه الحرب الباردة.

نشرت المجلة العديد من المقالات لكتاب معروفين فى أوروبا والولايات المتحدة، وكان لها وضع رئيسى فى التاريخ الثقافى بعد الحرب العالمية الثانية. فقد نشرت فيها نانسى ميتفورد مقالها الشهير «الديمقراطية الإنجليزية»، كما نشر بها إيزيا برلين أربع مقالات عن الأدب الروسى، ونشرت فيها مقالات نابوكوف عن بوشكين، كما نشرت مقالات بأقلام أودن وتوينبى وهربرت ريد.. إلخ. وهم من أعظم عقول أمريكا وبريطانيا، لكن المجلة اتسمت بالصمت الكامل فيما يتعلق بالقضايا السياسية.

على أن المجلة واجهت مشكلة الخلافات فى الرأى بين اسبندر وكريستول من ناحية، وبين جوسلسون وكريستول من ناحية أخرى، فقد كتب جوسلسون من باريس بعد صدور العدد الأول إلى كريستول يقول إن «العدد ليس به سياسة بالقدر الكافى» ويرد كريستول من لندن قائلاً: «إننا فى لندن أقدر منكم فى الحكم على محتويات المجلة».

على أن أول أزمة حقيقية واجهت المجلة كانت بسبب مقال أعد للنشر فيها حول مسألة إعدام جوليوس وإيثيل روزنبرج. إنه مقال كتبه فيلدر Fielder للمجلة يلوم فيه الشيوعيين على ما حدث للزوجين، وهو يتحدث عن الزوجة بعد إعدامها حديث المتشفى وإن كان يعترف بتنامى الشعور المعادى لأمريكا فى أوربا بعد تنفيذ أحكام الإعدام.

وقد انزعج سيدنى هول (وهو أحد أعضاء مجلس التحرير) عندما رأى بروفات المقال، واقترح أن يضاف إلى المقال فى النهاية شبه اعتذار بأن المقال لا ينبغى أن يفسر بأنه هجوم على موتى. إنه لا يقدم تحليلاً لشخصيات سياسية وإنما لأسطورة سياسية.

على أن هذا المقال فجر خلافًا حادًا بين المثقفين حول هذا الموضوع وكتب الأديب البريطاني فورستر خطابًا إلى اسبندر محتجًا على ذلك المقال عن الزوجين روز بنرج «ليس لما ورد به من وقائع فقد تكون صحيحة وإنما للقسوة والازدراء اللتين عالج بهما المقال الأيام الأخيرة لإيثيل روز نبرج» حتى الشاعر إليوت كتب ردًا على طلب اسبندر له بالمساهمة بمقالات وقصائد يقول: «إن لدى شكوكًا حول فعالية هذه المجلة Encounter فمن الواضح لي أنها منشورة تحت إشراف أمريكي». وقال أنتوني هارتلي في مجلة Spectator: «إن من الأسف أن تصبح مجلة Encounter مجرد سلاح في الحرب الباردة». وكتب الأستاذ الجامعي والناقد جراهام هيو مشيرًا إلى المجلة بقوله «هذا الرضيع الأنجلو أمريكي».

وكما أدى هذا المقال إلى انقسام الرأى حول هذه المجلة، فإن الخلاف حول سياسة التحرير بين اسبندر وكريستول قد ازداد وكتب اسبندر إلى جوسلسون شاكيًا من تجاهل كريستول لمقترحاته.

وفي هذا الجو المحموم ظهرت مشكلة السناتور مكارثى الذى قاد حملة صليبية عمياء ضد المثقفين الأمريكيين تحت ستار البحث عن النشاط المعادى لأمريكا فادين العشرات من العلماء والفنانين وتحول عدد من الفنانين إلى مخبرين عن زملائهم أمام لجنة مكارثى، وفشل الفرع الأمريكى لمؤتمر حرية الثقافة فى الدفاع عن حرية الفكر أو التصدى لأعمال مكارثى ولجنته.

وعلى عكس ذلك فإن مؤتمر الدفاع عن حرية الثقافة في باريس تحت قيادة جوسلسون اكتسب عضوية هامة مثل جوليان هكسلى وأندريه مالرو وهربرت ريد! وأنشا مجلة Forum فى فيينا تحت قيادة ثوربرج، كما أسس مجلة «العلم والحرية»

كانت المخابرات الأمريكية فخورة بصدور هذه المجلات وبتمويلها. وبلغت الأموال التى أنفقتها عام ١٩٦١ أكثر من ٥٦٠ ألف دولار، ارتفعت إلى ٨٨٠ ألفا عام ١٩٦٢

فى يوليو عام ١٩٥٣ بتمويل من مؤسسة روكفلر، ثم أصدر مجلة Soviet Survey عام ١٩٥٥، وراس تحريرها والتر لاكير الذى كان فى نفس الوقت الممثل الرسمى للمؤتمر فى إسرائيل، وفى أبريل عام ١٩٥٦ ظهر فى روما أول عدد من مجلة Tempo Presant يحررها سيلونى كمجلة مفتوحة لمن تركوا الحزب الشيوعى الإيطالى، كما بدأت فى الظهور فى استراليا مجلة Quadrant بتمويل من المؤتمر وفى الهند مجلة Quest ، ثم ظهرت مجلة «حوار» فى بيروت بعد ذلك.

لقد كانت المخابرات الأمريكية فخورة بصدور هذه المجلات وبتمويلها. وكمثال على الأموال التى انفقتها المخابرات، فى عام ١٩٦١ بلغ مجموع ما دفعته جهات المخابرات للمجلات أكثر من ٥٦٠ ألف دولار، ارتفعت إلى ٨٨٠ ألف دولار عام ١٩٦٢، وقد بلغ ما دفعته مؤسسة فار فيلد للمؤتمر عام ١٩٦٢ نحو مليون دولار.

على أن الأزمة التى عصفت بمجلة En-counter بدأت بوادرها عندما أرسل دوايت ماكدونالد مقالاً إلى المجلة بعنوان «أمريكا أمريكا» ضمنه انتقادات للحياة الأمريكية، وقد قبله اسبندر دون أن يقرأه جيدًا.

لكن كريستول انزعج من المقال وقال إنه يشبه كتابات جون أوزبورن وقال إن مقال ماكدونالد أوسع نقدًا للحياة الأمريكية مما كان يظن فى أول الأمر. لكنه فى النهاية وافق على النشر تجنبًا للخلاف مع اسبندر، على أن فرع باريس للمؤتمر ضغط لمنع نشر المقال، وقد تم هذا بالفعل، فلجا ماكدونالد إلى نشر المقال فى صحيفة أخرى وكتب إلى اسبندر شاكيًا من الرقابة فى المجلة. وبدأت بعض المجلات تتساءل علنًا: هل يجوز للمخابرات أن تمول مجلات رأى، وهل من المناسب أن تدفع مبالغ كبيرة لشعراء روس يمكن اعتبارها كرشاوى؟

ثم بدأت تظهر مقالات تقول علنًا إن مؤتمر حرية الثقافة ومجلة «مواجهة» Encounter ليست إلا أدوات فى يد المخابرات الأمريكية.

على أن الموقف قد تفجر عندما القى كونر كروز أو براين محاضرة فى جامعة نيويورك اتهم فيها المثقفين فى الغرب بانهم خدم لهيكل السلطة، جاء هذا فى زمن الحرب الفيتنامية، وكان هذا بداية تمرد المثقفين على سياسة الدولة الأمريكية فيما يتعلق بالحرب الفيتنامية، فبدأت مواقف سناتور فولبرايت ضد هذه الحرب، وجاءت كتابات نورمان ميللر فى نفس الاتجاه.

وفى ٢٦ أبريل عام ١٩٦٦ ظهر مقال جديد يؤكد ما قاله أوبرين من أن مجلة «مواجهة» هى من تمويل المخابرات الأمريكية، وقد رد لاسكى (باسم مستعار) على أوبرين مشككًا فى سلوكه عندما كان ممثلاً للأمم المتحدة فى الكونغو.

وقام أوبرين برفع قضية قذف على مجلة مواجهة، وكسبها. ولقد كانت هناك مجلة تصدر فى كاليفورنيا تدعى رامبارتس Ramparts بدأت تهتم بدراسة حقيقة وضع المنظمات التى تعمل كواجهة للمخابرات، وقامت بنشر سلسلة من المقالات عن هذا الموضوع وعن العمليات السرية للمخابرات، وأكدت المجلة فى هذه المقالات أن المخابرات الأمريكية تمول مجموعة من المجلات الثقافية فى مقدمتها مجلة «مواجهة»، وهكذا ثبت أن كل ما قاله أوبرين عن المجلة صحيح.

كان اسبندر فى الولايات المتحدة عندما ظهر كل هذا وكان المحرر الفعلى للمجلة فى لندن هو لاسكى رغم وجود كيرمود كمحرر أمريكى مشارك، وقد اقترح اسبندر أن يصدر المحررون بيانًا يقولون فيه إنهم لم يكونوا على علم بمصادر التمويل، وهذا ما تم بالفعل، ثم اجتمع مجلس التحرير فى لندن وأعلن اسبندر وكيرمود استقالتيهما من عملهما فى المجلة، وفى مايو عام ١٩٦٧ خرجت «نيويورك تايمز» بما نشرته فى صفحتها الأولى نصه «ستيفن اسبندر يترك مجلة «مواجهة». بيان من اسبندر».

ولقد استمرت مجلة «مواجهة» بعد ذلك، حتى أغلقت عام ١٩٩٠، وكان سحب تمويل المخابرات لها قد عرضها لأزمات مالية متتالية، خصوصًا بعد انهيار الثقة فيها. وهكذا كانت نهايتها وكانت قد سبقتها نهاية مجلات أخرى مماثلة مثل مجلة «حوار» التى كانت تصدر بالعربية فى «بيروت» والتى كانت تمول من المخابرات الأمريكية أيضًا. ■

فى طب الأسنان

القديم

الأشباح والأرواح تسكن الفم!

محمد فؤاد الذاكرى

تاريخ الطب قديم جدا ، إذ إن الطب وثيق الارتباط بحياة الناس التى تعود إلى أزمان موغلة فى القدم، والأمراض قديمة العهد قدم الحياة ذاتها، ولا غرابة فى ذلك، فما الأمراض إلا جزء من الحياة نفسها تحت عوامل وظروف متغايرة متباينة تظهر نتيجة لرد فعل الجسم ضد الطوارئ والملابسات المحيطة به.

وآلام الأسنان قديمة أيضا، وقد خشيها الناس فى كل زمان ومكان، وسعوا إلى التخلص منها بمختلف الوسائل وشتى الأساليب . والواقع أن الخطوات الأولى فى طبابة الأسنان بدأت مترافقة مع مثيلاتها من باقى الفنون والعلوم. ومما لاشك فيه أن الإنسان القديم كان يسعى إلى العلاج بكل ما يملك من إمكانيات تؤطرها له حدود معرفته، وعندما يعجز عن الشفاء يعزو ذلك إلى قوى خارقة، ولذا لم يجد بدأ من التماس المعونة من آلهته عن طريق الكهان والسحرة الذين نسبوا الأمراض إلى غضب الآلهة، فلعلها ترضى عنهم وتهتم بهم وتبعد عنهم شر الشياطين، كما التمسوا وساطة الكهان سعيا وراء الحصول على رضى الآلهة، وهكذا فإن الشخص المعالج هو كاهن البلدة أو ساحرها. وتشير المكتشفات الأثرية بانهم كانوا فى كثير من الحالات يصفون الأدوية بالإضافة إلى الطقوس السحرية أو الدينية التى يمارسونها على مرضاهم، وكان أكثر تلك الأدوية من الأعشاب، ولا شك أن بعضها كان مفيدا وفيه ومضات من المعالجة السليمة .

وبالنسبة لأواسط آسيا ومنطقة البحر الأبيض المتوسط، فقد قدمت لنا المكتشفات الأثرية معلومات عن حضارات قديمة تمتد إلى ستة آلاف عام قبل الميلاد، وأبرز هذه الحضارات حضارة وادى الرافدين ، وتضم «سومر» و«أكاد» و «بابل» و «آشور» وحضارة وادى النيل، أى حضارة قدماء المصريين .

وبالنسبة لوادى الرافدين، فإن اللوحات المسمارية المكتشفة والمتضمنة نصوصا طبية، فهى بمثابة الكتب الطبية والمراجع للمشتغلين فى المعالجة والذين يتعلمون فن التطبيب والعلاج.

أمراض الأسنان

فى الحضارة الأشورية - مثلا - كان المعالجون يمزجون المعتقدات الخرافية بالمعالجة المادية بشكل وثيق، وبالنسبة لآلام الأسنان والالتهاب اللثوى، فقد جاء فى إحدى اللوحات المسمارية (إذا أصبحت أسنان الإنسان مخلخلة وأصابها النخر فزنْ مقادير متساوية من الحبة السوداء والخلة والجرجير وحجر الزرنيخ (كبريتيد الزرنيخ) ومسحوق الشبّ والصبر واصحنها، ثم افرك جذور أسنانه [ويقصد اللثة] بقطعة من الخبز الجاف حتى يسيل دمها، ثم ضع المسحوق على الأسنان وسوف يشفى).

من الواضح أن الحالة المرضية تتحدث عن التهاب لثوى حاد نجم عنه حركة فى الأسنان بسبب الترسبات الكلسية القلحية (CALCULUS) والتشخيص صحيح وكذلك مبدأ المعالجة وهو إزالة هذه القشور الكلسية المتجمعة على سطوح الأسنان وذلك بواسطة (قطعة الخبز الجاف) وتقوم مكان (المجرد SCALPER) وهى الأداة المعدنية المستخدَمة لجرد الأسنان وتنظيفها ثم استخدام المسحوق المكّون من جملة أعشاب طبية ومواد معدنية المنشأ حصل عليها المعالج من خلال التجربة والملاحظة.

بجانب هذه المعالجة المادية كانوا ينسبون الأمراض ومن جملتها أمراض الأسنان إلى الأشباح والأرواح التى أرسلت إليهم المرض عن طريق السحر، ومنها هذه التعويذة لألم السن مقدمة إلى أحد الآلهة المدعو (شماش) حيث تقول :

(دعاء : أيا شماش عرفت من سنّى الذى يؤلمنى أن بعض الأشباح التى لم تدفن غضبانة لأنى لم أقدم لها الخبز ولا الماء، أصلىّ إليك أن تجيزنى بحبسها وتغطيتها مثلما تغلق الحبة على ما بداخلها، لكى يذهب ألم سنّى وأكون كالفراشة التى لا تؤلمها أسنانها) .

نخر الأسنان

داء يصيب الأسنان بتأثير ما تتعرّض له البيئة الفموية من العوامل الكيميائية والجرثومية، فتتكون حفرة على سطوح الأسنان، لا تلبث أن تمتد نحو الداخل، إذا لم تعالج العلاج الكافى، إلى أن تبلغ حجرة اللبّ (Pulp cavity) والموجودة فى مركز السن ، حيث يصاب اللب المؤلف من مجموعة الياف عصبية وأوعية دموية بالالتهاب والموات، وإذا استمر النخر ازداد عمق الحفرة واتساعها فتتداعى السن وتتفتت وتندثر، فلايبقى منها غير الجذر. أما المظهر السريرى للنخور السنية فيبدأ بظهور بقعة واحدة أو أكثر على سطح السن ، يتراوح لونها ما بين الطبشورى والأسمر، ثم يتلو هذا التحول فى اللون خشونة السطح بسبب تخرب النسج السنية بفعل النخر الذى يستمر متغلغلا نحو الداخل، وتتكون حفرة النخر السوداء اللون، ومن خلال النظر إلى الأسنان يمكن بسهولة ملاحظة السن الموؤف المسود من بين مجموعة الأسنان الأخرى البيضاء اللون، وهكذا نشأ الاعتقاد بأن نخر الأسنان (السواد) مرده إلى دودة ساكنة تحت الأسنان أتت بإذن من الآلهة ولاتخرج إلا بإذنهم ، وهى التى تقوم بقضم وتخريب طبقات السن وإحداث فجوة فيه مسببة الآلام الشديدة. وكان لابد من تقديم السبب أو المبرر لهذا الأمر بحسب التصورات الدينية السائدة، وهو ما تشرحه لنا إحدى اللوحات المسمارية والتى تعود بتاريخها إلى عام (٦٠٠ ق.م) ، حيث تقول :

(بعد أن صعد أنو إلى السماء صنعت السماء الأرض ، وصنعت الأرض الأنهار، وصنعت الأنهار القنوات، والقنوات الأهوار ، والأهوار الديدان، ثم جاءت الديدان باكية إلى «شماش» وإلى «أيا» وكانت دموعها غزيرة، وقالت : ماذا ستعطينى لطعامى ماذا ستعطينى لأدمره ؟ إنى ساعطيك التين المجفف والمشمش. فى الواقع لن يفيدنى التين المجفف ولا المشمش، أرسلنى وسط الأسنان دعنى أعيش فى اللثة لكى أتلف دم الأسنان واللثة وأمضغ قشاشاتهم، ولكى أمسك بيدى مزلاج الباب).

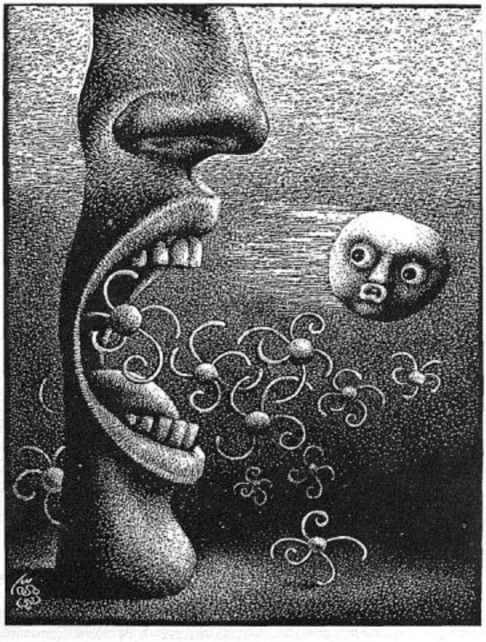
ومن أجل إخراج هذه الدودة وطردها من السن يجب على من يتلو هذا الدعاء أن يختمه بقوله:

(أيتها الدودة ليقتلك «أيا» بقبضته الجبارة).

هذا «الاعتقاد» نجده فى أغلب المصادر الطبية القديمة وارتبط بأسطورة الخلق والتكوين الإنسانى، وفى نص هندى قديم يعود تاريخه إلى ألفى عام تقريبا يقول :

(عندما يصبح السن متآكلا ويمتلئ بالأطعمة والأوساخ، فسرعان ما تنشط الديدان الدقيقة من خلال التآكل مسببة آلاما مختلفة).

وامتد هذا الاعتقاد إلى الرومان القدماء فحوالى سنة (٤٨ق.م) اقترح «لارجوس



Largus» طبيب الإمبراطور الروماني «كلوديس» إحراق (بذور البنج Henbane Seeds) وتبخير الفم بالأبخرة المتصاعدة للقضاء على دود السن وطرده، ثم كتب بعد ذلك بأنه ينبغي غسل الفم، حيث يمكن أن تظهر أشياء دقيقة تماثل وتشابه الديدان الصغيرة في ماء الغسل، ومع اتصاف «لارجوس» بالحذر فقد حزم أمره أخيرا، وأعلن بشكل قاطع لايتطرق إليه الشك بان هذه (الأشياء) هى بالتأكيد (ديدان).

الطب اليونانى القديم

كان الطبيب اليونانى الشهير جالينوس (١٢٩ ـ ٢٠١م) من أشهر المؤيدين والمتحمسين لتبخير الفم بغية طرد الديدان السنية منه واشتهر بذلك لدرجة أن بعض المدعين المحتالين استغل طريقته وجعلها سببا لخداع جمهور العامة وسلب أموالهم عن طريق وضع مادة القار (الزفت) والقطران السائل على جمر النار وتبخير الفم، فلا يجد المريض بدّا من إغلاق عينيه أمام تصاعد الأبخرة الكثيفة، وهنا تظهر براعة المحتال وخفة يده، إذ يقوم بطرفة عين بدس (دود) حقيقى قد أعده خصيصا فى حُق مُخبا، ثم يخرجه مرة أخرى أمام جمهور المشاهدين والنظّارة، مبرهنا على نجاعة معالجته وجدواها فى إخراج (الدود) من الأسنان الموؤفة، مع حرصه على الإعلان بانه تعلم هذه الطريقة من «جالينوس» بالذات، الذى شاءت المصادفات أن يشاهد هذه (المسرحية) عن كثب أثناء مروره بمدينة «روما» ويكشف الموضوع للسلطات، عن هذا المحتال الذى يدعي التلمذة له، ومع ذلك فإن إيمانه بوجود (دود السن) لم يتزعزع قط، ولا عجب فإن الأطباء والفلاسفة اليونانيين، وفى مقدمتهم أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م) الشهير كانوا يقترحون مختلف المعالجات للتخلص بزعمهم من التأثير الضار للدود على صحة الأسنان وسلامتها.

الأطباء العرب القدامى

انتقلت عدوى الاعتقاد بدود السنّ ـ عبر التأثير اليونانى ـ إلى الطبّ العربى الناشىء، وكان لابدّ لبعض الأطبّاء القدامى أن يناقشوا وسائل التخلّص من الدود الأكّال واعتباره أحد الأسباب القويّة المسبّبة للآلام الفظيعة التى تنتاب المريض المصاب بنخر سنّى عميق نافذ.

ولابدّ من التنويه بأنّ فئة من الأطبّاء القدامى قد ساورهم الشكّ وعبّروا عن معارضتهم لهذا (الاعتقاد) الذى كان يجد الكثير من المناصرين، كما أنّ دحضه يستلزم أدلّة وبراهين قويّة كانت فى ذلك الوقت خارج حدودهم المعرفية، وتوزّعت مواقفهم كالتالى:

أولاً: موقف التجاهل التامّ، وفى مقدّمتهم العالم الطبيب العربى الشهير «حُنين بن إسحق» (٢٦٤هـ/ ٨٧٧م)، ففى كتابه المعروف (فى حفظ الأسنان واللثة واستصلاحها) والذى يعدّ أوّل كتاب علمى منهجى مستقلّ عن طب الأسنان فى الحضارة الإسلامية والتراث الطبى العربى، نلاحظ بوضوح أنّه لم يتطرّق لهذا الموضوع قطّ عند إيراده الأمراض والآفات التى تصيب الأسنان ومعالجتها، ويتجاهل الحديث عن (دود السنّ) تماماً، فهو يعبّر عن موقف معارض وعدم قناعة، فاغفل ذكره ولم يتعرّض إليه، وإن لم يشا دحضه لاعتبارات معرفية كما أسلفنا. كما حذا حذوه «ثابت بن قرة» (٢٨٨هـ / ٩٠١م) فى كتابه (الذخيرة فى علم الطب) فهو لا يذكر أى شىء عن دود السنّ، وكذلك «علىّ بن العبّاس» (٤٠٠هـ / ١٠١٠م) والطبيب الفيلسوف «أبو بكر محمد بن زكريا الرازى» (ت٣١٣هـ / ٩٢٥م)

ثانيا: موقف الرفض والتشكيك من وجهة نظر منطقية وعقلانية، وأبرز مَنْ يمثّل هذا الموقف هو «أبو الحسن الطبرى» من أطبّاء القرن الرابع الهجرى، ويذكر مناقشة موضوعية مهمّة بخصوص عدم وجود أى قدر من المصداقية فى هذا الاعتقاد بوجود الدود فى حفرة (التآكل) السنّى، فيذكر بأنّ حركة الأسنان أثناء مضغ الأطعمة المختلفة والتى يدخل فيها (الملح والخل) وهى من الموادّ المطهرّة والحافظة التى تمنع تواجد الدود، وفى إشارة وقياس موفق يقول بأنّ (التدوّد) يحصل فى المواضع العفنة فقط والتى تتعرّض لتماس هذه المواد الكاوية. لقد اقترب «أبو الحسن الطبرى» أو كاد من الرفض الكامل لهذه الأسطورة القديمة، لكنّه يذكر بعد ذلك طائفة من (الأدوية التى تقتل الدود وتغسل الوسخ المتجمّع فى الحفر والثقبة) ومنها (القطران يُجعَل منه فى الثقبة فإنه يقتل ما فيه من الديدان من وقته).

ونلاحظ بانّه يمثّل حيرة العقل الإنسانى العلمى ومحاولة إيجاد منهج ملائم رغم كلّ الإعاقات (المعرفية)، فحرص «الطبرى» على ذكر الآراء وما يخالفها مع عدم التقرير الصريح، وإن كان يسجّل بانّه أوّل طبيب مسلم فى التاريخ الطبّى لايجوز إغفال أهمية محاولته أن يصل إلى تصوّر خاصّ به، مستقلّ عمّا كان لمعاصريه الذين تمسّكوا باقاويل القدماء من اليونانيين وأن يحوز من هذه الزاوية تقديرنا وإعجابنا.

لكنّ هذه الأسطورة حول (دود السنّ) كانت تلاقى القبول والترحيب وترسّخت أكثر فى عقول الأطبّاء والمعالجين فى العصور الوسطى، واستمرّت التوصيات والمعالجات المقترحة بالتعرّض لأبخرة (المرّ واللُبان) المتصاعدة بعد تعريضهما للنار بغية مضايقة وطرد الدودة المختبئة بين جدران السنّ تقضم تكوينه وتسبّب الألم والإزعاج، ولا ريب بانّ شدّة الألم ودرجته كانت ترتبط بالأذهان بحركة الدودة ونشاطها، ولكن الأدوية والعلاجات التى قدّمها الأطبّاء العرب القدامى باعتراف الجميع كان لها أثرها المهدّىء والفعّال فى تسكين آلام النخر السنّىّ المبرحة وطريقة العلاج تكون بوضع الموادّ الكاوية (الزيوت المغلية) والأدوية المحلّلة مثل (الحرمل) ولبذوره خواص مهدّئة ومسكّنة للألم، فهى إذا غليت فى (ماء الفجل والزيت) أزالت وجع الأسنان. كما يقول «داود الأنطاكى» (١٠٠٨هـ / ١٦٠٠م) فى تذكرته، ونبات (السّمق) وغيرها.. فى حفرة النخر (التآكل) بتماسّ مع النسيج اللبّى المكشوف ممّا يؤدّى إلى إماتته وحفظه فى حالة عقيمة ويتبع ذلك زوال الألم بطبيعة الحال، هذا الإجراء العلاجى الفعّال كان يُطلَق عليه فى الماضى تسمية (كىّ الضرس) وغنىّ عن البيان أنّ (الكىّ) كان ومازال وسيلة علاجية مرجوّة تحتلّ مكانة خاصّة فى الطب القديم، ويشرح «ابن سينا» (٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م) طريقة الكىّ وينبّه إلى اتّخاذ الإجراءات الوقائية التى تحمى الأسنان واللثة من الضرر وذلك بوضع مادّة واقية مثل الشمع أو العجين، حول السنّ الموؤف المراد كيّه، بغية ضمان عدم تسرّب أى شىء من المواد الكاوية إلى وسط الفم، ويقول فى ذلك:

(تؤخذ مِسلّة تُحمى وتُغمّس فى ذلك الزيت وتنفذ فى تجويف أنبوب مُتهندِم على السنّ الوَجِعة حتّى تبلغ السنّ وتكويه، وقد يُجعَل على ما حواليه شمع أو عجين أو أى شىء آخر يحول بين السنّ وما حواليه من الأسنان والعُمور وقد يُقطَر أيضا فى الأنبوب، الدهن المغلى).

وبحلول عام (١٧٠٠م) بدأت أسطورة دود السنّ تهتزّ فى عقول العلماء والباحثين بعد تقارير الهولندى «فان لوفنهوك Van Leeuwenhoek» والذى يوصَف بانّه (أبو المجهر) وقد نفى أية علاقة للدود المزعوم بحصول النخر السنّى، بعد فحصه عدداً من الأسنان الموؤفة تحت المجهر، وعلى الرغم من الاعتراضات على هذه النتائج مثل رئيس (الجمعية الملكية) فى لندن والذى يعتبر أرفع منصب علمى فى وقته، وقد أرسل بعض الديدان التى (اكتشفها) فى أحد الأضراس المقلوعة إلى «لوفنهوك» لفحصها وتحديد ماهيّتها الذى لم يجد صعوبة فى اكتشاف مصدرها وهو (الجبن الفاسد)، ولكنّ حملات التشكيك لهذا الاعتقاد الخاطىء تفشل، وذلك لأنّه حسب «بير فوشارد Pierre Fauchard» الذى يعتبر مؤسس طبّ الأسنان الحديث: إنّ هذه الديدان على فرض وجودها داخل الفم فإن مصدرها الأطعمة الفاسدة التى يتناولها الإنسان ليس أكثر، وماتت هذه النظرية تدريجياً، وفى القرن التاسع عشر دُحضتْ تماماً بعد أن ظلت تعشّش فى العقول لأكثر من ٤٠٠٠ عام.

أول كتاب عن طب الأسنان فى الحضارة الإسلامية

يعدّ كتاب «فى حفظ الأسنان واللثة واستصلاحها» لمؤلّفه «حنين بن إسحق العبّادى» (٨٠٩ ـ ٨٧٣) أوّل كتاب مستقلّ يتناول طب الأسنان عند العرب، وتنبع أهميّته من أنّ المؤلّف قد قام بتدوينه بعد أن بلغ قمّة نضوجه العلمى والطبى، وتوفّرت لديه حصيلة متنوعة من التجارب الطبية، وفى طبّ الأسنان تحديداً. فقد قدّم مادّة طبّيّة أساسية بفضل تفهّمه العميق لتشخيص ومعالجة أمراض الأسنان واللثة: ثمّ إنّ النزعة التجريبية التى تبنّاها قد جعلته قادراً على تعديل علاجات ومفاهيم خاطئة متوارثة، وذلك بمعرفته الكاملة بما توصّل إليه الأطبّاء اليونانيون القدامى على وجه الخصوص، ولم يمنعه ذلك من النقد والإضافة والابتكار.

وقد ولد (حنين بن إسحق) المكنى بابى زيد العبادى فى مدينة (الحيرة) فى العراق سنة (١٩٤هـ ـ ٨١٠م) واتجه لدراسة العلوم الطبية منذ يفاعته وأظهر نبوغا وتفوقا جعله الطبيب الخاص للخليفة العباسى المتوكل على اللّه وتوفى سنة (٢٦٠هـ ـ ٨٧٣م) بعد أن قضى حياته فى خدمة العلم والمعرفة.

واشتهر (حنين) عند المؤرخين القدامى أمثال: ابن النديم. ابن خلكان. ابن أبى أصيبعة. بتاليف كتب طبية كثيرة ومتعددة من أشهرها: كتاب العشر مقالات فى العين وكتاب المسائل فى الطب.. وغيرها. كما كان مترجما قديرا بارعا من اللغة اليونانية إلى العربية، أبرز قدرة اللسان العربى الموافق لكل العلوم والمعارف فاصبح من رواد حركة الترجمة والتعريب فى القرن الثانى والثالث للهجرة وماارافقها من شروح وتحليلات تكاملت مع نهضة علمية شاملة ميزت الحضارة الإسلامية، والجدير بالذكر أن اللغة العربية لم تكن وسيلة ترجمة بل كانت أداة خلق وتاليف صالحة



جاء فى إحدى اللوحات المسمارية:
(إذا أصبحت أسنان الإنسان مخلخلة وأصابها النخر فزن مقادير متساوية من الحبة السوداء والخلة والجرجير وحجر الزرنيخ (كبريتيد الزرنيخ) ومسحوق الشبّ والصبر واصحنها، ثم افرك جذور أسنانه [ويقصد اللثة] بقطعة من الخبز الجاف حتى يسيل دمها، ثم ضع المسحوق على الأسنان وسوف يشفى).

للتعبير عن جميع العلوم والمؤلفات العلمية.

ومن الصعب تحديد زمن دقيق ومحدد لتأليف كتاب (في حفظ الأسنان واللثة واستصلاحها) ويمكن اعتباره من مؤلفات (حنين بن إسحق) المتأخرة التي دونها في زمن الخليفة المتوكل، أي بعد أن بلغ نضوجه العلمي والطبي وتوفرت لديه حصيلة متنوعة من التجارب الطبية ونستدل على ذلك من خلال بعض الإشارات القليلة الواردة في الكتاب عند ذكره لدواء يستخدمه في معالجة اللثة حيث وصفه بقوله: (وقد جربناه فحمدناه).

ولكن اهتمام (حنين) بطب الأسنان - حسب المصادر - يرجع إلى زمن الخليفة الواثق بالله، توفي (٢٣٢هـ) الذي كان محبا للإشراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة وغيرهم، بحسب (المسعودي) الذي ذكر تفاصيل أحد مجالس العلم التي حضرها مجموعة من الأطباء المعروفين في زمن الخليفة الواثق، وقد أجاب (حنين) عن مسائل عامة تناولت موضوعات علمية مختلفة في الرياح والبلدان والجغرافيا والكواكب والأنواء واللافت للنظر أن (الواثق) خص (حنينا) وحده بسؤال يتعلق بالأسنان وكانت إجابته واضحة تدل على تفهمه العميق لتشريح الأسنان وبنيتها ووظائفها ودورها وتتضمن مقدمة تمهيدية أساسية لطالب العلوم الطبية، مما يدل على أنه كان معروفا بخبرته ومزاولته العلمية لطبابة الأسنان واشتهاره بذلك في عصره. وتنبع أهميته من خلال تقديمه مادة علمية للأطباء القدامى كانت قاعدة وتوطئة استندوا إليها للانطلاق في بحوثهم وابتكاراتهم، كما ذكر المحقق أن اهتمام (حنين) وتفهمه العميق لتشخيص أمراض الأسنان واللثة والنزعة التجريبية التي تبناها جعلته قادرا على إضافة شيء مبتكر في هذا المجال ويدور مضمون الكتاب حول محورين:

الأول: يبحث سبل وقاية الأسنان وحمايتها أو ما يعرف بطب الأسنان الوقائي.

الثاني: علاجي دوائي باستعراض ووصف أمراض الأنسان واللثة مع ذكر العلاج الدوائي المناسب.



في طب الأسنان القديم

ويبتدىء (حنين) بتقديم قواعد وقائية وتعليمات صحية لمن أراد حفظ أسنانه أهمها:

* تجنب التخمة لأن فساد الطعام في المعدة يسبب لها الضرر مما ينعكس سلبا على سلامة الأسنان ويسبب فسادها.
* الحذر من كسر الأشياء الصلبة بالأسنان.
* عدم تناول الماء البارد والثلج سيما بعد تناول الطعام الحار.
* تفريش الأسنان بالسواك باعتدال

دواء السنون Dentifrice

كان الأطباء القدامى يعتقدون أن لكل دواء فعلا وقوة تؤثر في الجسم ومن الممكن معرفة قوة كل دواء أو مادة على حدة ثم مزجها معا بنسب معينة للحصول على أدوية ذات فعل جديد وقوة جديدة. والسّنون دواء مركب مؤلف من عدة أنواع من الأدوية المفردة مختلفة المصادر فهي عقاقير نباتية ومعدنية أو حيوانية المصدر.

وتعريف السنون هو: ما يستن به من دواء لتقوية الأسنان وتنظيفها.

ويقسم السنون بحسب قوامه الصيدلاني إلى سنون جاف Powder ويتكون من مساحيق العقاقير الدوائية وآخر رطب Paste يدخل في تركيبه العسل أو الخل أو القطران.

وقد ذكر (حنين) أنواعا مختلفة من السنونات بحسب غرض استخدامها فهي لعلاج اللثة والأسنان وتسكين آلامها، أو سنونات تطيب نكهة الفم وتزيل رائحة (البخر) الكريهة وطريقة العرض تقوم على تعداد العقاقير وأوزانها الداخلة في تركيب السنون المطلوب مع ذكر الغاية والهدف المطلوب منه بالإضافة للحالة المرضية التي توافق استخدامه. وعلى سبيل المثال فقد ورد ذكر سنون منسوب إلى الطبيب اليوناني (جالينوس) ويتكون من (١٩) عقارا دوائيا كما يحتاج تحضيره إلى عدة عمليات صيدلانية معقدة مثل تجفيف وتحميص بعض النباتات الطبية وسحقها ومزجها بالعسل، وهنا تتجلى الأصالة الطبية لدى (حنين) الناجمة عن خبرته العملية المكتسبة، فكثرة عقاقير سنون (جالينوس) أضف إلى احتمال فقدان بعضها وعدم توفره في كل الأوقات جعلته يلجأ لاختصارها وإيجاد بدائل كافية عنها على ألا يمس بالنفع الناجم عنها فقدم (سنون قليل الاختلاط، خفيف المؤونة، فوجدته يبلغ مبلغا حسنا) حسب تعبيره، وبذلك يبرهن على مقدرته كطبيب أسنان ماهر والجدير بالذكر أن الأعشاب والنباتات الطبية كان يعتمد عليها في المداواة والمعالجة، فقد ورد في الكتاب أسماء ما ينوف على المائة نبات وعقار طبي كانت تستخدم في المعالجات السنية بالإضافة لأدوية متنوعة ذات مصدر حيواني أو معدني.

وقد قدم المؤلف خلاصته المفيدة عن طبابة الأسنان في زمنه (القرن الثالث الهجري) مع صورة واضحة لأدويته المعتمدة ومعالجاته وأمراضه الشائعة وطرق تشخيصها، ومن الواضح اعتماده المنطق العلمي واستناده على الملاحظة الحسية والتجربة العملية وابتعاده عن المعالجات الزائفة اللامنطقية كما أن النصائح الوقائية المذكورة لازالت صالحة حتى عصرنا الحالي. ■

المصادر والمراجع:

١. عبداللطيف البدري: من الطبّ الآشوري. مطبوعات المجمع العلمي العراقي. بغداد. ١٩٧٦م.

٢. ابن الجزّار (٣٢٠ / ٤٠٠هـ): طبّ الفقراء والمساكين. تحقيق: سلمان قطاية. باريس. (غير مذكور دار النشر). ١٩٨٤م.

٣. حنين بن إسحق (٢٦٤هـ / ٨٧٧م): في حفظ الأسنان واللثة واستصلاحها. تحقيق ودراسة محمد فؤاد الذاكري. دار القلم العربي. حلب. ط١. ١٩٩٦م.

٤. Malvin Ring: The Legend of the tooth worm - C.C.E.D - Vol. XIII, No.4


ڤيتراك
Vitrac®
ڤيتراك
تهنئ الأمة الإسلامية
بحلول شهر رمضان المبارك
الفاكهة
فاكهة
Vitrac
Fig Preserve
Vitrac
Vitrac
STRATEGIES

شهر رمضان

اتخذ شهر رمضان في التاريخ الاجتماعي المصري سمة خاصة جعلت شكل أيام هذا الشهر ولياليه تختلف في مصر عنها في أي بلد آخر من بلاد المسلمين. وقد تحول شهر الصوم من مناسبة دينية خالصة إلى مناسبة دينية / اجتماعية مصرية تشكلت ملامحها عبر عصور تاريخ مصر الإسلامية. ولسنا نعرف على وجه اليقين متى، وكيف، تحولت مناسبة شهر رمضان إلى مناسبة دينية / اجتماعية. لكن الذي نعرفه بدرجة معقولة من اليقين هو أن نهار رمضان كان مخصصًا للصوم والعبادة، وأن أمسياته ولياليه- بعد الإفطار وحتى انتهاء السحور- كانت للعبادة والمرح والسرور والولائم التي ميّزها البذخ على الدوام. ولا تمدنا المصادر التاريخية المتاحة بصورة كاملة عن تطور احتفالات شهر رمضان على امتداد التاريخ الاجتماعي المصري، وإنما نجد أمامنا لقطات وصورًا تاريخية متفرقة نحاول جمع شتاتها.

في العصر الفاطمي

أولى الصور التاريخية عن شهر رمضان تظهر في العصر الفاطمي (٣٥٨-٥٦٤هـ/ ٩٦٩-١١٧١م) نقلها المؤرخ تقي الدين المقريزي عن مصادر تاريخية فاطمية مفقودة. وقد نقل المقريزي في خططه (جـ٢، ص ٤٩١، ص٤٩٢) ما كان الخلفاء الفاطميون يفعلونه في هذا الشهر. وربما يكون مناسبًا أن ننقل ما كتبه هذا المؤرخ لنرسم الصورة التاريخية الأولى ثم نحاول شرحها وتفسيرها:

«موسم شهر رمضان: كان لهم **(الفاطميون)** في شهر رمضان عدة أنواع من البرّ؛ منها كشف المساجد. قال الشريف الجواني في كتاب النقط: كان القضاة بمصر إذا بقي لشهر رمضان ثلاثة أيام، طافوا يومًا على المشاهد والمساجد بالقاهرة ومصر **(هذا تعبير شائع في المصادر التاريخية عن العاصمة التي كانت تضم القاهرة والعواصم القديمة الفسطاط والقطائع والعسكر)**: فيبدأون بجامع المقس، ثم بجوامع القاهرة، ثم بالمشاهد، ثم بالقرافة، ثم بجامع مصر **(جامع عمرو بن العاص)** ثم بمشهد الرأس **(الحسين)**؛ لنظر حصر ذلك وقناديله وعمارته وإزالة شعثه. وكان أكثر الناس ممن يلوذ بباب الحكم والشهود والطفيليين يتعينون لذلك اليوم والطواف مع القاضي لحضور السماط».

١ - عادات وتقاليد المصريين المحدثين
تأليف: إدوارد وليام لين. ترجمة: سهير برسوم
القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩١.

٢ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
تقي الدين أحمد بن علي المقريزي
طبعة دار صادر «نسخة مصورة عن طبعة بولاق» بدون تاريخ.

٣ - بدائع الزهور في وقائع الدهور
محمد بن أحمد بن إياس المصري
تحقيق: الدكتور محمد مصطفى
القاهرة: جمعية المستشرقين الألمانية (٥ مجلدات).

قاسم عبده قاسم

هكذا، كان المرور على الجوامع والمساجد لتفقدها وتنظيفها وتجهيزها استعدادًا لشهر رمضان يبدأ قبل الشهر بثلاثة أيام، وكان الاهتمام بهذه الأمور من عوائد الدولة الفاطمية، ويلفت النظر هنا اهتمامهم بالقرافة. فقد كانت من أهم مُتنزهات أهل القاهرة وقد قال عنها الرحالة «ابن جبير» (ق٦هـ/١٢م) إنها إحدى عجائب الدنيا لما تحتوي عليه من مشاهد الأنبياء، وأهل البيت والصحابة والتابعين والعلماء والزهّاد والأولياء «.. ذوي الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة...»، وقد استرعت القرافة- وهي منطقة المقابر العامة للعاصمة المصرية آنذاك- انتباه كل الرحالة الذين زاروا القاهرة. وقد حرصت السلطات الفاطمية على أن يقوم بمهمة التفتيش قضاة مصر لضمان دقة العمل. ومن الطريف أن عددًا كبيرًا من الطفيليين كانوا ينتهزون الفرصة للطواف مع القاضي في أثناء عمله فيما يشبه الموكب حتى يكون لهم نصيب في الوليمة التي يحضرها القضاة بعد انتهاء مهمتهم.

ثانية هذه الصور التاريخية نقلها المقريزي عن ابن المامون تحت عنوان واضح «إبطال المُسكرات: قال ابن المامون: وكانت العادة جارية من الأيام الأفضلية (أي **وزارة الأفضل بن بدر الدين الجمالي**) في آخر جمادى الآخرة من كل سنة أن تُغلق جميع قاعات الخمارين بالقاهرة ومصر، وتُختم، ويُحذّر من بيع الخمر؛ فرأى الوزير المامون لما ولي الوزارة بعد الأفضل ابن أمير الجيوش أن يكون ذلك في سائر أعمال الدولة **(أي في جميع انحاء الدولة الفاطمية في مصر والشام)** فكتب به إلى جميع ولاة الأعمال، وأن يُنادى بأنه من تعرض لبيع شيء من المُسكرات، أو شرائها، سرًا أو جهرًا، فقد عرّض نفسه لتلافها، وبرئت الذمة من هلاكها».

الصورة الثالثة ربما تعطينا مؤشرًا عن تحول المناسبة الدينية إلى مناسبة دينية - اجتماعية: لاسيما إذا وضعنا في اعتبارنا أن الناس يقلدون حكامهم وأعيانهم. يقول المقريزي:

«غُرة رمضان: وكان في أول يوم من شهر رمضان يُرسَل لجميع الأمراء وغيرهم من أرباب الرتب والخدم، لكل طبق، ولكل واحد من أولاده ونسائه طبق فيه حلواء، وبوسطه صُرّة من ذهب؛ فيعم ذلك سائر أهل الدولة ويقال لذلك غُرة رمضان».

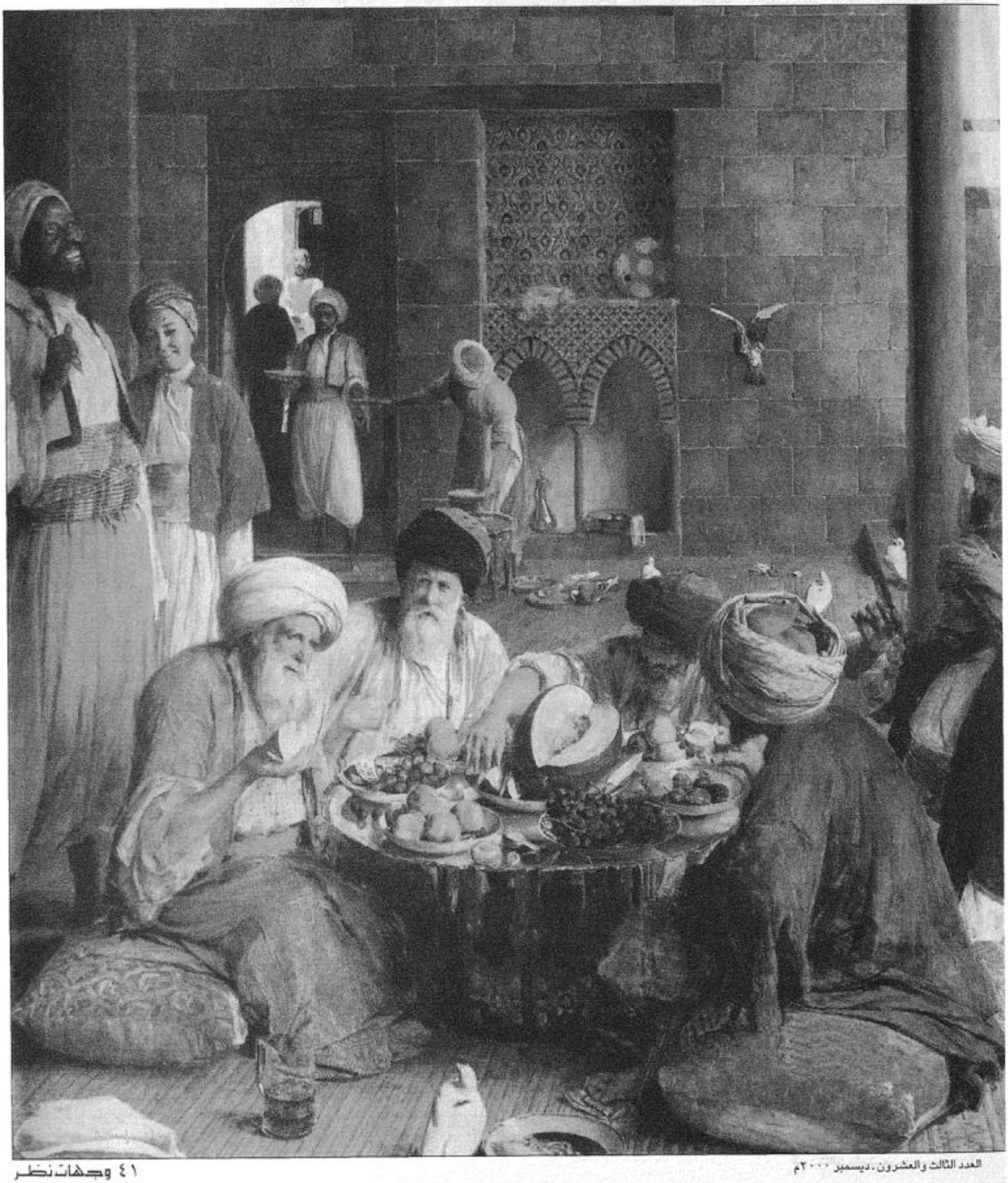
الصورة الرابعة عن اهتمام الخلفاء الفاطميين بالاحتفال بقدوم شهر رمضان في موكب جميل يشق القاهرة، وكان ركوب أول شهر رمضان عند الفاطميين معادلاً لموكب رؤية هلال رمضان عند السُنّة. يقول ابن الطوير (نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق الدكتور أيمن فؤاد سيد، جمعية المستشرقين الألمانية ١٩٩٣، ص ١٧١-ص١٧٥).

«فإذا انقضى شعبان اهتم بركوب أول شهر رمضان، وهو يقوم مقام الرؤية عند المتشيعين، فيجري أمره في اللباس والآلات والأسلحة والعرض والركوب والترتيب والطرق المسلوكة، كما وصفناه في أول العام لا يختل بوجه **(في أول العام الهجري كان الخليفة الفاطمي يشق القاهرة بموكب حافل ومهيب وحوله الجنود والفرسان بأعلامهم وبيارقهم)** ويكتب إلى الولاة والنواب والأعمال بمساطير مُخلّقة **(أي مُعطّرة)** يُذكر فيها ركوب الخليفة».. «فإذا انقضى ركوب أول شهر رمضان استراح الخليفة في أول جمعة. فإذا كانت الجمعة الثانية ركب الخليفة إلى الجامع الأنور الكبير في هيئة المواسم وما تقدم ذكره من الآلات ولباسه فيه لباس الحرير البيض، توقيرًا للصلاة من الذهب، والمنديل والطيلسان المقور الشعري. فيدخل من باب الخطابة والوزير معه بعد أن يتقدمه في أوائل النهار صاحب بيت المال وبين يديه الفُرْش المختصة بالخليفة إذا صار إليه في هذا اليوم، وهو محمول بأيدي الفراشين المميزين، وملفوف في العراضي الدبيقية فيُفرش في المحراب ثلاث طراحات؛ إما سامان وإما دبيقي أبيض أحسن ما يكون من صنفهما كل منقوش بالحُمرة فتجعل الطراحات متطابقات، ويعلق ستران يمنة ويُسرة وفي الستر الأيمن كتابة مرقومة بالحرير الأحمر واضحة منقوطة أولهما «البسملة» و«الفاتحة» و«سورة الجمعة» وفي الستر الأيسر مثل ذلك.. ثم يصعد قاضي القضاة المنبر وفي يده مدخنة لطيفة خيرزان يحضرها إليه صاحب بيت المال فيبخر الذروة التي عليها الغشاء كالقبة لجلوس الخليفة للخطابة ويكرر ذلك ثلاث مرات. فيأتي الخليفة في هيئة لطيفة من الطبل والبوق وحوالي ركابه خارج أصحاب الركاب القُراء، وهم قُراء الحضرة يُطرْبون بالقراءة نوبة بعد نوبة يستفتحون بذلك من ركوبه من الكرسي على ما تقدم على طول طريقه إلى قاعة الخطابة من الجامع **(أي أنهم يبدأون قراءة القرآن طوال الطريق من القصر حتى قاعة الخطابة في الجامع)**.

«فإذا أذن بالجمعة دخل إليه قاضي القضاة فقال: «السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضي ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمك الله» فيخرج الخليفة ماشيًا وحواليه الأستاذون المحنكون والوزير وراءه ومن يليهم من الخواص وبأيديهم الأسلحة من صبيان الخاص، وهم أمراء وعليهم هذا الاسم، فيصعد المنبر إلى أن يصل إلى الذروة تحت القبة المُبخرة، فإذا استوى جالسًا والوزير على باب المنبر ووجهه إليه فيشير إليه بالصعود فيصعد إلى أن يصل إليه فيقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ثم يُزرر عليه تلك القبة لأنها كالهودج.. فيخطب الخليفة خطبة قصيرة من مسطور يُحضر إليه من ديوان الإنشاء.. فيطلع إليه من زرّر عليه ويفك التزرير وينزل القهقرى.. فينزل الخليفة ويصير على تلك الطراحات الثلاث في المحراب



صورة تاريخية مصرية

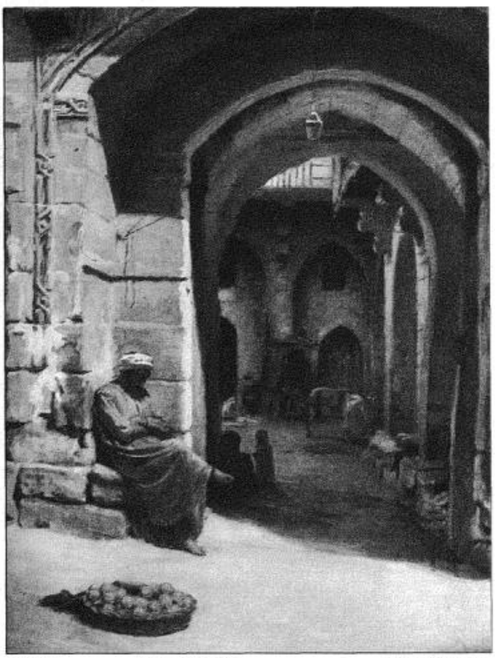


وحده إمامًا.. فإذا فرغ خرج الناس وركبوا أولاً فأول.. وعاد طالبًا القصر والوزير وراءه وضربت البوقات والطبول فى العود».

«فإذا أتت الجمعة التالية ركب الخليفة إلى الجامع الأزهر من القشاشين (**مكانه اليوم شارع الصنادقية بالأزهر**) على المنوال الذى ذكرناه والقالب الذى وصفناه».

«فإذا كانت الجمعة الثالثة أعلم بركوبه إلى مصر للخطابة فى جامعها (**المقصود الفسطاط وجامع عمرو بن العاص، وكانت الفسطاط حتى ذلك الحين بضواحيها هى العاصمة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية**) فيزين له أهل القاهرة من باب القصر إلى جامع ابن طولون، ويُزين له أهل مصر من جامع ابن طولون إلى الجامع بمصر، يرتب ذلك والى مصر كل أهل معيشة فى مكان فيُظهر المختار من الآلات والستور والمثمنات، ويهتمون بذلك ثلاثة أيام بلياليها، والوالى مار وعائد بينهم وقد ندب من يحفظ الناس ومتاعهم. فيركب يوم الجمعة المذكور شاقًا لذلك كله على الشارع الأعظم إلى مسجد عبدالله، إلى دار الأغاط إلى الجامع بمصر فيدخل إليه من المعونة (**أى مقر الشرطة**) ومنها باب متصل بقاعة الخطيب بالزى الذى تقدم ذكره فى خطبة الجامعين وعلى ترتيبهما. فإذا قضى الصلاة عاد إلى القاهرة من طريق بعينها شاقًا بالزينة إلى أن يصل إلى القصر ويعطى أرباب المساجد التى يمر عليها كل واحد دينارًا».

هذه الصورة تعكس جانبًا رسميًا فى الاحتفال بالشهر وتعكس جانبًا اجتماعيًا فى الاحتفال الذى يرتبه الوالى على حساب أصحاب الحرف والصناعات لتزيين الطريق الذى يمر به موكب الخليفة، لاسيما فى الفسطاط التى كانت قصبة البلاد آنذاك.



جوزيف فاركارسون.
قيلولة بائع البرتقال فى السوق

فرانك ديلون.
قيلولة الحريم فى بيت الشيخ السادات

الصورة الخامسة من داخل قصر الخلافة الفاطمية تتحدث عن مدى البذخ الذى مَيَّز الولائم الرمضانية التى كان الخلفاء الفاطميون يقيمونها يوميًا لإفطار الأمراء وكبار رجال الدولة. يقول المقريزى:

«سماط رمضان، قال ابن الطوير: فإذا كان اليوم الرابع من شهر رمضان رُتِّب عمل السماط كل ليلة بالقاعة بالقصر إلى السادس والعشرين منه. ويُستدعى قاضى القضاة ليالى الجُمع توقيرًا له (**حتى لا يكون استدعاؤه يوميًا سببًا فى حرمانه من الإفطار مع أهله**) فأما الأمراء، ففى كل ليلة منهم قوم بالنوبة (**نوبة الخدمة بالقصر**) ولا يحرمونهم الإفطار مع أولادهم وأهاليهم. ويكون حضورهم بمسطور يخرج إلى صاحب الباب واسفهلاره (**أى أن هناك قائمة بمواعيد الخدمة لكل منهم لدى المسئول عن القصر ومساعده**) فيعرف صاحب كل نوبة ليلته، فلا يتأخر. ويحضر الوزير ويجلس صدره (**أى يتصدر المائدة**) فإن تأخر كان ولده أو أخوه، وإن لم يحضر أحد من قبله كان صاحب الباب.

ويهتم فيه اهتمامًا عظيمًا تامًا بحيث لا يفوته شيء من أصناف المأكولات الفائقة والأغذية الرائعة، وهو مبسوط (**أى أن السماط، أو المائدة ممتدة**) فى طول القاعة، مادٌ من الرواق إلى ثلثى القاعة الذهبية، والفراشون قيام لخدمة الحاضرين، وحواشى الأستاذين (**أى المشرفين على القصر**) يحضرون الماء المُبخّر فى كيزان الخزف برسم الحاضرين.

ويكون انفصالهم العشاء الآخرة فيعمهم ذلك ويصل منه شيء إلى أهل القاهرة من بعض الناس لبعض. ويأخذ الرجل ما يكفى جماعته. فإذا حضر الوزير أُخرج إليه مما هو بحضرة الخليفة، وكانت يده فيه تشريفًا له وتطييبًا لقلبه. وربما حمل من سحوره من خاص ما يعين لسحور الخليفة نصيب وافر، ثم يتفرق الناس إلى أماكنهم بعد العشاء الآخرة بساعة أو ساعتين. قال ومبلغ ما ينفق فى شهر رمضان لسماطه مدة سبعة وعشرين يومًا ثلاثة آلاف دينار».

هل كانت هذه الولائم الرمضانية بداية لموائد الرحمن؟ ربما كانت هى البداية ولاسيما أن عادة إقامة موائد الإفطار ظلت سارية فى مصر وانتقلت من قمة الحكم إلى الأمراء وكبار رجال الدولة والتجّار والأعيان والأثرياء. فى هذه الصورة التى نقلها المقريزى عن مؤرخ معاصر للفاطميين هو ابن الطوير، نجد أمرين يلفتان النظر بشدة: أولهما الاهتمام بأن تحتوى المائدة (السماط) على كل أصناف الطعام، وثانيهما أن الذين كانوا يحضرون «سماط رمضان» كانوا يأخذون معهم كميات كبيرة من الطعام الذى كان يصل بعضه إلى أهل القاهرة «من بعض الناس لبعض». كذلك كانت مكانة الوزير عظيمة بحيث كان له امتياز خاص وهو أن يأكل من طعام أكل منه الخليفة نفسه. لقد كانت وليمة الإفطار تمتد من المغرب حتى بعد العشاء وهى فترة طويلة كانت تتيح تبادل الأحاديث والآراء والمعلومات.

الصورة السادسة أيضًا من داخل قصر الخليفة الفاطمى، وتتحدث عن سحور الخليفة وكيفية قضائه الوقت ما بين الإفطار والسحور. يقول المقريزى:

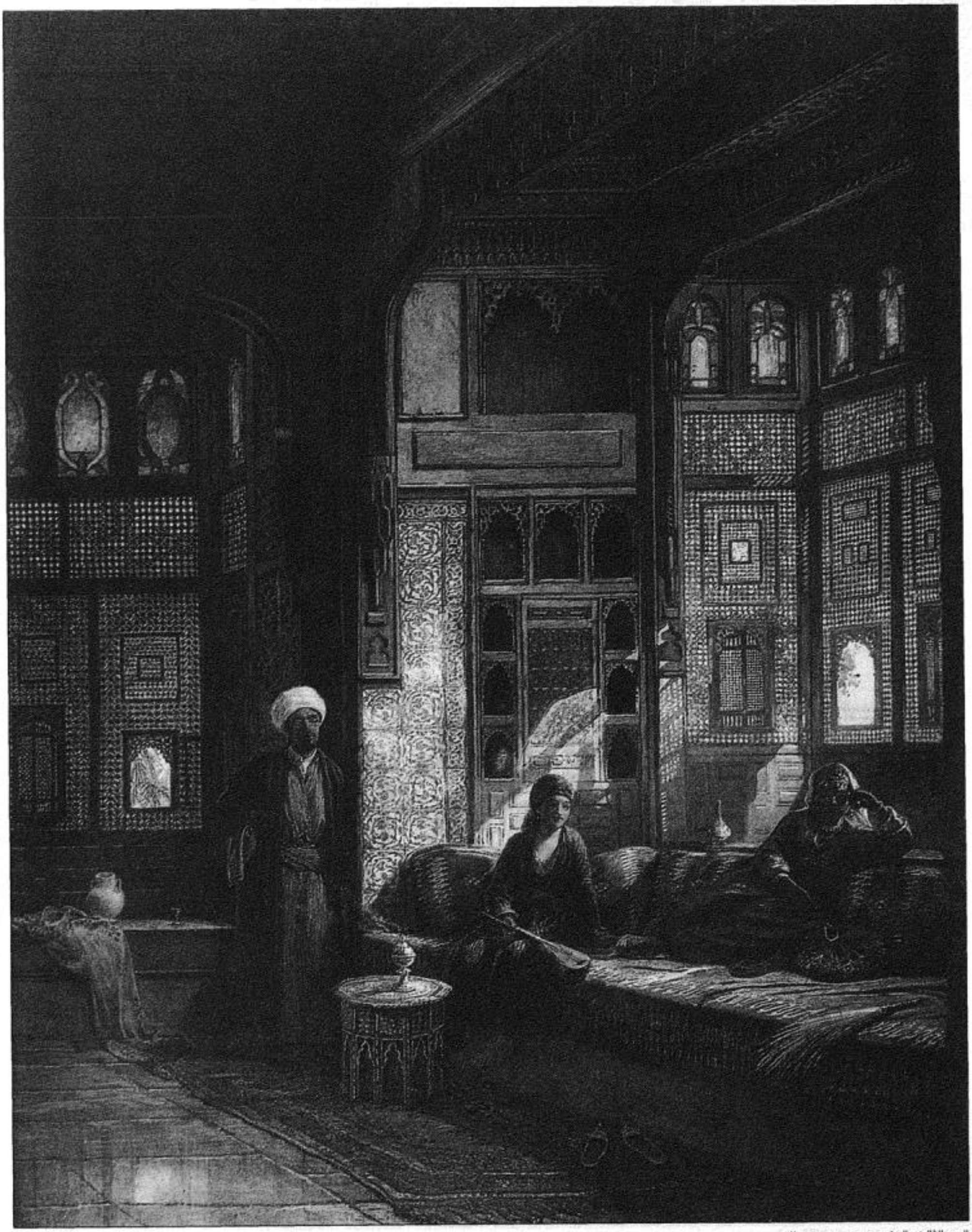
«سحور الخليفة. قال ابن المامون وقد ذكر أسمطة رمضان وجلوس الخليفة بعد ذلك فى الروشن إلى وقت السحور (**الروشن مقصورة مرتفعة تحجب الخليفة عن الموجودين**) والمقرئون تحته يتلون عشرًا ويطرّبون بحيث يشاهدهم الخليفة، ثم حضر بعد ذلك المؤذنون وأخذوا فى التكبير وذكر فضائل السحور وختموا بالدعاء. وقُدمت المخاد (**الوسائد**) للوعّاظ فذكروا فضائل الشهر، ومدح الخليفة، والصوفيات (**المدائح الصوفية**) وقام كل من الجماعة للرقص (**يقصد الرقص مع إيقاعات الذكر كما يفعل المتصوفة**)، ولم يزالوا إلى أن انقضى من الليل أكثر من نصفه، فحضر بين الخليفة أستاذ بما أنعم به عليهم وعلى الفراشين. وأُحضرت جفان القطائف، وجرار الجلاب (**شراب بالعسل**) برسمهم فأكلوا وملأوا أكمامهم، وفضل عنهم ما تخطفه الفراشون، ثم جلس الخليفة فى السدلا (**مكان أسدلت عليه ستارة**) التى كان بها عند الفطور وبين يديه المائدة معباة من جميع الحيوان وغيره. والقعبة الكبيرة الخاصة مملوءة أوساطه بالهمة المعروفة، وحضر الجلساء واستعمل كل منهم ما اقتدر عليه، وأومأ الخليفة أن يستعمل من القعبة؛ فيفرق الفراشون عليهم أجمعين، وكل من تناول شيئًا قام وقبّل الأرض وأخذ منه على سبيل البركة لأولاده وأهله؛ لأن ذلك كان مستغاضًا عندهم غير معيب على فاعله. ثم قُدّمت الصحون الصينى مملوءة قطائف فأخذ منها الجماعة الكفاية. وقام الخليفة وجلس بالمقصورة وبين يديه السحورات المطيبات من لبنين (**ألبان**) رطب ومُخّض، وعدة أنواع عصارات وسويق ناعم وجريش وجميع ذلك بقلوبات محشية وموز (**أى أن العصائر والحلويات المصنوعة من الدقيق الناعم والخشن محشوة بالمكسرات والموز**) ثم تكون بين يديه صينية ذهب مملوءة سفوفًا، وحضر الجُلساء وأخذ كل منهم فى تقبيل الأرض والسؤال بما ينعم عليه، فتناوله المستخدمون والأستاذون وفرقوه فأخذه القوم فى أكمامهم، ثم سلم الجميع وانصرفوا».

الصورة السابعة من العصر الفاطمى هى الصورة الأخيرة التى أمدتنا بها المصادر التاريخية عن الاحتفال بشهر رمضان وهى عن ختم القرآن الكريم. يقول المقريزى:

«الختم فى آخر رمضان: وكان يعمل فى التاسع والعشرين منه. قال ابن المامون: ولما كان التاسع والعشرون من شهر رمضان خرج الأمر بإضعاف ما هو مستقر للمقرئين والمؤذنين فى كل ليلة برسم السحور بحكم أنها ليلة ختم الشهر، وحضر الأجلّ الوزير المامون فى آخر النهار إلى القصر للفطور مع الخليفة والحضور على الأسمطة كالعادة، وحضر إخوته وعمومته وجميع الجلساء، وحضر المقرئون والمؤذنون وسلّموا على عادتهم وجلسوا تحت الروشن، وحمل من عند معظم الجهات والسيدات والمميزات من أهل القصر (**هذه كلها ألقاب لنساء القصر الفاطمى**) ثلاجى وموكبيات مملوءة ماء ملفوفة فى عراضى ديبقى (**أى أثواب القماش الديبقى الفاخر**) وجعلها أمام المذكورين لتشملها بركة ختم القرآن الكريم. واستفتح المقرئون من الحمد إلى خاتمة القرآن تلاوة وتطريبًا.

ثم وقف بعد ذلك من خطب فأسمع، ودعا فأبلغ، ورفع الفراشون ما أعدوه برسم الجهات، ثم كبّر المؤذنون وهللوا، وأخذوا فى الصوفيات إلى أن نُثر عليهم من الروشن دنانير ودراهم ورباعيات، وقُدمت جفان القطائف على الرسم (**حسبما جرت العادة**) مع البسندود والحلواء؛ فجروا على عادتهم وملأوا أكمامهم، ثم خرج أستاذ من باب الدار الجديدة بخِلَع خلعها على الخطيب وغيره، ودراهم تُفرَّق على الطائفتين من المقرئين والمؤذنين».

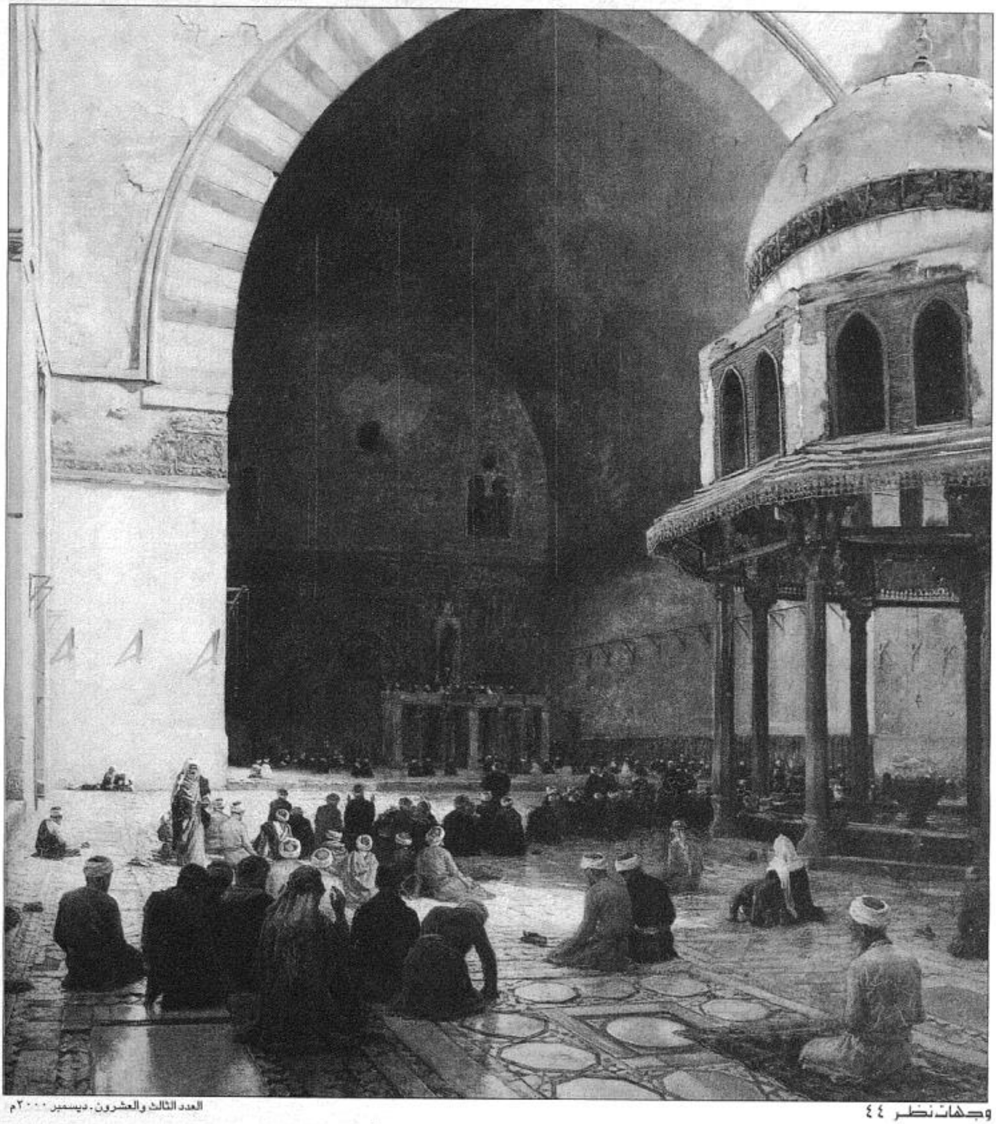
هذه الصور السبع من العصر الفاطمى لاحتفالات رمضان تأتينا من قصر الخليفة ولسنا نملك صورًا شعبية من هذا العصر، عن احتفالات رمضان بين الناس فى مصر عامة، وإذا ما تذكرنا أن القاهرة ظلت حتى ذلك الحين عاصمة سياسية وإدارية يسكنها الخليفة وحاشيته وحاميته، أمكننا أن نفهم سر اهتمام المؤرخين برصد أحوال الحكام والانصراف عن متابعة تطورات الحياة الاجتماعية بعيدًا عن العاصمة.



في عـــصـــر الممـــاليك

الصور التاريخية الأولى عن الاحتفال بشهر رمضان يقدمها الرحالة الأشهر «ابن بطوطة» الذي زار مصر في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الثالثة من سنة ٧٠٩هـ/١٣١٠م إلى سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م) شهد ابن بطوطة الاحتفال باستطلاع هلال شهر رمضان في مدينة ابيار، بالقرب من المحلة الكبرى وقدم لنا هذه الصورة:

«وعادتهم أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي. ويقف على الباب نقيب المتعممين **(كان العلماء والقضاة والفقهاء يعرفون بأهل العمامة، أو المتعممين)**، وهو ذو شارة وهيئة حسنة. فإذا أتى أحد الفقهاء، أو أحد الوجوه تلقاه ذلك النقيب ومشى بين يديه قائلاً: باسم الله سيدنا فلان الدين، فيسمع القاضي ومن معه فيقومون له، ويجلسه في مجلس يليق به فإذا تكاملوا هناك، ركبوا جميعًا وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان، وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة، وهو مُرتقب الهلال عندهم. وقد فُرش ذلك الموضع بالبُسط والفرش، فينزل القاضي ومن معه، فيرقبون الهلال ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس. ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع، ويصل الناس مع القاضي إلى داره ثم ينصرفون. هكذا فعلهم في كل سنة». (رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق د. على المنتصر الكتاني،



بيروت ١٩٨١م - الطبعة الثالثة - جـ١، ص٤٦).

لاشك فى أن هذه الصورة التى ترسمها كلمات «ابن بطوطة» لاحتفالات رؤية هلال رمضان كانت قريبة الشبه بما حدث فى جميع أنحاء البلاد المصرية، وفى العاصمة كان موكب رؤية هلال رمضان يكتسب أهمية أكبر بطبيعة الحال. وقد حدث سنة ٨٨٢ هجرية اضطراب بسبب الرؤية، يقول ابن إياس (بدائع الزهور، جـ٣، ص١٣٦):

«فى رمضان سنة ٨٨٢هـ وقع بالقاهرة بعض الاضطراب، وسبب ذلك أن مضى الثلاثون من شعبان ولم يُرَ الهلال فأكل غالب الناس فى أول يوم من أيام رمضان؛ فنادى القاضى الشافعى بالإمساك، فثار عليه العوام وقصدوا الإخراق به (**أى أرادوا إيذاءه وإهانته**) فثبت برؤية الهلال قريب الظهر، ولكن فطر غالب الناس فى ذلك اليوم».

تشترك عدة مصادر تاريخية فى رسم تفاصيل الصورة الثانية. فحين يتم التأكد من رؤية هلال شهر رمضان يصعد القضاة ومشايخ العلم والفقهاء إلى القلعة لتهنئة السلطان بالشهر، وربما يكون السلطان كريمًا فيمنح هؤلاء مالاً وهدايا بمناسبة الشهر مثلما فعل الأشرف قايتباى:

«فى رمضان سنة ٨٧٦هـ رسم السلطان للقاضى عبدالغنى بن الجيعان بأن يغدق على العلماء والفقهاء توسعة فى رمضان لعيالهم. واستمر ذلك عمالاً فى كل شهر رمضان مدة أيام الأشرف قايتباى إلى أن مات، ثم تناقص من بعده» (ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٦٨ - ص٦٩).

كذلك كان يتم ختم قراءة البخارى بالقلعة وبعدها ينعم السلطان على قضاة القضاء ومشايخ العلم والفقهاء بالخلع وصُرر المال. وحدث مرة واحدة أنه فى شهر رمضان «.. ختم قراءة البخارى بالجامع الأزهر، وحضر القضاة الأربعة، وفُرقت هناك الخلع والصرر على الفقهاء والعلماء.. وكان قراءة البخارى من أول شهر رمضان بالجامع الأزهر، وعند الدعاء يدعون للسلطان بالسلامة» (ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٣، ص١٣٧) كان ذلك سنة ٨٨٢هـ ولكن قراءة البخارى عادت بعدها إلى القلعة حسبما جرت العادة.

كان هذا شكل احتفال أهل الحكم، ولكن احتفال أهل البلد كان له شكل آخر. فقد كانت القاهرة والمدن المصرية تسبح فى الأضواء طوال ليالى شهر رمضان بسبب كثرة المشاعل والفوانيس والشموع فى الحوانيت والأسواق وعلى الحبال الممتدة بين البيوت عبر الشوارع وبأيدى الناس. وهو الأمر الذى لفت انتباه الرحالة الأجانب الذين زاروا القاهرة أيام المماليك. كذلك فإن ابن الحاج المغربى (الذى أقام بالقاهرة فترة وهو فى طريقه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج) لاحظ أنه كان من عادة المصريين فى شهر رمضان أن يعلقوا الفوانيس على الحبال الممدودة بين مآذن المساجد والجوامع «... التى جعلوها علمًا على جواز الأكل والشرب وغيرهما مادامت معلقة موقودة...».

وفى ليالى شهر رمضان كانت أسواق القاهرة والمدن المصرية الأخرى تزدهر وتدب فيها الحياة احتفالاً بالشهر الكريم، وقد لاحظ الرحالة الأجانب أن المطاعم والمطابخ فى العاصمة كانت تظل مفتوحة من الغروب حتى الفجر طوال شهر رمضان لكى تستقبل زبائنها. والحقيقة أن معظم سكان القاهرة فى تلك العصور لم يكونوا يطهون طعامهم فى بيوتهم، وإنما كانوا من رواد المطاعم التى قدرها البعض باثنى عشر ألف مطعم فى القاهرة. من ثم كان طبيعيًا أن يعتمد القاهريون من أبناء الشرائح الوسطى والدنيا على المطاعم والمطابخ فى وجبتى الإفطار والسحور.

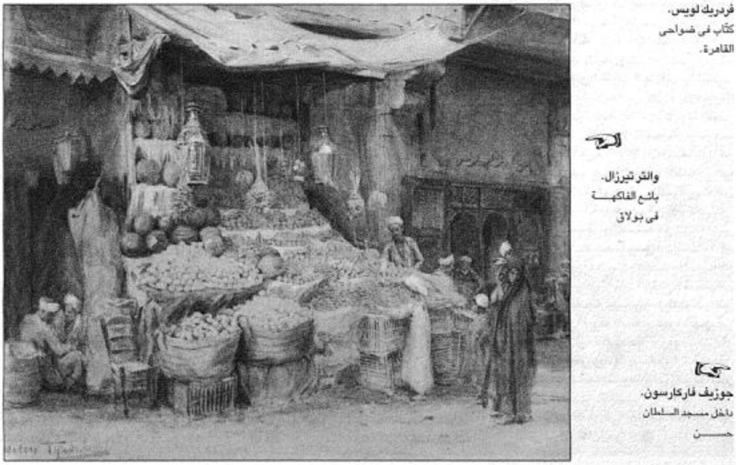
كذلك ارتبطت بعض الأسواق بشهر رمضان ارتباطًا خاصًا، ومنها «سوق الحلاويين» و«سوق الشماعين». ففى شهر رمضان كانت سوق الحلاويين تمتلىء بجميع أشكال التماثيل السكرية التى كانت تُصنع على هيئة تماثيل الحيوانات من قطط وسباع وغيرها. وكانت هذه التماثيل السكرية تُعرف باسم «العلاليق» (ومفردها عُلاّقة) لأنها كانت تعلق بخيوط على أبواب الحوانيت وحوائطها، ويتراوح وزن الواحدة ما بين ربع رطل وعشرة أرطال.

أما سوق الشماعين (**أى تجار الشموع**) فقد ارتبطت أيضاً بشهر رمضان، ففى ليالى هذا الشهر كانت حوانيت السوق تفتح أبوابها إلى ما بعد منتصف الليل، وقد تلألأت السوق بأضواء مختلف أنواع الشموع الموكبية والفانوسية والطوافات. يقول المقريزى (الخطط، جـ٢، ص٩٢، ص١٠٦).

«وأدركت سوق الشماعين من الجانبين معمور الحوانيت بالشموع الموكبية والفانوسية والطوافات لاتزال

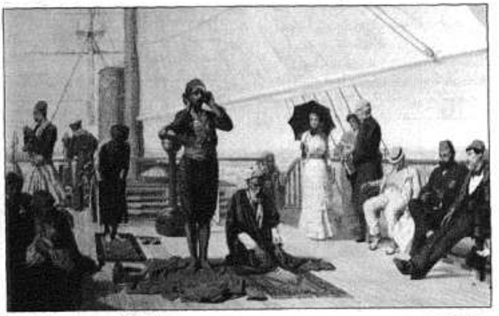


فردريك لويس، كتّاب فى ضواحى القاهرة.



والتر تيرزال، بائع الفاكهة فى بولاق

جوزيف فاركارسون، داخل مسجد السلطان حسن



والتر هورسلي- صلاة البحار على ظهر سفينة تحمل أفندية وسواحا

فردريك لويس- في خدمة سيدة الحريم

حوانيته مفتحة إلى منتصف الليل.. وكان به في شهر رمضان موسم عظيم لكثرة ما يُشترى ويكترى من الشموع الموكبية التي تزن الواحدة منهن عشرة أرطال فما دونها، ومن المزهرات العجيبة الزي المليحة الصنعة. ومن الشمع الذي يُحمل على العجل ويبلغ وزن الواحدة منها القنطار وما فوقه. كل ذلك برسم ركوب الصبيان لصلاة التراويح؛ فيمر في شهر رمضان من ذلك ما يعجز البليغ عن حكاية وصفه....».

كان موكب صلاة التراويح في كل حارة (حي) من حارات القاهرة من علامات شهر رمضان البهيجة. فقد كان هذا الموكب يتجمع حول إحدى الشموع الضخمة التي يجرها الأولاد على عجلات وقد أمسك كل منهم بفانوسه وهم يهزجون بأغنيات جميلة خاصة برمضان ويطوف الموكب الجديد الدروب والأزقة من بعد المغرب حتى موعد صلاة التراويح.

كان المسحراتي من أهم رموز رمضان وقد حدثتنا المصادر التاريخية عن هذا الرجل الذي كان يطوف شوارع الأحياء ودروبها وأزقتها في الشطر الأخير من الليل بطبلته الشهيرة وفي ليالي الصيف كان يصحبه عدد من الأطفال وهو يردد أهازيجه وأغنياته الدينية ويدق على طبلة مناديًا أصحاب البيوت الذين يعرفهم بالاسم. وقد ذكر «ابن الحاج» أن المسحراتي في الإسكندرية كان يدق على بيوت الناس ويطلب منهم القيام لتناول السحور.

الصورة الثالثة قبل سقوط دولة سلاطين المماليك بعامين ترسمها كلمات المؤرخ ابن إياس (بدائع الزهور جـ٤، ص٣٩٧)، يقول:

«في يوم الخميس كان مستهل شهر رمضان سنة ٩٢٠هـ فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر، فجلس السلطان بالميدان وطلع الوزير يوسف البدري والزيني بركات بن موسى المحتسب، وعرضا اللحم والدقيق والخبز والغنم والبقر على السلطان كما جرت به العادة وهو مزفوف على رؤوس الحمالين. فأخلع السلطان عليهما وأخلع على القاضي شرف الدين الصغير ناظر الدولة، الخلع السنية- وأما في ليلة رؤية الهلال حضر القضاة الأربعة بالمدرسة المنصورية (**نسبة إلى السلطان المنصور قلاوون**) وحضر الزيني بركات ابن موسى المحتسب، فلما ثبت رؤية الهلال وانفض المجلس ركب الزيني بركات بن موسى من هناك فتلاقاه الفوانيس الأكرة والمناجنيق والمشاعل والشموع الموقودة، فلم يُحص ذلك لكثرته، ووقدوا له الشموع على الدكاكين وعلقوا له التنانير والأحمال الموقودة بالقناديل من الامشاطيين إلى سوق مرجوش إلى الخشابين إلى سويقة اللبن عند بيته، فارتجت له القاهرة في تلك الليلة، وكانت من الليالي المشهودة، وأطلقوا له مجامر البخور بطول الطريق. وكان ذلك يعادل المواكب السلطانية».

رؤيـــــة غـــــربيـــــة

آخر صورة نقدمها للاحتفال بشهر رمضان نأخذها من كتاب «إدوارد وليم لين»، الذي بدأ زيارته لمصر سنة ١٨٢٥م وتعلم العربية واندمج في المجتمع المصري على مدى ثلاث سنوات ثم عاد إلى بلاده سنة ١٨٢٨م، وزار مصر ثانية لمدة عامين (١٨٣٣-١٨٣٥م) ألّف أثناءها كتابه «عادات المصريين المحدثين وعاداتهم». كانت مصر في تلك الفترة تحت حكم محمد علي.

يقول هذا المستشرق الإنجليزي:

«تُعرف الليلة التي يُتوقع فيها بدء شهر رمضان بليلة الرؤية. ويتوجه في فترة بعد ظهر اليوم السابق، أو قبلاً، العديد من الأشخاص إلى الصحراء حيث الجو الصافي لرؤية الهلال القمر؛ ويبدأ الصوم في اليوم التالي بعد رؤية الهلال. وإذا استحالت رؤية الهلال نتيجة لتلبد صفحة السماء يبدأ الصوم عند انقضاء ثلاثين يومًا من بداية الشهر السابق. وتكفي شهادة مسلم واحد في رؤية الهلال لإعلان الصوم. وينطلق المحتسب وشيوخ بعض الحرف (الخبازون والطحانون والجزارون والزياتون وبائعو الخضروات) ولفيف من أتباعهم، وفرق الموسيقى، والصوفية بقيادة بعض العسكر في هذه الليلة في موكب من القلعة إلى دار القاضي وهناك ينتظرون عودة الشخص الذي ذهب لاستطلاع الهلال، أو شهادة أي مسلم آخر رأى الهلال. ويحتشد الناس في الشوارع التي يمر بها الموكب، وجرت العادة أن تكون في الموكب طائفة من الجياد المغطاة سروجها بأقمشة مزركشة؛ بيد أن العرض العسكري حل محل الأبهة الدينية المدنية التي كانت تشهدها ليلة الرؤية. واقتصر موكب ليلة الرؤية على الجنود المشاة. ويتقدم حاملو المشاعل كل مجموعة من الجنود، كما يسيرون خلفهم لإنارة الطريق لهم عند عودتهم، ويتبعهم الشيخ وبعض أرباب الحرف ومعهم العديد من العامة وهم يهتفون: «بركة، بركة، بارك الله عليك يا رسول الله، عليك الصلاة والسلام». وتمر الفرق في بضع دقائق ثم يجيء المحتسب ومعاونوه في نهاية الموكب.

«وبعد أن يصل الخبر اليقين بأنه تمت رؤية القمر إلى بيت القاضي ينقسم الجنود ومن احتشدوا معهم في الموكب إلى عدة فرق، يعود فريق منهم إلى القلعة بينما تطوف الفرق الأخرى أنحاء المدينة وأحياءها المختلفة وينادون «يا أتباع أفضل خلق الله، الصيام الصيام» أما إذا لم تثبت رؤية الهلال في تلك الليلة يصرخ المنادي «بكرة شعبان، مافيش صيام.. مافيش صيام»، ويمضي المصريون شطرًا كبيرًا من تلك الليلة يأكلون ويشربون ويدخنون وترتسم البهجة على وجوههم إذا ما أعلن أن الصيام في اليوم التالي. وتتلألأ الجوامع بالأنوار التي تظل على هذا الحال في الليالي التالية، وتُعلق المصابيح عند مداخلها وفوق المآذن».

«ولا تصادف خلال شهر رمضان الناس في الشوارع يحملون أدوات التدخين كما هو الحال في الأوقات الأخرى؛ بل نراهم يمشون فارغي اليدين، أو يحملون عصا أو مسبحة. ولم يكن النصارى في محلاتهم يدخنون على مرأى من المسلمين الصائمين. وتكتسي الشوارع بالنهار منظرًا كئيبًا وتغلق معظم المحال أبوابها. ويكون المسلمون طوال صيامهم نهارًا نكدي المزاج، ثم يتحولون ليلاً بعد الإفطار إلى أشخاص ودودين ومحبين بشكل غير عادي. ومن عادة الأتراك وغيرهم في القاهرة أن يتوجهوا في شهر رمضان إلى جامع الحسين في فترة ما بعد الظهر للصلاة والراحة. ويعرض بعض التجار الأتراك الذين يعرفون باسم «التُحفجية» بضاعتهم في مثل هذه المناسبات في باحة الميضأة للبيع، وهي تنم عن ذوق رفيع وتلبي حاجات مواطنيهم. ومن الشائع في رمضان رؤية التجار في متاجرهم يتلون آيات القرآن الكريم أو يؤدون الصلوات، أو يوزعون الخبز على الفقراء. ويصبح المتسولون قبيل المغرب وأحيانًا بعد الإفطار مصدر إزعاج وصخب. وفي هذه الأوقات يتوافد أبناء الطبقات الدنيا إلى المقاهي، ويفضل بعضهم كسر صيامه بفنجان قهوة وتدخين البيبة. وقليلون هم الفقراء الذين يكسرون صيامهم، وقد يعمد بعض أبناء الطبقتين الغنية والمتوسطة إلى التوقف عن الصيام سرًا.

«يضع أبناء الطبقتين المتوسطة والغنية طوال شهر رمضان كرسي الإفطار في الحجرة التي يستقبل فيها رب المنزل زواره قبل الغروب بدقائق، وتثبت صينية مطلية فوق هذا الكرسي تزينها أطباق «النُقل والمكسرات» المختلفة مثل الزبيب والتمر والتين المجفف والكعك والبندق والجوز وبعض أواني الشربات المصنوع من السكر والماء.. ويتناول رب المنزل بعد أذان المغرب كأسًا من «الخشاف» أو الشربات مع بعض أفراد عائلته أو أصدقائه، ثم يؤدون صلاة المغرب ويأكلون بعدها شيئًا من «النُقل والمكسرات» ويدخنون، وبعد ذلك يتناولون «الفطور» الدسم من اللحم وغيره من أطايب الطعام، ثم يؤدون صلاة العشاء وبعدها صلاة التراويح....».

«يتناول المسلمون فطورهم في منازلهم بشكل عام، وبعد ذلك بساعة أو ساعتين يمضون إلى منزل أحد الأصدقاء، ويرتاد بعضهم المقاهي حيث تتم اللقاءات الاجتماعية، أو يستمعون إلى رواة السير والحكايات الشعبية، أو عزف الموسيقى من الموسيقيين الذين يسلونهم في كل ليلة من ليالي رمضان. وتمتلىء الشوارع بالناس طوال شطر كبير من الليل وتظل محلات بيع المشروبات والمأكولات مفتوحة.. ويقيم بعض علماء القاهرة حلقات الذكر في منازلهم كل ليلة طوال شهر رمضان....».

يدور المسحرون كل ليلة في شهر رمضان أمام منزل كل مسلم لينبهوا إلى موعد السحور في ساعة متأخرة. ولكل «خط» (حي) في القاهرة مسحرها الخاص فيحمل في يده «بازًا» صغيرًا أو ما يعرف «بطبلة المسحراتي» وفي يده اليمنى عصا صغيرة أو قطعة من الجلد يدق بها على طبلته، ويرافقه في جولته صبي يحمل قنديلين على عود من جريد النخل. ويتوقف أمام كل منزل ويضرب طبلته ثلاث مرات وهو ينشد مناديًا بالصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام وبعبارات التوحيد ويقول «إصحِ يا فلان وحد الرحمن»....

«... ويتجول المسحر قبل الإمساك بساعة ونصف تقريبًا ليوقظ الناس أو يذكرهم بتناول الطعام في المنازل التي تقع في دائرة اختصاصه فيقرع الأبواب وينادي حتى يسمع سكان المنزل نداءه....».

هذه الصور التاريخية التي قدمناها لشهر رمضان في مصر خلال عصورها التاريخية المختلفة تتفق جميعها في أن شهر الصوم قد أصبح مناسبة اجتماعية / دينية تتجلى فيها خصائص الثقافة المصرية التي جمعت بين ثنائيات كثيرة تبدو متناقضة من ناحية، كما تكشف عن أن الاحتفال بشهر رمضان كان وسيلة «سياسية» يتوسل بها الحكام للتواصل مع رعاياهم، كما كان وسيلة «اجتماعية» يتوسل بها الناس للتقارب الاجتماعي والثقافي.

كان شهر رمضان، ولايزال، في مصر مناسبة اجتماعية / دينية تعبر عن مدى حيوية التراث الثقافي المصري، ففي هذا الشهر نجد الجانب الديني متمثلاً في قراءة القرآن وحلقات الذكر وملازمة المساجد، ونجد الجانب الاجتماعي في الزيارات واللقاءات في المنازل والمقاهي وأماكن التجمعات المعتادة، ويتجلى الجانب الفني في سماع الموسيقى والاستماع إلى السير والحكايات الشعبية ومواكب الصبيان بفوانيسهم وأغانيهم الجميلة، وطواف «المسحراتي» بطبلته ذات الإيقاع المخصوص وأهازيجه ومدائحه الشجية، ويظهر الجانب السياسي في حرص الحكام على الظهور في مناسبات مثل صلاة الجمعة، أو رؤية الهلال، أو صلاة عيد الفطر، ويظهر الجانب الشعبي في قائمة الطعام الغنية المتنوعة والتي حوّلت شهر الصوم إلى مناسبة للأكل.

أو ليس رمضان في مصر مختلفًا عن شهر رمضان في أي مكان آخر؟!! ■



«أزمة السياسة»

محمد حسنين هيكل

المعنى الحقيقى لما جرى فى الانتخابات الأمريكية، هو أن الناخب وجد نفسه مطالبا بالاختيار بين السيئ والسيئ

١

لقد خطر ببالى - وحتى لا أقاطع حديثاً ذهبت معه بعيداً إلى سياحة فى الوثائق الإسرائيلية - أن أستعير هذه الصفحات من هيئة تحرير هذه المجلة لمرة واحدة لعلها لا تتكرر. والحقيقة اننى أردت إبداء رأى يبدو من ظاهره انه شأن جارٍ لا يدخل فى الاهتمام المباشر والآنى لهذه المجلة - لكنى وجدته من وجهة نظرى شأناً مقيماً وليس شأناً جارياً - أعنى انه ليس مجرد حدث، وإنما هو قضية.

والقضية التى أريد إبداء رأى فيها تتصل بذلك المأزق الذى اعترض انتخابات الرئاسة الأمريكية وعَطَّلَ ظهور نتائجها مدة تُحسَب بالأسابيع ضاعت فى الفرز،وإعادة الفرز، ثم إعادة الإعادة مرات ومرات - بينما أمريكا تنتظر على نار كى تعرف اسم رئيسها الجديد،والعالم وراءها ينتظر فى تَوَجُّس حتى يتأكد من هو ساكن البيت الأبيض القادم؟ وما هى درجة لياقته لمسئولياته بعد كل ما جرى؟ وما الذى يمكن توقعه تحت رئاسته؟!

٢

وما أريد أن أقوله أن ذلك المأزق الذى أحاط بأهم مواقع السلطة فى التاريخ وفى العالم لا يعكس أزمة انتخابات فى الولايات المتحدة الأمريكية بالذات،لكنه يعكس «أزمة فى السياسة» على مستوى أوسع بكثير من أمريكا، وأبعد بكثير من اللحظة الراهنة فى انتخابات الرئاسة الأمريكية وتداعياتها ومضاعفاتها!

وحتى يسهل تأصيل المسائل من البداية فقد يمكن الاتفاق - وبصفة إجمالية - على أن العمل السياسى هو فكرة أو مصلحة عامة، تشد المؤمنين بها أو الراغبين فيها، وتدعوهم للعمل من أجل التأسيس لها، ونشرها، وترسيخ قبولها بما يضمن لها شرعية تؤهلها لكتابة القانون.

وإذا كان ذلك صحيحاً فإن العمل السياسى يصبح فى الأمر الواقع «خطاباً» مُطالباً بأن يملك من قوة التأثير ما يُحَوِّل رسالته إلى مؤسسات لها قواعد ومرتكزات، ويكون فى «الخطاب» من مقدرة الإقناع ما يُحَوِّل الإيمان به إلى حيوية تلهم وتدفع المجتمعات. مع الأخذ فى الاعتبار أن «الخطاب» لا يكون مُؤثراً إلا بمقدار ما هو مُعَبِّر، ولا يكون مُعَبِّراً إلا بمقدار ما هو قادر على فتح الطريق الطويل والصعب من «مصداقية الدعوة» إلى «شرعية كتابة القانون».

٣

وإذا وقع الاتفاق على أن العمل السياسى بالدرجة الأولى «خطاب»، فقد يكون مناسباً الاتفاق فى نفس الوقت على أن أى «خطاب» هو بحقائق الأشياء وعاء يأخذ حمولاته (اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية) كى يعرضها على الدائرة الأوسع من جماهير وقوى وتيارات تُقدِر على تحويل العمل السياسى من «خطاب» يقنع إلى «قانون» يحكم.

ومن المقبول طبيعياً أن أى وعاء يؤثر بهيئته على شكل حمولته، فكل حمولة مضطرة إلى أن تأخذ صورة وعائها، وهنا فإن الوسائل تؤثر فى الغايات.

٤

وباختصار، وبسرعة، فإنه عندما كان «الخطاب السياسى» كلمة تقال لجمع صغير من الناس، فقد كانت تلك فترة تَوافُق الصفوة وتراضيها باتفاق عناصرها على مناطق وحدود.

ثم إنه عندما اتَّسَعَت دائرة «الخطاب السياسى» وأصبح أداؤه استنهاضاً أمام حشد أكبر من الناس، فإن وسيلة «الخطاب» أصبحت بلاغة الخطابة، وتأثيرها فى السامعين، وقدرتها على توجيه الفعل والتحريض عليه، وكان ذلك ما حَدَث - مثلاً - فى الهجوم على «الباستيل» السجن الأشهر فى باريس (وهو الموقعة الكبرى للثورة الفرنسية)، وما حَدَث فيما بعد أمام قصر الشتاء الملكى فى «سان بيترسبورج» (وهو الموقعة الكبرى للثورة البلشفية).

والشاهد أنه فى تلك الفترة، وعلى امتداد قرابة قرن وربع القرن من «الباستيل» فى باريس إلى قصر الشتاء فى «سان بيترسبورج»، كان «الخطاب السياسى» - خطابة تَستنهِض الفعل وتُحَرِّض عليه!

٥

وعندما اكتُشِف اللاسلكى وظهر الميكروفون فإن «الإذاعةَ» أحدثت تطوراً هائلاً فى الخطاب السياسى بما وَفَّرَت له من اتساع وانتشار. وفى عصر «الإذاعة» ظهرت سطوة رَجُل مثل «أدولف هتلر» فى ألمانيا النازية - وفى نفس العصر اتسع نفوذ رَجُل مثل «فرانكلين روزفلت» فى الولايات المتحدة الأمريكية. وفى حين أن خطاب «هتلر» لـ«ميكروفون الإذاعة» كان من نار ولَهَب، فإن «روزفلت» اختار أن يكون خطابه: أخذاً وعطاءً، أو تفكيراً بصوت عال كما كان بنفسه يقول. ونتيجة لذلك فإن الساحة الأثيرة لخطاب «هتلر» النارى الملتهب كانت فى عروض الجيوش ووسط خفق الرايات وهدير الحشود، فى حين أن «روزفلت» اختار لخطابه عنوان «حديث المدفأة»، وكان يأخذ «ميكروفون الإذاعة» فى يده ويجلس بجوار مدفأة بيته مساء يوم الجمعة الأول من كل شهر ويتحدث للناس، وأحياناً يهمس.

وكذلك كان وعاء «الخطاب» يتداخل مع مضمون «الخطاب».

٦

وفى عصر التليفزيون وقد لحق نشيطاً بعصر الإذاعة - فإن سلطان الصورة طغى لأن «الخطاب» لم يَعُد «كلمة»، وإنما تَحَوَّل إلى ألوان وأصوات ومؤثرات تصنع مشاهد قادرة على الإقناع حتى بالخداع! ويوماً بعد يوم لم تصبح العلاقة بين وعاء «الخطاب» ومضمون «الخطاب» متداخلة فقط، وإنما غلب الوعاء على المضمون لأن الصورة راحت تفرض مطالبها، وأولها «أكبر شحنة من قوة الإيحاء»، وليس «أكبر قدر من قوة الإقناع».

وهنا فإن «الخطاب السياسى» لم يَعُد يحتاج إلى صفوة تتفق عناصرها على المواقع والحدود - ولم يَعُد «الخطاب السياسى» يحتاج إلى حناجر لها القدرة على التحكم فى طبقات صوتها، سواء كان الخطيب هو «فلاديمير إليتش لينين» فى موسكو، أو «سعد زغلول» فى القاهرة! - وأخيراً فإن «الخطاب السياسى» لم يَعُد يحتاج ميكروفونات «هتلر» الساخنة، أو ميكروفونات «روزفلت» الهامسة!

ومع أزمنة جديدة أصبح «الخطاب السياسى» عملية مسرحة تحتاج إلى كُتَّاب النصوص والمخرجين والمصَوِّرين، وإلى الأضواء والعدسات، وإلى حَبْكة المؤثرات وقوة الإبهار!

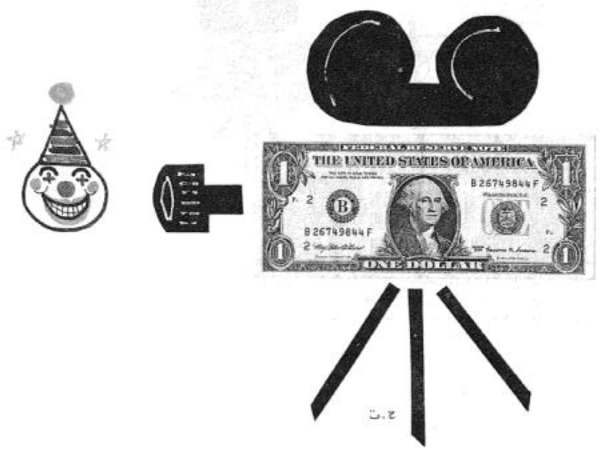
٧

وقد أتيح لى أن أشهد هذه الثورة فى أسلوب «الخطاب السياسى» أيام طفولتها، وفى عَهد براءتها، وعندما كانت تصرفاتها تبدو نوعاً من «شقاوة» بواكير العُمر تدعو للابتسام - ولا تشد الأعصاب كما يَحدُث الآن بعد أن كبر الطفل التليفزيونى البرىء وأصبحت حمولته شحنات مُكلفة وضاغطة - خصوصاً فى مجال «الخطاب السياسى»!

وجاءت الفرصة التى أتيحت لى مع انتخابات الرئاسة الأمريكية سنة ١٩٥٢ (وقد غطيتها صحفياً)، وكان المرشحان المتنافسان فيها هما: الجنرال «دوايت أيزنهاور» عن الحزب الجمهورى، و«أدلاى ستيفنسون» عن الحزب الديمقراطى.

كانت تلك آخر حملة انتخابية للرئاسة الأمريكية تُستعمل فيها خطوط السكك الحديدية طريقاً إلى ميادين المعارك الانتخابية، وكان ذلك أسلوباً ابتكره «تيودور روزفلت» فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وقد أطلقوا عليه وصف «القطار الذى يُصَفِّر فى المحطة» .Stop whistle train

فى انتخابات الرئاسة



وملخص إجراءاته أن المرشح للرئاسة يستقل قطاراً خاصاً يطوف به أرجاء الولايات المتحدة، وفى بعض المحطات المهمة فإن القطار يطلق صفاراته مُعلناً وصوله براكبه المنتظر، ثم يتوقف فى المحطة ويخرج المرشح ليقف فى شرفة العربة الأخيرة من القطار ويراه الناس ويسمعونه واقفاً هناك، وحَوله وحَول الكل حصار من ميكروفونات الإذاعة وعَدَسات التلفزيون أشبه ما تكون باسلحة نارية مُصَوَّبة!

فى ذلك الوقت كان لى حظ أن أكون ضمن مجموعة الصحافة الأجنبية التى دُعيَت إلى متابعة الحملة الانتخابية للرئاسة أسبوعاً على قطار مرشح الجمهوريين الجنرال «أيزنهاور»، وأسبوعاً على قطار مرشح الديمقراطيين «أدلاى ستيفنسون».

٨

وعلى قطار «أيزنهاور»، وفى محطة مدينة أمريكية فى ولاية «إلينوى» (اسمها «أتاوا» - على اسم المدينة الكندية الشهيرة) قابلت طفولة عصر التليفزيون كما أسلفت، وشهدت بداية دوره كوعاء حامل للخطاب السياسى فى أزمنة متغيرة!

يومها كانت العربة قبل الأخيرة - كما هو التقليد - مخصصة لمجموعة الصحافة الأجنبية المرافقة للمرشح الجمهورى الجنرال «دوايت أيزنهاور»، وكذلك كان المرشح يَمُرُّ منها قبل أن يَصِل إلى شرفة العربة الأخيرة ليطل على الجماهير والميكروفونات والعَدَسات المحتشدة فى محطة «أتاوا - إلينوى» تنقله صوتاً وصورة ليس إلى القريبين منه حول شرفة القطار، وإنما إلى البعيدين عنه فى كل أرجاء الولايات المتحدة ومنها إلى بقية العالم.

ووقفنا جمعاً من الصحفيين فى انتظار أن يَمُرَّ بنا «أيزنهاور» فى طريقه إلى شرفة العربة الأخيرة من القطار، وربما أن بعضنا كان يتوقع أن يستوقفه لسؤال أو سؤالين. لكن ما وقع اختلف بعض الشىء عما كان متوقعاً، فقد تصادف يومها أن الصحفى الأشهر الحاضر للمناسبة كان اللورد «بيفر بروك» صاحب أكبر مجموعة من الصحف البريطانية (وكان فوق نفوذه كصحفى ومالك مجموعة كبيرة من الصحف - أقرب الصحفيين إلى «ونستون تشرشل»، الذى اختاره عُضواً معه فى وزارة الحرب البريطانية طوال رئاسته لها بين ١٩٤٠ إلى ١٩٤٥).

وعندما دخل «أيزنهاور» عربة الصحفيين الأجانب عابراً منها إلى الشرفة الأخيرة للقطار كانت دهشة الجميع شديدة، ذلك أن الجنرال الذى قاد جيوش الحلفاء للنصر فى أوروبا ظهر ووجهه مغطى بطبقات كثيفة من الأصباغ والألوان المطلوبة لتجميل الصورة وتلوينها (حتى لا تكشف عَدَد سنوات عمره) - ولتغطية تجاعيد الوجه (حتى لا تُجَسِّمها عدسات التصوير القريبة) - ولإعادة رسم الحواجب ثقيلة بالخطوط السوداء (بعد أن نحل شعرها بعوامل التعرية على مَرِّ السنين) - ثم إن الشفتين كستهما مسحة واضحة من صُنع قلم أحمر (حَاول أن يسكب عليهما لمسة من نضرة تخفى جفافاً حَلَّ عليهما مع الكهولة!)

وبدا أن أشدنا دهشة كان اللورد «بيفر بروك»، والذى ظهر أنه يعرف «أيزنهاور» من قبل معرفة وثيقة (وفى الغالب منذ كان «أيزنهاور» مقيماً فى بريطانيا بين سنة ١٩٤٣ - ١٩٤٤ يُحَضِّر لتحرير أوروبا ولكسر قبضة ألمانيا النازية المطبقة عليها).

وبَلَغَت دهشتنا جميعاً ذروتها عندما رأينا أحد خبراء التجميل يندفع فجأة وراء «أيزنهاور» ويناديه لينتظر لحظة حتى يَرُشَّ سائلاً من نوع معين (spray) فوق صَلعَة رأسه قبل أن يصل إلى شرفة القطار، وغرضه أن يُطفئ لمعان صَلعَة مُرَشح الرئاسة حتى لا تعكس الأضواء وتؤثر على نقاء الصورة!

وكنت (وكان زميل لبنانى لى هو الأستاذ سمير سوقى) نرقب ما يجرى فى ذهول شرقى ربما فاق ذهول الآخرين - ثم كان اللورد «بيفر بروك» هو الذى بادر وسأل الجنرال الذى أقبل يصافحه: «أيك (اسم التدليل لـ«ايزنهاور») - ماذا فعلت معك السياسة؟»

ورَدَّ «أيزنهاور» - ونحن جميعاً شهود لا نكاد نصدق ما نرى ونسمع - «يا صديقى إننى الآن أخوض حرباً مختلفة بغير السلاح والنار، وإنما بالأبيض والأحمر» (ولعله كان يعنى مساحيق البودرة وأصابع أحمر الشفاه) - قالها الجنرال المنتصر فى أكبر حروب التاريخ، ثم مشى إلى العربة الأخيرة من قطار حملته الانتخابية يواجه جمهوراً جاء يلقاه، وجمهوراً لم يجىء، وهو الجمهور الأوسع الذى ينتظر بعيداً فى بلاده ومُدُنه وقُراه - ليَسمَع المرشح صوتاً، ويراه على شاشات التليفزيون صورة!

٩

منذ تلك الأيام من سنة ١٩٥٢ وانتخابات الرئاسة الأمريكية فيها بين «دوايت أيزنهاور» و«أدلاى ستيفنسون»، وحتى هذه الأيام من سنة ٢٠٠٠ وانتخابات الرئاسة الأمريكية التى جَرَت فيها بين «آل جور» و«جورج بوش» - تلاحَقت ثورات هائلة فى وسائل الاتصال ركبت أعالى النجوم السابحة فى الفضاء، وحَوَّلت كرة الأرض إلى شاشة كبيرة يظهر عليها كل شىء، فى أى مكان، فى نفس اللحظة.

وباختصار - لأن الواقع الراهن الآن يعرض نفسه على الناس جميعاً بما يغنى عن إطالة الشرح - فإن الخطاب السياسى المعاصر تَحَوَّل إلى صورة يصنعها مُخرج يملك كل وسائل - تكنولوجيا - المسرحة صوتاً وضوءاً، وحركة ولوناً، ومؤثرات وخِدَعا ذهبت بعيداً حتى فقَدَ الشكل علاقته بالأصل، ثم وَصَلَ الحال فى الولايات المتحدة - مَرَّة - إلى الإتيان بممثل سينمائى محترف هو «رونالد ريجان» لكى يؤدى فى الحياة - وليس على خشبة المسرح - دور رئيس الولايات المتحدة الأمريكية. وللحق فإن الرَجُل أدى دوره بامتياز، وبَذَل فيه أكثر مما بَذَل فى أى دَور أسند إليه، ثم أنهكه الجهد بعد انتهاء الدَور فغاص (مع مَرَض «ألزهايمر») فى أعماق النسيان!

١٠

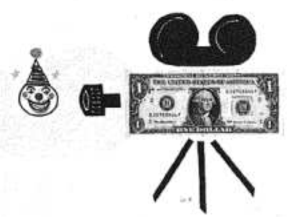
إن الوسائل طغت على الغايات حتى استهلكتها تقريباً، وهنا ظهرت الأزمة التى تجلت بعض عوارضها فى المأزق الذى وصلت إليه المنافسة الانتخابية على الرئاسة الأمريكية بين «جور» (مرشح الديمقراطيين) و«بوش» (مرشح الجمهوريين).

كانت الأزمة التى طغت فيها الوسائل على الغايات حتى استهلكتها - أنه عندما أصبح «الخطاب السياسى» أسيراً للوسائل، وأصبحت العملية الانتخابية أسيرة لفنون وتكنولوجيا المسرحة - أن الأفكار والمصالح وهى صميم السياسة كان عليها أن تبحث لنفسها عن مواقع أخرى تمارس فيها «قوة» من نوع آخر تمكنها من «كتابة القانون».

وفى لحظة حاسمة من التاريخ الحديث (بين الستينات والسبعينات من ذلك القرن العشرين) وقع افتراق - لا يؤدى إلى طلاق - بين الوسائل السياسية وبين «الأفكار والمصالح» التى هى صميم السياسة.

منذ تلك اللحظة تُرِكَت الوسائل السياسية لفنون وتكنولوجيا «المسرحة»، وللمخرجين والمصَوِّرين والنجوم الكبار والصغار، وخبراء الماكياج، والمدربين على نطق الكلام والإشارة بالأيدى والتعبير بالعيون. وأما «الأفكار والمصالح» فقد أخذت نفسها بعيداً ورَكَّزَت فعلها فى مواقع أخرى، والسبب أن هؤلاء الذين «مثلوا الأفكار والمصالح» لم يكونوا على استعداد لدفع التكاليف الباهظة (والمبتذلة إلى درجة الإهانة أحياناً) للوسائل السياسية الجديدة، وهكذا فإن أفضل العقول وأكفأ الخطط قصدت إلى المجالس التشريعية فى الكونجرس - وإلى الشركات العاملة فى الداخل أو العابرة للقارات - وإلى الجامعات ومراكز البحوث - وإلى الخدمة المدنية والعسكرية لأجهزة الدولة الأمريكية.

«أزمـــة السيـاســـــة» فى انتخـــابات الرئاســــة



ومع ظروف وملابسات عويصة مُعَقَّدة فإن الفراق بين «أساليب الخطاب» و«جوهر الخطاب» اتسعت مساحته .

١١

وكان بين أخطر نتائج الفراق أن الأساليب أصبحت تحتاج إلى كلفة مالية كثيرة لا تستطيع «الأفكار والمصالح» - وربما لا تريد - أن تتحمل أعباءها وحدها . وهكذا فإن جمع المال للحملات الانتخابية أصبح أهم ضرورات العمل السياسى (بعد الفراق - بغير طلاق - بين «الوسيلة» من ناحية وبين «الفكرة والمصلحة» من ناحية أخرى) .

وكان أن دخول المال عنصراً رئيسياً فى وسائل العمل السياسى زاد من أزمة السياسة إلى درجة تدعو للقلق على صحة وسلامة العمل العام فى حياة المجتمعات وتقدمها .

ذلك أن طلب المال - لسد حاجات الوسائل السياسية وكل فنون وتكنولوجيا المسرحة التى استولت عليها - فتح الباب أمام رياح مسمومة من كل ناحية . فقد حسب كثيرون - حتى خارج الولايات المتحدة - أن نفاذهم إلى القرار الأمريكى ميسور عن طريق المال يقدمونه للتكاليف الباهظة للمَشاهد الانتخابية الباهرة .

بل إن اللهفة على طلب المال زادت حتى انفتحت فيها خروقات نَفَذَت منها عصابات المافيا إلى السياسة داخلة - مشاركة ومَرجُوَّة - فى مزادات الانتخابات !

....

....

[وأتذكر فى صيف سنة ١٩٧٢ أن الرئيس «أنور السادات» اتصل يدعونى إلى لقائه فوراً لأمر هام ، وقصدت إليه فى استراحة المعمورة وإذا هو يسألنى «ما إذا كان الوقت لم يحن لكى نفعل ما يفعله اليهود وندخل لمساعدة المرشحين لرئاسة الولايات المتحدة ونضمن من بينهم صديقاً لديه الرغبة فى مساعدتنا ؟» - ثم زاد الرئيس «السادات» سؤاله توضيحاً حين استطرد يخبرنى «أن هناك الآن اقتراحاً بأن ينشط العرب إلى دعم الرئيس «ريتشارد نيكسون» لمدة رئاسة ثانية ينجح فيها «بمساعدتنا» ولا يكون له بعدها بحكم القانون أمل فى مُدَّة رئاسة ثالثة ، ومن ثم يكون فى مقدوره أن يتحدى سطوة اليهود فى واشنطن ويسندنا» . ثم يضيف الرئيس «السادات» : «لقد عرفوا (لم يقل لى مباشرة مَن هُم الذين عرفوا) أن حملته تحتاج ١٢ مليون دولار عاجلة لتكملة المصاريف ، والسؤال: لماذا لا نقدمها له بدلاً من أن يسبقنا إليه اليهود ؟» .

ولاحظ الرئيس «السادات» أن ما قاله لم يُثِر حماستى بقدر ما أثار دهشتى ، فاستدرك يقول : «لا تخش من العبء المالى فنحن لن ندفع كثيراً . سوف يجرى تقسيم المبلغ المطلوب بيننا : خمسة على السعودية ، وخمسة على الكويت ، واثنان فقط علينا ، ويكون لنا صديق شاكر ومُمتَن فى البيت الأبيض» .

وبرغم شكوك وتحفظات أبديتها فإن مبعوثاً عربياً (السيد «عدنان خاشقجى» وهو رجل أعمال عربى اشتهر فى مجال تجارة السلاح) حمل بالفعل على طائرته الخاصة حقيبة - أو حقائب - رُصَّت فيها أوراق نقد بقيمة ١٢ مليون دولار برسم التسليم فى المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض فى واشنطن .

وبالطبع فإن هذا المبلغ - وفى أحسن الأحوال - ضمن لـ«ريتشارد نيكسون» شراء ساعات إضافية من الأصوات والألوان والمؤثرات ، تدعو لانتخابه على شاشات التليفزيون - لكن هذا المبلغ لم يشتر للعَرَب نفوذاً سياسياً ، بل حَدَث العكس لأن «ريتشارد نيكسون» رئيساً للولايات المتحدة - ومعه «هنرى كيسنجر» وزيراً للخارجية - كانا أكثر من حاول تطويق وحصر أهم نصر حققه السلاح العربى ضدّ إسرائيل فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ - وذلك بعد أقل من سنة واحدة على نجاح «نيكسون» فى انتخابات نوفمبر سنة ١٩٧٢] .

....

....

ومنذ تلك الأيام وحتى الآن تكرر الظن بوجود أموال عربية وصلت بوسيلة أو أخرى إلى حملات إنتخابات الرئاسة الأمريكية ، ويقدر واحد من رجال الأعمال العرب العارفين بدخائل الأمور حجم المساهمات العربية فى المعركة الإنتخابية الراهنة بين «بوش» و«جور» بما يتراوح بين ١٥٠ إلى ١٨٠ مليون دولار ، وكان النصيب الأوفر منها موجها إلى حملة «بوش» إعترافا بفضل والده فى حرب الخليج ، وإمتنانا لعدد من كبار مناصريه وبينهم «ديك تشينى» «وجيمس بيكر» و«كولين باول» وكلهم كانوا من نجوم تلك الحرب ، ومن أساطين الحملة الإنتخابية للحزب الجمهورى سنة ٢٠٠٠] .

....

....

هكذا كانت «أزمة السياسة» تشتد لأن مساحة الفراق بين الوسائل والغايات اتسعت ، وزاد اتساعها .

١٢

والمزعج أن أزمة السياسة امتدَّت إلى «مجالات» أخرى قريبة منها على نحو أو آخر ، وضمنها : مجال القانون ، وحتى مجال الأخلاق .

* ومثلاً فى مجال القانون فإن الوسائل الجديدة التى دخلت على السياسة وامتدت إلى غيرها - تمكنت من تحويل محاكمة رياضى مشهور («أو. جى. سمبسون») - قتل زوجته وعشيقها إلى صُوَر فى شبه «مسلسل تليفزيونى» تمكن شهوراً من شدّ اهتمام الناس فى أمريكا وفى العالم ، ثم انتهى المسلسل دون خاتمة (وفق تكنولوجيا المسرحة الجديدة) تاركاً للناس أن يختار كل منهم خاتمة تلائم مزاجه - بصرف النظر عن حقوق القانون .

* وفى مجال الأخلاق حَدَث شىء مماثل حين تَحَوَّلت فضيحة معيبة لرئيس أمريكى جَرَت وقائعها داخل مكتبه فى البيت الأبيض وهو مصدر القرار الأهم فى العالم - لتصبح «الفضيحة» بعد «الجريمة» مسرحية تشد اهتمام الناس فى أمريكا وفى العالم ، ثم انتهت (هى الأخرى) دون خاتمة تاركة للناس أن يختار كل منهم خاتمة تلائم مزاجه - بصرف النظر عن حقوق الأخلاق .

وهكذا انزلقت السياسة إلى أحوال فَقَدَ فيها القانون والأخلاق هيبتهما ، لأن الغَلَبَة أصبحت لما يسميه خبراء الزمن الجديد : ومضة الضوء flash ، وقضمة الصوت sound bite - كيف تلمع الأولى فى العيون ، وكيف ترن الثانية فى الآذان !

١٣

كان استسلام السياسة لفنون وتكنولوجيا المسرحة فى الولايات المتحدة الأمريكية قد دَفَعَ إلى الساحة برَجُلين : «آل جور» (نائب الرئيس) و«جورج بوش» (حاكم تكساس) .

كلاهما تَوَفَّرت له بعض المواصفات المطلوبة لوسائل العمل السياسى فى الظروف الطارئة .

وكانت المواصفات التى حددها أصحاب الاختصاص فى فنون وتكنولوجيا الوسائل الجديدة تطلب أولاً أن يكون المرشح : شاباً (له نشاط بطل رياضى) قادراً على العمل ليل نهار - وأن يكون - ثانياً - شاباً وسيماً (له ملامح نجم سينمائى) بحيث يبدو فى الصُوَر موحياً بغَد مُقبل ، وليس مُذَكِّراً بماضٍ تَوَلَّى ، وأنْ تكون له - ثالثاً - ابتسامة عريضة (تدعو للتفاؤل ، ولا تستحضر المشاكل) .

وكانت تلك مُحَصِّلة خبرة استخلصتها صناعة الانتخابات من تجربة «بيل كلينتون» الذى تمكن بشبابه أن يقفز بين المشاكل والقارات دون تعب ، وتمكن بوسامته أن يكتسح كل منافسيه على الرئاسة ، وأن يحصل على الغفران لكل الذنوب . وتمكن حتى فى مواجهة محاولة لعزله أن يجعل الابتسامة أسرة حاضرة دواماً على شفتيه !

....

....

[وربما أن عصر «كلينتون» شهد اكتمال الفراق - دون طلاق - بين وسائل السياسة وغاياتها . كما أنه أظهر المواقع التى ذهبت إليها «الأفكار والمصالح» متباعدة عن فنون وتكنولوجيا المسرحة التى استولت على العمل السياسى .

بمعنى أنه يستحق التأمُّل أنه وإن كان عصر «كلينتون» أكثر العصور رخاءً فى التاريخ الأمريكى الحديث فإن التأثير الأكبر لـ«الأفكار والمصالح» - وهى جوهر العمل السياسى - لم ينشأ فى البيت الأبيض ، وإنما نشأ فكرة لـ«آلان جرينسبان» رئيس بنك الاحتياطى الفيدرالى ، وقد تمكن من توصيلها إلى الرئيس عن طريق صديق مُشترك رَتَّبَ دعوة على شراب بين الاثنين خارج مجال العمل وبعيداً عن إطار المؤسسة!]

....

....

على أى حال فإنه بالاستفادة من تجربة «كلينتون» ظهر على الساحة «آل جور» و«جورج بوش» .

كلاهما شاب (يستطيع أن يحتمل) ، وكلاهما وسيم (أو هكذا يظن بعضهم) ، وكلاهما يستطيع أن يضع على وجهه ابتسامة (يُرجَى أن تكون مُوحية بغد وليست مُذَكِّرة بأمس) .

ثم أضيف إلى ذلك أن كليهما كانت له خلفية سياسية تساعد فنون وتكنولوجيا المسرحة من حيث تختصر الوقت ولا تبحث عن نجمها وتستدعيه من مكان قصى كما حَدَث فى حالة «كلينتون» وقد جاء غريباً إلى واشنطن قادماً إليها على وَجَل من ولاية «أركنسو» !

لكنه عند التجربة الحقيقية ، وعندما احتدمت المعركة الانتخابية ، انكشفت «أزمة السياسة» انكشافاً كاملاً لم يَعُد ممكناً التغطية عليه .

ذلك أن الرَجُلين الواقفين على الساحة نقلا إلى السامعين والمشاهدين فى كل مكان شعوراً بخيبة الأمل فشلت فى تغطيته كافة «الوسائل» السياسية الجديدة من فنون وتكنولوجيا .

ظهر أن أحد الرَجُلين تنقصه الجاذبية .

والثانى ينقصه الذكاء .

ومع الانكشاف جاء الحَرَج ، وبعد الحَرَج استحكم المأزق !

وعلى سبيل المثال فإنه فجر يوم الأربعاء السابع من نوفمبر تَوَرَّط «آل جور» واتصل بـ«بوش» يهنئه بالفوز مُعترفاً بالهزيمة فى حضور معظم مستشاريه ، لكنها دقائق ثم

فى العادة يكون على «الصورة» أن تتبع القرار السياسى. لكنه فى زمن جديد أصبح على القرار السياسى أن يتبع «الصورة»

إذا «جور» يَتَّصِل بـ«بوش» يسحب اعترافه ويلمح إلى مُخالفات وتجاوزات وعمليات غش قد يلجأ فيها إلي المحاكم - وقد حَدَث ! - وكان بين أول مُحَرِّضيه على سحب اعترافه مدير حملته الانتخابية «بيل ديلى» ، وهو نجل عُمدة شيكاجو لربع قرن متصل عندما كانت شيكاجو عاصمة أمريكية للجريمة الدولية المنظمة . وأكثر من ذلك دَعَت إدارة حملة «جور» بأسرع ما يمكن خبيراً تَخَصَّص فى «قضايا فرز الأصوات الانتخابية» وهو «كريس سونر» ، وقد بادر «سونر» بطرح مجموعة من الخطوات تُتَّخَذ على عَجَل لتحريك الدفوع والاعتراضات. وروى بعض الشهود أنه راح يقول لمجموعة المحامين المحيطين بـ«جور» : «لا وقت لدينا لطبخ مذكرات مسبوكة ، والأفضل أن نقوم بتسخين ما لدينا بسرعة فى فُرن «إشعاعى» microwave !

وعلى سبيل المثال أيضاً فإن أركان حملة «بوش» حاولوا فى لحظة من اللحظات تأكيد فوزه بإعلان من «كاترين هاريس» وزيرة الدولة لولاية فلوريدا ، وهى من أنصار الحزب الجمهورى، والغريب أن وزير الخارجية الأسبق (مع والد المرشح) وهو «جيمس بيكر» نَصَحَ بالمبادرة فوراً إلى إعلانٍ يأخذ الجميع بقوة المفاجأة ويَفرض الأمر الواقع - لكن نصيحة جاءت فى اللحظة الأخيرة (قيل لى إن صاحبها هو الجنرال «كولين باول») - حَذَّرَت «بوش» من أن القفز على هذا النحو واستناداً إلى نتيجة أولية منحته بضع مئات من الأصوات تطاولها الشكوك - سوف يعطى الانطباع بأن إعلانه عن فوزه بالرئاسة «نوعٌ من الانقلاب بالقوة» (!) - ثم يتأكد ذلك الانطباع حين يَظهَر «هو» فى الصُوَر مُدَّعياً بالرئاسة ،ثم تَظهَر - فى نفس اللحظة - صُوَرٌ أخرى لعمليات فرز لم تكتمل بعد لأن إعادة فرزها بدأت بالفعل!

وهكذا كان على الولايات المتحدة باستهلاك الكثير من الصبر - أن تنتظر ..

وهكذا - أيضاً - كان على العالم باستهلاك الكثير من حُسن النية - أن يُتابع!

ولم تكن عواقب هذا التخبط والهوان - فى لحظة يُفتَرَض أن يبدأ فيها تاريخ سياسى جديد لأمريكا - كافية لتوقظ لدى المشاركين فى هذه العمليات على الجانبين قدراً ولو محدوداً من الشعور بالمسئولية والحرص على مَعانٍ تستحق الالتزام بها من باب احترام «الجمهُورية» (أقوى إمبراطوريات التاريخ) .

والحقيقة أن ذلك لم يكن له أن يثير استغراب أى مراقب متابع - يضع فى اعتباره مجمل الأحوال .

فالمستشارون والمساعدون الأقرب من حول المرشحين فى تلك اللحظة كانوا خليطاً من خبراء العلاقات العامة والتصوير والتجميل ، والمحامين ومؤلفى الكتب عن قضايا فرز الأصوات ، وكلهم لا يتحمل مسئولية ، أو يخضع لحساب .

ثم إن مطلب الفوز فى مسابقة الرئاسة أزاح غيره من الاعتبارات لأن العملية الانتخابية تَبَدَّت نوعاً من الاستثمار وصلت فيه تكلفة الوسائل المالية إلى حدود فلَكِيَّة (ما بين ٣ إلى ٥ مليارات دولار) . وإلى جانب ذلك فهناك طموحات أعوان كل مُرَشح فى مناصب ووظائف فى إدارته إذا فاز فى السباق وأصبح رئيساً ، وبعض هذه الطموحات مشروع وبعضها غير مشروع ، وكان المنطق من أوله إلى آخره معكوساً :

فى العادة يكون على «الصورة» أن تتبع القرار السياسى - لكنه فى زمن جديد أصبح على القرار السياسى أن يتبع «الصورة» .

والنتيجة أن العملية الانتخابية للرئاسة الأمريكية أصبحت مسلسلاً أقل إثارة من عرض «أو. جى. سمبسون» ، وأقل تشويقاً من «بيل ومونيكا» - رغم وجود زحام هائل حول الرَجُلين من مُخرجين ومُصَوِّرين وخبراء ماكياج . وإضافة إلى ذلك ومعه - وكما كان الحال فى مسلسلات سابقة - فقد كان هناك حشد من قضاة ومحامين ، ومقدمى برامج ، وخبراء علاقات ، وخبراء استطلاعات للرأى العام ، ومتحدثين رسميين وغير رسميين يُقدِّمون الفتوى كل ثانية دون سياق ودون اتساق !

١٤

والمدهش برغم ذلك كله ، والذى يستحق الالتفات - وربما التقدير - أن النتيجة التى توصل إليها الناخب الأمريكى جاءت صائبة ومزكية للديمقراطية ، بصرف النظر عن أزمة السياسة فى أزمنة جديدة .

والشاهد أن المعنى الحقيقى لما جرى فى انتخابات الرئاسة الأمريكية هو أن الناخب الأمريكى وَجَدَ نفسه مُطالباً بالاختيار بين : السيئ والسيئ . ثم راح بمشاعره وبغير تصميم مُسبق يُبدى رأياً يستحق الدراسة.

والراجح أن الترجمة السليمة للنتائج التى أسفرت عنها العملية الانتخابية تعنى أن التساوى فى عدد الأصوات تقريباً وبالطريقة التى ظهر عليها ، يعترف بأوضح عبارة :

* أن الأصوات التى حصل عليها «آل جور» لم تكن تزكية لصالحه ، وإنما كانت اعتراضاً بالرفض على : «جورج بوش» .

* وبنفس المقدار فإن الأصوات التى حصل عليها «جورج بوش» لم تكن تزكية لصالحه، وإنما كانت اعتراضاً بالرفض على : «آل جور». ومن الصعب أن تكون هناك ترجمة لنتائج التصويت غير هذه الترجمة ، فتلك كلمة ناخب يشعر بما آلت إليه «وسائل» السياسة - ثم إنه لم يجد فى مرشحى الحزبين الكبيرين خياراً مُقنعاً يرضيه . وقد أبدى رفضه للرجلين حينَ أعطى نصف أصواته بالعدل تقريباً ضِدْ أحدهما ، وبالعدل تقريباً ضِدَّ الثانى .

١٥

ولأن مسلسل الانتخابات (خلافاً لمسلسل «أو. جى. سمبسون» - ومسلسل «بيل ومونيكا») لابد له من نهاية لأن هناك موقعاً لابد له أن يجد من يشغله فى المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض - فإن المحاكم - وليس الناخب - هى التى انتهى إليها عبء اختيار رئيس جديد للولايات المتحدة .

ولم يكن ذلك من الأصل اختصاص محاكم، ولم تكن المحاكم نفسها تريده درءاً لشبهة الخلط بين السلطات - لكن ناخباً ضاق ذرعاً بالسياسة فى عصور جديدة رأى استعمال حقه الديمقراطى بالرفض الكلى تاركاً للقضاء (بحساب مئات من الأصوات وليس آلافها أو ملايينها) أن يَبعَث بأحد المرشحين إلى البيت الأبيض : قليل الجاذبية - أو قليل الذكاء .

ولسوف يدخل هذا المرشح الذى يَبعَث به القضاء إلى البيت الأبيض ومعه شرعية مجروحة يصعب أن تكون لها قوة كتابة القانون .

لكن الأهم من هذا كله أن القوى الأخرى التى ابتعدت بـ«غايات» السياسة عن «وسائلها» فى العصور الحديثة سوف تجد أنها أمام ضرورة قصوى تفرض عليها «إنقاذ السياسة» بإنقاذ «الوسائل» حماية لـ«الغايات» ، ذلك أن الخطر أصبح داهماً إذا كان لا بد لشرعية عملية الانتخابات وهى عماد الديمقراطية ، أن تظل هى كاتبة القانون وكافلة الشرعية .

وهكذا فإن مأزق «آل جور» و«جورج بوش» مقدمة لها ما بعدها ، وأوّله إعادة النظر فى المسافة بين «وسائل» السياسة فى عصور مُستَجَدَّة و«غايات» السياسة فى كل العصور أو تنقسم (الولايات المتحدة الأمريكية) لكى تصبح (الولايات غير المتحدة الأمريكية)، على حد تعبير المؤرخ الأمريكى «آرثر شليزنجر» وبما يترتب على ذلك من عواقب وعقوبات.

١٦

ولم أتطرق إلى الحديث عن السياسة فى العالم الثالث ، ولا اقتربت من خطابها (أسلوبها) ولا «أفكارها ومصالحها» (غاياتها) - فتلك قصة مُعَقَّدة ، وهى كذلك مُلغَمة!

ملخصها - لكى لا تبدو نهاية الحديث هَرَباً أو تَهَرُّباً - أن السياسة فى العالم الثالث بعموم بدأت ممارسة فعلها فى الزمن الحديث مع تَنَبُّه بلدان هذا العالم الثالث فى بداية القرن العشرين إلى حقوقها فى تقرير مصائرها .

وكانت «غايات» السياسة (فكراً ومصلحة) فى المرحلة السياسية الأولى مُوَجَّهة إلى طلب الاستقلال الوطنى ، والتقدم إلى درجة أو درجات من النمو الاقتصادى والاجتماعى والثقافى يَتَّسِع ويَتَعَمَّق . لكن مشكلة هذه البلدان أو معظمها أن تركيبها الطبقى كان قاصراً أو مُشَوَّهاً ، ثم إن مواريثها الثقافية المشوشة تعارضت دون داع حقيقى مع آمالها فى التقدم ، والنتيجة أن الانطلاقات الأولى التى قادتها حركات ثورية وطنية ذات تَوَجُّهات اجتماعية استنفدت طاقتها مع تَعاقُب الظروف - ثم لم يتبق على الساحات السياسية لمعظم دول العالم الثالث بديل غير سلطة الدولة تقوم عليها بيروقراطيات عائلية أو قبلية - مدنية أو عسكرية .

وهنا فإن الخطاب السياسى (حتى مع الثقة فى حُسن نيته) انحصر ليصبح نوعاً من الإملاء يصدر عن طرف واحد يساعده على الإملاء أنه يسيطر على كل الوسائل ، ثم إنه بحكم الظروف يتحكم أيضاً فى الغايات - وهذا الإملاء فى بعض الأحيان على استعداد لأن يترك غيره يتكلم، لكنه فى النهاية يفعل ما يريد!

ثم حدث أن وسائل السياسة الحديثة التى طغت على «الخطاب السياسى» فى العصر العالمى الجديد - وصلت بالعدوى إلى هذا العالم الثالث فأصابته فنون وتكنولوجيا الوسائل الجديدة بومضة الضوء ، وقضمة الصوت يَتَصَوَّرها رداءً أو غطاءً لكافة المشاكل.

وترتب على ذلك أن «أزمة السياسة» فى العالم الثالث أصبحت أقسى وأشد ضرراً من كل ما تَبَدَّى فى الولايات المتحدة وما أظهره مأزق الانتخابات بين «جور» و«بوش» ، والسبب فى زيادة القسوة والضرر أن «المصالح والأفكار» فى حالة العالم الثالث لم تكن لديها الفرصة لتصنع ذلك الافتراق - وليس الطلاق - بينها وبين «الوسائل» السياسية - وكذلك اختلط الحابل بالنابل كما يقال !

لكن الأمل يبقى فى أنه إذا كانت وسائل السياسة الجديدة قد وصلت إلى العالم الثالث بالعدوى ، فإن محاولة إعادة الاحترام والاعتبار إلى السياسة ، وهى ضرورية الآن وحتمية بعد ما جرى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، قد يكون لها تأثير من العالم الأول يصل إلى العالم الثالث .

لكن المخاوف تسبق الآمال لسوء الحظ لأنه ثبت أن المرض مُعدٍ ، ولم يثبت بعد أن الصحة مُعدية ! ■

أدب المقاومة

من المنفى إلى الانتفاضة

فــــاروق عبد القـــــادر



(١) البـــداية، التــحـــدى والاســــتـــجـــابـــة

قد يصعب أن نتناول الحياة الفكرية للشعب الفلسطيني دون أن نضع في الاعتبار خصوصية تجربته. وأول ما نشير إليه بهذا الصدد هو التشتت الذى أصابه بعد عام ١٩٤٨: جانب بقى في الأرض المحتلة لم يبرحها، وتميزت حياته ونضاله - وبالتالى فكره وإبداعه - بسمات المواجهة اليومية للعدو الصهيونى ومحاولات القمع والتذويب المتلاحقة. وجانب آخر اكتظت به المخيمات وأكواخ الصفيح في غزة والأردن وسوريا ولبنان. يعانى أفراده المرارة، ويعيشون مستوى غير إنسانى من حيث شروط الحياة جميعها. يتململون أحيانًا، ويحلمون بالرجوع أحيانًا، ويتشكل وعيهم حسب وطأة التظلم التي يعيشون في ظلها في كل الأحيان. ثم جانب ثالث أفلح في الانطلاق إلى العالم الخارجي، وشكّل في المجتمعات التى عاش وعمل فيها أقلية لها سلوك النخبة. من بين هؤلاء ظهر أكاديميون وكُتّاب وسياسيون ونقابيون وسواهم.

هذا بالإضافة لأن تجربة النضال الفلسطيني قبل عام ١٩٤٨، وتفرّد هذا الشعب بخصوصية مواجهة غزو استيطاني مسلّح ومنظم ومدعوم من قوى خارجية، ومتواطئ مع عناصر داخلية، قد أسهم في خلخلة أسس المجتمع التقليدى بحيث لم تحدث أحداث عام ١٩٤٨ إلا ووجدت مجتمعًا تحالفت كل العوامل على خلخلة جذوره وتقويض أبنيته ومؤسساته. وحين وقّعت الدول العربية اتفاقيات الهدنة - فيما بين فبراير ويوليو عام ١٩٤٩ - كانت إسرائيل قد أقامت دولتها على أكثر من ثلاثة أرباع أرض فلسطين. وأصبح الفلسطينيون يشكلون جماعات متناثرة، غير متجانسة من حيث التكوين الاجتماعي والمستوى الثقافى والاتجاهات السياسية.

والناظر لمجمل التطور الفكرى سيلحظ وجود مرحلتين متمايزتين: الأولى: من أحداث عام ١٩٤٨ - ما قبلها مباشرة وما بعدها - وتستمر ملامحها العامة حتى منتصف الستينيات على وجه التقريب. والثانية تبدأ من ذلك التاريخ. بعبارة أخرى: إن منتصف الستينيات، الذى شهد بداية انطلاق العمل الفلسطيني المسلّح يجد مقابله في تطور يصيب الفكر الفلسطيني كما يُعبر عنه إبداعه الأدبى. غير أن ملامح هذا التطور ستتحدد أكثر بعد عامين من هذا التاريخ، أعنى بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧.

اليقظة التى شهدتها أقطار المشرق العربى - منذ القرن التاسع عشر - لم تكن بعيدة عن فلسطين بطبيعة الحال. كانت القاهرة وبيروت مركزى هذه اليقظة التى تركت آثارها على النخبة المتعلمة في أقطار المشرق، وكان بين هؤلاء عدد من الفلسطينيين الذين عرفوا الحركات القومية والتيارات الثقافية أثناء دراستهم خارج فلسطين، ثم رجعوا إليها معلمين وتربويين وفنيين، كان من بينهم مؤرخون اهتموا بدراسة تاريخ بلادهم **(عارف العارف ورفيق التميمى)** ومترجمون عكفوا على ترجمة نماذج من الفكر الغربى إلى العربية **(عادل زعيتر)**. ومن تحدى الحركة الصهيونية بوجه خاص تطورت كتابات الفلسطينيين، وخلال فترة الانتداب (١٩٢٠-١٩٤٧) تبلورت ملامح ثقافة قومية فلسطينية، هى ذاتها تيار من التيارات الثقافية السائدة في المشرق العربى بوجه عام.

ويجب أن نشير - إشارة سريعة - إلى أن عاملين قد لعبا دوريهما في تهيئة الوعى بين الفلسطينيين: نظام التعليم الذى نشأ في فترة الانتداب، ثم الجمعيات والنوادى التى كان يتجمع فيها المتعلمون الفلسطينيون، وقد أسهم هذان العاملان في إيقاظ الوعى بين متعلمى فلسطين، وتجلى هذا في مساهمات الطلاب في الهَبّات والانتفاضات التى حدثت في ١٩٢٩ و١٩٣٣ و٣٦-١٩٣٩، وفي التنظيمات المتعددة التى قامت في الأربعينيات لمقاطعة الصناعات اليهودية، ثم محاولات الاستعداد لصراع وشيك ضد الصهيونية في السنوات التالية على الحرب العالمية.

وبطبيعة الحال كانت الكتابات السياسية والفكرية أسبق إلى الظهور من الإبداع الأدبى - أيًا ما كان حظ الأعمال التى تنتمى لهذا اللون الأخير من الإجادة الفنية. كان التركيز على الحكايات الشعبية والقصائد الملحمية والأهازيج. ولعلنا لا نستطيع أن نتحدث عن أعمال أقرب للقصة والرواية قبل سنوات الثلاثينيات. كانت معظم القصص تعرض - إلى جانب أحداث من خلفيات مؤلفيها - أثر الاحتلال الأجنبى وهجرة اليهود، وأثر بيع الأراضى على العائلات الفلسطينية. ولعل عرض بعضها أن يعطينا فكرة عن اهتمامات مؤلفيها، فواحدة من أشهر المجموعات التى عُرفت في فلسطين خلال الأربعينيات هى **«الأخوات الحزينات»** لنجاتى صدقى (القدس ١٩٤٨). وهى تحتوى على ثمانى عشرة قصة، خمس منها تدور حول أحداث فلسطينية، وبقيتها تصور آثار الاحتلال الغربى على الأقطار العربية المختلفة. كان صدقى - وهو مفكر ومؤرخ - يهتم، على نحو خاص، بالجوانب الاجتماعية والسياسية التى أفرزتها الحياة الفلسطينية المتوترة والقلقة في تلك الفترة.

وكان طبيعيًا أن تعكس الرواية أهداف مؤلفيها السياسية المباشرة - وسوف نقتصر فيما يلى، وبغية التحديد، على الإبداع الروائى. ونشير إلى روايتين لكاتبين شملت اهتماماتهما وكتاباتهما مدى أشمل من هذا الشكل الفنى: **«الملاك والسمسار» لمحمد عزة دروزة** (نابلس ١٩٣٤) و**«مذكرات دجاجة» لإسحق موسى الحسينى** (القاهرة ١٩٤٣). الأولى - كما نحدس - تصور قصة عربى من فلسطين وقع في براثن منظمة صهيونية استدرجته إلى بيع أراضيه، كان أميًا في الأربعين، قضى حياته فلاحًا لم يعرف إغراءات المدينة، وتحت تأثير سمسار يهودى قام بأول زيارة لتل أبيب، وقدّمه الرجل إلى فتاة أغرته بإنفاق القليل الذى يملك، ولم تكن غلة أرضه تكفيه للاستمرار في هذه الحياة الجديدة، فقدّم له السمسار قرضًا.. إلى آخر الحكاية المعروفة التى انتهت به إلى التسول والجنون. ورغم أن الموضوع مكرور في كل الآداب تقريبًا، إلا أن المؤلف - وهو واحد من الرعيل الأول للكُتّاب القوميين الفلسطينيين - حرص على أن يضفى على روايته طابعًا محليًا خالصًا، كما حرص على أن يوضّح هدفه الرئيسى حين وصف - في دقة وتفصيل - الطريق الذى قررت القرى الأخرى اتباعه لتوفير المال الضرورى من أجل إنقاذ الأرض التى يتهددها ذات المصير.

من الناحية الأخرى، فإن «مذكرات دجاجة» تنحو منحى رمزيًا لتقديم الواقع من خلال عيني دجاجة تملكها أسرة ريفية، فهي تستطيع أن تتحرك في كل مكان، الحياة رخية والطعام وافر، وتصف الدجاجة حياة مالكيها، واستقلالهم بأرضهم، وسعادتهم بعملهم واجتماعهم، لكنها، يومًا، تجد أسلاكًا تمتد أمامها، وقطعة أرض قد بيعت، وتلتها أخرى ثم أخرى، وتُباع ـ هي بدورها ـ لتاجر في المدينة، يضعها في قفص مع أخريات، هاته الأخريات تتحدثن لغة لا تفهمها، لكنها بعد فترة تدرك أن ثمة خطة وضعتها الدجاجات الجديدات للتخلص من القديمات والفوز بالطعام كله. وتنتهي رواية الحسيني ودجاجته في تفكير عميق لتجد أفضل الطرق لوضع خطة محددة، لكنها تفتقد اليقين في المستقبل، ولا تعرف ما يخبئه لها الغد.

ولعل الروائي الذي تقدم خطوة نحو تصوير الواقع من خلال العلاقات الاجتماعية والعاطفية هو عبد الحليم عباس في روايته «فتاة من فلسطين» (عمان ١٩٤٩)، وهي تتناول العلاقات العربية ـ اليهودية، والاشتباكات التي دارت بين الجانبين قبل نهاية الانتداب ـ وقد شارك الكاتب في أحداث ١٩٤٨ ـ ويمتد زمنها من أوائل عام ١٩٤٧، حتى توقيع اتفاقيات الهدنة مع إسرائيل، وقد بنى عقدتها على علاقة بين شاب وفتاة في قرية ستصبح على خط الحدود بين الأردن والأرض المحتلة، وتتوالى أحداثها أثناء اشتباكات السنة الأخيرة، ثم أثناء حرب الجيوش العربية وإسرائيل، وبداية تدفق اللاجئين في الشهور الأولى بعد وقف إطلاق النار، ويشارك البطل في اللجنة السرية التي تتولى تهريب السلاح استعدادًا لجولة مقبلة من الصراع، وتنتهي باستشهاده على أرض قريته.

هكذا تقف رواية عبد الحليم عباس قبل وبعد ما حدث في عام ١٩٤٨، وهو يعتبر أكثر تقدمًا من **سابقيْه** اللذين أشرنا إليهما، سواء من حيث فنية روايته أو اختيار زمن أحداثها، وهي كذلك تكشف عن الاتجاهات السائدة بين الفلسطينيين وحماستهم لاستعادة أرضهم فور ضياعها. ويحدد الكاتب هدفه بوضوح في حديث البطل إلى شباب قريته عن ضرورة استقلال الدول العربية وحتمية الوحدة بينهما، ويأمل أن توافق الحكومات العربية على تكوين قيادة عسكرية موحدة للحرب القادمة، ويرى أن تكوين هذه القيادة هو ما سيحمي شخصية بلده من الضياع، وهو الخطوة العملية الأولى قبل الوحدة الكاملة.

فهل كان استشهاد البطل على أرض قريته وهو ينقل السلاح إشارة إلى طريق جديد، أم إشارة إلى ضرورة اعتماد الفلسطينيين على أنفسهم قبل غيرهم؟ هذا ما يتركه الروائي لقارئه كي يجيب عنه.

غير أن واحدة من أهم روايات هذه الفترة هي رواية **جبرا إبراهيم جبرا «صراخ في ليل طويل»** ـ سيرد الكثير عن جبرا فيما يلي ـ يذكر الكاتب أنه كتبها في عام ١٩٤٧، لكن طبعتها الأولى لم تصدر إلا في عام ١٩٥٥. والحقيقة أن هذه الرواية ـ بموضوعها وفنيتها المتقدمة على السواء ـ تُلقي بعض الشكوك حول تاريخ كتابتها، وقد داخلت هذه الشكوك ناقدًا متحفظًا مثل الدكتور شكري عياد، فألحقها بروايات الخمسينيات، ثم عقّب: «وينبغي ألا نعد ذلك غريبًا، فكثير من الأعمال المتقدمة يضطر أصحابها إلى الانتظار حتى يتهيأ الجو العام لتقبلها، و«صراخ في ليل طويل» واحد من هذه الأعمال..». («الرواية العربية المعاصرة وأزمة الضمير العربي، مجلة «عالم الفكر» الكويتية، أكتوبر ١٩٧٣).

«أمين» بطل الرواية واحد من جماعة من المثقفين الساخطين، وكثير من صفحات الرواية ـ التي لا تبلغ المائة ـ تشغلها الحوارات التي لا تنتهي بين أولئك المثقفين المحبطين، يقول لهم واحد منهم فيُحسن وصفهم: «إنكم تتغاضون عن كل ما يعجب به الإنسان، ولا تتنبهون إلا إلى العيب والاعوجاج، ثم تزيدون الطين بلة بمنطقكم المعكوس وبرفضكم القيم الصحيحة.. لا ريب في أن أذهانكم مسرح للصراصير..».

«أمين» كان فقيرًا، لكنه استطاع ـ عن طريق الكتابة ـ أن ينتقل لطبقة أخرى، وتزوج ـ عن حب ـ ابنة تاجر ثري، وكانت تجربتهما معًا عشقًا طاغيًا للجسد والحواس، لكنه عاد يومًا فوجدها قد هجرته دون كلمة واحدة، وفي المدينة ـ عن طريق كُتُبه ـ عرف «عنايت هانم» وأختها «ركزان»، وهما الباقيتان على قيد الحياة من

مذكرات دجاجة» تنحو منحى رمزيًا لتقديم الواقع من خلال عيني دجاجة تملكها أسرة ريفية، فهي تستطيع أن تتحرك في كل مكان، الحياة رخية والطعام وافر، وتصف الدجاجة حياة مالكيها، واستقلالهم بأرضهم، وسعادتهم بعملهم واجتماعهم، لكنها، يومًا، تجد أسلاكًا تمتد أمامها، وقطعة أرض قد بيعت، وتلتها أخرى ثم أخرى، وتباع ـ هي بدورها ـ لتاجر في المدينة، يضعها في قفص مع أخريات

أسرة غنية قديمة في المدينة. أعجبت الأولى، الكبرى، بمقدرته على بعث التاريخ في رواياته، فدَعَتْه لكتابة تاريخ أسرتها، وانتزاع هذا التاريخ من قبضة العدم، أما «ركزان» فهي لا تشارك أختها هذه الحياة المترهبة في الماضي، لكنها تشارك أسلافها ما في دمائهم من شهوة فائرة. وتموت عنايت فجأة فتستدعيه «ركزان» لتنهي إليه أنها قررت التوقف عن المضي في هذا الكتاب، ثم تعرض عليه مشروعها: أن تحرق الأوراق، ويتزوجا، وتبيع الأرض والبيت، وتقيم بيتًا جديدًا في حي جديد، ويعيشا معًا في الحاضر.

يرجئ «أمين» إجابة عرض «ركزان» ويمهلها إلى الصباح، لكنه يتنبه فجأة إلى أنه ظل عامين كاملين ـ منذ هجرته امرأته ـ وهو يعيش الماضي: ماضيه وماضي المدينة معًا، ويحلم بجسد امرأته كما اعتاد أن يحلم، لكن ما يحدث هذه المرة هو أنه يصحو من حلمه على جسد امرأته بالفعل، لقد عادت إليه نادمة مستغفرة، لكنه يطردها حين يذكر خيانتها، ثم هو يبصر من النافذة دخانًا ولهبًا: إن «ركزان» تحرق ماضيها، وينطلق إلى الخارج فيرى «ركزان» قادمة إليه بسيارتها في سرعة رهيبة، وتدعوه للركوب إلى جانبها لكنه يعتذر، فتبتعد، وتبتعد امرأته أيضًا، ويظل يسير على مهل في الطريق الخالي والنهار الجديد..

«غير أن الطريق لم تظل خالية طويلاً، ما هي إلا فترة قصيرة حتى كانت شوارع المدينة تمتد وتتشعب أمامي، تملؤها جموع الناس، ولم يكن من العسير عليَّ ـ حين حدَّقت في عيونهم ـ أن أدرك أن الكثيرين منهم كانوا هائمين على وجوههم، كما كنت هائمًا لسنتين عديدتين، يبحثون عن نهار لليل طويل وبداية لحياة جديدة..».

هذه «صراخ في ليل طويل». ولعل السؤال الذي يعنينا هو: أي ماضٍ كان البطل يود التخلص منه؟ لقد صحبناه طويلاً في أفكاره وذكرياته ومشاعره وحكايات طفولته، ورأيناه يقضي ساعات الليل وحيدًا يقرأ حتى تكلّ عيناه، ثم رأيناه وسط هذه الحفنة من المثقفين الضائعين، وعرفنا عشقه لجسد امرأته، لكننا لم نعرف شيئًا عن أسباب فرارها، ولم نر ما يكتب أو نعرف عنه شيئًا، بل رأينا له وجهًا آخر هو أوضح الوجوه: وجه الذي لا يرى في المدينة غير العفن والنتن والأزقة التي تملؤها الأقذار والقمامة، وهو يقول بوضوح عن نفسه وعن المدينة:

«كنت أعرف المدينة من الداخل والخارج، بل إنني قبل أن أتخلص من شبكة الفقر الذي عانته عائلتي منذ قرون، كنت قد اشتركت في عدد كبير من معارك المدينة، وشممتُ جزءًا سخيًا من نتنها..».

إنما لهذا يريد البطل أن ينتزع ماضيه، كل ماضيه، وأن يتجه غربًا، إلى حيث يخلع عنه أوحال المدينة، ويبدأ حياة جديدة في ضوء النهار.

رواية جبرا ـ سواء كتبها بالفعل في ١٩٤٧/٤٦ أو في فترة لاحقة وشاء إسقاطها على تلك الفترة من حياته ـ نموذج بالغ الدلالة لإبداع تلك الفئة من الفلسطينيين التي انطلقت إلى العالم الواسع، وحاولت الاندماج في مجتمعات أخرى، وشكّلت نخبة ذات سلوك متميز، يبدو إبداعها ـ على وجه العموم ـ حنينًا باهتًا لماضٍ انتهى ـ عندهم ـ لغير رجعة، وتبريرًا لهروبهم والتماسهم سبل الخلاص الفردي. إنها افتتاحية لحن الخروج والتخلي، وربما رأينا في أعماله التالية مصداقًا لهذا الحكم.

ولعل خير سبيل لمتابعة الرواية الفلسطينية وتطورها، اتساقًا مع تحولات الواقع الفلسطيني والعربي هو أن نلقي نظرات ـ سريعة وموجزة ـ إلى إبداع «الثلاثة الكبار» فيها: **غسان كنفاني** (٣٦ـ١٩٧٢) **وإميل حبيبي** (٢١ـ١٩٩٦) ثم **جبرا إبراهيم جبرا** (٢٠ـ١٩٩٤).

وقبل أن ننظر في إبداعهم يحسن أن نثبت ملاحظة خاصة بالاختلاف بينهم: إنهم يمثلون ثلاثة مواقف متباينة؛ خرج غسان صغيرًا حين سقطت يافا، إلى دمشق ثم الكويت حتى استقر في بيروت، وقد غاص غسان في العمل السياسي والحزبي، من تنظيم «القوميين العرب» إلى تنظيم «الجبهة الشعبية» قضى حياته القصيرة، ولعل هذا النشاط بالذات هو ما جعله هدفًا لمحاولات الاغتيال من جانب إسرائيل، والتي انتهت بنسفه وتناثره أشلاءً في ٨ يوليو ١٩٧٢. إميل حبيبي كذلك غاص في العمل السياسي والحزبي، ولكن من موقع مختلف، فقد أصرّ على البقاء في الأرض المحتلة، ومن ثم ناضل في الحزب الشيوعي الفلسطيني حتى اختلف مع قادته في ١٩٨٩، فاستقال من لجنته المركزية، وقد نشر وقائع هذا الخلاف ووثائقه في كتاب يحمل عنوان **«عالم بلا أقفاص»** في ١٩٩٣. أما ثالثهم فقد اختلفت حياته عنهما كل الاختلاف: منذ استقر في بغداد وحصل على الجنسية العراقية لم يعرف له أحد نشاطًا سياسيًا أو حزبيًا، فقد انصرف إلى الكتابة والترجمة وشتى وجوه العمل الثقافي، وظل ـ حتى رحل في ١٩٩٤ ـ وكثيرون من قرائه يحسبونه عراقيًا أصيلاً. لكنه بقي ـ في أعماله الإبداعية بوجه خاص، كما سنرى ـ يحمل القدس في قلبه حتى الرمق الأخير.

(٢) غسان كنفاني، من صيغة اللاجئ إلى صيغة المقاتل

يكاد غسان أن يكون أهم الكُتاب الذين عبروا في إبداعهم عن تطور الشخصية الفلسطينية من النكبة حتى حتمية الثورة المسلحة، وأن تبدو في إبداعه تلك النقاط المحورية التي ترافق تطور فكر الفلسطينيين عبر تلك المرحلة الممتدة من ١٩٤٨ حتى مصرعه ـ الذي يضفي على مجمل إبداعه دلالات لا يمكن إغفالها ـ في ١٩٧٢.

وحياة غسان نموذجية لفلسطيني من هذا الجيل: ولد في عكا في سنة ١٩٣٦، وكان أبوه محاميًا، وبعد سنة ١٩٤٨ هاجرت الأسرة إلى دمشق، وعمل غسان عاملاً في مطبعة وهو يسعى لإكمال دراسته حتى حصل على الثانوية العامة والتحق بكلية الآداب، لكنه تركها وسافر ليعمل مدرسًا في الكويت (٥٦ ـ ١٩٦٠)، وهناك عرف تنظيم «القوميين العرب» فانضم إليه، واختار أن يعمل محررًا بجريدته «الحرية» منذ أول صدورها في بيروت، ومن هذا التاريخ استقر ببيروت وبالعمل الصحفي والكتابة حتى نهاية حياته. كان غسان يكتب دائمًا ـ بالإضافة لمهام العمل السياسي والتنظيمي، فكتب القصة القصيرة (ثلاث مجموعات مكتملة: «موت سرير رقم (١٢)، ١٩٦١»، و«أرض البرتقال الحزين، ١٩٦٣»، و«عالم ليس لنا، ١٩٦٥» بالإضافة لأعمال قصصية أخرى حوتها مجموعة أعماله الكاملة). والرواية (ثلاث روايات: «رجال في الشمس، ١٩٦٢»، «ما تبقى لكم، ١٩٦٦»، «عائد إلى حيفا، ١٩٧١»،

كما وجد بين أوراقه عملان روائيان لم يكتملا: «الأعمى والأطرش» و«العاشق») وعملين آخرين يمكن الاختلاف حول نسبتهما لأي من الشكلين: «عن الرجال والبنادق، ١٩٦٨» و«أم سعد، ١٩٦٩» ومسرحيتين: «الباب، ١٩٦٤» و«القبعة والنبي، ١٩٦٧»، وثلاثة كتب: «أدب المقاومة في فلسطين المحتلة، ١٩٦٦»، «في الأدب الصهيوني، ١٩٦٧»، «الأدب الفلسطيني المقاوم ٤٨-٦٨، ١٩٦٩». وكمًّا هائلاً من المقالات السياسية والأدبية، باسمه الصريح، أو بالاسم الذي كان يكتب به أحيانًا: فارس فارس.

وليست غزارة ما قدم غسان في حياته القصيرة فقط هي مبعث الاهتمام، فهناك أيضًا المستوى الفني الذي بلغه كثير من هذه الأعمال، والذي لم يكن يقل عن أفضل النماذج في الأدب العربي، بل إنني أعتقد أن الإحكام الفني الذي توفر لعمل مثل «ما تبقى لكم» كان يتجاوز كثيرًا من نماذج الرواية العربية وقت صدورها. هذه الأسباب الثلاثة إذن: وفرة إنتاج غسان، المرتبط بقدرته على التعبير عن الشخصية الفلسطينية وتطورها فكرًا وشعورًا، والذي يقدمه في أشكال فنية ناضجة هي ما تمنحه هذه القامة السامقة في الإبداع الفلسطيني.

وبهدف التحديد فقط، سنقتصر هنا على أعماله الروائية الثلاثة: **«في سوق البصرة»، «العبق برائحة التمور «و«السلال»** التقت خيوط مصائر هؤلاء: «أبو الخيزران»: سائق ماهر، كان محاربًا في ٤٨، واشتهر بأنه خير من يصلح العربات المعطلة ويقودها. خسر أبو الخيزران الحرب وخسر رجولته: انفجرت قنبلة بين ساقيه أفقدته رجولته، هاجر إلى الكويت حيث يعمل سائقًا ومُهربًا، ويتحدث لنفسه من حين لآخر: «ها قد ضاعت فلسطين وضاعت رجولتك، صرفت حياتك مغامرًا وهاأنت أعجز من أن تنام إلى جوار امرأة.. ليكسر الفخار بعضه فلست أهتم الآن: إلا بمزيد من النقود». التقط ثلاثة فلسطينيين يريدون عبور الصحراء إلى الكويت، اتفق معهم على أن يُهربهم في سيارته مقابل أجر على أن يختبئوا في صهريج المياه عند نقاط التفتيش. «أبو قيس» كان أول هؤلاء: عجوز اختلطت في رأسه الشعرات البيض بالسود، كانت له أمنية: أن يبني سقفًا يعيش تحته، وحين قالت له أم قيس يومًا: لم لا ترحل مع الراحلين؟ نمت أمنيته فطمع في أن يملك عرق زيتون أو عرقين ويعلم «قيسًا» في المدرسة. وكان «أسعد» هو الثاني: جاء من الأردن إلى العراق عبر الصحراء، وهو يريد الآن أن يقطع صحراء أخرى، وراءه معتقل «الجفر» وقهر النظام والبطالة والحياة القاسية، ولعينيه يتخايل حلم الكويت «حيث يستطيع المرء أن يجمع نقودًا في مثل لمح البصر...». الثالث: كان «مروان»: ترك وراءه بقايا أسرة ممزقة، تخلى الأب فيها عن أمه وإخوته الأربعة وتزوج بامرأة شوهاء، لأنها تملك سقفًا يمكن أن يؤويه، كان الأخ الأكبر يرسل للأسرة ما يقيم أودها، لكنه انقطع، وأرسل إلى مروان يقول له: اترك هذه المدرسة السخيفة التي لا تعلمك شيئًا، وغُص في المقلاة مع من غاص.

هكذا.. «انطلقت السيارة الضخمة تشق الطريق بهم وبأحلامهم وعائلاتهم ومطامحهم وآمالهم وبؤسهم ويأسهم وضعفهم وقُوتهم وماضيهم ومستقبلهم، كما لو أنها آخذة في نطح باب جبار لقَدَر جديد مجهول...». لكن كويتيًا عابثًا يصر على أن يستبقي «أبا الخيزران» في آخر نقطة من نقاط التفتيش، فيختنق الرجال حيث هم داخل الصهريج الملتهب. حزن أبو الخيزران لحظة على رفاق الطريق، لكن الحزن لم يُنْسه واجبه الأخير نحوهم، فجردهم من ساعاتهم ونقودهم القليلة قبل أن يلقي جثثهم على أكوام القمامة في جنة الكويت.

نعم، إن هؤلاء الرجال الذين يختنقون داخل صهريج جاف تحت وطأة شمس لا ترحم وسط صحراء تلتهب بالقيظ والغبار، يقدمون بموتهم معادلاً له ألق هذه الشمس الساخنة وحدتها. نعم. هذه مأساتهم: وراءهم قوى القَهر والتشتيت والإذلال، وأمامهم تتخايل أشباح الخلاص. والنتيجة: أن تحظى جثثهم بمزبلة الكويت!



حياة كل فلسطيني حساب للخسائر والبقايا، فليس له من العالم سوى شيء صغير: فتات أمنية أو بقايا حلم أو كهف وهمي يُعده ليلوذ به إنْ أتى يوم عسير. وحين سقطت يافا محترقة في أيدي اليهود غادرها مَن بقي من أهلها في قوارب صغيرة، وانتهى المطاف بحامد وأخته الكبيرة «مريم» إلى أكواخ الصفيح في أطراف غزة، بعد أن تركا الأب ذكرى مضرجة بالدم في يافا، وضاعت الأم، ثم عرفا أنها تعيش على الطرف الآخر من الصحراء: في الأردن. وأصبح حامد شابًا في عنفوانه، ومريم مازالت جميلة وإن بدأت خطاها تدب نحو الذبول. وطوال هذه السنوات لم ينقطع حامد عن التفكير في لقاء أمه، ظل هذا اللقاء هو الكهف الذي يُعده ليلوذ به حين تأتي الفاجعة.

«أتت الفاجعة. حبلت مريم من زكريا»، وأرغم حامد على تزويجها له وهو يعلم، يقينًا، أنه خائن يرشد اليهود عن الفدائيين، ثم انطلق نحو الصحراء - بوحشتها الغامضة وصمتها المليء بالمجهول والترقب - وحيدًا أعزل، ليلقى أمه: كل ما تبقى له. في حساب الخسائر: ماذا بقي لحامد؟ حين سقطت يافا كان صغيرًا فلم يحمل السلاح فيمن حمل، وعاش أعوام شبابه لا يعرف النساء، ولا يسمح لنفسه بالتفكير في الزواج إلا بعد أن يجمع شمل العائلة المتناثرة، لهذا لخَّص موقفه لمريم في جملة واحدة: «لم يبق لي شيء.. انت ملطخة وأنا مخدوع...». فلَيْت مريم منحت نفسها لرجل آخر، ولكن زكريا! إنه رمز عار حامد وذله. جاء إليه «سالم» يومًا وقال: «اسمع يا حامد.. إنْ كنت تريد أن تنتقم فتعال معنا.. لدينا كل شيء...». لكنه قبل أن يفكر كان سالم قد قُتل.

يا للذكرى! صف الرجال متماسك، صامت لا يجيب حين كان اليهود يسألون عن سالم، وقبل أن يعرف أحد ما سيحدث كان زكريا خائنًا بالفعل: أنا أدلكم على سالم. إلا أن «سالم» - في تلك اللحظات من الصفاء التي تسبق الموت - لم يشأ أن يجعل من زكريا خائنًا أكثر مما هو، فتقدم ثلاث خطوات وسلَّم نفسه. ومن وراء الجدار جاء صوت طلقة واحدة، فانحنى زكريا كأنها أطلقت عليه من العيون المتوجهة نحوه في صمت.. «هذا هو زكريا يامريم. صهري الذي قبلتُ أن أزوجك له بمهر قدره عشرة جنيهات، كله مؤجل. كل شيء مؤجل. ليس في حساب البقايا إلا الفتات».

لكن اللحظة الحقيقية تأتي كَقَدر: في ظلمة الصحراء ووحشتها يلتقي حامد بيهودي وحيد ابتعد عن معسكره، يتلاحمان في الصمت والظلام، ويتمكن حامد من نزع سلاح عدوه، ويبقى في مواجهته ينتظران معًا عدوهما المشترك: ضوء النهار. أي لقاء رائع ومروِّع بين العدوين!. هنا فقط يوضع حساب البقايا في ميزان جديد، ويروح حامد يتحدث لنفسه في مواجهة العدو: «لا يمكن أن يكون الوقت ضدنا، نحن الاثنين، بصورة متساوية، فقد يكونون أقرب إليك مما أتصور، لكنك أقرب إليَّ مما يتصورون، المسافة ليست إلا زمنًا، وهي في صالحي. وهناك قضية أخرى لها أهميتها: أن تُقتل أنت هنا، على بعد خطوات من معسكرك ربما هو عمل أخطر من أن أُقتل أنا: مجرد عدو اقتحم عليكم قلعتكم، وكان وحده تمامًا بلا سلاح، الأمور هنا نسبية وهي لصالحي أيضًا، وهذا شيء غريب، فقبل دقائق فقط كان كل شيء في هذا الكون ضدي تمامًا، وكنتُ أقف هنا بالضبط: رقعة محاطة بالخسائر من كل جانب، فتعال أقل لك شيئًا مهمًا: ليس لديَّ ما أخسره الآن، ولذلك فاتت عليك فرصة أن تجعلني ربحًا...».

وفي غزة ترتفع الأزمة بين مريم وزكريا لقمة دامية: هو يريد أن يتخلص من الجنين، وهي متمسكة به تمسكها بالقليل الذي بقي لها، فيندفعان إلى عراك عنيف. وكأنما على موعد خفي: تمتد يد حامد بالنصل إلى جسد اليهودي، وتمتد يد مريم بالنصل إلى جسد زكريا. وتشرق شمس يوم جديد.

بعد فتح الحدود في أعقاب حرب ١٩٦٧ يعود «سعيد» إلى حيفا التي غادرها قبل عشرين عامًا، وهو يقود سيارته في شوارعها تندفع الذكرى: ٢١ نيسان ١٩٤٨: جاء القصف من الكرمل وانصبَّت القذائف فوق الحي العربي واجتاح الرعب المدينة. حاول سعيد أن يرجع لبيته لكنه وجد طريقًا وحيدًا مفتوحًا أمام حركة الجماهير هو الطريق المفضي إلى الميناء. «كان الناس يتدفقون من الشوارع الفرعية نحو ذلك الشارع الرئيسي المتجه نحو الميناء،

لعل خير سبيل لمتابعة الرواية الفلسطينية وتطورها،
اتساقًا مع تحولات الواقع الفلسطيني والعربي هو أن نلقى نظرات ـ سريعة وموجزة ـ إلى إبداع
«الثلاثة الكبار» فيها: غسان كنفاني (١٩٣٦ـ١٩٧٢) واميل حبيبي (١٩٢١ـ١٩٩٦) ثم جبرا إبراهيم جبرا (١٩٢٠ـ١٩٩٤)

رجالاً ونساءً وأطفالاً يحملون أشياء صغيرة أو لا يحملون، يبكون أو يسبحون داخل ذلك الذهول الصارخ بصمت كسيح...»، ولم يستطع سعيد أن يبلغ بيته، وفي ذات الوقت استبد الفزع بزوجته الصغيرة فنزلت للبحث عنه، والتقى الاثنان في الميناء، تاركين وراءهما طفلهما الصغير «خلدون» في شهره الخامس، وغابت حيفا وراء غبش المساء وغبش الدموع.

ولم ينطق أحدهما الاسم بعدها أبدًا. ظل همسة ممزقة على الشفاه الجافة. والآن استبدت بهما الرغبة في البحث عنه. ماذا كانا يتوقعان بعد أن تركا وراءهما طفلاً في شهره الخامس؟

بعد أن ترك سعيد منزله جاء إليه مهاجر بولوني هو «افرات» وزوجته «ميريام». كان الرجل يرى في فلسطين مجرد مسرح ملائم لأسطورة قديمة، أما المرأة فقد فقدت أباها وأخاها أيام الاضطهاد النازي، وكان أول ما رأته في فلسطين جنديين يهوديين يلقيان بطفل عربي ميت إلى شاحنة، وأصرت المرأة على الرجوع لولا أن مُنحت بيتًا مستقلاً في حيفا، وطفلاً في شهره الخامس.

هكذا أصبح خلدون هو «دوف». وحين تلتقي الأم اليهودية بالأبوين يتفقون على أن يتركوا لدوف أن يقرر ما يشاء، فهو الآن شاب في العشرين. يقول سعيد لامرأته: «أي قرار يا امرأة؟ لقد علموه عشرين سنة كيف يكون، يومًا بعد يوم، وساعة بعد ساعة، مع الأكل والشرب والفراش. لقد سرقوه وانتهى الأمر. كان علينا ألا نترك شيئًا: خلدون والمنزل وحيفا...».

ويأتي «دوف» في بزته العسكرية ليقول إنه لا يعرف لنفسه أمًا غير ميريام، أو أبًا غير افرات، ويتساءل: كيف يستطيع الأب والأم أن يتركا رضيعهما ويهربا، وكيف يستطيع من هو ليس أباه ومن هي ليست أمه أن يربياه عشرين سنة. ثم يلقي في وجه سعيد باتهاماته: «كان عليكم ألا تخرجوا من حيفا، وإذا لم يكن ذلك ممكنًا فقد كان عليكم، بأي ثمن، ألا تتركوا طفلاً رضيعًا في السرير، وإذا كان هذا أيضًا مستحيلاً فقد كان عليكم ألا تكفوا عن محاولة العودة. أتقولون إن ذلك أيضًا كان مستحيلاً؟ لقد مضت عشرون سنة يا سيدي، عشرون سنة، ماذا فعلت خلالها كي تسترد ابنك؟ لو كُنت مكانك لحملت السلاح.. هل تقول إنك أمضيت عشرين سنة في البكاء؟ لكن دموع العالم كلها لا تستطيع أن تحمل زورقًا صغيرًا يتسع لأبوين يبحثان عن طفلهما المفقود.. أهذا سلاحك التافه المغلول؟...».

جبناء؟ نعم. هذا صحيح، ولا يجدي إنكاره. لكن.. هل يبرر هذا شيئًا؟ لو كان كذلك لكان كل ما فعله النازيون صوابًا. يقول سعيد لدوف: «متى تكُفون عن اعتبار ضعف الآخرين وأخطائهم مجيرة لحساب ميزاتكم؟ مرة تقولون إن أخطاءنا تبرر أخطاءكم، ومرة تقولون إن الظُلم لا يُصحح بظلم آخر. تستخدمون المنطق الأول لتبرير وجودكم هنا، وتستخدمون المنطق الثاني لتتجنبوا العقاب الذي تستحقونه.. وأنت.. أتعتقد أننا سنظل نخطئ؟ وإذا كففنا ذات يوم عن الخطأ.. فما الذي يتبقى لديك؟...».

كانت ذكرياتهما عن خلدون قبضة ثلج ذابت تحت شمس حزيران وفي طريق العودة بدت الأشياء التي يذكرها سعيد أقل أهمية. إنه هو الذي فاخر «دوف» بأبوته لابنه «خالد»، قد حال بينه وبين الانضمام للفدائيين رغم أن هذا هو الشرف الوحيد الباقي. لكم يتمنى أن يرجع فيجد خالدًا قد ذهب. سأل سعيد نفسه: ما هو الوطن؟، وأجاب: إنني أفتش عن فلسطين الحقيقية التي هي أكثر من ذاكرة. إن «خالد» لا يعرف عن فلسطين من الذكريات مثل ما نعرف، لكنها بالنسبة له تستحق أن يحمل السلاح ويموت في سبيلها.. «لقد أخطأنا حين اعتبرنا أن الوطن هو الماضي فقط، أما خالد فالوطن عنده هو المستقبل. وهكذا أراد خالد أن يحمل السلاح، وعشرات الألوف مثل خالد لا تستوقفهم الدموع المفلولة لرجال يبحثون في أغوار هزائمهم عن حطام الدروع وتفل الزهور، لذلك هم يصححون أخطاءنا وأخطاء العالم كله...».

تلك رحلة غسان مع الرواية. لنرجئ ملاحظاتنا حتى نعرض للروائيين الآخرين.

(٢) إميل حبيبي: طرقات على جدران الزنزانة الإسرائيلية

عاش إميل حبيبي حياة طويلة ممتلئة، كان ـ كما سبق أن وصفتُه ـ رجلاً تمشي بين يديه العواصف. وُلد في حيفا في عام ١٩٢١، وأتمّ دراسته الثانوية فيها وفي عكا، واشتغل عامل بناء زمنًا، ثم انتقل للعمل مذيعًا بإذاعة القدس، واستقال منها ليعمل موظفًا في معسكرات جيش الانتداب، ثم محررًا في جريدة «الاتحاد»، وأصدر مجلة اسمها «المهماز» في حيفا في سنة ١٩٤٦، وقد كان واحدًا من مؤسسي «الحزب الشيوعي الفلسطيني» في سنة ١٩٤١، وناضل نضالاً متصلاً ضد الانتداب البريطاني، ثم ضد ممارسات الدولة الإسرائيلية بعد قيامها، واختاره الحزب كي يمثله في «الكنيست» مع بقية أعضائه من الشيوعيين، وبقي عضوًا به حتى عام ١٩٧٢ حين قدم استقالته ليتفرغ للكتابة، وفي عام ١٩٩٠ أهداه ياسر عرفات «وسام القدس»، أرفع وسام فلسطيني، وفي عام ١٩٩٢ منحته إسرائيل «جائزة الإبداع» فثارت حوله الزوابع من جديد، وارتفعت الأصوات تطالبه برفضها، لكنه بقي على موقفه فقبل الجائزة، ثم أعلن تبرعه بقيمتها المادية (حوالي ثمانية آلاف دولار) لجمعية «المقاصد الإسلامية ـ هو المسيحي ـ التي تتولى علاج مصابي وجرحى الانتفاضة. وفي العام الأخير من حياته انشغل بإصدار مجلة أدبية أسماها «مشارف» (صدر عددها الأول في أغسطس ١٩٩٥). رحل إميل في مايو عام ١٩٩٦، وأوصى أن تُكتب على قبره هذه الكلمات: «باق في حيفا».

ولا شك عندي في أن ما حدث في عام ١٩٦٧ كان الدافع الأول وراء اتجاه إميل حبيبي نحو الكتابة الأدبية: ها قد هُزمت الجيوش العربية مرة أخرى، والأرض الضائعة تتسع حدودها إلى الغرب والشمال والجنوب، وفتحت الحدود بين الأرض التي ضاعت أخيرًا وتلك التي ضاعت قبل عشرين سنة، ولم تعد «بوابة مندلبوم» ـ رمز المنفى القديم ـ قائمة. فُتحت الحدود من الجهة الأخرى الخاطئة. في هذا المناخ بدأ إميل كتابة عمله الأول «**سداسية الأيام الستة**». (جاءت الإشارة الأولى لأدب إميل على قلم غسان كنفاني، في أحد هوامش كتابه «الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال» وردت إشارة إلى عمل أدبي جديد بدأ كاتب مجهول اسمه «أبو سلام» نشره في مجلة «الجديد» التي تصدر في حيفا. وعلّق غسان على هذا العمل: «مما لا شك فيه أن وراء هذه السداسية ـ التي يمكن ببساطة اعتبارها نموذجًا للقصة المقاومة ـ موهبة ممتازة، وهي تشكّل أبرز علامة في العمل النثري العربي داخل الأرض المحتلة حتى الآن...»). كان إميل في السابعة والأربعين حين نُشر عمله الأول، بعده تتابعت الأعمال: «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل، ١٩٧٤»، «لكع بن لكع، رواية مسرحية، ١٩٨٠»، ثم «أخطية، ١٩٨٥»، وأخيرًا «خرافية سرايا بنت الغول، ١٩٩١».

تلك الأعمال القليلة جعلت صاحبها أحد أهم المبدعين العرب. ولحُسن قراءة إميل حبيبي وفهمه يجب أن نضع في اعتبارنا دائمًا أنه يكتب من داخل الزنزانة الإسرائيلية، وهو، من ثم، يفتقد القدر الكافي من الحرية ليقول ـ مباشرة ـ ما يريد، وعليه أن يلجأ إلى الرمز والكناية والإيماءة والإشارة من بعيد. انظر لأجمل لوحات السداسية، عندي، وهي اللوحة الثالثة «أم الروبابيكيا»، ملكة وادي حيفا غير المتوجة، رفضت الخروج الأول مع زوجها وابنها، وظلت عشرين عامًا مع الأشياء التي تركها أصحابها ورحلوا، لكن أحدًا من هؤلاء الذين عادوا لم يسألها شيئًا، فهم لا يدرون أنها احتفظت لهم بكنوزهم. وهي تصف أولئك العائدين ـ بعد أن فتحت الحدود ـ فتُحسن وصفهم.. «يعبرون أزقتنا في صمت، ويتطلعون نحو الشرفات والنوافذ في صمت، وبعضهم يطرق الأبواب، ويسأل في أدب أن يدخل، فيلقي نظرة ثم يمضي في صمت، فقد كان هذا بيته.. (..) وبعضهم لا يطرق الأبواب، بل يجول بعينيه باحثًا عن صاحب سحنة سمراء عابر يستوقفه فيسائله: هل كان يقوم هنا بيت من حجارة مُكحلة؟. فإما أن يقف عابر سبيل، صاحب السحنة السمراء ويستذكر، ويتذكر، وإما أن يقول: لقد وُلدت بعدها يا عمّاه...». وسرعان ما سيوقن هؤلاء جميعًا ـ مثلما أيقن بطل «عائد إلى حيفا» ـ أن ذكرياتهم حفنات ثلج ذابت في لهب حزيران، وأن الوطن ليس الماضي، لكنه المستقبل.



وما أكثر ما كُتب عن «**أبي النحس المتشائل**» حتى كاد أن يصبح أشهر من صاحبه وخالقه! في تلك الرواية الفذة لم يسلك إميل أيًا من السبل المطروقة في الرواية العربية أو العالمية، بل أسّس إبداعًا جديدًا يقوم على دعائم راسخة من استلهام التراث الفلسطيني والعربي، وحُسن استخدام اللغة، والجرأة في التعامل معها، والاستعانة بالأمثال والحكايات، ثم اللجوء إلى السخرية أو الفكاهة السوداء لو صح التعبير. وجوهرها هو وصول «سعيد» ـ ومن قبله صاحبه وخالقه ـ إلى حتمية صيغة الفداء والمقاومة المسلحة. هو في «الكتاب الأول» باحث عن «التكيف»، ملتمس للأمن والأمان، مستعد لتقديم كل التنازلات التي تطلبها منه الدولة العنصرية الباطشة. ثم يقف ـ في نهاية

«الكتاب الثانى» ـ ممزقًا فى ازدواجيته اللعينة تلك، وقد حمل ابنه ـ الذى أسماه «ولاء» إمعانًا فى البحث عن السلامة ـ السلاح ضد الدولة ولاذ بكهف بعيد (هذه الازدواجية تجد جذورها فى شخصية «الأستاذ م». صاحب اللوحة الثانية فى «السداسية»: «صاحبنا الذى كنت وإياه نتنغم سوية بفتوحات خالد بن الوليد، وبمثانى المتنبى وبكفرانيات أبى العلاء ـ العروبة: قد تزوج الوظيفة. فكيف وشانه أن يحافظ عليها فى إسرائيل. حيث من مستلزمات ذلك أن تنكر كل صلة بصديقك وبقريبك إذا كان من المشاغبين على السلطة، ولو كان أخاك، ابن أمك وأبيك..).

وفى «الكتاب الثالث» يلتقى سعيد فى السجن بفدائى جريح جاء ـ عبر الحدود ـ من لبنان. رأى فيه الجلال المسجى، وحين حاوره «خمدت جراحى بالحديث عن جراحه. ظل يُوَسِّع فى الكوة الضيقة الوحيدة حتى رأيتها فى عرض الأفق الذى لم أره من قبل، وأصبحت قضبانها المتشابكة جسورًا نحو القمر. وما بين فراشه وفراشى حدائق معلقة. كنت أحدثه عن نفسى بما أحلم به عن نفسى. وما كنت كاذبًا. إنما خشيت أن أدنس جلال هذا المقام بخصوصيات جردنى منها السجانون حين جردونى من ملابسى الخصوصية». وينتهى الأمر بسعيد إلى الجلوس على قمة العمود، يرفض النزول عنه. صحيح أنه تغير، وأيقن أن تنازلاته كلها لم تُجْدِه شيئًا، لكنه عاجز عن النزول إلى الناس والمشاركة فى نضالهم، ولا يجد أمامه سوى الاستنجاد بالكائن الفضائى الذى يستجيب له فيحمله إلى حيث ألقت: هو الجنون أو الموت. وتكون كلمة «يعاد الثانية» خير ما يقال فى وداع «أبى النحس»: لقد أراح واستراح!

إن شئنا ترجمة هذه الطرقات على جدران الزنزانة الإسرائيلية إلى كلمات واضحة، قلنا: إن العمل كله يؤكد سقوط صيغة «المتكيف» أو «مزدوج الولاء» داخل إسرائيل، وصعود صيغة «الفدائى» الذى يحمل السلاح فى وجه الدولة. لا سبيل سواه.

العملان الأخيران لإميل حبيبى **«أخطية» و«سرايا»** توأمان أو كأنهما توأمان.. «أخطية»: رواية الحنين إلى حيفا فى حيفا، رواية استعادة «أيام العرب» حين كانت الفاكهة حلوة المذاق لا حد لحلاوتها، وكانت الدنيا واسعة لا حد لاتساعها.. «كانت دنيانا كلها مشاعة لنا، حلالاً زلالاً علينا، كانت الدنيا والآخرة هى بلادنا..». إنما من هذه الدنيا التى ضاعت يستدعى الروائى أحداثًا وشخوصًا، يرويها لنا فى غنائية عذبة، واستخدام خاص للغة، وتطوير خصب لأساليب الكتابة العربية وجمالياتها. لكن هذا ليس كل شىء فى «أخطية».. عنها يكتب صاحبها وقد قاربت نهايتها: «إنى أجدها تشرف على حديقة جديدة أو شاطئ جديد.. (..) إن حالى فيها كحال الوالدة حين كانت تفك الكنزة الصوفية العتيقة خيطًا خيطًا. كانت تعقد أطراف هذه الخيوط فتصبح خيطًا واحدًا تنسج منه..». هذا أقرب وصف لها. هى خيوط: بعضها من الذاكرة وبعضها من الواقع. بعضها من التراث العربى وبعضها من الممارسات الفلسطينية القديمة. بعضها من الداخل (داخل الذات والحدود معًا) وبعضها من الخارج (بالمعنى نفسه). والروائى يحاول أن يجعل من هذه الخيوط نسيجًا لا تتنافر ألوانه، وأن يُحكم سداه ولحمته.

ولا أزعم أننى فككت كل حروف الشفرة التى كُتبت بها «أخطية». لكننى أستطيع القول بأن «التخلى» هو السبب وراء ضياع «أخطية»، ومن بعدها «سروة». ولكل «أخطيته»: هو الذى أضاعها وهو الذى يركض وراءها، وحين يراها ـ يُخيَّل إليه أنه يراها ـ لن تكون سوى وهم خُلَّب. فهو إنما أضاعها يوم تركها وتخلى! إنما مثلها مثل معالم حيفا القديمة كما يقدمها ذاكرتها وراويتها وشاهدها: «تلك الأماكن كلها لا تذهب عنكم، بل تذهبون عنها. لا يأخذونها منكم بل يأخذونكم منها. يرحلون عنها ولا يعودون، أما هى فلا تعود لأنها لا ترحل..».

ثم إن «أخطية» قطعة رائقة ورائعة من فن القص، جوهرة صقيلة استطاع صائغها أن يخفى عنا عرقه وهو يصوغها، وبقيت ـ فى وجوهها المتعددة ـ مثقلة بهموم الباقين داخل الزنزانة الكبيرة، من شأنهم، إن شاءوا التواصل، أن يدقوا على جدرانها فى لغة خاصة، موجزة وبليغة، تستعين بالرمز والصورة واللفظة الموحية، وتحميل الكلمة الواحدة أكثر من معنى واحد، والإحالات الكثيرة إلى المأثور وطاقته الوجدانية الهائلة.

• قل مثل هذا وأكثر عن «سرايا»: إن صاحبها يبلغ فى استخدامه للغة حدًا غير مسبوق فيما أعرف من أدب العربية المعاصرة، حدًا يجعل من نصّه عملاً بالغ الإجهاد لقارئه، بالغ الإمتاع له فى الوقت ذاته. ولئن جاء النص مجهدًا للقارئ فلا شك فى أنه كان أتونًا حقيقيًا احترق فيه الكاتب مع كل فقرة وجملة ولفظة. أكثر من مرة لا يقوى على احتمال بلواه فيتخفف منها. ها هو يشكو لقارئه: «هذا الأتون هو هذه «الخرافية» السيرة المسَيِّرة، كدتُ أن أصف الأتون بنار جهنم الحمراء من شدة ما أقاسيه من آلام محرقة..». حين صدرت «سرايا» فى ١٩٩١ كتبتُ عنها (راجع من فضلك: «خرافية سرايا بنت الغول» ـ عن عذاب الكتابة وعذوبتها» فى «من أوراق الرفض والقبول، ١٩٩٣»، ص ـ ص ١٥٣ـ١٥٨): «بعبارة من عندنا، ثمة هاجس يهجس للكاتب بأن هذا آخر أعماله، وأنه قد لا يقوى بعده على «مجالدة» عمل آخر. وربما كان هذا الهاجس وراء ما نجده فى «الخرافية» من حضور واضح لذات الكاتب وحياته وعائلته، على نحو يجعل منها شيئًا أقرب إلى «سيرة ذاتية مُفَتَّتة». ليست سيرة تنحو منحى تاريخيًا أو موضوعيًا أو تلتزم إطارًا محددًا سلفًا، لكنها فوضى من الصور والحكايات الصغيرة والوقوف أمام الأماكن ونبش الذكريات، ومحاولة صياغة هذا كله فى سياق متسق. زد على هذا إحالات الكاتب وتضميناته التى تمده بها جعبة ثرية: جنبًا لجنب تجد استلهام أسفار التوراة وإصحاحات الإنجيل وآيات القرآن وتراتيم أخناتون. تجد المعرى والمتنبى والنواسى والبحترى. تجد ابن الأثير وابن طفيل وابن جبير وأسامة بن منقذ. تجد أفلاطون ولينين وجوركى وأوسكار وايلد، لكن أثمن ما ستجده هو وصف أرض فلسطين: عكا وحيفا والكرمل والزيب وشفا عمرو والناقورة.. هو ليس وصفًا فاترًا تقدمه عين محايدة، لكنه استنطاق للمكان، والكاتب ـ شأن أسلافه من الشعراء الذين يحبهم ويستشهد بهم ـ يقف أمام الأماكن التى عرفها من قبل فى طفولته وصباه، والتحمت بصميم حياته ووجدانه، إنه يبحث عن المكان القديم المحفور فى الذاكرة، وينظر إلى ما أصبح عليه، ثم تغلبه اللوعة فلا يقوى على كتمانها..».

وفى «خرافية» إميل لحن باطنى متردد، قوامه مساءلة الذات ومحاسبتها، والقسوة فى تلك المساءلة، والنظر فى اختيارات الماضى، والتوْق الحارق لفرصة عذراء تتاح له كى يختار ما سبق له أن اختار سواه. قسوته على الذات تتمثل فى تبنيه استهلال ابن الأثير لرواية ما شاهده من غزو المغول: «فيا ليت أمى لم تلدنى، ويا ليْتنى مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا..». ما تلك الاختيارات؟ فى «خطبته» يحدثنا إميل أنه لم يهتد إلى حقيقة «سرايا» إلا فى الصفحات الأخيرة من العمل، وأنه ذُهل من الحقيقة التى تكشفت لعينيه «ولكننى لم أسمح لنفسى بإخفائها مع أنها جاءت مناقضة للنهج الذى اخترتُه لحياتى من حيث اعتقادى أنه من الممكن، ومن المفيد «حمل بطيختين بيد واحدة»: الانشغال بالسياسة والانشغالُ بالأدب!». وهاهو الآن ـ فى يقظته المتأخرة ـ يتمنى أن تتاح له فرصة اختيار ما سبق له أن اختار سواه: الانشغال بالأدب بدل الانشغال بالعمل السياسى اليومى، ولعل إحساسه بتأخر تلك اليقظة هو ما يدفعه لاحتمال هذا الأتون، ومواصلة السير على درب الآلام بحثًا عن «سرايا».

ولعله من التَّزَيُّد ـ بعد ذلك ـ التساؤل عمن تكون «سرايا». إنه يشبه تمامًا التساؤل عمن تكون «أخطية»، وقد سبق القول إن بين العملين من التشابه ما يكون بين توءمين، سواء فى طريقة القص (فات عليك القول عن «أخطية» إن صاحبها ما أن يبلغ نهايتها حتى يجدها تنفتح على حديقة جديدة) أو فى المعنى العام الذى يربط أجزاء كلٍ من العملين (فى «الخرافية» يقول عن سرايا: لكلٍ منا، باختيار، سراياه الهائمة على وجهها كما هامت يمامة سيدنا نوح بحثًا عن الأرض. كذلك لكل أخطيته: عظم من عظامه ولحم من لحمه) أو فى الوقوف أمام الأماكن واستنطاقها، أو فى استخدام اللغة وظلال الكلمات وتطوير أساليب الكتابة العربية، الاستطراد بوجه خاص، والحساسية الفائقة فى تناول الألفاظ، حتى ليصبح للحرف الواحد أهميته ودلالته (فى شتى صور الجناس والطباق والسجع والاختصار والتصحيف).

لكن إميل حبيبى ـ وهو يفنّن سيرته الذاتية فى هذه اللغة الخاصة، وهو ينبش فى أعماق الذاكرة، لا ينفصل لحظة واحدة عن الواقع المعيش: واقع هؤلاء الذين يعيشون فى الزنزانة الكبيرة «داخل حدود الدولة التى لا تكف حدودها عن الانتشار»، معرضين ـ فى حياتهم اليومية ـ لشتى صنوف القهر والبطش والملاحقة والتضييق فى الرزق والحركة، يُسرق منهم تاريخهم وتراثهم، وتُشَوه معالم الأماكن التى ألفوها وعاشت فى ذاكرتهم. إنما لهذا يستخلص إميل ـ من قبضة العدم الوشيك ـ كل ما يقوى على استخلاصه من صور المكان والحياة والممارسة، يود أن يحفرها عميقًا فى وجدان أهل وطنه، فلا ينساها منهم أحد.

هكذا عاش إميل حبيبى وأبدع ومات وبقى فى حيفا.

(٤) جبرا إبراهيم جبرا، لحن التخلى ودائرة النار..

جبرا فلسطينى مقدسى، قضى طفولته وصباه وأول شبابه بين بيت لحم والقدس، وعرف أدب الغرب وثقافته فى «هارفارد» و«كيمبريدج»، ورجع يعمل بالتدريس فى القدس حتى خرج مع الخارجين بعد أحداث ١٩٤٨، ألقى مرساته على شط دجلة، يعمل بالتدريس والإدارة، ويشارك فى الثقافة العراقية مبدعًا ومترجمًا وناقدًا، ثم تزوج بسيدة من أسرة عراقية قوية وعريقة، وأبدل مسيحيته بالإسلام، وحصل على جنسية البلاد التى اختار أن يزرع جذوره فيها، وبقى مشاركًا نشطًا فى حياتها الثقافية، جوّابًا لعواصم العالم، متابعًا الجديد من آدابه وفنونه. كتب الشعر (له ثلاث مجموعات) والقصة القصيرة (له مجموعة أضاف إليها عددًا من القصص فى طبعتها الثانية) والسيرة الذاتية (أصدر منها جزءين: «البئر الأولى» و«شارع الأميرات»)، كذلك ترجم

يكاد غسان أن يكون أهم الكتاب الذين عبروا فى إبداعهم عن تطور الشخصية الفلسطينية من النكبة حتى حتمية الثورة المسلحة، وأن تبدو فى إبداعه تلك النقاط المحورية التى ترافق تطور فكر الفلسطينيين عبر تلك المرحلة الممتدة من ١٩٤٨ حتى مصرعه. الذى يضفى على مجمل إبداعه دلالات لا يمكن إغفالها. فى ١٩٧٢

لحسن قراءة إميل حبيبى وفهمه يجب أن نضع فى اعتبارنا دائما أنه يكتب من داخل الزنزانة الإسرائيلية، وهو، من ثم، يفتقد القدر الكافى من الحرية ليقول - مباشرة - ما يريد، وعليه أن يلجأ إلى الرمز والكناية والإيماءة والإشارة من بعيد

عددًا كبيرًا من الأعمال الأدبية (له ترجمة شهيرة لرواية فوكنر العسيرة «الصخب والعنف»، إضافة لعدد كبير من مسرحيات شكسبير و«سونيتاته») والدراسات النقدية. أما مقالاته ودراساته فى الأدب والمسرح والموسيقى والتشكيل والعمارة فقد جمعها فى عدد كبير من الكتب، صدر آخرها بعد رحيله فى عام ١٩٩٤.

على أننى أعتقد أن ما أنجزه جبرا فى عالم الرواية هو أهم إنجازاته. كتب ست روايات: «صراخ فى ليل طويل، ١٩٥٥» - سبق أن عرضنا لها - و«صيادون فى شارع ضيق» (كتبها بالإنجليزية وصدرت فى لندن فى ١٩٦٠، ولم يترجمها هو، بل واحد من تلاميذه، وصدرت بالعربية فى ١٩٧٤) و«السفينة، ١٩٧٠» و«البحث عن وليد مسعود، ١٩٧٨» ثم «الغرف الأخرى، ١٩٨٦» وأخيرًا «يوميات سراب عفان، ١٩٩٢». كما اشترك مع عبد الرحمن منيف فى كتابة عمل روائى واحد هو «عالم بلا خرائط، ١٩٨٢».

قلتُ إن **«صراخ فى ليل طويل»** هى افتتاحية لحن خروج الفلسطينى بعد أن احترقت مدينته فأحرق ماضيه ومضى يبحث عن طريق جديد. **«صيادون..»** روايته التالية، ولابد من تساؤل حول ضرورة كتابتها بالإنجليزية، إن هذا يعنى شيئًا واحدًا لا شك فيه: إن الكاتب يحدد الجمهور الذى يريد أن يصل إليه عمله، وهو يعرف هذا الجمهور وكيف يتوجه إليه: خرج بطلها «جميل فران» وهو فلسطينى مقدسى - شأن جبرا ومعظم أبطاله - للعمل بالتدريس فى بغداد ١٩٤٩ بعد أن سقطت القدس، وترك تحت أنقاضها حبّه الأول، ووراءه فى «بيت لحم» عائلة تنتظر العون. وهذا ما رآه فى بغداد: مدينة قذرة متخلفة، تنضح شوارعها وأزقتها بالقذارة والقمامة، مثقفوها ضائعون تائهون، متخبطون، يهزمون أنفسهم قبل أن تهزمهم القوى المعادية، الأصالة عندهم جحود وتحجر ورفض لكل تقدم، والمعاصَرة عندهم انفلات جامح لا يبالى باحترام الجسد أو كبرياء الإنسان، قوم لم يرثوا سوى مجد غابر انتهى لغير رجعة فى حاضر مضطربٍ يفوح بالتفسخ والتحلل، وليس للناس الذين يحاولون الارتفاع فوق الفقر والتعاسة سوى الثرثرة حتى الإملال، والسُكر حتى القيء، هَبّاتهم انتفاضات عابرة، بَصَقات صغيرة ما أسرع ما تجف تحت شمس بغداد اللاهبة (لاحظ أن هذه انتفاضات ٤٨/١٩٤٩ التى لعبت دورًا مهمًا فى تحول الأحداث وتصاعد العنف والعنف المضاد فى عراق الأربعينيات). وليس لجميل أصدقاء بين أولئك «الصيادين»، فهو متعالٍ عليهم، مترفع عنهم، لا يجد نفسه إلا فى حفلات «الكوكتيل» التى يدور الحديث فيها - بالإنجليزية طبعًا - حول الفن والحضارة، أو على مائدة عشاء مترفة (مع كثير من النبيذ الأبيض - بالنص) وحديث ناعم بين عدد من العاملين فى السفارة البريطانية وغيرهم من المتسترين وراء دراسة الأركيولوجى أو العمل بالمصارف والمؤسسات البريطانية. سوى تلك الحفلات، ليس ثمة سوى الضجيج والتخلف والعفن. أما إنْ جاء الحديث عن فلسطين فإنه - جميل - يرى أن الاعتماد على «الرعاع» كان السبب فى ضياع ما ضاع، وهو فى نقاش مع «عدنان» يفشى له سرًا صغيرًا.. «سرًا غير مهم أبدًا فى الحقيقة: حين كان الصهاينة فى وطننا يذبحوننا كالخراف.. اجتمعنا وقررنا أن نرد عليهم، أن نتسلل خلف خطوطهم، أن ننسف بيوتهم وشوارعهم كما نسفوا بيوتنا وشوارعنا. ولكن.. مَن كان يستطيع الاستغناء عن فلس واحد لشراء طلقة؟ لذا قررنا الذهاب إلى الخارج لجمع المال سرًا لتنظيم المتسللين وتدريبهم.. ثم انتهى الأمر إلى لا شىء. كانت مبادرة تلقائية فانتهت إلى لا شىء. فما لم نُنظِّم على نطاق واسع، وكان لنا وكلاء فى أوروبا وأمريكا، وحصلنا على تأييد حكومة أو حكومتين، فمن السخف حتى أن نبحثها..» هذا هو الأمر إذن: مالم يحصل الفلسطينيون على تأييد حكومة أو حكومتين فى أوربا وأمريكا (فقط) لما كان أمامهم أى أمل، لا فى استعادة ما ضاع، بل لمجرد الرد على العدو!

أرأيتَ لماذا كتب جبرا روايته بالإنجليزية، ولم يعمد إلى ترجمتها بنفسه؟ «صيادون..» بطاقة بريد سياحية، يبعث بها فلسطينى «مستغرب»، يخاطب فيها رفاق «كيمبريدج» ومن إليهم، بطاقة تقف عندما يروق لعين السائح المتعجل، وهى عين لا تود - ولا يعنيها - أن تعى جوهر الحاضر، فتكر راجعة إلى أطلال سومر وبابل وآشور، ولا تلتقط من الواقع المعيش إلا ما يؤكد تفوقها وتفوق «النخبة» التى تنفصل عن تلك الكتلة الغوغائية فى الفكر والسلوك معًا.

«السفينة» رواية مركزة مكثفة، استطاع الكاتب فى صفحاتها - التى تقارب المائتين والخمسين - أن يقدم لقارئه عددًا كبيرًا من الشخصيات الرئيسة والتابعة، فى حاضرها وماضيها، فى جدها ولهوها، فى صَحْوها وسُكرها، فى تمردها على تكويناتها النفسية وفى استسلامها لها، وأن يشد خيوطها معًا بحيث يجعل «بؤرة أحداثه» فوق ظهر إحدى السفن الصغيرة التى تطوف بموانىء المتوسط، حملت فى إحدى رحلاتها تلك الشخصيات التى لا يبدو اجتماعها محتملاً إلا عبر سلسلة طويلة من المصادفات، وزمن الرواية لا يتجاوز الأيام القليلة التى تقضيها السفينة بين بيروت ونابولى، أيام قليلة لكنها عاصفة، تتفجر فيها الشهوات والأحقاد والعواطف، وتنبثق الذكريات القديمة وتتدافع، وكالمألوف فى عالم جبرا لا يكف الأبطال عن النقاش والتفلسف حول كل شىء من تاريخ الإنسان والحضارة والفن، إلى الواقع العربى وقضية فلسطين، وتتناثر حولهم أسماء دوستويفسكى وتوما الأكوينى وكامى ولوركا وفيدياس وسيلّينا وبلزاك وكافكا وبوتشيلى، وتتساقط كلمات الحرية والثورة والطغيان والأيديولوجيا، وهم جميعًا مؤهلون لأن يطلقوا كل تلك الأسماء والكلمات دون أن يبدو هذا نابيًا عن تكويناتهم الفكرية وخبراتهم الحياتية.

ولن يعنينا - هنا الآن - سوى «وديع عساف» وهو يبدو أهم هذه الشخصيات وأكثرها حضورًا، ثم إنه يحظى من المؤلف بالاهتمام الأوفى. فيكاد القارىء يعرف كل شىء عن ماضيه وحاضره وآرائه فى كل تلك القضايا، وفى بقية شخصيات السفينة: فلسطينى مسيحى مقدسى، نُفى عن جذوره يوم ضاعت أرضه، وكوفىء عن ذلك بمكتب استيراد وتصدير ناجح فى الكويت، أعزب فى الثالثة والأربعين، يقرأ ويرسم ويطوف عواصم العالم مطاردًا اللذة والنساء، ويحلم بالعودة إلى القدس: «الأرض التى اشتريتُها فى مرتفع وراء كروم حلحول أفضل من ألف امرأة.. سأزرعها بيدى، سأهجر بغاء التجارة، سأزرع الكروم وأشجار الصنوبر (...) هذه العشرون ألف دينار التى جمعتها ستكفى لأن أمد لى جذرًا عميقًا فى أرضى من جديد (...) سأخفى فى بيتى بندقيتين وبضع قنابل، ومن هنا سأعمل على تقريب الساعة الحاسمة..». ما تلك الساعة الحاسمة؟ لا نجد فى فيض كلمات وديع جوابًا مقنعًا، لكنها تخايلنا مثل الرؤى التى تخايل «وديع» ذاته. وهو يوحى إلينا - من طرف خفىٍ وحذر - أنه مشارك فى نشاط خاص يَعمل على حشد فدائيين فلسطينيين وتدريبهم للقيام بأعمال فى الأرض المحتلة.

لكن المشكلة الحقيقية هنا - وهى القضية الأساسية فى «السفينة» - أن «وديع عساف» لا يستطيع أن يقنعنا بأنه ماض فى تحقيق حلم العودة. الأمر أقرب لأن يكون كهفًا من تلك الكهوف التى برع نموذج «الفلسطينى المتخلى» فى إعدادها، بديلاً للأرض التى ضاعت وللإنسانية التى انتُهكت، ليلوذ بها إن هَجَس فى خاطره هاجس الوطن. هو هارب يُسقط هروبه على الآخرين: «للهرب أشكال لا تحصى، ومأساتنا الحقيقية أننا هروبيون.. تغرينا الأخيلة فنلحق بها حيثما تأخذنا..» وهؤلاء الآخرون عنده ليسوا سوى «أدوات» لتطهير روحه من خطيئتها، والحقيقة أنها خطيئة مزدوجة، لو صح التعبير: خطيئة «أصلية» يحملها بين جنبيه من حيث هو مسيحى مازالت عواطفه تتحرك لموسيقى الكنيسة.. «الألحان التى تتصاعد أليمة جريحة من حناجر المرتلين، وألحان الأرغن تحت السقوف الشاهقة، وهذه الإشارات الضارعة الخاشعة إلى الله رب الأرباب وملكوت السماء وحمل الله خطايا العالم.. هذه كلها تغمرنى بأحاسيس كالهستيريا»، ثم خطيئة أخرى طازجة من حيث هو فلسطينى هارب، لا تفلح كل الوسائل فى تحقيق أمنه الداخلى. إنه - على التحليل الأخير - يحاول مراوغة شعور طاغ بالذنب، فيملأ لحظات حياته بمطاردة المال واللذة وعشق النساء وصداقة الرجال والتلاعب بالعواطف والعزف على أوتار الكلمات. إن «وديع عساف» عاجز عن التماس السبيل الحقيقى للخلاص، لأنه فى قوقعته المترفة تلك، لا يرى جماهير الناس الساعية نحو الهدف نفسه، لكنها لا تهرب إلى الحلم أو الوهم أو الجنون.



فى ١٩٧٠ قال جبرا لقرائه: هذا فلسطينى اليوم وهذه همومه وهواجسه. وتلك نقطة الضعف الرئيسية فى

«السفينة»... على أنني أميَل للاعتقاد بأنها مكتوبة قبل ١٩٦٧، حين كانت القدس مدينة منشطرة بالفعل، وتلك فكرة مهمة في تكوين شخصية «وديع» وحين كانت الانطلاقة المسلحة مازالت تعاني آلام المخاض.

وكانت السنوات العشر التالية على ١٩٦٧ حاسمة بالنسبة لتطور هذه الانطلاقة: أسقطت فلسطين كلها من النهر إلى البحر، وانكشف عجز النظم وتواطؤها، وقدر معرفة هذه الانطلاقة لسبيلها وسط التناقضات وحطام الدمار، قدر ما يتزايد حولها إحكام الحصار: في «أيلول» عمان وجرش والأحراش، في معارك لبنان جنوبه وشماله منذ ١٩٧٣، وإسرائيل بالمرصاد، تمد ذراعها ـ وسط الخانعين والمتواطئين ـ فتصل ضربتُها إلى حيث تريد، وتمضي بمنجاة من العقاب، ودماء الفلسطينيين مازالتْ ـ كما كانت ـ سلعة التجّار والمزايدين وباعة الدم المسفوك.

وفي ١٩٧٨ أصدر جبرا روايته الرابعة المهمة **«البحث عن وليد مسعود»** والسؤال الذي يعنينا في هذا السياق هو: هل يمثل «وليد مسعود» تجاوزًا لنموذج الفلسطيني الذي قدمه صاحبه من قبل؟ أبادر إلى القول بأنه ـ مثلهم ـ واحد من «النخبة» التي خرجت إلى العالم الواسع بعد ١٩٤٩، ومثل «جميل فران» ألقى مرساته في بغداد، ومثل «وديع عساف» عمل بدنيا المال والأعمال، ومثلهما تظل القدس هي الرؤية العالقة بين جفنيه، ومثلهما أيضًا هو متوجه نحو الغرب، ومثلهما هو مسيحي الأعماق وإنْ بدا لغير ذلك، ومثلهما هو مولع بالكلمات، عازف ماهر على أوتارها في الكتابة والحديث (يقول في شريط تسجيله الأخير، مبدأً كلمة واحدة من كلمات المتنبي: «أنا الغني وأموالي الكلمات»). ومثلهما لابد من مأساة خاصة تفتح عينيه على المأساة الشاملة، ومثلهما ـ أخيرًا ـ هو محط شبق للنساء وعواطف الرجال. وكل التفاصيل في الرواية توحي لنا بأن حياته كانت سلسلة متصلة الحلقات من الغزوات المعطرة، وإن كان في هذه العلاقات ـ ومثل سابقيه ـ موضوع الطراد وليس المطارد!

الاختلاف الجديد والدال هو أن الروائي يحاول أن يُدخل بطله الفلسطيني دائرة النار: فهذا رجل شارك في عمليات ١٩٤٨، وانضم إلى «جيش الإنقاذ» وأقام علاقة مع «فتح» لم تنقطع، وهو يحكي لنا عن الترتيب لضرب العدو المرة بعد المرة، لهذا اعتُقل وعُذِّب بعد ١٩٦٧، وشارك في «مذابح أيلول» ١٩٧٠ (ترد هذه المشاركة في جملة عرضية لايكاد ينتبه لها القارىء، ودون أية تفاصيل!)، وعشيقته «وصال» مؤمنة بأن اختفاءه الغامض عن حياته وعمله وأصدقائه جميعًا إنما يعني تسلله إلى الأرض المحتلة، وهي على ثقة من يقينها هذا حتى أنها تقرر اللحاق به، فتنضم إلى تنظيم «الجبهة» في بيروت. فهل يبدو هذا التحول مقنعًا في شخصية وليد مسعود؟ هل نجح المؤلف في أن يزج ببطله إلى دائرة النار؟

إن ثمة غيابًا كاملاً ـ على كثرة ما عرفنا عن وليد وتعدد الصور التي رأيناها له ـ لتلك الفترة الحاسمة التي أدت لتحول الفلسطيني من صيغة «اللاجيء» إلى صيغة «الفدائي»، من الشتات إلى حتمية المواجهة. تلك السنوات التي انقضت ووليد مشغول بمراكمة ثروته والتنقل وراء أعماله بين مدن الخليج وعواصم العالم. والعمل في صفوف ثورة مسلحة، خاصة الفلسطينية بعد ٦٧، ٧٠: ثورة بلا أرض، لا يتسق والصورة التي يبدو بها، ومن ثم يبدو وليد مسعود ـ من وراء أقنعته المتعددة ـ وجهًا جديدًا من تلك «النخبة» الفلسطينية (للمرة الأولى في أعماله يورد جبرا دفاعًا واضحًا وصريحًا عن تلك النخبة واتهامها بالتخلي، راجع ص ٣٢٠ وما بعدها من الرواية)، يشحنه المؤلف بطاقة (نرجسية) هائلة: هو المحبوب دائمًا، القوي القادر دائمًا، عاشق الحياة والنساء والأفكار، المؤمن بالإنسان على نحو مثالي وغامض ومرتبك، الثري الناجح ـ لحد التخمة ـ في حياته العملية والعاطفية (ونعرف على نحو عرضي كذلك، أنه نشر أربعة كتب أو خمسة، لكننا لا نعرف عن مضمونها أي شيء!).

ولأن هذا النموذج لم يعد يتلاءم والهموم الفلسطينية بعد ٦٧ ـ ٧٠، فقد حاول الروائي أن يجعل لبطله ماضيًا نضاليًا وحاضرًا نضاليًا ومستقبلاً نضاليًا محتملاً كذلك.

تنافرت الألوان والعناصر في هذا «الكولاج» وبقي وجه الفلسطيني المتخلي أوضح الوجوه.

لإكمال الصورة نعرض ـ في إيجاز ـ لروايتيه الأخيرتين: **«الغرف الأخرى»** ليست سوى «نزوة كافكاوية» كما سبق أن وصفتها: رواية من روايات التحولات، نظل حتى النهاية، ونحن لا نعرف من بطلها: الطبيب الشهير أم الكاتب المعروف، وهؤلاء الذين احتشدوا له: هل جاءوا ليستمعوا إلى محاضرته ويكرموه، أم لإدانته ومحاكمته والحكم عليه. الأهم أنه، هو ذاته، لا يعرف، فهو يجد هواجسه الخاصة مسجلة على ورق مطبوع في كتاب يحمل اسمًا لا يعرف إن كان له أم لغيره، وبعض النساء اللاتي عرفهن في ماضيه يعدن للظهور، والتحولات لا تنتهي، وهو هنا وهناك معًا وفي الآن نفسه، من غرفة لغرفة يساق، كأنه «جوزيف كاف» أو «المسّاح» أو «روبرتسون» يتخبط في دهاليز السفينة، لا يستطيع أن يتفهم كُنه الشراك التي تُنصب له بإحكام، ولا يستطيع أن يلتقط أنفاسه وسط التحولات التي يتسارع إيقاعها ويزداد وقعها، والجو كله كابوسي خانق، تتفجر فيه مشاهد من البذاءة والعنف والقبح والشهوات المحبطة والملل والكآبة، ولا خصوصية في الأحداث، ولا إشارة تدل على زمان أو مكان.

حتى النهاية التي تنتهي إليها «الغرف الأخرى»، والاسم الأخير الذي ينتهي إليه بطلها، قد لا يكونان غير تحولين جديدين في تلك التحولات التي لا تنتهي، فهذا اللون من الكتابة يمكن أن يدور في دورات مكرورة لا تنتهي لشيء، ولأي شيء تنتهي مادام الإنسان ـ على هذا النحو ـ مُحاصرًا، ومُحاطًا به، ومسوقًا على رغمه، لا يملك من أمر نفسه شيئًا؟

ولئن كان لأبطال جبرا من الرجال «ثوابتهم»، فإن لبطلاته «ثوابتهن» كذلك، و«سراب عفّان» صاحبة «اليوميات» تشاركهن صفاتهن الأساسية: التوق الجامح لأن تفنى في تجربة عشق مجنون، والاندفاع لتحقيق هذا التوق. وهي ـ مثلهن ومثلهم ـ عاشقة للكلمات، تتلهى بالعزف على أوتارها، تعشق الكاتب في الرجل قبل أن تعرف الرجل، وهي ـ مثلهن ومثلهم ـ تحيا حياة رخية، فأبوها طبيب ثري شهير، وهي ليست بحاجة للعمل، لكنها تعمل «للتسلية وقضاء الوقت»، وأخيرًا هي ـ مثلهن ومثلهم ـ أجادت اللغات والموسيقى، وقضت عامين في انجلترا، رجعت بعدهما تواصل دراسة المسرح في بلدها، ومن ثم يحق لها أن تتحدث عن شكسبير وراسين وكورني وابسن وأوفيليا وهايدا جابلر وراسكولنيكوف... إلخ.

والكاتب يتعمد الحرص على عدم تحديد البلد العربي الذي تدور فيه أحداث روايته، لكن المؤكد أن «سراب» ليست فلسطينية، وإن كانت لها جدة من القدس، يرد الحديث عنها مرة أو مرتين، غير أن هذا هو المبرر الوحيد ـ أكرر: الوحيد ـ لما سيلي: تتعرف سراب إلى أحد أصدقاء حبيبها «نائل» ـ شريكها في تجربة العشق الجارف ـ من العاملين «بالنشاط الفلسطيني السرّي».. فتقرر الانضمام إلى التنظيم الذي ينتمي إليه «تأكيدًا على إعجابي ببطولة هؤلاء الذين يتحدُّون قوى الظلم والظلام الوافدة من الخارج...»، وهكذا: تختفي سراب دون أن تخبر أحدًا بمكانها أو تكتب لأحد.

وتبقى المشكلة عند سراب تمامًا كما كانت عند وليد مسعود، حتى لكأنها «مكافئه الأنثوي»: إن العناصر «النضالية» تتنافر تمامًا وبقية العناصر التي تحدد شروط شخصية كل منهما: التكوين العقلي والنفسي وتاريخ الحياة ودلالات السلوك، حتى لتبدو ـ تلك العناصر ـ وكأنها قد ألصقت، عمدًا، بهذا التكوين ولم تتسق معه.

(٥) الثورة المحاصرة في الخارج والداخل

يمكن القول ـ دون تجاوز كبير ـ إن الرواية الفلسطينية ـ منذ بداياتها غير المكتملة، وبعد أن دفعها غسان كنفاني دفعة قوية نحو الاكتمال ـ استطاعت أن تواكب الهم الفلسطيني، وأن تبقى ـ في مجملها ـ على ارتباط حار ومباشر بقضيتها الواحدة (الاستثناءات نادرة)، وكان من الطبيعي أن تدور أفضل الأعمال حول تلك النقاط المحورية في النضال الفلسطيني والعربي: ١٩٤٨، ما قبلها وما بعدها: حدثنا الروائيون والقاصون عن تخلف الواقع وتناحر الزعامات وتواطؤ النظم وندرة السلاح والجبن والخيانة والتخلي عن أفواج النازحين في البر والبحر، وراءهم رعب الإبادة، وأمامهم ـ عبر الأهوال ـ أكواخ التنك المرمية ـ كالخِلَق الرثة ـ خارج العواصم الآمنة.

وعلى وجه العموم، فقد سادت أعمال ما بعد ١٩٤٨ مباشرة خصائص ما يمكن أن نسميه «أدب المنفى»: الحنين الطاغي للوطن باعتباره الفردوس المفقود، والرغبة في الرجوع إلى الماضي، حين كان الشمل مجتمعًا، والحياة هانئة فلا غربة ولا تشتت ولا إذلال، واستدرار الشفقة على أولئك المرميين في المخيمات، في عالم يسوده البؤس والشقاء، يقتتل فيه الرجال من أجل حفنة دقيق أو كسرة خبز. ومن الناحية الفنية سادت كثيرًا من النماذج نبرة زاعقة وجهارة في الصوت وإلحاح على المشاعر وإيصال مضمون مفروض سلفًا. في هذه النماذج ما أكثر من يحتفظون ـ في أعز مكان ـ بمفاتيح البيوت التي تركوها وراءهم، أو حجج ملكيتها، أو صرر صغيرة تحوي حفنات من تراب الوطن.

ومنتصف الستينيات التي شهدت انبثاق العمل الفدائي تجد مقابلها في الأدب. مرة أخرى: عود إلى غسان: إن أعماله الأولى (مجموعاته الثلاث وروايته الأولى) هي حيثيات ما سيأتي بعدها، هي الإطار الواسع الذي ستنبثق عنه ـ بالضرورة ـ حتمية الفداء. هؤلاء هم الفلسطينيون: أطفال يبعدون عن طفولتهم قدر بُعدهم عن أرض البرتقال، فالبُعد عن فلسطين بُعد عن كل شيء يحمل نسمة الإحساس بالأمن، بُعد عن أية قوى غيبية يمكنها أن تحمل الخلاص لهؤلاء الضائعين، وحين يبلغون أول الشباب عليهم أن «يغوصوا في المقلاة».. هذا التعبير الذي أحبه غسان



ما أكثر ما كتب عن «أبى النحس المتشائل» حتى كاد أن يصبح أشهر من صاحبه وخالقه! فى تلك الرواية الفذة لم يسلك إميل حبيبى أيا من السبل المطروقة فى الرواية العربية أو العالمية، بل أسس إبداعا جديدا يقوم على دعائم راسخة من استلهام التراث الفلسطينى والعربى.

واستخدمه أكثر من مرة ليصف حياة الفلسطينى المنفى، اللاهث أبدًا وراء لقمة تسد رمقه وقروش قليلة تقيم أود المنتظرين وراء الحدود. ثم هم كهول ينوءون بحمل سنوات العمر والمذلة وطحين الإعاشة وبؤس المخيمات، لذا تجد الفلسطينى عنده، دائمًا، فى طريق أو على طريق أو باحثًا عن طريق. أبطال روايته الأولى يلقون مصارعهم فى تلك البادية الممتدة بين العراق والكويت، وبطل الثانية يضيع وسط بادية أخرى بين غزة والأردن.

يؤكد هذا النظر غياب العدو عن روايته الأولى. إننا لا نرى إسرائيليين فى «رجال فى الشمس»، لكننا نرى آثار ما فعلوه، ذرات من المأساة الشاملة التى تطايرت إلى كل مكان. وتأتى كلمات «أبى الخيزران» لهم قبل أن يلقى بهم على مزابل الكويت: «لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟.. لماذا؟..» مثقلة بالدلالة. فقد آن أن يدق الفلسطينيون على كل الجدران، آن أن يتحولوا من الاستسلام إلى المقاومة. وأجرى الفلسطينى حساباته من جديد: إنه يعيش على البقايا والفتات، وقضيته سلعة ثمينة بأيدى المزايدين والانتهازيين من القاعدين على عروشهم، باعة الدم والوهم بأن عملاقًا لابد سينبت من قلب العجز والخرافة ليعيد الأرض التى ضاعت. وقرر الفلسطينى شيئًا: إن مواجهة العدو ـ فى الداخل والخارج ـ مواجهة حقيقية وصادقة، والالتحام به، وقتله، هو ـ فقط ـ ما يقلب ميزان الخسارة، ويحيل البقايا والفتات حقائق كاملة.

وجاءت ١٩٦٧ تزيد يقينه رسوخًا: الدودة فى أصل الشجرة، وزواج العم بالأم خدعة ثقيلة، سقطت فلسطين كلها وإلى جانبها سقطت أرض أخرى. ورأينا ـ فى الأدب الذى كُتب بعد ١٩٦٧ مباشرة ـ أفواج الفلسطينيين تمضى فى اتجاهين متعاكسين: هؤلاء القادمون ليلقوا نظرة على أرض الذكريات الضائعة أو يزوروا الأهل الذين لم ينزحوا (أم الروبابيكيا ـ عائد إلى حيفا)، وهناك ـ فى الاتجاه الآخر ـ أفواج النازحين ـ تحت الرعب والنابالم ـ من الضفة إلى عمان فى الخروج الكبير الثانى. هذا «رشاد أبوشاور» يصف بعضهم فى روايته «ذكرى الأيام الماضية، ١٩٧٠»: «شمس حزيران الحارة تغرب، وتكبر ظلال البيوت وأشجار الحور الباسقة، تسكت الحياة ويلوح كأن كل شىء قد انتهى، كأن الحياة هنا لم تكن إلا زيفًا تهاوى دون عناء أو مقاومة، ومرّت قافلة جديدة، على الرؤوس بقج محشوة بالملابس الضرورية، بعضهم يحمل صفائح ماء، الصغار يتعثرون فى سيرهم، لكن الجميع يتطلعون إلى الشرق، يقيسون المسافة التى تفصلهم عن النهر بوَجَل الغريق..»

وانطلقت العربة الفلسطينية المسلحة بعد ٦٧، محملة بكل آلام المخاض الدامى، مثقلة بكل آفات وتناقضات الواقع الذى خرجت منه وأحاطها، تحمل ثوارًا بلا أرض: مسلمين وماركسيين، مقاتلين ومتفلسفين، واقعيين وحالمين، صادقين ومهرجين، مزايدين أمام أعواد المنابر ومحترقين فى صمت ونبل وكبرياء. بكل هؤلاء، وبغيرهم، انطلقت العربة الفلسطينية محاولة أن تجد الطريق.

ولم يطل الوقت حتى حدثنا الروائيون عن أيلول ١٩٧٠: لم تكن مهارة صياد متربص فقط، ولكن غفلة سرب من النعام كذلك. قُتل من قُتل وذُبح من ذُبح، وكان خروج الباقين مشهودًا: لا زهو ولا أمجاد، والقلق على المصير يحيط الراحلين والباقين جميعًا. هنا عملان أساسيان: رواية فيصل حورانى الأولى «المحاصرون، ١٩٧٣» ورواية رشاد أبى شاور «البكاء على صدر الحبيب، ١٩٧٤»، وبين العملين من التشابه ـ فى الموقف الفكرى وملامح الشخصيات ـ ما يجعل التجربة التى يعبّران عنها.. وقد خاضها كلٌ من الكاتبين حتى أطراف الأصابع.. نموذجية فى مسيرة الثورة الفلسطينية: ثورة محاصرة بين الجلادين والمزايدين: والإنسان الفلسطينى مصدر خطر لأنه شبّ عن الطوق، وتقدم حاملاً النار والتحدى، لكنه ليس بلا أخطاء. حدثت أخطاء لاشك فيها، وهذا «خالد» بطل «المحاصرون» يقول لنا: «لابد من التضحيات لبناء المستقبل، الذين ساروا بغير استعداد وفى الطريق الخاطىء سقطوا.. علينا أن نستعد طويلاً، أن نقوم بالتنظيم، ننشر الوعى، بلا مزايدة، بغير تهريج أو كذب..».

وحملت الثمانينيات هموما جديدة: بيروت: ملحمة القتال البطولى والصمود ثم الخروج إلى المنافى البعيدة. هذا فى الخارج، أما فى الداخل فقد شهدت نهايات العقد تفجر الانتفاضة التى سرعان ما أصبحت ايقاع الحياة اليومية فى كل أرض فلسطين. فى «نشيد الحياة، ١٩٨٥» يحدثنا يحيى يخلف عن اجتياح الجنوب صعودًا إلى بيروت. من موقعه فى «الدامور» يصف ما رأى: «من جديد جاءت الطائرات المزمجرة تواصل القصف، ترك الرجال خنادقهم، أخلوا المواقع المكشوفة، أصيب بعضهم بجراح بليغة، حرقت الطائرات الأخضر واليابس ولم تتوقف.. أصيبت المدافع إصابات مباشرة.. اشتعلت النيران بكل شىء.. وتقدمت الدبابات.. ثم أطلت من على سطح البحر ناقلات الجنود البرمائية.. تراجع المقاتلون إلى داخل البلدة..» نعم.. هى معركة غير متكافئة كما قال قائدهم «حمزة»، هُزموا فيها لكنهم لم يستسلموا، وضع حمزة خطة لاقتحام مقر القيادة المؤقت الذى أقامه العدو فى الدامور، وأطلقوا النار على مَن فيه، قتلوا عددًا من القادة والضباط وأصابوا الباقين. وتواصل الحياة نشيدها رغم الهزائم والحصار.

ويحدثنا رشاد أبوشاور عن النهاية، عن الخروج إلى المنافى من جديد، فى «الرب لم يسترح فى اليوم السابع، ١٩٨٦»: جاءت الباخرة القبرصية «سولفرين» تحمل الراحلين إلى تونس، ومعهم الكاتب الذى لا يجهد فى إخفاء نفسه، ولعله لا يريد. وهى ـ مثل سفينة نوح ـ حملت شتى أنواع الكائنات: منهم سارق الثورة ومنهم حارس الروح، منهم العقداء والعمداء الذين سبقوا إلى الاستيلاء على كبائن السفينة الفاخرة وتركوا للباقين النوم فى العراء، منهم المخمور الذى لا يفيق أبدًا وينطلق فى مونولوج متصل لا يخلو من نفاذ لقلب الحقيقة الجارح، منهم مناضلون حقيقيون مهتمون بالحاضر والمستقبل، ومنهم من لا يتوقفون عن لف سجائر الحشيش ومنهم... ومنهم... وهم جميعًا فلسطينيون، هم «عيّنة ممثّلة» ـ لو صح التعبير ـ لأولئك الذين التحقوا بالعربة الفلسطينية فى بحثها الدامى عن الطريق. وهذه مرحلة جديدة من النفى والشتات، لكن الفارق الأساسى بينها وبين الشتات الأول، إنما يتمثل فى هؤلاء الذين تطعموا بالنار، وعرفوا طعم الرفض المسلح، وأولئك الذين لا يزالون يعملون ويخططون لمواجهة العدو.

ومع نهاية الثمانينيات كانت أرض فلسطين كلها تلتهب بالانتفاضة. من الأعمال التى كُتبت عن الداخل وفى الداخل أقف عند عملين: «زغاريد المقاتى (فى جزءيها الأول والثانى) لمحمد وتد، ١٩٨٨» و«الجراد يحب البطيخ لراضى شحادة، ١٩٩٠».

الرواية الأولى ـ بجزءيها ـ تصور الحياة فى قرية من قرى قطاع «جنين» اسمها «خربة الزبداوى». واحدة من مئات القرى الفلسطينية بعد اندلاع الانتفاضة، وتكشف عن تغير إيقاع الحياة فى ظلها: أصبح للصبيان دور يعرفونه، وللشباب دور، وللنساء دور، الجميع يعملون ويؤدون أدوارهم، يَكرون ويفرون، ينصبون الكمائن للعربات ويهاجمونها، ولا يتوقفون عن رشق الجنود بالحجارة، وشباب المناضلين يلوذون بالمغارات والكهوف، ويستخدمون خبراتهم بأرض بلادهم، ويخزنون السلاح ليوم قريب.

سادت أعمال ما بعد ١٩٤٨ مباشرة خصائص ما يمكن أن نسميه «أدب المنفى»: الحنين الطاغى للوطن باعتباره الفردوس المفقود، والرغبة فى الرجوع إلى الماضى، حين كان الشمل مجتمعاً، والحياة هانئة فلا غربة ولا تشتت ولا إذلال

لكن الرواية لا تقف عند حدود «الخربة»، بل تتجاوزها إلى قريب وبعيد: إلى المدن القريبة (نابلس بوجه خاص)، وإلى عمق صحراء النقب حيث سجن «أنصار ٢». وإلى بعيد تنتقل الرواية: إلى باريس ومدريد وروما والجزائر. فى «زغاريد المقاتى» طموح إلى تصوير جانب من ذلك الصراع الضارى بين الفلسطينيين والاسرائيليين فى العواصم الأوروبية. ذلك الصراع الذى يدور متسترًا بالظلام والتخفى، معتمدًا على الرصد والمراقبة وتحليل المعلومات ووضع الخطط. واستخدام المقاهى والأقبية والفنادق والمحطات والبيوت المستأجرة والواجهات البريئة وجوازات السفر المزيفة. فى هذا الصراع ـ وبالنظر إلى طبيعته الخاصة ـ يتلبس الحق بالباطل، وتُستغل حماسة الشباب وحاجتهم للمال واللهو للدفع بهم إلى أهداف زائفة وعمليات مشبوهة، ويقدم الكاتب مثالاً لهذا النشاط ذى الوجه المزدوج فى «خلية يافا»: باسم النضال الفلسطينى تقود ضحاياها إلى تنفيذ عمليات تؤدى إلى تشويه هذا النضال بالذات، وتقدم عنهم المعلومات لأجهزة الأمن الإسرائيلية.

هذا الأفق المنفسح فى «زغاريد المقاتى» يتيح لصاحبها.. من خلال الوصف والسرد من ناحية، ومستدعيات أبطاله وذكرياتهم من ناحية ثانية ـ أن ينقل قارئيه إلى أجواء وممارسات فلسطينية خالصة: «أم العابد» تستحم قبل أربعين يومًا من استشهاد زوجها، العشاء الاحتفالى الذى يقيمه الشيخ لعودة «سامح» من سجنه، الشروط القاسية التى يعيشها المسجونون فى «أنصار» والمناقشات الدائرة بينهم، ووسائلهم فى المقاومة والتحدى، و«ثوار الصالونات» فى نابلس وما يتحولون إليه تحت ضغط جماهير الانتفاضة، مظاهرات «حماس» فى المدينة.. الخ.

وينهى الكاتب الجزء الثانى من روايته (ثمة إشارة لجزء ثالث) عن طريق «مزج أخير» بين خطاب «الختيار» الذى أعلن فيه قيام الدولة الفلسطينية، وقائمة بأسماء شهداء الانتفاضة حتى ذلك التاريخ، وما يحدث فى مستشفى نابلس، حيث لا ينقطع تدفق الجرحى والمصابين، ولا ينقطع احتفال الفلسطينيين بقيام دولتهم.

ولئن كانت «الزغاريد..» تنتهى إلى تلك النهاية، فإن «الجراد..» تنتهى إلى نهاية مفتوحة تمامًا: عند لحظة فى السياق يقف الراوى ـ الحكواتى ـ مثل سلَفه القديم، ليقول لنا ـ وهو يطوى كتابه ويحمل ربابته ويتهيأ للرحيل: «لم تتم بعد. وللشعب القرار الأخير فى شكل ومضمون نهايتها..» وليس مهمًا ما ينتهى، أو لا ينتهى، إليه العمل، فتلك حركة حياة متدفقة فى عنفوانها، وهى لا تكرر ذاتها، ولا تمضى فى دورات مقفلة، لكن عوامل جديدة تتدخل كل يوم لتغيّر مجرى الأحداث أو تعدّل مسارها.

وراضى يسمى عمله «تغريبة فلسطينية»، ويضع ـ عن عمد ـ بعض التشابهات التى تحيل قارئها إلى تغريبة الهلالية (هو اسم الأسرة الرئيسة فى العمل، والبطل يتردد وصفه بأبى زيد الهلالى)، ونجح راضى فى أن يقدم «سيرة» الشعب الفلسطينى

أيام انتفاضته. اختار موقعًا من أرض فلسطين (مخيم الشابور في رفح) يشبه أى موقع آخر. يقول عنه «بركات» أو أبوزيد الهلالي: «في مخيمنا هذا كل يوم عم بيصير أساطير وملاحم: عساكر، غاز، بارود، قتل، نفي، سجن، صحرا، هدم، جوع، حرمان، حصار، منع، طوق خوف، عدم استقرار، غموض المستقبل، إحباطات الماضي، نشرات عربية محبطة، نشرات إسرائيلية مسممة، تشرد..» تلك عناصر الحياة اليومية هناك. في مواجهتها يطوّر الشعب الفلسطيني أساليب مقاومته، ويبتكر أساليب جديدة، مستعينًا بأرضه وتراثه وممارساته، كي يجد لمشاكل الواقع المحاصر حلولها الملائمة. وتنفسح البانوراما الهائلة في هذا العمل (مع الخروج الضروري للأبطال إلى غزة والقدس وجنين ورام الله) كي تتيح التعرف على مختلف تلك الأساليب، ومن جماعها يتحقق الانتقال لطور أرقى - أى أكثر عنفًا - من أطوار المقاومة.

كان راضي شحادة طموحًا لأن يقول الكثير، لهذا احتشد عمله بالتفاصيل، لكن أغلبها لم يأت مجانيًا أو مكرورًا، كان طموحه أن يقدم «صورة الحياة كاملة، لا أقل»، وكان طموحه أن يضع ظاهرة الانتفاضة في سياقها الموضوعي والتاريخي: حلقة من حلقات النضال الطويل والممتد، تضرب بجذورها في الماضي وينفتح أفقها على المستقبل. بعد سهرة طويلة حكى فيها الحكاءون الفلسطينيون عن ٣٦ و٤٨ و٦٧، وما بينها وما بعدها، أوجز «جابر الهلالي» الأمر في كلمات قليلة: «يعني الانتفاضة إجت من العدم؟ هي تراكمات داخل كل واحد: اضطهاد، ظلم، سجن، جوع، ضرائب، هدم بيوت، نفي، تعذيب، مصادرة أراضي، الإسرائيليين بدهم إيانا ناكل لقمة الخبز ونظل عايشين ميتين، أكثر من هيك.. لأ».

ألست ترى - مثلي - أنه يتحدث عما تشتعل به أرض فلسطين الآن؟

على هذا النحو تكتمل رحلتنا مع الرواية الفلسطينية منذ بدايتها حتى آخر ما عرفت من أعمال التسعينيات. وهي - قدر ما أتاح لنا هذا الحيز - تقف عند أهم المعالم، مسقطة كثيرًا من الأسماء والأعمال والتفاصيل.

بقيت عندي ملاحظات قليلة حول الرواية الفلسطينية في هذا العقد الأخير بوجه خاص، أسوقها بإيجاز:

* إن من «النطاعة النقدية» - لو صح التعبير - أن يستدعي النقاد والدارسون مقاييس جاهزة وصارمة ينظرون من خلالها للرواية الفلسطينية (الإبداع الفلسطيني) بمعزل عن سياقها الذي يشمل - بين ما يشمل - الواقع الذي تصدر عنه لتعود فتتوجه إليه، والهدف أو الأهداف الفلسطينية التي تتوخاها، والشروط الموضوعية التي يعيشها مبدعوها. بعبارة أخرى: إن الرواية تصبح - في سياقها الصحيح - أداة من أدوات النضال، وقد لا نجرؤ على أن نطلب إلى صاحبها الاقتصار عليها أو التفرغ لها، أو اعتزال العالم في قوقعة يلوذ بها كي ينتج «الرواية» - بالألف واللام - التي لا يأتيها النقد من أى مكان. لو افترضنا أن مثل هذا الكاتب يمكن أن يوجد فلاشك في أنه مُقصّر بما هو فلسطيني، وبما هو إنسان كذلك!

إنني أجد في كثير من الأعمال اهتمامًا كبيرًا بإثبات «المأثور» الفلسطيني في القول (الأغاني، الأهازيج، الأمثال، القصائد، البكائيات، أغاني السجون... إلخ) والفعل (الممارسات، الطقوس، العادات، الشعائر... إلخ). ولست أرى في هذا الاهتمام خروجًا على الموضوع الروائي، أو نتوءات يضيق بها البناء الروائي، قدر ما أرى فيه حرص أولئك المبدعين على أن ينتزعوا تراثهم من قبضة الضياع والاستلاب، فمن استولى على الأرض يسعى للاستيلاء على مأثورها وتراثها لتبرير ماضيه المزعوم فيها، من هنا يصبح الاهتمام بتلك الجوانب مُبررًا ومشروعًا ومفيدًا كذلك.

* من ناحية ثانية، فإنني أرى في بعض هذه الأعمال لونًا من القص أقرب إلى تسجيل أحداث واقعية معاصرة لنا تحدث الآن، لكنني لا أرى أن تلك الأحداث لا تصلح موضوعات للأعمال الروائية لأنها تحدث الآن، إن تسجيلها الفني يتيح لها أن تثبت كنصوص تتحدد أهميتها في ضوء تاريخ كتابتها. وهذا يعني - في أحد وجوهه - لونًا من التواصل وانتقال الخبرة، ولعل هذا ما تكشف عنه بعض الشخصيات في تلك الأعمال، فنحن نرى - على وجه العموم - حفاوة خاصة بكبار السن، وتقديرًا لهم، واهتمامًا بخبراتهم، وسعيًا للإفادة منها، ولا يكاد يخلو عمل من «شايب» أو «ختيار» أو «حارس للروح».. الخ، يحنو على الشباب، وينقل إليهم ما رأى وعرف، في رغبة حميمة للاتصال، لا الانقطاع.

* من ناحية ثالثة، فإنني أرى بعض هذه الأعمال يجمع بين أساليب مختلفة في فن القص، قد يصل بعضها حد «التحقيق» أو «الريبورتاج»، وقد يميل بعضها إلى «غنائية مفرطة»، لكن اختلاف الأساليب وحده لا يكفي دليلاً ضدها، فالسؤال يأتي بعد ذلك، وينصرف إلى كل عمل، أو عمل كل مبدع على حدة: هل أدى اختلاف الأساليب وتنوعها إلى خلخلة وتنافر في بناء العمل ونسيجه، أو إلى تشتيت قارئه، أو تكرار ما سبق قوله، أو إثقاله بشروح وتفسيرات زائدة، أم أن الكاتب استطاع أن يقدم مزجًا متناسقًا بين تلك الأساليب المختلفة في كلٍ واحدٍ، ممتع ومفيد؟

وأخيرًا يمكن القول - بضمير مرتاح - إن الرواية الفلسطينية - على وجه الإجمال - استطاعت أن تكون حادية للنضال الفلسطيني من المنفى والشتات، إلى حتمية المواجهة وضرورة الفداء، إلى هموم الثورة المحاصرة في الداخل والخارج جميعًا. ■



جديد
وبعطر رائع
B Fresh
TOILET SOAP
Almond Oil
Lemon Extract
فى قلب الطبيعة زيوت غنية بتنساب بنعومة فى قلب صابون بى فريش
لينعش البشرة ويغذيها ويرجع نضارتها ليها .
صابون تواليت
بى فريش
جاذبيتك .. فى نضارة بشرتك

العمـــارة والذاكـــرة

دعـــوة للتفكير

ناصـــــر الربـــــاط

العمارة والذاكرة مفهومان قد يبدوان للوهلة الأولى معدومي الصلة ببعضهما البعض، بل وواقعين على طرفي نقيض في العالم الحسي والإدراكي. فالعمارة منتج إنساني ومادي، موجودة وقائمة بذاتها ومرئية لكل ذي عينين، ذات وظائف حياتية وطبيعية ومعنوية وأبعاد جمالية وفراغية ودلالات اجتماعية وتاريخية واقتصادية وسياسية ورمزية. والذاكرة، تلك الخاصية الإنسانية الواضحة / الغامضة، مكنونة في الذهن، تومض بصور ومواقف وكلمات ومشاعر مخزونة يدل على وجودها شعورنا بتأثيرها وتفاعلنا معها، ولكنها عدا عن ذلك كائنة في مكان ما في تلافيف دماغنا لم تتمكن أجيال من باحثي العلوم الإدراكية والعصبية من تحديده بدقة.

هذا على الصعيد الفردي، أما على الصعيد الجماعي فالحالة أكثر تعقيدًا: فهناك، بالإضافة إلى الذاكرة كخاصية فردية وحميمية تعريفًا، الذاكرة الجمعية التي يتشارك بها أعضاء أي مجموعة بشرية والتي تعتبر مكونًا من مكونات هويتهم ودلالة من دلالات خصوصياتهم. ومع ذلك فالعمارة والذاكرة، ببعديها الفردي والجمعي، مترابطتان في تاريخ التجربة الإنسانية ترابطًا تبادلي التأثير: العمارة تؤطر الذاكرة، تجذرها وتعطيها شكلاً. وهي أيضاً تعكس ما اختزنته الذاكرة المبدعة من صور ومفاهيم وتجارب، وما أسقطته عليها الذاكرة الجمعية من مواقف ومشاعر ومعتقدات.

والذاكرة تستعمل صور العمارة، الواقعية والخيالية، التاريخية وغير المتكونة في آن واحد، كمنافذ لتعبيرها عن نفسها. وهي أيضًا تجد تأطيرًا وتأصيلاً لوجودها في العمارة كفعل إدراكي فردي وجماعي وكموجود مادي وحسي. أو هذا ما يفترض أن العمارة كانته عندما كانت تتربع على عرش التعبير والوجدان الإنساني الجماعي كما مثلتها أوابد الأقدمين التي اعتبرت عجائب قبل أن تزيحها الكتابة عن هذا العرش، خاصة بعد اختراع الطباعة في القرن الخامس عشر مما جعل نشر الفكر والمشاعر عن طريق الكتابة سهلاً ومتوافرًا واقتصاديًا. هذا هو على الأقل الرأي الذي افتتح به الروائي الفرنسي الرومانتيكي الخالد فيكتور هوجو (Victor Hugo) مناقشته للعلاقة بين العمارة والكتابة في الفصل النظري الذي خصصه للموضوع بعنوان «هذا سيقتل ذاك» (Ceci tuera cela) في منتصف رائعته الروائية «نوتردام دوباري» (Notre Dame de Paris). ما قصده هوجو هو أن انتشار الكلمة المكتوبة عن طريق الطباعة سيقتل دور العمارة كحاملة للمعنى وكموئل للذاكرة الجمعية بما أنها تؤدي الوظائف نفسها بطريقة أبسط وأوضح وأسرع وبكلفة أقل.

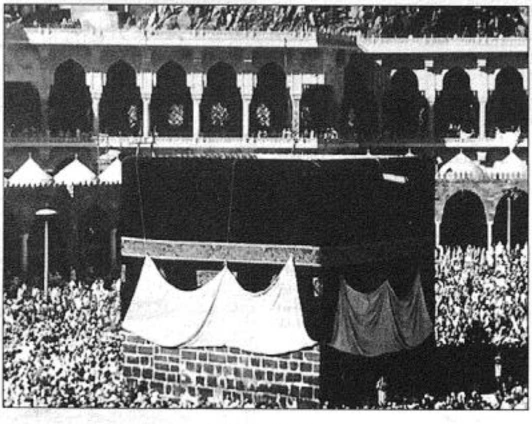
ومع أن هوجو كان بلا مراء سابقًا لعصره، في تحليله للعلاقة بين العمارة والذاكرة الجمعية، فإن تحليله يبقى ابتدائيًا وعامًا في ملاحظته وحديًا في استنتاجاته. فالبحث في مجال العلاقة بين العمارة والذاكرة قد خطا مؤخرًا خطوات فعالة ودقيقة منهجيًا ونظريًا أضافت الكثير من الوضوح وعمق الرؤية لفهم العلاقة بين العمارة والذاكرة الجمعية. بل إننا اليوم نشهد صعود فرع جديد في الدراسات المعمارية يعنى بشكل مباشر بمواضيع الذاكرة الجمعية في العمارة وبالعمارة كذاكرة جمعية، ويعتمد في تنظيره على التقدم الهائل الذي حققته دراسات علم التحليل النفسي (Psychoanalysis) والعلوم الإدراكية (Cognitive Sciences) بالإضافة للفلسفة والاجتماع والأنثروبولوجيا والدراسات النقدية والثقافية المقارنة ودراسات الذاكرة الجمعية نفسها التي أسسها عالم الاجتماع الفرنسي «موريس هالبواشز» (Maurice Halbwachs) الذي كان واحداً من أنجب تلاميذ عالم الاجتماع الفرنسي الأشهر إميل دركهايم (Emile Durk-heim). ويقف على رأس الباحثين المحدثين الذين أثروا دراسات العمارة والذاكرة بنظرياتهم المعمقة الباحث الفرنسي الذي توفي السنة الماضية «بيير نورا» (Pierre Nora) الذي اقترح مفهومين مترادفين للتعبير عن العلاقة بين الذاكرة والعمارة: مفهوم المكان كـ«محيط للذاكرة» (Milieu de memoire) أي كموجود فعلي فراغي ومعاش ومستعمل، ومفهوم المكان كـ«موئل للذاكرة» (lieu de memoire) أي كصورة أو انطباع أو إحساس عما كان أو ما يمكن أن يكون أو ما يهفو الرائي إلى أن يكون ولكن مع غياب الإطار المعماري الذي تنحفر فيه الذاكرة.

وقد طوّر نورا مدلولات هذين المفهومين من خلال كتاباته العديدة والمفعمة ميولاً شوفينية فرنسية عن العلاقة بين المباني العامة والصروح في فرنسا وما تختزنه من الذاكرة الجمعية وبين فكرة «فرنسا» نفسها كما طرحتها النظريات القومية خاصة في القرن التاسع عشر. ولكن العلاقة بين هذين المفهومين بقيت غامضة ومرتبكة منهجياً حتى بعد وفاة مقترحهما نورا: هل هما فعلاً مفهومان منفصلان، وإن كانا مترادفين، يحددان حالتين مختلفتين نظريًا ووجوديًا، أم أنهما وجهان تعبيريان لمفهوم واحد تتغير طبيعته بتغير طبيعة العمارة في العلاقة من كونها هي نفسها حاملة الذاكرة أو من كونها قد أصبحت مكونًا من مكونات الذاكرة من دون وجود مادي حقيقي لها، أي عندما تكون العمارة قد أصبحت جزءًا من الذاكرة، وبما أني أجد الرأي الثاني أدق منهجيًا ومنطقيًا، فإني سأستخدم المفهومين «النورابين» فيما يلي كمفهومين متلازمين يعبران عن علاقة متغيرة تبعًا لتغير واحد من عناصرها فيما أود أن أطرحه هنا من دعوة للتفكر في معنى العلاقة بين المكان (والعمارة كمحدد للمكان) والذاكرة بمداها الفردي والجمعي باعتبارهما عنصرين وجوديين فعالين في تشكيل هوية كل إنسان على حدة وهوية المجموعات والشعوب والإنسانية جمعاء، بنهاية الأمر.

فالعمارة، بالإضافة لوظائفها المعروفة والمباشرة من حيث كونها غلاف الحياة الإنسانية الخاصة والاجتماعية، هي ذلك الفرع من النشاط الحرفي والفكري والمادي الذي طورته الإنسانية لحفظ ذاكرتها، الخاصة والجمعية، بطريقة يترك فيها الكثير للخيال الشخصي وللرغبة الشخصية في صياغة علاقة فردية ومتميزة مع موضوع الذاكرة التي تضم أكثر من فرد واحد، أي الذاكرة الجمعية. ولعل هذا هو سر استمرار العلاقة الوثيقة بين العمارة والذاكرة بعد خمسة قرون من اختراع الطباعة– وبعد ربع قرن من اختراع الكمبيوتر– على الرغم من نبوءة هوجو البتارة بأن الطباعة ستقتل الخاصية الحاملة للمعنى في العمارة. فهذا الفضاء غير المحدد والموجود في كل عمارة فعلاً وتخيلاً. والمهيأ لتمثل أو اكتشاف المعنى من قبل الفرد المتلقي والمستعمل للعمارة. يخلق نوعًا من الحميمية في العلاقة بين هذا الفرد المتلقي وبين الشيء نفسه الذي هو مصدر الرسالة، أي العمارة نفسها. هذا الهامش من الغموض والعشوائية، وبالتالي من الحرية في الصياغة، هو ما يسمح لكل متلق على حدة بأن يصنع معناه الخاص على الرغم من أنه يشارك الآخرين بمعنى جمعي تحدده أطر انتماء أوسع من الفرد ذاته تمتد من العائلة إلى القرية أو المدينة فالوطن والأمة وبالنهاية إلى الإنسانية جمعاء. ولأشرح ما أقصده من خلال نماذج محددة نعرفها كلنا، تقيم في مخيلتنا وذاكرتنا وتتمتع بإعجابنا وترمز عادة لمعانٍ محددة وواضحة يعرفها كلٌ منا وإن كنا، كأفراد، نضيف إليها دائمًا أبعادًا خاصة وشخصية، تجعلها لنا ومنا، بالإضافة لكونها إطارًا لذاكرتنا الجمعية التي تربطنا بالأطر الاجتماعية التي اخترنا أن ننتمي إليها أو التي وعينا على أنفسنا منتمين إليها من دون خيار.

نموذجي الأول هو البيت، أي بيت، ومن بعد ذلك البيت الخاص بأي منا. البيت هو مأوى العائلة ومركز حياتها ومجمع نشاطاتها وموئل ذكرى الراحلين عنها ومرتع الصبا لمن شب فيه وانفصل عنه ليؤسس لنفسه وأسرته بيتًا جديدًا يختزن ذكريات حياته الخاصة المنفصلة عن العائلة الأولى والمرتبطة بعائلته هو أو هي.. والبيوت تتشابه معماريًا، خاصة في المدينة الواحدة وفي الفترة الزمنية الواحدة، فالحاجات الوظيفية والشروط البيئية والاجتماعية متشابهة. ولكن البيوت تختلف أيضاً، ولست أعني هنا الاختلافات المعمارية والشكلية الظاهرية التي تعكس اختلافات طبقية وعقائدية وإثنية وإقليمية. وإنما أقصد الاختلافات التي تجعل من بيت ما بيتي أنا. فهنا ملعب الذاكرة، وهنا تصبح البيوت محيطًا للذاكرة وموئلاً لها في نفس الوقت. هنا تنعدم أحيانًا الفروق بين ماهو موجود في البيت ومستوعب لذاكرة أحملها عنه وما هو متخيل، أو بالأحرى متذكر، مما لم يعد موجودًا أو لم يكن قط موجودًا ولكن ذكراه مازالت تثير فيّ، أي الفرد المتلقي، نفس الارتعاشات والاحساسات، التي أثارها الشيء نفسه عندما كان موجودًا أو عندما تخيلت أنه كان موجودًا. وهنا تبرز تلك الخاصية الفضفاضة للعمارة كموئل للذاكرة الجمعية، أي ذاكرة أفراد الأسرة أجمعين، والذاكرة الشخصية، الأليفة، الحميمة، والخاصة جدًا في آن واحد.

أنا شخصيًا مثلاً يمكنني أن أنظر إلى أي عمارة أسمنتية في بيئة متوسطية (من البحر الأبيض) من ثلاثة أو أربعة طوابق مع شرفات



الكعبة المشرفة فى مكة

واسعة وأصص نباتات فخارية وشبابيك ذات أرتجة خشبية ملونة وأقول عنها «بيت». أى إطار حياة أسرية لا على التعيين ولكنها تحمل بالنسبة لى مفهوم وصورة البيت. ثم أنتقل إلى شارع الروضة فى دمشق وأنظر إلى الطابق الثانى فى عمارة معينة ذات كلسة بنية فاتحة وأرتجة خضراء مغبرة وشرفات طويلة فيها أصص مزهرة ومتنوعة وأقول «بيتى» الذى فيه كبرت، وإليه أحن. وأحس بذلك الإحساس نفسه كلما تذكرت البيت أو رأيت صورته أو تكلمت عنه واصفًا إياه بعينى ذاكرتى وليس بعينى الواقع بالضرورة. وفى كل مرة تستثار فىّ مشاعر قوية وخاصة، لا يشاركنى فيها غيرى مع أن مصدرها هو البيت نفسه الذى يراه الكثيرون غيرى، والذى عاش ويعيش فيه أفراد أسرتى قبل أن أنفصل عنهم لأكوّن بيتى فى الطرف الآخر من الكوكب، والذى يراه كل منهم وفقًا لذاكرته هو أو هى. هذا هو الهامش المعنوى والمتحرر الذى تمنحنا إياه العمارة والذى تكلمت عنه: إنها تحمل فى نفس الوقت الذاكرة الجمعية التى تجعل من البيت بيتًا فى الأساس. الشكل والفراغ، التزيين والإشارات المعمارية، اللون والمواد (ولنتذكر أن كل الأطفال فى بيئة محددة يرسمون البيوت بشكل متشابه). ثم تمنحه خصوصية عائلية يتشارك فيها الفرد مع أفراد عائلته أو مجتمعه الصغير. وبالنهاية تخبئ لهذا الفرد زواياه الخاصة وفراغاته الخاصة التى يحملها بذكرياته الخاصة مما يجعل من البيت ككل، بيته هو بالمعنى الكيانى الأنطولوجى للكلمة، بالإضافة لكونه بيته بالمعنى الاجتماعى للكلمة، أى حيث يقيم وينتمى لوحدة أوسع منه، العائلة، يعرف بها وفى غالب الأحيان يحمل اسمها.

فإذا انتقلنا من الخاص إلى العام، ومن الحميمى إلى الاجتماعى، ومن الفردى أو العائلى إلى المدينى فالوطنى أو القومى ثم الأممى، يمكننا أن نميز تدرجات من أنواع العمارة بحسب اختزانها للذاكرة الجمعية وبحسب حملها للمعنى الفردى والعام. لا يعنى هذا بالضرورة أن أبهة العمارة هى ما تزيد من قدرتها على حمل المعنى، وإن كان هذا هو الوضع السائد فى أغلب الأحيان. فكل مبنى عظيم باذخ مكلف يقترح فائضًا من المعنى لا تملأه كله وظائفه الفعلية مما يستدعى بالتالى تحميله بوظائف رمزية ومعنوية وعقلية لكى تحتوى على فائض المعنى المبثوث فى فائض الفراغ وفائض التكلفة والجهد والبذخ والمواد المستعملة. هذه هى العناصر التى استعملها كل عظيم وكبير ومتكبر فى التاريخ لكى يحفظ ذكراه أو ذكرى قومه. ثم أتى هوجو لكى يرسم عبرها علاقة العمارة بالذاكرة الجمعية ولكى يستنتج أنها قد خسرت أمام زحف الكلمة المطبوعة كوسيلة التواصل المعنوى ومرآة للتفاخر القومى.

ولكن النماذج القليلة المغايرة، بسيطة العمارة ومتواضعتها، هى التى تؤكد لنا أن معنى العمارة لا علاقة له مباشرة بأبهتها وحجمها ودقتها ودرجة البذخ فيها. فالعمارة المؤثرة برأيى، العمارة المحملة بالمعنى بحق، هى العمارة التى لا تفرض على المتلقى معناها بتشكيلاتها المكتملة والمتالقة والمتكبرة والفائضة، بل تستدعيه إليها وتلفت نظره لكونها إطارًا لمجموعة من المعانى الممكنة والمحتملة وغير المفروضة تشكيليًا أو وظيفيًا. العمارة الناجحة رمزيًا ومعنوياً هى التى تقترح ولا تفرض، التى تساير ولا تجبر، والتى تومىء إلى معناها من دون أن تمليه إملاءً. إنها بنهاية الأمر العمارة الفاعلة التى تغوص فى أعماق النفس الإنسانية وتستخلص منها أبسط الأشكال الأولية والطبيعية والمتوازنة بصريًا وهندسيًا، وتبنى منها مجموعًا مركبًا مثقلاً بالفراغات المتروكة خصوصًا من دون وظيفة ولا معنى محدد لكى يتمكن كل متلقٍ من اقتباسها لنفسه ليمنحها مدلولاته الخاصة ومعانيه الخاصة التى تجعلها فى نهاية الأمر عمارته هو، موئل ذكرياته هو، مع ما هى عليه أصلاً من عمارة ذات وظائف جمعية. ومعان جمعية طبعًا، وذكريات جمعية تؤدى رسالتها من خلال تواصلها مع ذلك الهامش الفردى الخاص الذى بناه كل متلق لنفسه فيها.

ولعل المثلين الأروع فى تراثنا العربى الإسلامى، والأبسط معماريًا، اللذين يتركان مجالاً للخيال الفردى وللرغبة الشخصية بالتواصل معهما، هما البيتان الأولان: بيت الله الحرام بمكة المكرمة وبيت الرسول الكريم بالمدينة المنورة. الأول نموذج قائم بذاته متعال عن التقليد إلا فيما ندر، كما حصل مؤخرًا فى نموذج وحيد فى بنجلاديش، وإن لم ينجح مقلدوه فى تحقيق التوازن الدقيق بين الشكل الحامل للمعنى وبين المعنى نفسه. والثانى هو النموذج الأولى والأبسط والأمثل لما أصبحته كل مساجد المسلمين فيما بعد: بيوت صلاة وعبادة واجتماع وتواصل محملة بذكريات المؤسس ولحظات التاسيس فى عمارتها وفى فراغاتها ووظائفها وتفاصيلها، على الرغم من اختلافها اللاحق بالضرورة بسبب اختلاف مناطقها الحضارية والبيئية ومؤثراتها الثقافية والتاريخية والتكنولوجية.

الكعبة المشرفة، ذلك المبنى السحيق القدم الذى كان أول بيت وضع لعبادة الله، تشكيل رائع فى مدلولاته وارتباطاته الإيمانية والحسية والإدراكية، وبالتالى بحمله لمعان بدئية قبل- دينية وذكريات إنسانية أولية وشاملة، قبل أن يصبح موئلاً لذكريات مشتركة بين المسلمين كما لقنهم إياها فى البداية القرآن الكريم والرسول العربى، عن تاريخ الكعبة قبل الإسلام وعن التضحية الإبراهيمية فيها، وكما تجمعت هذه الذكريات على مر العصور وتناقلها المسلمون فى مروياتهم وكتبهم وقصصهم الشعبى. ولكن الكعبة أيضاً، ذلك المكعب البسيط، أمثل فراغ لحمل المعنى المجرد وأكثرها طواعية لفعل الذاكرة الفردية عليه، على الرغم من ثباته ببساطته التشكيلية والهندسية كرمز أصلى للإسلام. فالكعبة بحقيقة الأمر هى الاختزال الأكمل لمفهوم البيت كما يشعر به غالبية البشر بشكل عفوى: المكعب، أكثر الأشكال الهندسية الكاملة إنسانية وأرضية، على عكس الدائرة، أكثرها سموًا وتصعدًا وكمالاً. المكعب فى الذاكرة الإنسانية العامة هو الشكل البدئى للبيت، المأوى والملجأ وملتقى الأحباب ومحط الذكريات. وهى، أى الكعبة، تحمل بالتالى فى بساطتها وفى تكعيبها شبه الكامل هذه الذكريات الأليفة المغروسة فى عمق ذاكرة الإنسانية الجمعية كلها منذ بدأ الناس بالخروج من الغابة والكهف للعيش سويًا فى بيوت مبنية ولينتظموا فى أسر تربطها قرابة الدم والمصاهرة.

ومن هنا قوة الكعبة الرمزية فوق - الدينية، فهى بألفتها وبساطتها ووضوحها واحتوائها المحتمل على كل المعانى المتعلقة بنشأة وترعرع واكتمال نمو الفرد كفرد فى أسرة، تستدعى المتلقى وتهدهده فى بحر ذكرياته الخاصة هو عن بيته، عن مأواه، عن ملجئه، عن موئل ذكرياته الخاصة والخصوصية، وبالتالى تربط نفسها به كفراغ فردى حميمى، مع أنها أيضًا وفى الوعى العام للمتلقى، الفراغ المشترك بين أفراد الأمة الإسلامية كلها والصلة الأرضية التصعدية بالسماء، ومن هنا يأتى نجاح الكعبة كرمز للإسلام. فهى فى الآن نفسه بيت العبادة للرب الأوحد الصمد والمتعالى الكلى القدرة والوجود، أى بؤرة الوجود الإنسانى من منطلق الفهم الإسلامى لهذا الوجود، وهى أيضًا أمثل وأبلغ ذكرى شكلية للبيت الخاص بكل منا وأكثرها عالمية وشمولية على المستوى الإدراكى. وبالتالى فالكعبة فى الآن نفسه موطن الذاكرة الجمعية بمعناها الأشمل، أى ذاكرة الأمة الإسلامية التى تطمح لأن تكون أممية. وبسبب استخدامها للشكل البدئى للبيت، مخبأ الذاكرة الفردية بكل تداعياتها البسيكولوجية من إرهاصات الطفولة إلى فورانات المراهقة ومعاناة الشباب وتجليات الكهولة. ولعل هذا هو سبب فشل مقلديها فى التقاط مدلولاتها المعنوية وصبها من جديد فى مبنى مشابه، أى أن اجتماع الذكرى الإنسانية المتصعدة عن الرب الأوحد والتجربة الأعمق فى التاريخ مع الذكرى الإنسانية المتفردة عن البيت الخاص المغروسة فى كل منا لا يمكن إطلاقًا أن يتكررا فى أكثر من نموذج واحد حصرًا، وبالتالى لا يمكن للكعبة أن تقلد ويحتفظ التقليد بنفس القوة الإيحائية للأصل.

أما بيت الرسول الكريم فى المدينة المنورة.. الذى كان أيضًا مسجده، فهو بحكم انتفاء الصلة الإلهية عنه وبحكم استخدامه الجماعى كملتقى للمسلمين الأوائل وموضع لصلاتهم الجامعة والتقائهم بزعيمهم الروحى والمدنى، قد تطور سريعًا بعد وفاة الرسول لكى يصبح النموذج الأمثل للمساجد معماريًا ووظيفيًا حتى اليوم. أى أن بيت الرسول على عكس بيت الله الحرام نموذج قد صمم أساسًا وهيأ للاستنساخ والنقل والتقليد. وهذا عينه ما فعله المسلمون عندما انداحوا شرقًا وغربًا فى حركة الفتح الأولى. فكل مساجد المسلمين الأول فى سورية والعراق ومصر وفارس واليمن والخليج وأفريقية والأندلس تنبع فى عمارتها من مسجد الرسول

شكلاً وموضوعًا. ولم يكن اتباع هذه المساجد الأولى للنموذج الدينى نابعًا حصرًا من القيمة المثلية والتذكارية لمسجد الرسول، المؤسس الذى غاب، فى المدينة. بل إن عمارة مسجد الرسول نفسها فى الأساس عمارة مهياة وظيفيًا لتلبية احتياجات الجماعة المسلمة الأولى الدينية والاجتماعية والسياسية تهييئًا شبه تام. وبالتالى فقد كان سبب تقليد عمارة مسجد الرسول فى المناطق المفتوحة على الغالب تذكاريًا ووظيفيًا وعمليًا فى الآن نفسه.

ولو أنى أظن أن الاعتبارات الثلاثة كانت قد اختلطت فى أذهان المسلمين الأوائل بحيث إنها كلها دلت على المنبع وأججت ذكراه فى قلوب ونفوس المسلمين الأوائل الذين ما فتئوا يرنون إلى مسجد الرسول كالمأوى الأصلى للأمة المسلمة والإطار الناظم لتعامل أفرادها مع بعضهم البعض كأعضاء فاعلين فى الأمة. وعلى هذا حملت المساجد المقامة تبعًا لمسجد الرسول ملامحه المعمارية وذكرى مؤسسه وأوائل المسلمين. وأصبح بيت الرسول الذى كان أيضاً مسجدًا لعموم المسلمين، حاملاً للذاكرة الجمعية بشكله وتنظيم فراغاته وبعناصره المعمارية كالمنبر والمحراب، والمئذنة فيما بعد، وهى كلها عناصر تطورت عن نماذج بدائية أضيفت لمسجد الرسول فى حياته أو مباشرة بعد وفاته لأسباب مختلفة، ثم انتمت لمحيط الذاكرة الجمعية الإسلامية مما منحها أبعادًا معنوية ورمزية لم توجد فيها أصلاً. وحتى عندما ظهرت نماذج مختلفة معماريًا عن مسجد الرسول، كالمساجد الفارسية ذات الأواوين أو المساجد العثمانية ذات القباب المركزية أو المساجد الأندونيسية ذات السقوف المائلة (والتى تختفى بسرعة فى محاولة جاهلة لتوحيدها مع النماذج السائدة من دون أى احترام لتطورها الثقافى والتاريخى). فهى قد حافظت فى استعمالها للفراغ على الفكرة الأولى خلف بناء المسجد الأول– أى بيت الأمة المفتوح لكل أفرادها– وإن أدخل إليها تراتبية طبقية فى توزيع المصلين داخلها. وحافظت هذه المساجد أيضًا على ذكرى مسجد الرسول فى المدينة عن طريق تفخيمها للعناصر المعمارية الثلاثة، المنبر والمحراب والمئذنة، التى كانت قد اكتسبت عبر الزمن مدلولات رمزية نبوية ودينية قوية وفاعلة. أى أن المساجد كلها، بمختلف طرزها وأساليبها المعمارية المتغايرة والمختلفة، اعتمدت ومازالت تعتمد على الوظيفة الأولى للمسجد كحاوى للذاكرة الإسلامية الأولى، فى تمييز نفسها عن طريق العناصر المعمارية المساعدة للذاكرة بسبب من المعانى المرتبطة بها، كالمنبر والمحراب، وعن طريق محافظتها على وظيفتها الفراغية الأساسية كملتقى المؤمنين وموضع تعبيرهم عن عبادتهم للخالق الواحد وانتسابهم للمؤسس والمثل، الرسول الكريم محمد.

صحيح أن البيتين الأولين فى التاريخ الإسلامى، المسجد الحرام والمسجد النبوى، قد تميزا بعمق وجسامة الأحداث المؤسسة التى حصلت فيهما وحولهما مما أثقلهما بالمعانى الإيمانية القوية والذكريات المتجذرة فى الوعى الإسلامى، ولكنهما، برأيى، قد حققا أيضًا من خلال عمارتهما الذكية ذلك التوازن الدقيق والصعب بين كونهما محيطًا وموئلاً للذاكرة فى آن واحد، أى بين وجودهما المعمارى والفعلى ووجودهما المعنوى، الإيمانى، والرمزى. وهما أيضًا قد احتويا، بسبب من بساطة وعمق



بناء مسجد الرسول فى المدينة: تفصيلة من مخطوطة عثمانية من القرن السادس عشر محفوظة فى متحف الفن التركى والإسلامى فى استنبول.



بيت الكاتب فى شارع الروضة فى دمشق

عمارتهما، على آفاق للمعنى تسمح لكل فرد يتعامل معهما بأن ينسج علاقته الخاصة بهما من خلال تركيب ذكرياته، عن بيته ومأواه هو بالدرجة الأولى، على فراغاتهما وصورهما المهياة أصلاً لاستقبال هذا النوع من الذكريات. وهما بالتالى قد سمحا لكل فرد بخلق صلته الحميمة بهما من دون أن يفقدا ولو ذرة من قوة إيحائهما المعنوية والعقائدية الجمعية.

وإذا سمحت لنفسى بأن أحوّر مفاهيم بيير نورا قليلاً، فسأقول أن البيتين الأولين للإسلام على بساطتهما معبران معماريًا لأنهما يسمحان بكرم وتواضع وانفتاح لكل إنسان بأن يجعل منهما «ملعبًا» ينتقل فيه ببصره وبصيرته بين الذاكرة الجمعية التى تعطيه الإحساس بالانتماء للأمة، وبين الذاكرة الفردية التى تجعل علاقته بالعمارة نفسها علاقة خاصة ودافئة. وهما لذلك مازالا يتحديان نبوءة هوجو أكثر بكثير من غيرهما من المبانى الحديثة التى فقدت ارتباطها بالذاكرة بسبب اندفاع مصمميها إلى ملء كل فراغ فيها بوظيفة ومعنى محددين ومسبقى التعريف مما جعلها عاجزة عن التكيف مع المتلقى الفرد الذى يبحث فيها عن معناه الخاص النابع من فهمه الخاص لها واستعماله الخاص لفراغاتها. أما البيتان الأولان الإسلاميان فهما مازالا يتواصلان معنويًا وإيمانيًا ولكن أيضًا فراغيًا وشكليًا مع المسلمين الذين يؤمونهما أو أولئك الذين يتصورونهما عندما يحلمون بزيارتهما أو عندما يبنون مسجدًا جديدًا أو يرسمونهما على حوائط الحجاج العائدين من زيارة بيت الله الحرام أو مسجد نبيه. وفى كل واحدة من هذه التجارب الحسية، يسمح هذان البيتان للفرد الحاج أو الزائر أو الحالم أو المصمم أو المنفذ أو الرسام بأن يشعر أن تواصله معهما يتجاوز الأطر المؤسسة والجماعية لكى يتخذ صبغة فردية وحميمية تقربه منهما. وهذا هو أنبل ما يمكن لأى عمارة إنسانية حقة أن تحققه. ■

مـــــائـــة فيـــــلم

فى ســـتـين عـــامـــاً مـــن الفـــن الجـــمـيل

فاتن حمامة

فنـــانة مـــن نـــور!

يوســـف القـــعـيـــد

فاتن حمامة لا تعرف اللون الرمادى. ولا تميل إليه. ربما كانت تميل إليه فى ملابسها لا فى مواقفها. فهى إما أن تحب أو أن تكـــره . لاتعرف الحلول الوسط. ولا الموقف الذى يرضى كافة الأطـــراف. وإن كانت لا تحب أن تعلن عن مواقفها وآرائها السياسية بصورة مباشرة. ذلك أنها تراعى جماهيرها فى كل تصرف تقدم عليه. أو رأى تعلنه. ولكن من السهل إدراك مدى إيمانها بالليبرالية السياسية والاقتصادية . وعدم توافقها مع ثورة يوليو ١٩٥٢

.. رأيت فاتن حمامة قبل أن أراها..
وعرفتها قبل أن أتعرف عليها ..

ولذلك قصة. فى نهاية الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن الماضى. سافرت إلى دمنهور طلباً للعلم. يومها. حذرنى والدى ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ من خلال أمى ـ أمد الله فى عمرها ـ من أمرين يخشى علىّ منهما فى المدينة. الأول هو بنات البندر والثانى: دخول السينما. حتى الآن لم أفهم العلاقة بين الأمرين. ولكنى عندما وصلت إلى دمنهور. كان كل همى أن آكل من هاتين التفاحتين المحرمتين علىّ. حتى لو أعادنى والدى من دمنهور. خاصة أنها لم تكن جنة ولا يحزنون. أنحى قصتى مع بنات البندر جانباً. فليس هذا وقت روايتها. ولكنى عند وصولى إلى دمنهور كان يعرض فى سينما دار البلدية ـ تحولت إلى أطلال الآن ـ فيلم «بين الأطلال». وكان أطلال الفيلم. كانت نبوءة بأطلال السينما.

فى مساء يومى الثانى. فى دمنهور كنت هناك فى قلب السينما. سينما دار البلدية. وفى الحقيقة كانت جزءاً من مجمع ثقافى فوقها مكتبة البلدية. والسينما كانت تتحول إلى مسرح وقت اللزوم .

كانت السينما أقرب إلى ماكيت من دار الأوبرا التى احترقت بعد ذلك بسنوات. ويومها شاهدت فارس الستينيات المهزوم عماد حمدى والفتاة مكسورة الجناح فاتن حمامة.. وكان اللقاء الأول .. ولكنه لم يصبح الأخير. يومها وأنا أشاهدها على الشاشة. لم أتصور أنه سيأتى يوم أتعرف عليها فيه. وأزورها فى بيتها. ونتكلم معاً. تتكلم فأنصت وأحكى فتستمع إلىّ. كان قد لفت نظرها لاسمى بعد ذلك بسنوات فيلم المواطن مصرى المأخوذ عن رواية «الحرب فى بر مصر». وقد أثنت عليه بكلمات عامة.

ولكن فى اللقاءات التالية. قالت لى أنها أقرب إلى واقعية بركات منها إلى واقعية صلاح أبو سيف. ذلك أننا يمكن أن نقدم واقعاً حقيقياً لا يؤذى العين ولا يصيب الإنسان بالقرف.

وكان الأستاذ محمد حسنين هيكل قد لفت نظرها إلى رواياتى. فبدأت فى قراءة البعض منها. وهكذا ذهبت إلى شقتها لأول مرة فى إحدى العمارات الكبرى بحى الزمالك بالقاهرة.

ورغم أن والدها المرحوم أحمد حمامة ليس فلاحاً. وهى لم تأت إلى القاهرة من الريف. بل جاءت من المنصورة. المدينة المشهورة بجمال بناتها الفتان. ومع هذا فإن أول ما يقابلك فى مدخل شقتها بمجرد نزولك من المصعد غابة أشجار حقيقية. أشجار عالية تقودك إلى الباب عبر طرقة بين صفين من الأشجار. وكلمة الغابة لا تزيد فيها. والشقة نفسها بعد أن تدخلها. من شقق زمان. براح. ذكرتنى بالسماوات المفتوحة والمدى البعيد فى ريف مصر. وإن كانت الشقة تطل على النيل.

إلا أن فاتن ـ فقد أصبحت أكبر من كل الألقاب ـ قالت لى أنها لا تستطيع أن تتمتع بالنيل. لأنه بسبب الارتفاع الشديد. فهى عندما تنظر إلى النهر. عليها أن تدلى رأسها من الشرفة. وهذه عملية متعبة. تفقدها القدرة على تأمل النيل. إن ما تستطيعه فقط هو النظر إلى الناحية الأخرى من النهر حيث تشاهد حى العجوزة.

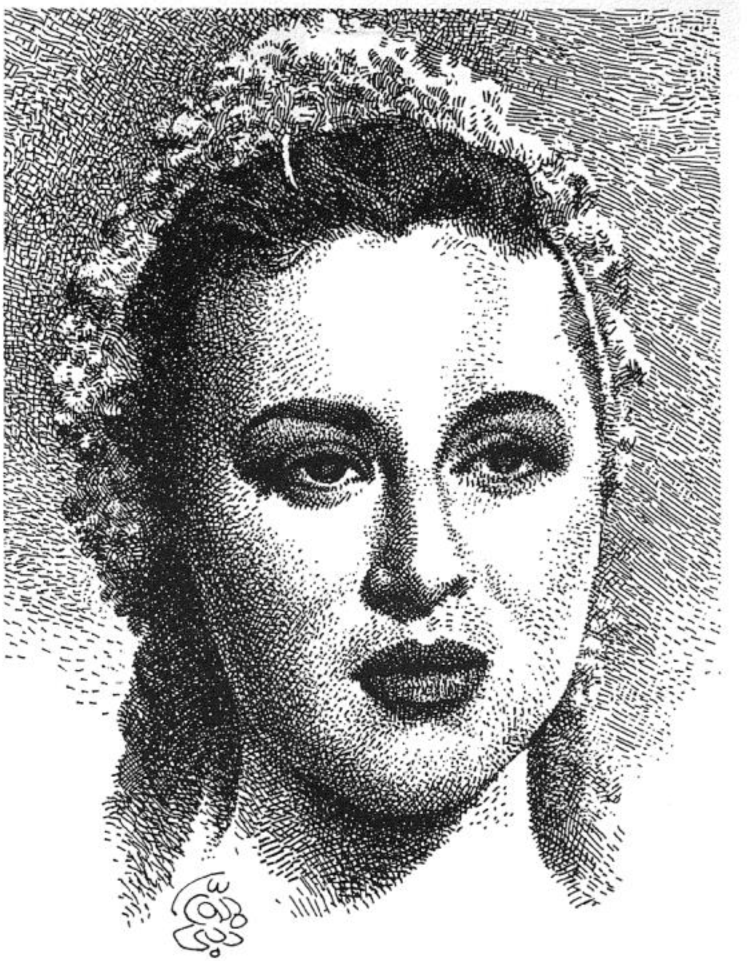
وهكذا تمكنت فاتن بهذا الذكاء وحده أن تضيف لعمرها الفنى عمراً جديداً. عندما قلت لها أن ذكرها جاء فى مسلسل أم كلثوم. عندما كان يعرض فى مثل هذه الأيام من العام الماضى. فسألتنى: كيف؟ قلت لها أن هناك من أخبر أم كلثوم عن الطفلة الصغيرة التى ظهرت مع عبد الوهاب فى فيلم يوم سعيد. وإن أم كلثوم وصفت إحضار عبد الوهاب لطفلة لا يعرفها أحد بالذكاء. قالت فوراً: إن المنافس الحقيقى لأم كلثوم كان عبد الوهاب. ودعك من كل ما يقال عن فنانات أخريات فى حياة أم كلثوم. كانت علاقتهما معقدة. ولكن لابد من القول أنه كان التنافس الخلاق الإيجابى. الذى يدفع كل طرف إلى الإجادة أكثر من الطرف الآخر. أما التنافس السلبى الذى يؤدى إلى تحطيم الآخر والحقد والغيرة فلم يعرف طريقه إليهما. فاتن حمامة لا تعرف اللون الرمادى. ولا تميل إليه. ربما كانت تميل إليه فى ملابسها لا فى مواقفها. فهى إما أن تحب أو أن تكره . لاتعرف الحلول الوسط. ولا الموقف الذى يرضى كافة الأطراف. وإن كانت لا تحب أن تعلن عن مواقفها وآرائها السياسية بصورة مباشرة. ذلك أنها تراعى جماهيرها فى كل تصرف تقدم عليه. أو رأى تعلنه. ولكن من السهل إدراك مدى إيمانها بالليبرالية السياسية والاقتصادية . وعدم توافقها مع ثورة يوليو ١٩٥٢. وهذه نقطة خلاف دائمة ومستمرة بينى وبينها . ولكنها تختار موقفها بعناية. وبعد أن تقلبه على كافة الوجوه. فهى سعيدة بالسلام فى المنطقة. لكنها ليست مستعدة للذهاب إلى فلسطين المحتلة. رغم أن ذلك قد يسعد الفلسطينيين. وفى منتصف أكتوبر الماضى كانت تحرص على العودة من تصوير مسلسل «أوراق الخريف» مبكراً إلى بيتها حتى تتابع أخبار انتفاضة الأقصى. لحظة بلحظة. بل وطلبت من التليفزيون إحضار مشاهد منها ليتضمنها المسلسل. بدلاً من المشاهد القديمة التى كانت موجودة . فمواقف الفنان الذى يتمتع بشعبية فاتن حمامة لابد أن تكون محسوبة بعناية. فاتن حمامة دقيقة فى مواعيدها. تأخذ عملها بأكبر قدر من الجدية . ترى كافة مكونات العمل الفنى: السيناريو. الملابس. الديكور. الموسيقى. من وجهة نظر امرأة. تهتم فى عملها وسلوكها بالبعد الأخلاقى. وتراعى متطلباته لحد التزمت. أيضاً

ـ فاتن حمامة
سمير فريد
١٢٥ صفحة
صندوق التنمية الثقافية ١٩٩٥

ـ فاتن حمامة
خمسون عاما من العطاء
بدون سنة نشر
مهرجان القاهرة السينمائى الدولى الخامس عشر
إعداد : منير محمد إبراهيم

ـ نجوم بها نهتدون
خميس الخياطى
ميديا كوم للنشر والتوزيع
تونس ١٩٩٨
١٧٠ صفحة

ـ مصطفى أمين
مسائل شخصية
أخبار اليوم . قطاع الثقافة
١٩٩٦
٢٨٠ صفحة



فهى معنية بصورتها الذهنية عند الجمهور. عند الاستعداد لعمل فنى جديد تصبح فترة الإعداد له أطول من وقت تنفيذه. تهتم بالتفاصيل الصغيرة. التى تصنع الصورة النهائية للعمل. تقرأ السيناريو بعناية فائقة. كثيراً ما تعدل وتبدل وتغير. « نمكية » تبدأ من الشخصية التى ستؤديها. ويصل الأمر إلى أن تقول رأيها فى الشخصيات التى توجد فى العمل معها. وفى بعض الأحيان تشارك فى اختيارهم. لا تتسرع فى العمل. تأخذ وقتها فى إقامة صداقة مع الشخصية التى ستمثلها. تتعمقها. تدخل تحت جلدها. بقدر كبير من الصبر والأناة والمثابرة لدرجة اننى أستطيع أن أؤكد من الآن « ديسمبر ٢٠٠٠ » أن فاتن حمامة ستتحول ـ إن عاجلاً أو آجلاً والأدق عاجلاً ـ إلى الاخراج. هى لم تقل لى ذلك لا تلميحاً ولا تصريحاً. ولكن معايشتها عند تحويل العمل الذى تؤديه من كلمات على الورق إلى صوت وصورة. تؤكد أن هذه الفكرة قد راودتها أكثر من مرة. وأنها بعد تقليب الأمر على وجوهه المختلفة أصبحت أميل إلى ذلك. تعرف كيف تصون حياتها الخاصة بعيداً عن فضول الآخرين. وتصد لهاثهم من أجل أن يعرفوا عنها كل شيء، وأى شيء.

عندما تجلس مع فاتن حمامة. تفصل بينك وبينها كلمة صحفى. تستيقظ قرون الاستشعار بداخلها. تقول لك كشرط أولى أو كعقد اتفاق مبدئى: لن أتكلم معك فى أى أمر من أمور حياتى الشخصية. وتظل متيقظة طوال الوقت لهذا الشرط. فإن انزلق الكلام إلى الأمور الشخصية توقفت فوراً . مع انها تنسى كونها شخصية عامة. تلهث الناس وراء أخبارها الشخصية. وإن لم يعرفوها. لا بد أن يتطوع الكثيرون منهم بتأليفها. كما لو كانوا يعرفونها بصفة شخصية. وهذا جزء من الخيال الشعبى وما ينسجه حول الفنان من قصص وحكايات. ربما كانت بعيدة عن الحقيقة. تحاول فاتن أن تبدو شديدة التحفظ . ولكن ما إن يأخذها الكلام حتى تعود إلى طبيعتها. إنسانة بسيطة. ولذلك فإن اللازمة التى ترددها كثيراً فى كلامها.هى: هذا الكلام ليس للنشر. هذا الكلام لك بشكل خاص، أو أن تطلب منى نسيان ما قالته. وإن كانت لا تعرف أننى بمجرد العودة إلى مكتبى أو منزلى. بعد أى لقاء معها، أدون جميع ما سمعته منها.

القلب صياد وحيد:

حسب ما جاء فى دليل الممثل العربى فى سينما القرن العشرين. من تأليف محمود قاسم ويعقوب وهبى أنها مولودة فى ٧/ ٥/ ١٩٣١ واسمها فاتن أحمد حمامة. وهى ابنة أحمد حمامة. قال محمد كريم عنه فى مذكراته. أنه كان يعمل مدرسا وكان يعيش فى مدينة المنصورة. تعلمت فاتن حمامة فى المدارس الثانوية. وفى معهد التمثيل. ولكنها ـ كما يقول سمير فريد ـ تمكنت من تثقيف نفسها ثقافة واسعة وعميقة باللغتين الانجليزية والفرنسية. تزوجت فاتن حمامة ثلاث مرات . الأولى من المخرج عز الدين ذو الفقار وأنجبت نادية. مثلت نادية عز الدين ذو الفقار فيلمًا ولكنها لم تستمر فى التمثيل. المرة الثانية من الفنان عمر الشريف وانجبت طارق. عمل طارق عمر الشريف ممثلاً فى فيلم دكتور زيفاجو مع والده ولكنه لم يكمل هذا الطريق. وتزوجت مرة ثالثة ـ ولاتزال ـ من الدكتور محمد عبد الوهاب وهو أحد كبار الأطباء المصريين. وقد هاجرت فاتن حمامة من مصر فى الفترة من ١٩٦٥ إلى عام ١٩٧١ حيث عاشت فى بيروت ثم فى لندن.

فى ٧/ ٤/ ١٩٥٤ كتب جليل البندارى تحت عنوان: سر طلاق فاتن حمامة:

ـ اتفقت فاتن حمامة وزوجها المخرج عز الدين ذو الفقار على أن يفترقا كصديقين، وترك عز الدين ذو الفقار الشقة بناء على رغبة زوجته ليقيم فى مقصورة باليخت « قاصد خير » بجوار كوبرى قصر النيل. وسوف تظل فاتن حمامة فى الشقة هى وابنتها والمربية حتى تعثر على شقة لها ، ثم تتركها لزوجها. وهكذا انتهت قصة زواج فاتن حمامة وعز الدين ذو الفقار. وقد حاول أصدقاء الزوجين ـ قبل الطلاق وبعد الطلاق ـ أن يصلحا بينهما دون جدوى. فقد ركبت فاتن حمامة رأسها فى هذه المرة. وأصرت على عدم الصلح.

إلى أن يقول:

ـ إن جميع أفلام فاتن حمامة تنتهى دائما بزواجها من البطل. أما قصة حياتها هى. فقد بدأت بالزواج وانتهت بالطلاق.

يقول عز الدين ذو الفقار:

ـ أنا السبب

وتقول فاتن حمامة:

ـ هو السبب

وفى ٥/ ٢/ ١٩٥٥ كتب على أمين فى «الجيل» ، تحت عنوان : دموع فاتن حمامة: أنا أريد من كل قارئ أن يخرج منديله ويجفف معى دموع فاتن حمامة. ماذا فعلت فاتن حمامة؟ إنها أحبت عمر الشريف بعد طلاقها من زوجها الأول. وتزوجت منه. وكان الشاب الذى أحبته مسيحيا فأسلم ليتزوجها. فلا هى خرجت من دينها لتتزوج. ولا هى خرقت تقاليد الشرع فتركت زوجها يحتفظ بدينه القديم. وأنا لا أشجع زواج المسلمة من مسيحى. ولا زواج المسيحية من مسلم. فإن هذا الزواج يخلق أطفالاً حائرين بين أسرة الأب وأسرة الأم. ويحدث ارتباكات لهؤلاء الأطفال فى المستقبل. فإذا كبر الطفل اضطرته الأيام أن يدفن خاله فى الإمام الشافعى وعمه فى كنيسة مارجرجس. إن الادعاء بأن حياة الفنانة هى ملك للجمهور هو كلام فارغ ونفاق رخيص. فإن حياة كل إنسان هى ملكه الخاص. ولا يجوز أن يتدخل فيها أحد. ولقد استعملت فاتن حمامة هذا الحق ومن واجب كل الذين أحبوها أن يخرجوا اليوم مناديلهم، ويجففوا لها دموعها، ويقولوا لها: مبروك .

البدء من القمة:

تقدمت فاتن إلى مسابقة فيلم يوم سعيد أمام محمد عبد الوهاب. ونجحت فى هذه المسابقة. يقول محمد عبد الوهاب عنها :

ـ شعرت وأنا أتكلم معها كأنها امرأة عندها أربعون سنة. ولأن تعليمها فرنساوى. فقد كانت تنطق حرف الراء. بشكل يصعب معه أن تكون بنت الشيخ مصطفى حسب دورها فى فيلم يوم سعيد. فقلت لها : لكن الراء عندك ياحبيبتى ياصغيرة،

فـــاتن حـــمـــامـــة



غير معقولة تتكلمين بها بالشكل الفرنساوى. ونحن لسنا فرنسيين. وبالفعل فإن هذه البنت وهى فى مثل هذه السن الصغيرة . كانت تستطيع أن تملك قوتها وأعصابها وفهمها وإدراكها. إنها من يومها لها قيمة. وواضح من خطواتها إنها وصلت إلى القمة ليس من فراغ ولكن عن قوة كافية أعطاها لها ربها. وبفضل مساعدة زكى طليمات بعد ذلك. تخلصت من عيب فى النطق. كانت تعانى من لثغة فى حرف الراء. كانت تنطقه غيناً .

عن هذه اللحظة نفسها يقول المخرج محمد كريم :

ـ كان نبوغها منقطع النظير. وكانت إلى جانب ذلك عملاقة فى طاقتها التى فاقت الحدود. كانت تعمل من السادسة صباحاً إلى السادسة مساء دون أن يبدو عليها التعب.

لقد أيقنت وأدرك الجميع أننا إزاء موهبة. فاشرت على عبد الوهاب أن يتعاقد معها لأكثر من فيلم. ولكن للأسف مضى شهر وسنة وسنتان بل سنوات كثيرة. ولم تظهر الطفلة العبقرية فاتن فى السينما. لقد مضت هذه الطفولة الرائعة دون أن يستغلها أحد. مضت كطيف جميل سريع الظهور سريع الاختفاء. فرغم النجاح الرائع الذى أحرزته فى دور أنيسة لم يعن أحد بإظهارها حتى عبد الوهاب الذى تعاقد معها. كان يجب أن تظهر لفاتن الطفلة عشرات الأفلام. فقد كانت هذه الطفلة صاحبة عبقرية تمثيلية.

فاتن نفسها. تقول بعد ذلك بسنوات طويلة. فى منتصف الثمانينيات. عن هذه التجربة:

ـ التمثيل بالنسبة لى هواية. والإنسان لا يتحول عن هوايته التى يحبها. فمن يهوى الرسم أو صيد الأسماك يظل على هوايته.

يقول سمير فريد عن فاتن الطفلة:

ـ لقد اكتسبت فاتن حمامة منذ دورها السينمائى الأول عدم الخوف من الكاميرا. وأدركت بعد أن تجاوزت مرحلة الطفولة أنها لا بد أن تحتفظ بشجاعتها أمام الكاميرا. أدركت فاتن أن التمثيل مهنة مثل كل المهن. وأن التفوق فى هذه المهنة هو القدرة على الإيهام بصدق ما هو غير حقيقى. وأن ذلك يتم عن طريق الوقوف على الخيط الرفيع بين الواقع والإيهام بالواقع. وهنا تكمن الحرفة أو الصنعة أى المهنية. أدى نجاح فاتن حمامة منذ الأربعينيات إلى تحولها إلى مدرسة غير مسبوقة فى التمثيل السينمائى.

تقول فاتن حمامة عن التجربة الأولى فى حياتها. التى تبقى دائما وأبداً التجربة الأكثر أهمية:

ـ كانت مرحلة الطفولة. من أروع وأسعد فترات حياتى الفنية. كنت محاطة بالتدليل والرعاية والاهتمام من جميع من كانوا فى الاستديو. خاصة المخرج محمد كريم. والبطل محمد عبد الوهاب. محمد كريم خصص لى فى الاستديو حجرة مستقلة . رغم أنها لم تكن تخصص سوى للممثلين الكبار. وفى هذه الحجرة كانت هناك لعب كثيرة. كنت أجرى إليها فى أوقات الراحة بين التصوير . وكنت أقضى مع هذه اللعب أسعد أوقاتى. خلال العمل كنت أسمع الكلام جيداً وأعطى انتباهى للتعليمات التى تصدر من المخرج محمد كريم. وأذكر أننى عندما كنت أجيد العمل . كان الفنان محمد عبد الوهاب والمخرج محمد كريم. يكافأننى بلعبة جديدة. أو قطعة حلوى . لقد تعلمت من هذه المرحلة أهمية وضرورة الاجتهاد فى العمل. لابد أن ياخذ الانسان عمله بأكبر قدر من الجدية. لابد أن يقدم الإنسان للناس ما يحبون منه. وأن يكون دائما عند حسن ظن الناس به. إن ذلك هو كلمة السر فى أى نجاح فى العمل. لا نجاح بدون جهد واهتمام وإجادة . وهو الدرس الذى آخذ نفسى به حتى الآن.

ـ بدأت فاتن التمثيل قبل أن تتعلمه فى فيلم يوم سعيد عام ١٩٤٠، وكان عمرها تسع سنوات. وعندما تخرجت من معهد التمثيل سنة ١٩٤٧ كانت قد مثلت ١١ فيلما. أى إن موهبة فاتن حمامة سبقت دراستها. تقول إن حجم الدور ليس مهما ولكن المهم هو عمل الدور بشكل جيد أم لا.

مشروع العمر

فى الكتب الثلاثة المكتوبة عنها. هناك ثلاثة مناهج للتعامل مع نتاجها الفنى. سمير فريد يركز على تمثيلها للمرأة المصرية فى كافة مراحل حياتها. ابتداء من الطفلة. ثم الشابة والزوجة وهذا ما قدمته فى أفلام الأربعينيات والخمسينيات وأخيراً: الأم والجدة فى أفلام السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات. وبذلك تكون فاتن حمامة هى الفنانة الوحيدة التى جسدت حياة المرأة المصرية بدءا من الطفلة وحتى الجدة. أما منير محمد إبراهيم. وعاطف فتحى ورفيق نصر الله ويوسف شريف رزق الله فى كتاب «فاتن حمامة.. خمسون عاماً من العطاء». فيتم التركيز على تطور مراحلها الفنية. أولاً : مرحلة التكوين الفنى وصقل الموهبة من ١٩٤٥ حتى ١٩٥١ وهى السنوات السبع الأولى من عمرها الفنى. وكانت قد بلغت الخامسة عشرة من عمرها. وكانت قد التحقت بمدرسة الأميرة فوقية بالجيزة بعد انتقالها وأسرتها للإقامة فى القاهرة. فى نفس الوقت الذى التحقت فيه بالدراسة فى المعهد العالى لفن التمثيل العربى. والمرحلة الثانية: هى فترة التكوين والبحث عن الذات من عام ١٩٥٢ وحتى ١٩٥٨ وهى السنوات السبع التالية من عمرها الفنى. وقدمت فيها أكثر من ثلاثين فيلما. وفى هذه المرحلة لم تكن ارادتها فى اختيار أدوارها كبيرة. إذ لم تكن قد تبلورت بعد. والمرحلة الثالثة: هى مرحلة النضج من عام ١٩٥٩ وحتى ١٩٦٥.. وابتداء من هذه المرحلة لم تعد تقبل الأدوار المعروضة عليها، ولكنها بدأت تختار أدوارها بعناية، وتدرسها جيداً، معتمدة فى الغالب على نصوص أدبية لأدباء مشهورين. ومثلت فى هذه المرحلة عشرة أفلام. والمرحلة الرابعة من ١٩٧١ -١٩٨٨ هى مرحلة أفلام الرسالة الاجتماعية . وهى المرحلة التى ركزت فيها على قضايا المرأة. وبعض أفلام هذه المرحلة مثل: «أريد حلاً» تسببت فى حل الكثير من مشاكل المرأة المصرية. قد انقطعت فاتن حمامة عن العمل مرتين؛ الأولى من ١٩٦٦ إلى ١٩٧١ بسبب هجرتها خارج مصر. والثانية من عام ١٩٨٠ إلى ١٩٨٨. أما كتاب محمد الصاوى «فاتن حمامة مائة وجه فى السينما المصرية» فيركز على أفلامها فى شكل فصول متتابعة، والأدوار التى قامت بها فى هذه الأفلام.

وإن كان لا يوجد أى اتفاق بين الذين كتبوا قصة حياتها على عدد الأفلام التى قدمتها . أكثر من أن الفيلم الأول هو يوم سعيد ١٩٤٤.. وأن الأخير هو : أرض الأحلام سنة ١٩٩٣ .أى منذ سبع سنوات مضت .لكن عدد هذه الأفلام يتراوح بين ٩٥ فيلما و٩٧ فيلماً ومائة وثلاثة أفلام. لأن بعض من أرخوا لها استبعد الأفلام التى قدمتها خارج مصر مثلا. ولأنه لا توجد فى مصر جمعية توثق ما قدمه الفنان خاصة عندما يكون فى مستوى فاتن حمامة. ويترك الأمر للاجتهادات.







أستطيع أن أؤكد من الآن «ديسمبر ٢٠٠٠» أن فاتن حمامة ستتحول - إن عاجلاً أو آجلاً والأدق عاجلاً - إلى الإخراج. هى لم تقل لى ذلك لا تلميحاً ولا تصريحاً. ولكن معايشتها عند تحويل العمل الذى تؤديه من كلمات على الورق. إلى صوت وصورة. تؤكد أن هذه الفكرة قد راودتها أكثر من مرة

الزوج مخرجاً
المخرج زوجاً

يقول الناقد السينمائى طارق الشناوى فى كتابه: «عز الدين ذو الفقار شاعر السينما»:

- يؤمن عز الدين ذو الفقار بالفريق الواحد. وقد قال ذلك نظرياً وطبقه عملياً. ولكنه رغم إيمانه بذلك. فإنه يقول فى نفس الوقت: «إن فاتن حمامة هى رقم واحد بين كل نجمات السينما المصرية. وأنه لا توجد فى الترتيب من تحقق المركز الثانى أو الثالث. ونبدأ العد من المركز الحادى عشر. رأى غريب فيه شيء من التطرف فى الحب والاقتناع الفنى المغرض الذى ربما يظلم مواهب أخرى. إلا أننا فى الفن نمنح المخرج حقه المشروع فى تلك القناعة. حيث أن فاتن هى التى تعبر عن أفكاره التى يطرحها على الورق. وأنا أشعر أن عز فى تعامله مع فاتن يشبه تعامل الأخوين رحبانى مع فيروز. وكأنها المنبع والمصب. كذلك فاتن بالنسبة لعز الدين ذو الفقار فهو يكتب ويختار القصة السينمائية وتبدو فيها فاتن هى الملهمة الفنية التى ينفعل فنياً من أجلها. وهى المنبع والمصب لأفكاره وإحساسه ولهذا كانت لها تسعة أفلام أى حوالى ٣٠٪ من أفلامه. وفاتن على الجانب الآخر كانت ترى نفسها أيضاً فى سينما عز الدين ذو الفقار. ولهذا فإن الطلاق بينهما لم يؤد إلى أن ينطلق كل منهما بعيداً عن الآخر. حيث يعاودان اللقاء بعد ثلاث سنوات من الانفصال فى فيلم طريق الأمل عام ١٩٥٧، ثم بين الأطلال عام ١٩٥٩، ثم نهر الحب عام ١٩٦٠.. كانت فاتن حمامة بالنسبة لعز الدين ذو الفقار مثل عازف الكمان السوليست فى فرقة أوركسترالية. العازف ماهر. الموسيقى موحية. والمايسترو يحتاج إلى العازف المنفرد السوليست المبدع . وأيضاً العازف لا يبدع إلا مع مايسترو يجيد فن قيادة الفريق ويعرف بالضبط الجمل الموسيقية التى يحلق بها إبداعاً هذا العازف. لهذا كانت بينهما علاقة تبادلية صنعا من خلالها أفلاما أدخلتهما - معاً - التاريخ: فى فيلم طريق الأمل يسند عز إلى فاتن حمامة دور امرأة تبيع جسدها لمن يدفع . حتى ولو كانت شخصية المومس الفاضلة - فإن هذا ولا شك يمثل جراة لا تتوفر إلا لمخرج له وزن ورؤية عز الدين ذو الفقار. إن الجمهور يضع كبار فنانيه. خاصة الذين يعشقهم فى مصاف الملائكة. الذين لا يخطئون. وفاتن حمامة على قمة الفنانات اللاتى ارتبطن بما يقرب من التقديس الشخصى لدى جمهورها. على الجانب الآخر فإن الفنان نفسه يفكر ألف مرة قبل أن يحطم هذه الصورة الثابتة. ولكن عز الدين ذو الفقار غامر ورشح فاتن لهذا الدور. وفاتن أيضاً لم تخش القبول وقررت أن تتحدى كل هذه المحاذير على هذا الدور الشائك . فى فيلم «بين الأطلال» مشهد تبدو فيه عبقرية فاتن حمامة فى الأداء وهى على السرير تستمع إلى حديث روحية خالد عن عماد حمدى وكيف استطاعت فاتن أن تقدم تعبير الدهشة المجروحة بعينيها وملامح وجهها وروحية تخبرها عن عماد حمدى وهى التى ينبغى أن تبدو محايدة. وإن دهشتها لما تسمعه هى دهشة إنسان محايد لا يعرف شيئاً.

لم يكن عز يفضل فيلماً معيناً من أفلامه على أفلامه الأخرى. ولكنه كان يحب مشهداً من فيلم نهر الحب لفاتن حمامة. وكانت ترى فيه ابنها فتنتظر إليه وتبكى . فكان إذا ما رأى هذا المشهد يوقف العرض ويبكى. وكان عز فى حياته الشخصية إنساناً جميلاً رائعاً. فرغم طلاقه من فاتن. إلا أن علاقتهما استمرت جيدة جداً بعد الطلاق على المستوى الشخصى. وعلى المستوى الفنى أيضاً . فعندما عرض عليها بطولة فيلم «بين الأطلال» وافقت على الفور . بل وسعدت بالعمل معه. ودعوناها على الغداء هى وعماد حمدى فى منزلنا وتمت قراءة السيناريو عندنا. لقد كان يجد متعة كبيرة فى العمل مع فاتن. فهى كانت طيبة جداً وكل ما كان عز يريده كان يجده لديها. ولم يكن هذا التسامح بين عز وفاتن فقط. بل كان مع عمر الشريف أيضاً. فقد أخرج لهما فيلم نهر الحب وأيضاً تم التحضير للفيلم وقراءة السيناريو فى منزلنا. وأثناء التصوير كان عز يطلب منها إعادة بعض المشاهد العاطفية لتكون أكثر عمقاً والقبلات لتكون أكثر سخونة ولا يستطيع أحد أن يلقى باللوم على أحدهما. وينسب له خطأ فشل حياتهما الزوجية. فقد كان اختلاف شخصيتيهما هو السبب . فقد كان عز إنسانا بوهيميا. يفعل كل ما يروق له بلا نظام. ولم تحتمل فاتن . ولكنها كانت تتحامل على نفسها.

ثلاثية المرأة:

بركات هو المخرج الأقرب إلى فاتن حمامة. من بين الأفلام التى أخرجها لها. قدم معها أهم ثلاثية سينمائية عن المرأة المصرية: دعاء الكروان والباب المفتوح والحرام. يقول بركات لهاشم النحاس فى كتابه عنه :

- فاتن تعد أكثر بطلة قدمت لها أفلاماً . أول فيلم اشتركت معى فيه كان الهانم ١٩٤٦، دور صغير لمدة يومين أو ثلاثة. ولم يكن ذلك كافياً لإقامة المعرفة بيننا. ابتدأت المعرفة فى فيلم العقاب ١٩٤٨، وإن لم تتم من خلال عمل هذا الفيلم «التكة» التى تربط ممثلا بمخرج. لكن اقتربنا أكثر من بعضنا. على الأقل كان الاعجاب بعملها من ناحيتى. أما هى فكانت تعمل مع كثير من المخرجين غيرى. ثم حدثت «التكة» التى تربطنا معاً فى فيلم لحن الخلود ١٩٥٢. وعندما حدثت هذه «التكة»، شعر كل من الطرفين بالراحة فى العمل مع الآخر. وبدأت أفكر أن تكون بطلة أفلامى. وبدأت هى تفكر فى أن أكون مخرج أفلامها. أما الذى أحدث هذه «التكة» فى لحن الخلود. فقد كانت كلمة السر فيها هى الأداء. أداء فاتن فى دور فتاة تعيش مع أختها. وهى مريضة بالقلب وتقع فى حب فريد الأطرش. دور من نوع سندريلا قادر على الوصول إلى الناس بفضل أداء فاتن. ومن وقتها أصبحت بدون تعمد كلما أقرأ رواية أو أفكر فى عمل فيلم، أجد نفسى أفكر فى فاتن حمامة باعتبارها بطلة الفيلم.

النجم والممثل:

يعرّف صلاح أبو سيف لخميس خياطى الفارق بين النجم والممثل. فالنجم هو صاحب الاسم الكبير الذى يفترض به أن يجر المتفرج إلى السينما. بمعنى أن الأفلام تصنع من أجله. قد يكون النجم ممثلا جيداً وقد يكون ممثلا غير جيد. ومع هذا فإن شهرته وحب الناس له. يدفعان المنتجين إلى الاستعانة به. فتكون الأفلام مصنوعة له وانطلاقا منه. أما الممثل فهو الذى بإمكانه أن يتقمص أى دور. وأحيانا يتحول الممثل إلى نجم بسبب شهرته واسمه الكبيرين. مما قد يجعل منه اسم شباك تذاكر. لكن الكثير من الممثلين ليسوا نجوما. والكثير من النجوم ليسوا ممثلين.

وينتقل صلاح أبو سيف إلى فاتن حمامة الممثلة التى أصبحت نجمة:

- من أدوات التعبير لدى فاتن حمامة وجهها ثم صيغة نطقها









للحروف. وهذه ميزة كبرى عندها. إذ تمتلك القـــدرة على أداء أدوار بنت البلد. والبنت المائعـــة. وعندها إمكانيـــة أداء الأدوار التى تتناسب مع سنها وشكلها وجسمهـا. لأنها رقيقة فى الحجم. والأكثر من ذلك أن دمها الخفيف. ولاننسى أن فاتن أدت أدوار الكوميدى مثل الأستاذة فاطمة . ثم إن فاتن لها أحسن الأخلاق فى الوسط الفنى المصرى. فهى إنسانة تحترم عملها خلافا عن الفنانات الأخريات. تحترم مواعيد الشغل. تعتنى بالعمل مع المخرج. تنظر إلى الديكور مثلا من وجهة نظر نسائية. إنها تعتنى بالأشيـاء الأخرى وبالآخرين. كذلك علاقة فاتن بالطاقم الفنى. وبالرغم من نجوميتها «المكتسحة» فهى بعيدة عن التوتر والتشنج . تأتى إلى البلاتوه قبل الفنيين حافظة لدورها. علاقتها بالعمال وأصغر المساعدين علاقة جيدة. لا تتعالى عليهم. تحترم نفسها وتحترم الآخرين. تهزر معهم ولكن فى حدود اللياقة. إنها إنسانة يحب أى مخرج العمل معها. إلا أنها ككل امرأة، لا تحب أن تكون بجانبها امرأة أجمل منها. فاتن إنسانة جميلة. امرأة عصرية. وحينما تكون بجانبها امرأة جميلة تتوتر. إن الذى ترك بصماته الفنية على فاتن فى شخصية البنت الغلبانة هو حسن الإمام. لأنه عمل معها فى العديد من الأفلام. وكلها على ذات النمط. ولذلك أحبها الجمهور المصرى والعربى. فرغبت دائما فى أن تستمر على ذلك النمط. بينما هى كممثلة لا كنجمة بإمكانها أداء أى دور. والجمهور شبع من أدوار البنت المسكينة.

صـــــورة تـذكـــــارية

فى سنة ١٩٩٦ وفى إطار الاحتفالات بمرور قرن على السينما المصرية. قام مهرجان القاهرة السينمائى الدولى بعمل استفتاء ضخم. أشرف عليه أحمد رأفت بهجت. عن أهم الأفلام فى تاريخ السينما المصرية. وقد جاءت الأفلام التى قامت ببطولتها فاتن حمامة فى المرتبة الأولى. تليها سعاد حسنى مباشرة. مع أنه لم يفز فيلم واحد لإسماعيل يس فى هذا الاستفتاء.

يقول نادر عدلى فى دراسة ملحقة بهذا الاستفتاء: كانت فاتن حمامة صاحبة أعلى رصيد فى الأفلام كممثلة ونجمة وهى نتيجة صادقة ومريحة أيضاً. جعلتها أهم النجوم فى تاريخ السينما المصرية. فجعلتها سيدة الشاشة العربية. لقد جاءت فاتن حمامة بأسلوب جديد فى الأداء يعتمد على التلقائية والبساطة والقدرة على التعبير دون افتعال. والصدق فى تقمص الشخصيات المختلفة. هذا الصدق هو الذى جعل شخصيات أفلامها تلقى كثيراً من التعاطف. وكان حضورها الطاغى على الشاشة سبيلها إلى تحقيق حالة فريدة للممثلة النجمة التى استطاعت أن تحتفظ بمكانة الممثلة الأولى منذ أواخر الأربعينيات وحتى الآن.

يقول عنها الناقد السينمائى الفنان كمال رمزى فى كتابه، «نجوم السينما المصرية : الجوهر والأقنعة» : فاتن فنانة فوق العادة. تمثل وكأنها لا تمثل. تعتمد على حساسية داخلية رهيفة. تسيطر على عواطفها أثناء التمثيل. وقدرة صوتها على منح الكلمات معانيها. إنها الثروة الهائلة التى لم تبدد شطراً كبيراً فيما لا يفيد. يتجلى سحر فاتن حمامة فى أن تجعل المشاهد يرى ويلمس ويتفهم انفعالها الحقيقى. الذى وإن كان لا يظهر على الشاشة. إلا أن الأستاذة الفنانة تستطيع أن تنقله بجلاء ووضوح إلى المشاهدين. وهذا حقيقة المجد الفنى. لديها احساس مرهف بالمسئولية تجاه نفسها واسمها وإنجازها. إن فاتن لا تملأ الفيلم بفنها فحسب ولكنها تصبح هى الفيلم ذاته.

يقول المؤرخ السينمائى أحمد كامل مرسى: إن فاتن فى حياتها الخاصة ليست تلك الفتاة المسكينة المظلومة التى تظهر على الشاشة فى معظم أفلامها. إنها فتاة عاقلة فى الحقيقة والواقع. لا تندفع فى تصرف. تمتلك إرادة من حديد ونظرة كاملة. إذا أرادت شيئا حققته. دون حساب الصعاب والأقاويل. لعبت دور حمامة السلام بين الطبقات. وإن كان يؤخذ عليها تفصيل الأدوار لها. أو الكتابة من أجلها خصيصاً. وموقفها المتجنى على ثورة يوليو وحرب السويس فى فيلم ليلة القبض على فاطمة. وموقفها المتجنى على الجماهير. التى تقدمها كقطعان بلاعقل.

يقول عنها سمير فريد: حين نقول السينما العربية نعنى فاتن حمامة. وحين نقول فاتن حمامة نعنى السينما العربية. فهى أكبر رموزها الشعبية. مثل سيد درويش فى الموسيقى. وأم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ فى الغناء. ومحمود مختار فى النحت. ونجيب محفوظ فى الرواية. ويوسف إدريس فى القصة القصيرة. ومحمود سعيد ويوسف كامل وراغب عياد فى الرسم. وطه حسين وعباس العقاد. وتوفيق الحكيم فى الأدب. ويوسف وهبى فى المسرح. ويقول الناقد السينمائى التونسى خميس خياطى: بقيت فاتن حمامة على عرش السينما العربية ممثلة لا يحبها الجمهور فقط . بل ويحترمها.

يقول عنها مصطفى أمين

- فى سن الثالثة عشرة عاشت فاتن أكثر سنوات حياتها إرهاقا. كانت طالبة فى مدرسة الأميرة فوقية الثانوية للبنات فى السنة الأولى. وكانت بعد الظهر تلميذة منتسبة بمعهد التمثيل المسرحى. لأن الطالبة المنتظمة يجب أن يكون عمرها ١٦ سنة. وكانت تمثل فى الإذاعة مع سيد بدير. وفوق ذلك كانت تشترك فى تمثيل الأفلام . حياة شاقة مرهقة لفتاة صغيرة مراهقة . تمثل الحب ولا وقت عندها للحب. تقوم بدور فتاة مرفهة وهى تعيش فى عمل متواصل. تستيقظ مبكرا لتجرى إلى المدرسة. وتسهر مع النجوم باعتبارها نجمة. ولكنها كانت تعشق عملها. تؤديه بمتعة ولذة. كان وجهها دائما أصغر من سنها. وزادت شهرتها من سن السادسة عشرة إلى سن الحادية والعشرين. وعندما قامت الثورة عام ١٩٥٢، كانت فاتن تمثل فى فيلمين فى وقت واحد. الفيلم الأول من الساعة التاسعة صباحاً إلى الساعة الثالثة بعد الظهر. والفيلم الثانى من الساعة الثالثة بعد الظهر إلى الساعة العاشرة مساء.

عندما عرضوا عليها أن تقوم بدور آمنة فى دعاء الكروان وقرأت كتاب طه حسين . ودعاها الدكتور طه حسين لمقابلته وقال لها بسخرية واستهزاء:

- وانت تقدرى تفهمى دور آمنة ؟!

قالت فاتن :

- فهمته كويس.

وهز طه حسين رأسه سخرية.

وخرجت فاتن من عند طه حسين باكية مجروحة مطعونة. وراحت تقول لمنتج الفيلم : لماذا اخترتمونى لهذه البهدلة؟ وتم تصوير الفيلم. وعرض فى عرض خاص. حضره دكتور طه حسين وقرينته وابنه وابنته. وانتهى العرض. وفوجئت فاتن بطه حسين يقول لها:

- إن خيالى وأنا أكتب صورة آمنة «فى القصة هو بالضبط ما فعلته أنت».

وخرجت فاتن حمامة وهى أسعد امرأة فى العالم.

- سؤال من الكاتب : طه حسين لم يكن يرى فهل استمع إلى الحوار فقط ؟ ! وقرينته لم تكن تعرف العربية رغم حياتها مع عميد الأدب العربى. فهل شاهدت الصور فقط؟ وابنه مؤنس عاش كل حياته فى فرنسا. فهل كان فى زيارة لمصر وقت عرض الفيلم ؟ !

يكمل مصطفى أمين : ولكن الشىء الغريب فى حياة فاتن أنها لم تتأثر فى حياتها الخاصة بأدوارها السينمائية. فثارت وهى فى السادسة عشرة على أهلها. وخاضت معركة هائلة من أجل أن تختار الرجل الذى تتزوجه واصطدمت بأسرتها. وقالت يومها كلمتها المشهورة: «إننى قبلت على مضض أن تختاروا لى ملابسى. ولكنى أرفض أن تختاروا لى زوجى». واختارت زوجها برغم معارضة كل أهلها. ولكن هذا الزواج فشل. فظهر أن أهلها كانوا على حق. كانت أمنيتها أن تتزوج لتهرب من والدتها الشديدة القوية الشخصية. التى ترى أن وقوف البنت فى النافذة قلة أدب تستوجب قطع رقبتها. وأن تأخرها بضع دقائق عن العودة إلى بيتها عمل شائن لا يليق. وعندما دخلت الجنة . فوجئت أنها دخلت العنوان الخطأ. ليست هذه هى الجنة التى كانت تحلم بها.

ســـؤال النهـــاية

والآن : كيف تكرم مصر فاتن حمامة فى حياتها ؟ لقد حصلت أم كلثوم على جائزة الدولة بعد أن تدخل عبد الناصر . عندما قال المسئولون عن الجوائز أن أم كلثوم مؤدية وليست مبدعة . فلم لا تحصل فاتن حمامة على جائزة مبارك للفنون. أو جائزة الدولة التقديرية للفنون. وخاصة أن حصول الفنان محمود مرسى عليها فى العام الماضى قد فتح الباب لذلك. قالت لى فاتن إن بعدها عن المسئولين وعدم الاتصال بهم والظهور معهم فى المناسبات العامة. يجعلها بعيدة عن هذه الجوائز. وتكفيها جائزة حب الناس لها. ■



ماك

ماك على الإنترنت www.maccarpet.com

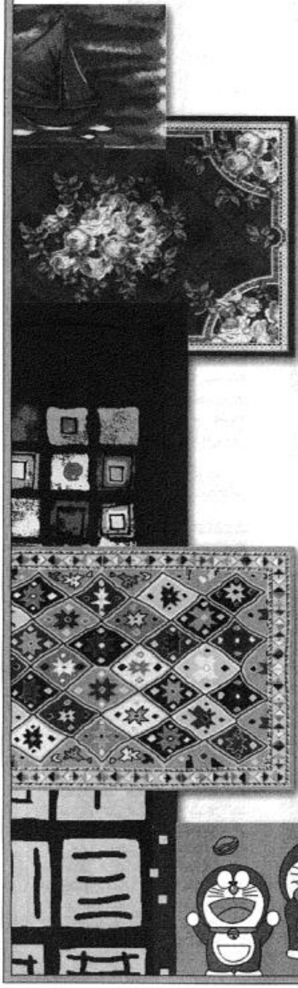


مراكز بيع بواقى التصدير والرواكد

مودرن مشايات

شرقى قطع موكيت

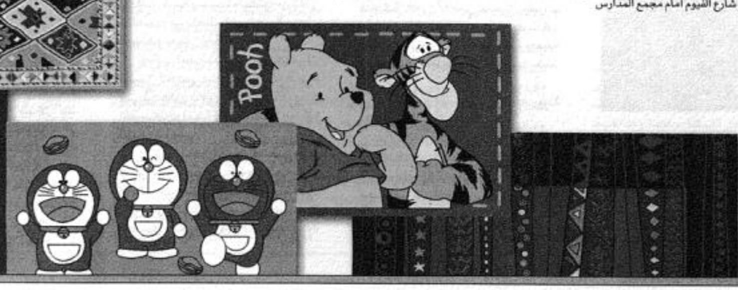
دواسات حمام سجاد أطفال



الفروع

مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى . نبيل الوقاد أرض الجولف ت:٤١٤٧١١٢
مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠
الزيتون: ١٢ ش عين شمس . ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧
عين شمس: ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول ت: ٢٩٦٦٥٦٤
الشرابية: ٤٠ شارع الألايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦
المرج : ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين
الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠
شبرا : ٦٤ ش روض الفرج . دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠
ناهيا : ٦٢ ش ناهيا بولاق الدكرور ت: ٣٢٧٢١٨٧
الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة أمام مصنع العلف
العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢
إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٣١٠٧٧٢٦
الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت:٥٧٢١١١٨
مصر القديمة: ٦ ش أثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧
المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١١٦٥
حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان . محطة الجراح ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧
القلعة : ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٠٦٥
القناطر الخيرية : ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤
شبين القناطر: ٩ ش الدلتا
دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى
الفيوم: ش ٢٦ يولية عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٢٢٢
دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦
ميت غمر: ١ ش بورسعيد
سوهاج: ٢١ ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٢٨٩٠
حلوان: ٣٧ ش أحمد بدوى من رايل ت : ٥٥٥٩٨٨٧
المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى
فيصل التعاون: ٢٥٧ شارع الملك فيصل . محطة التعاون . الهرم ت: ٢٨٣٢٠٢٦
بلقاس: ش طريق الحرية . خلف المحكمة
العاشر من رمضان : الحى الأول ت: ٣٦١١٢٤
العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨
العاشر من رمضان : دوار العاشر . طريق الإسماعيلية
مكرم عبيد : ٣٥ ش أبو دواد الظاهرى . مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٣١
الأقصر: ش مدرسة الصنايع . السوق التجارى ت: ٢٧٢٠٨٣
دار السلام : شارع الفيوم أمام مجمع المدارس

الصحفيين: ٢ شارع النيل الأبيض . أحمد عرابى ت: ٣٠٢٩٤١٢
العباسية: ١٥ ش العباسية . ميدان الجيش ت: ٥٨٩٣٨٥٠
بهتيم: ٢٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ت: ٢٢٠٨٥٥٥
بنها: ش الكوبرى ت: ٣٢٣٩٧٠
السويس: ٦٦ شارع الجيش ت: ٢٢٨٧٨٠
المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش
طنطا : ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٣٧٤
المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤
كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥
الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية . فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧
رمادا : برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٤٨٢٩٣٩
بنى سويف: ٥ . ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦
قنا : ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٣٢٣٦٤٨
قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا أمام البوستة الجديدة
الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٣٢٢٣٢٩
أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى
الإسماعيلية: ٧٦ شارع السكة الحديد ت: ٢٢٥٧٦٥
شبين الكوم: ٢ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى
أسيوط: ١٢ ش المدينة المنورة الزهراء
دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الألى ت: ٣٢٨٠١٣
كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧
أبو حماد : ٣٠ ش التحرير برج العزازى
السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧
كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة
المنيا : ٢١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٣٥٣٦١١٦
كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين
العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ت: ٠١٨/٣٢١١٠٩
فاقوس: ش الساحة عمارة المتيم . خلف المحكمة
دسوق: ش الجيش . أمام عمر أفندى
شربين: ش الجيش . ملك خالد بكار ت: ٩٢٤٨١٨
بورسعيد : ش الأمين وشارع ١٠٠ (باتا) سابقًا ت: ٢٢٧٦٩٢
منوف: ٨ ش ترعة العشاشة . طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣
بنى سويف الجديد : ٣٦ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٣٧٢٨
صفط اللبن : سنتر الصاوى . شارع التحرير



عروض موجزة

كتب عربية

حوار مع متمردى التراث
عصام محفوظ
بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٠، ٤١٤صفحة ،٢٨ جنيهًا



يحاور المؤلف أعلامًا فى تراثنا الفكرى والأدبى والفلسفى، وهو حوار متوهم بطبيعة الحال مع السهروردى وابن المقفع والجاحظ وأبو حيان التوحيدى وأبو العلاء المعرى وابن رشد وابن خلدون ورفاعة الطهطاوى وعبد الرحمن الكواكبى. وقد استفاد المؤلف من موهبته المسرحية فى الاسترجاع الزمنى، وتوليف الأحداث بما يمكنه من إبراز فكرته، وبما لا يخل بأفكار الشخصية التاريخية فى آن معًا، فهو يسأل مثلاً ابن المقفع: ألا تعتقد سيدى، أن ما شجع خصومك على اتهامك بالزندقة كونك، عندما تذكر الدين فى كتابك لا تقرنه بالإسلام؟

فيجيبه ابن المقفع:

أصل الأمر فى الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب، والمؤمن بشىء من الأشياء، وإن كان سحرًا خير ممن لا يؤمن بشىء ولا يرجو معادًا.

فيسأله: لكنك تؤمن بالله الواحد

فيجيبه: إن كل ما فى الدنيا يهدى إلى الله.. إلخ.

على هذا المنوال تسير أحاديثه الافتراضية، فهو يذهب إلى الجاحظ محملاً بأسئلته التى تبين كثيرًا من شخصية الجاحظ وأدبه بل وحياة معاصريه ونظم الحكم والسياسة فى عصره، فيسأله مثلاً عن الأدب عند العرب، فيجيبه الجاحظ: عند العرب الكلام بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكرة ولا استعانة، وهم أميون لا يكتبون ومطبوعون لا يتكلفون عملاً. وحين يسأل الفيلسوف المغربى «أبا حيان التوحيدى» عن حياته، يجيبه أبو حيان: كان شبابى هرمًا من الفقر، استولى على الحرف وتمكن منى نكد الزمان، وأزلنى السفر من بلد إلى بلد، وخذلنى الوقوف على باب وباب، إلى متى الكسيرة اليابسة والبقيلة الذاوية والقميص المرقع، إلى متى التادم بالخبز والزيتون، قد والله بح الحلق وتغير الخلق. الله الله فى أمرى، قد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، مستأنسًا بالوحشة، ملازمًا للحيرة، محتملاً الأذى، يائسًا من جمع من ترى، فشمس العمر على شفا، والحياة إلى نضوب. أما السهروردى الذى شاء حظه التعس أن يختار مدينة حلب لإقامته ولدعوته بصوفية بالغة إلى التقريب بين الأديان، فى أسوأ فترات الحروب الصليبية، وفى مدينة عرفت بتعصبها الدينى الشديد، وبعدما يجرى المؤلف حواره مع السهروردى متضمنًا محاكمة لأفكاره، ينهى بملاحظته عن مسئولية صلاح الدين الأيوبى، القائد العربى الأشهر، فى قتل السهروردى، ويشير إلى أن مدينة حلب التى قتلت السهروردى، هى التى تحتفظ اليوم بذكراه وتخلد مقامه وإن كتب على حى يحمل اسمه «بوابة الساواردى» وهم يعنون فى الحقيقة بوابة السهروردى.

□ □ □

سليمان العيسى..
٨٠ عاماً من الحلم والأمل
مجموعة باحثين بإشراف د. عبد العزيز المقالح
دمشق ـ صنعاء: دار الرائى، ٢٠٠٠، ٤١٥ صفحة



يجمع الكتاب بين دفتيه دراسات لأكثر من ٣٥ باحثًا وأكاديميًا، فى إبداع الشاعر السورى الكبير سليمان العيسى، الذى يعد أحد رواد القصيدة العربية المعاصرة، والذى تمتد تجربته لنحو ستين عامًا، وهى فترة شهدت تحولات عديدة، سياسية واجتماعية وأدبية، كان العيسى شاهدًا عليها، وقد عكسها شعره وتناولها فى قصائده، ويلاحظ دارسوه أنه ما زال مثابرًا على إيمانه بقضية أمته الواحدة دون أن ينتابه اليأس لما أصابها من نكبات، بل توجه إلى المستقبل، فأنشد للأطفال قصائد بسيطة يمكنها أن تغنى وتعلمهم فى تلقائية محببة معنى الوحدة ومحبة الأوطان.

ويشير أحد المشاركين فى الكتاب أن سليمان العيسى ماهَى بين وقائع الحياة التى أرادها أن تكون مادته الخام، وبين اللمسات الرقيقة التى توخاها انطلاقًا لخياله الخصب.

ويلاحظ باحث آخر أن العيسى طرق كل أبواب الشعر بأصالة واضحة، وهو لم يغنِ لغير أمته ولم ينشد لغير أطفالها، ويشير ثالث إلى قصيدة «جزيرة السندباد» التى غنى فيها لعواصم عربية عدة: القاهرة وبغداد وصنعاء ودمشق وتونس وغيرها، فالأرض العربية كلها عنده نسيج واحد من الذكريات والشعر والحب والتاريخ.

والذى مُيز العيسى الذى احتفل بعامه الثمانين منذ شهور قلائل، أنه ـ كما يقول أحد الباحثين المشاركين ـ عذب العبارة، إنسانى النزعة، لم يعاد التجديد أو يبتعد عنه، بل هو فى عديد من قصائده يتفوق على الشعراء المجددين «الحداثيين» دون أن يفقد أصالته، واستمر العيسى حتى اليوم يكتب الشعر العمودى إلى جانب الشعر الحر.

□ □ □

أمتنا بين قرنين
يوسف القرضاوى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠، ٢٦٥ صفحة



استقبل المسلمون، كما استقبل العالم ألفية جديدة، وكان عليهم أن يتوقفوا ليقيموا حالهم فى الألفية الماضية، ويتساءلوا عما سيكون عليه حالهم فى الألفية الجديدة. المؤلف، وهو ذو باع طويل وصوت مسموع فى مجال الفقه والفكر الإسلامى، سعى إلى الإجابة عن السؤالين، وبدأ بتقييم القرن الماضى، ورآه قرنًا للإنجازات العلمية الكبرى، ولإقرار الحقوق والحريات (مع التأكيد على إزدواجية المعايير فيما يتصل بهذه الحقوق والحريات)، ثم هو قرن انهيار القيم الإيمانية والأخلاقية، فالشيوعية قامت- كما يقول المؤلف- على تفريغ الحياة من الإيمان بالله، واعتبار الدين أفيون الشعوب، أما الليبرالية فهى وإن لم تمجد الله صراحة فإنها لا تعترف له بمكان فى نظامها الفكرى الحالى، وأخيرًا، فقد كان القرن الماضى هو قرن الحروب والدماء، إذ قامت فيه حربان عظيمتان، وتفجرت فى نهايته حروب عرقية ودينية ومذهبية، حصدت فى طريقها مئات الآلاف.

فماذا عن إنجازات أمتنا العربية والإسلامية فى القرن العشرين؟

يرى المؤلف أنها خمسة، أولها التحرر من الاستعمار، غير أن هذا التحرر لم يزل ناقصًا، إذ مازالت أممًا إسلامية ترزح تحت نير الحكم الشيوعى، كما أن فلسطين والقدس، مازالتا تحت ربقة المحتل الصهيونى، فضلاً عن أن رحيل الاستعمار العسكرى لم يعن نهاية الاستعمار، فقد بقى الاستعمار الاقتصادى والثقافى وغيره.

وكان انتشار التعليم هو ثانى انجازاتنا، غير أن هذا الانتشار عابه الكثير مما جعل كثرته طحنًا بلا عجين، فلم نعرف كيفية توظيف قدراتنا البشرية والاستفادة من عقولنا النابغة، بل والتخلص من بعض مثالب نظمنا التعليمية.

وثالث إنجازاتنا ظهور حركات التجديد والإحياء الإسلامى، وإن عاب المؤلف على بعضها لجوءها إلى العنف وإراقة الدماء لتحقيق أهدافها، وانشغالها بصراعات جانبية تؤثر على تماسكها فى أمور فرعية بطبيعتها.

أما رابع هذه الإنجازات فهو مقاومة التغريب والغزو الفكرى، وعجز الاستعمار عن مسخ مجتمعاتنا الإسلامية وتحويلها إلى كيانات شائهة تابعة له.

وخامس هذه الإنجازات هو انطلاق الصحوة الإسلامية، وإذا كان المؤلف قد عدَّ خمسة إنجازات، فقد رأى مثليها من الإخفاقات، وهى: ضياع الخلافة والهزيمة أمام المشروع الصهيونى والإخفاق فى مسيرة التقدم والتنمية والفشل فى التحرر عن التبعية والإخفاق فى مجال الشورى والحريات وفى توحيد الأمة وفى تحقيق العدالة الاجتماعية وفى مجال قضايا المرأة، وفى مجالات التربية الإيمانية والأخلاقية للأمة الإسلامية.

ويطرح المؤلف أخيرًا التحديات التى تواجه الأمة الإسلامية على عتبات قرن جديد وهى: تحدى الهوية والمرجعية والتخلف والتنمية والعدالة وحقوق المرأة والاستبداد والتحدى الصهيونى والتحدى الأخلاقى وتحديات التجزئة وأخيرًا تحدى العولمة.

□ □ □

كيف لا أبكى
أنيس منصور
القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٠، ٣٤٠ صفحة ١٥ جنيهًا



يبكى المؤلف ضياع بهجة الحياة ودفء الصديق وقوة العافية وغياب الحبيب، وكما يقول، فإن من لم يعرف البكاء، لم يعرف الحياة.

بعض من تجارب المؤلف وخبايا من حياته، أضاع فيها حبًا حقيقيًا لأنه شغل

عـــــروض
مـــوجـــزة

ذاته بذاته، آملاً فى تحقيق حلمه الكبير، أن يصبح شيئًا فى المجال الذى اختاره: الكتابة والأدب، وإلى أن يتحقق هذا الحلم، فلا وقت للحب أو الزواج أو أى شىء آخر يمكن أن يعوق أو يؤجل تحقيق الحلم، وكانت النتيجة أنه حين تحقق الحلم أو بعضه، كان الحب راح، ولم يعد هناك أمل إلا فى القليل، أو أقل القليل.

كان المؤلف يبحث فى كل حب عن دلالة أدبية، عن تجربة تثرى موهبته، وتتحول من جسد وقلب وعقل، إلى سطور فى كتاب يضيف إليه ويسهم فى صعوده واتجاهه لتحقيق هدفه.

يحدثنا المؤلف عن «فيكى» و«هيلجا» و«ماتيلدا» و«فرانشيكا»، كما يحدثنا عن خالته ومصطفى أمين وعلى أمين ويوسف السباعى ويوسف إدريس وتوفيق الحكيم، وجميعهم ممن أحب، وجميعهم مات، وبموتهم ضاقت الدنيا فى وجه المؤلف، وصارت الوحدة كابوسًا يؤرق مضجعه.

لكن ثمة مقالات أخرى تتناول موضوعات مختلفة مما اعتاد المؤلف على كتابته بالصحف، ما يقطع الخيط الذى يجمع- أو يبدو أنه يجمع- الكتاب عبر صفحاته الأولى، لأنك ما أن تفرغ من المقدمة، وصفحات قليلة بعدها، حتى تداهمك مقالات فى السياسة والفن والأدب وعروض الكتب والتعليق على الأحداث والشئون العامة، فما علاقة هذا كله بعنوان الكتاب ومقدمته، وما الذى يجمع بين موضوعاته التى ينفرط عقدها بعد صفحات قليلة، حتى ليشعر القارىء أن ثمة خطأ فى التنسيق، «حشر» موضوعات كتاب إلى جانب مقالات أخرى لا تخصه.

□ □ □

التراث الشعبى فى الرواية الجزائرية
بلحيا الطاهر
الجزائر: منشورات التبيين/ الجاحظية، ٢٠٠٠، ٢٠٠ صفحة، ٢٢٢ دينارًا



هذا الكتاب، يركز أساسًا على توظيف التراث الشعبى فى النصوص الأدبية الجزائرية عبر ثلاثة فصول يقدم فيها نماذج تطبيقية لفروضه النظرية، فيدرس فى الفصل الأول المثل الشعبى وكيفية توظيفه فى النص الأدبى من خلال تحليل لروايات «زمن النمرود» للحبيب السائح، و«ريح الجنوب» لعبد الحميد بن هدوقة و«اللاز» للطاهر وطار. ويلاحظ أن هذه الأعمال استخدمت ما يقرب من سبعين مثلاً شعبيًا، اختلفت فيها أسباب الاستلهام حسب غاية كل كاتب، ويشير مثلاً إلى استخدام المثل الشعبى «ما يبقى فى الوادى غير أحجاره» فى رواية الطاهر وطار «اللاز» ثلاث عشرة مرة، وفى كل مرة أعطى دلالة مغايرة، وإن احتفظ فى كل الأحوال بدلالته العميقة من أن الشعب فقط هو الوريث الأوحد لجميع المكتسبات التى يحققها أبناؤه. كما يلاحظ فى رواية بن هدوقة مزجًا بين المثل الشعبى بوصفه الذاكرة الشعبية الخصبة، وصناعة الفخار كتعبير عن العمل المتقن (التأصيل) لأهل الجنوب، والناى بوصفه الصوت الشعبى الحزين، كما يرى أن الحبيب السائح استخدم الأمثلة الشائعة والمناسبة لحياة أهل الريف والبوادى الذين كتبت الرواية عنهم.

ويدرس المؤلف فى الفصل الثانى صورة البطل فى الرواية الجزائرية المعاصرة، من خلال نموذج ملحمى: رواية الطاهر وطار «الحوات والقصر»، ونموذج تاريخى: «معركة الزقاق» لرشيد بوجدرة، ونموذج خرافى: حمائم الشفق للجيلالى خلاص.

ويلاحظ المؤلف بشكل عام، أن فكرة البطولة الخارقة فى التراث الشعبى وليدة الأوضاع السياسية والاجتماعية التى سادت المجتمعات العربية عمومًا، والجزائر على وجه الخصوص، وبالذات فى مراحل التمزق والصراع ضد أعداء داخليين وخارجيين، وهو إما بطل ملحمى يحمل معه الخلاص لشعبه كما فى رواية وطار، أو بطل تاريخى مثل طارق بن زياد كما فى رواية بوجدرة، أو بطل خرافى يقيم سياجًا يحمى به مجتمعه من التفتت والانحلال.

أما فى الفصل الثالث، فقد درس المؤلف استخدام الأغنية الشعبية فى الرواية الجزائرية عبر ثلاثة نماذج، وخلص منها إلى أن الأغنية الشعبية ساعدت الروائى على تشكيل معمار نصه جماليًا، وعكست فى الوقت نفسه ما تحمله الذاكرة البسيطة من معتقدات، فهذه الذاكرة هى التى أنتجت الأغنية وأشاعتها.

□ □ □

الفنان والجمهور
محسن عطية
القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٠، ٢١٠ صفحات، ٢٥ جنيهًا



ثمة مشكلة لا يمكن إغفالها بين الفن وجمهوره زادت الهوة، وفقدت وسائل التعبير الفنى قدرتها على التواصل مع

المرأة والدين والأخلاق
نوال السعداوى، هبة رءوف
الناشر - دار الفكر، دمشق/ دار الفكر المعاصر، بيروت، ٢٠٠٠، سلسلة: حوارات لقرن جديد، ٢٢٧ صفحة



مشروع ثقافى بالغ الأهمية، ذاك الذى يحمل عنوان «حوارات لقرن جديد»، من قبل قدمت السلسلة ذاتها سجالاً حول قضايا ساخنة وخلافية، شارك فيها مفكرون بارزون، كانت تلك بعض عناوينها: الإسلام والعصر، الربا والفائدة، ما العولمة، الديمقراطية بين العلمانية والإسلام، الخصخصة آفاقها وأبعادها، الاجتهاد بين النص والواقع، تجديد الفقه الإسلامى، الاقتصاد الإسلامى بين الوهم والعلم.. وغيرها، وجميعها اجتهادات لا يزعم أصحابها أنهم يقدمون عبرها إجابات شافية وحاسمة عن كل الأسئلة، إنما هم يبسطون الرؤى والحيثيات أمام القارئ كى يشحذوا عقله وملكاته النقدية والمعرفية، ويختار الجانب الذى يريد بإرادة واعية ودون وصاية.

ولم يكن مقبولاً ألا تكون «المرأة» بين شواغل المشروع، ليس فقط بسبب الاهتمام العالمى بقضاياها واعتبار تحررها وتحققها أحد معايير التحديث والعصرنة، وإنما لأن موضوع المرأة إشكالية فى الفكر العربى، يختلط فيها المقدس بالأسطورى، والحقيقى بالمتوهم، بما يستدعى «فض الاشتباك» واستجلاء الصورة.

المتحاورتان هنا تنطلقان من منصتين مختلفتين إلى حد التمايز، نوال السعداوى تبدأ من الشك، وترفض اليقين، وتنزع القداسة عن كل مقدس، وهى تمزج بين الدينى والسياسى في ترابط مقصود، وكأنهما يعملان بالتوازى، يدفع أحدهما الآخر وينجز «مخططاته»، والفرد عندها - الفرد الأنثى لا الذكر - هو الهدف، حريته الجسدية والروحية، وانفلاته - انفلاتها - من أسر مجتمع ذكورى يحجبها عن كل فعل ومشاركة، أمل يستحق النضال في سبيله، ولذا فهى لا تعطى اعتبارًا كبيرًا لمفاهيم الأسرة وقيمها، وتسعى إلى تفكيكها كى لا تبقى قيدًا يحد من انطلاق المرأة، وهى ترى أن الأديان كانت - ومازالت - ورقة سياسية تلعب بها النظم من أجل مزيد من إحكام قبضتها على شعوبها، وتلجأ السعداوى للبرهنة علي ما تذهب إليه، إلي التاريخ - وربما الأساطير - وكذلك إلي خبراتها العملية والنظرية.

«هبة رءوف» تبدأ من اليقين، من أرضية إسلامية إيمانية، تمثل مرجعيتها الحاكمة عند كل خلاف، والفرد عندها مهم، والمرأة كذلك، لكن أهميته تنبع من دوره في إطار الجماعة، ولذا فهى تناهض المفاهيم السلبية للحداثة، وتقاوم تجلياتها التى قادت إلي تفكك الأسرة وتداعى قيمها، باعتبارها الفرد مرجعية ذاته، ومصدر القيم والأخلاق.

تبحث «هبة» عن «المشترك الأخلاقى» الذى لا يحققه انفلات الفرد في اتجاه تحقيق أقصى إشباع لحاجاته وملذاته، وإنما مرجعية دينية - إسلامية فى هذه الحالة - مع الاعتراف بإمكانية أن يسىء البعض فهم مقاصد تلك المرجعية، أو يوظفها بما يحقق أهدافًا وأغراضًا خاصة.

وعبر هذه المرجعية تصحح ما أسىء فهمه عن «القوامة» في الإسلام، وهى ليست أبوية أو ذكورية كما بينت، وتناقش مفهوم «النسوية» الذى تعرّفه بأنه «حركة التمركز حول الأنثى»، كما عرفه الدكتور عبد الوهاب المسيرى، وتفنّد كثيرًا مما ذهبت إليه نوال السعداوى استنادًا إلى التاريخ والأساطير.

وكان لافتًا أن المتحاورتين سفّهت كل منهما منهج البحث الذى اتبعته الأخرى، إذ اعتبرت نوال منهج «هبة» أكاديميا مملاً بعيدًا عن الواقع ومعطياته، ورأت هبة في منهج نوال غير العلمى ما يبعث علي السخرية والرثاء.

وفي سبيل ردودها - التى لا أخفى انحيازى إليها تمامًا - علي ما ساقته «نوال السعداوى»، تقع «هبة» في خطأ «اصطيادى»، إذ تقول إن د. «نوال» أشارت إلي الحديث النبوى «لا فضل لعربى علي أعجمى إلا بالتقوى بوصفه آية قرآنية، والحق أن د. نوال لم تفعل، بل قالت: إنه حديث شريف.

أما المفارقة برأيى، فهى المسافة الشاسعة بين الحلول التى تقترحها الدكتورة نوال لمشكلات المرأة العربية والواقع، برغم زعمها أن بحثها ينهل أساسًا من هذا الواقع وخبراتها فيه، وقد نبعت المفارقة من استجدائها الحلول من بيئات مغايرة، وقيم لا تنتسب إلى مجتمعاتنا بحال.

عماد الغزالى

عــــــــروض
مــــوجـــــزة

الجمهور، لم تعد رسالة الفنان تفهم بوضوح. لأن الفن ببساطة فقد وضوحه، وصارت الكتابة في الفن أشبه بالأحاجي من قبل النقاد الذين يفترض أنهم وسيط جيد بين الفنان وجمهوره. تلك هي الاشكالية الكبرى التي يعالجها المؤلف الذي يرى أن الكتابة في الفن لا تعد رسالة ذات معنى إلا إذا تلقاها من يستطيع فك رموزها وفهمها.

يعالج المؤلف هذه العلاقة عبر عديد من الدراسات التي يعول بعضها على دور مهم لوسائل الاتصال الحديثة في تعميق الوعي الجمالي والفني، وعلى دور المتحف في تنمية الذوق الفني، إذ لم يعد المتحف مجرد مكان يزود الجمهور بأفكار معرفية وأيديولوجية، وإنما تحول إلى مكان ثقافي استكشافي.

وينقلنا المؤلف في دراسة أخرى إلى ما بعد الحداثة، حين أراد الفنان أن يعيد الفن إلى طبيعته التاريخية، وأن يتحول من عالم النخبة والفوقية إلى ما بات يعرف بديمقراطية الفن، أي قدرته على مخاطبة قطاعات واسعة من الجماهير بلغة بسيطة، محققًا ديمقراطية التذوق عبر انتشاره في الساحات العامة والشوارع وعلى الجدران، متحررًا من قيود أصحاب المعارض ساعيًا إلى جعل الثقافة عالمًا مستقلاً، واتصفت لغة فنان ما بعد الحداثة بأنها هجينة، فيها الاتجاه القصصي التمثيلي، والاتجاهات التقليدية بتقنياتها المبسطة، إن فن ما بعد الحداثة برأى المؤلف يمثل حقبة ما بعد زوال الهيمنة الغربية بنزعتها الفردية، حيث احتلت الثقافات اللا غربية مكانتها في العالم، وزاد الاتجاه نحو التعددية الثقافية والتنوع.

□ □ □

التدخل الدولي بين الاعتبارات الإنسانية والأبعاد السياسية

عماد جاد

القاهرة: مؤسسة الأهرام، ٢٠٠٠، ١٥٤ صفحة، ٧ جنيهات



كانت حملة حلف شمال الأطلنطي على يوجوسلافيا «مرحلة فارقة في التفاعلات الدولية» كما يقول المؤلف.

فحالة كوسوفو في الأصل، شأن يوجوسلافي خالص، لكن توازنات القوى التي تمخضت عنها الحرب الباردة، لم تدع الأمر يجري على هذا النحو، وبدلاً من الاحتكام إلى قواعد اللعبة الدولية قانونيًا وإجرائيًا، وحل المشكلة عبر مجلس الأمن الدولي، تمت «تسوية» المسالة بعيدًا عن هذا الإطار الذي كان سيخضع حتمًا لعرقلة روسية ضد أي قرار يصدر عن المجلس، وتم التركيز على حق «التدخل الإنساني» الذي ينتقص بالضرورة من سيادة الدولة، لكنه من ناحية ثانية، يعبر عن توازن قوى جديد، السيادة فيه للمعسكر الرأسمالي، سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا.

ثمة صراع إذن بين تيارين.. أحدهما خرج مهزومًا ومفتتًا من الحرب الباردة يدعو إلى تحكم الهيئة القانونية الدولية التي تعارف المجتمع الدولي عليها لحسم الصراعات، والثاني خرج فائزًا، ويدعو إلى تقنين التدخل وانتهاك سيادة الدول تحت ذرائع الحماية الإنسانية.. المؤلف يناقش في فصول سبعة هذا الصراع تاريخيًا وقانونيًا، كما يعرض لنماذج من التدخل الدولي تحت مسميات مختلفة.

سنلاحظ مثلاً أن حق التدخل الإنساني يستند إلى القانون الدولي الإنساني والقانون الدولي لحماية حقوق الإنسان، والأول يعني بحماية الإنسان وحقوقه في أوقات الحروب والنزاعات المسلحة، فيما يشمل الثاني حماية حقوق الإنسان في زمن السلم وزمن الحرب، وتعد اتفاقية باريس ١٨٥٦، أقدم النصوص القانونية التي تحدثت عن حقوق المحاربين وقواعد معاملة الأسرى، بعد ذلك توالت الاتفاقات والمعاهدات. وشهد العقد الأخير من القرن العشرين تطورات متسارعة في تطبيق مبدأ المساءلة الجنائية عن الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان، وجرى إقرار النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية الدائمة في منتصف عام ١٩٩٨، وقد كشفت مداولات إقرار نظام هذه المحكمة- كما يقول المؤلف- عن التداخل الشديد ما بين الانساني والسياسي في مجال عملها.

يختار المؤلف نماذج تطبيقية لحق التدخل الدولي، ويبدأ بالعراق، حيث يرى ان الدول المتحالفة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، تجاوزت التفويض الممنوح لها بموجب حق التدخل الدولي، وبدلاً من الاقتصار على تحرير الكويت كما ادعى الخطاب الإعلامي الغربي، صار الهدف هو التدخل في الشأن العراقي الداخلي، لحسابات تتعلق برؤية هذه الدول للنظام الإقليمي في مرحلة ما بعد الحرب الباردة، ومصالحها في المنطقة.

ويقارن المؤلف بين الحشد الدولي والتجييش الذي شهدته حالة كوسوفا، والإحجام إلى حد التخاذل في حالة الشيشان، بما يعني أن القضية ليست حقوق إنسان ولا تدخلات إنسانية، وإنما هي- وقبل كل شيء- حسابات سياسية.

□ □ □

كتــب أجنبيــة

Tank: The Progress of A monstrous War Machine

(الدبابة.. مسيرة آلة حربية رهيبة)

Patrick Wright

Faber, 2000, 499PP., £25.00



أطلق عليها المراسلون الصحفيون عند أول مشاركة لها في حرب على الإطلاق اسم فرس البحر الرهيب، وكان الجنود البريطانيون يموتون في الحرب وهم يضحكون عند رؤيتهم الدبابة للمرة الأولى وهي تشارك في المعارك.. إنها الدبابة التي كان دخولها عام ١٩١٦ أي في منتصف الحرب العالمية الأولى محاولة بريطانية لكسر الجمود على الجبهة الغربية في الحرب.

وينقل الكتاب عن ستيفن فوت أول صحفي راى الدبابة للمرة الأولى في ميدان المعركة أن الجنود انتابهم شعور بالمرح الصاخب والإثارة، وكان بعضهم يضحك ويجري حول الدبابة وبعضهم كان يصرخ فقد كانت سلاحًا جديدًا يُستخدم لأول مرة أمام أعينهم وسيكون له شأن آخر في التاريخ.

لقد أصبحت الدبابة، أيقونة من أيقونات الحرب الوحشية في القرن العشرين بالرغم من أنه في البداية اعتبرها اللورد كيتشنر أحد قادة أركان الجيش البريطاني في بداية الحرب العالمية الأولى بأنها ليست سوى لعبة، وأن الجانب الأهم هو الهجوم بالمشاه وتلك كانت عقلية الحرب القديمة التي تعتمد على الأفراد وليس العتاد.

ويتناول المؤلف في هذا الكتاب المثير تاريخ الدبابة خلال القرن العشرين والأدوار التي لعبتها في الحروب الكبرى حتى حرب الخليج وكذلك الأدوار التي لعبتها في قمع المظاهرات والانتفاضات الشعبية كما حدث في ميدان السلام السماوي في بكين في ثمانينيات القرن العشرين.

لقد كانت الدبابة عند بداية اختراعها مثار ضحك وسخرية حتى من الجنود أنفسهم لكن الشيء المؤكد أنها لم تعد كذلك على الإطلاق بعد ما سببته من موت الملايين من الناس سواء في الحروب أو في الشوارع.

□ □ □

America's Queen: The life of Jacqueline Kennedy Onassis

(ملكة أمريكا: حياة جاكلين كيندي أوناسيس)

Sarah Bradford

Viking, 2000, 704PP., £20.00



بعد ٦ سنوات من وفاتها عن عمر ناهز ٦٤ عامًا، مازالت جاكلين كيندي أيقونة دولية، ومازال العالم، خاصة أبناء جيل الستينيات، يتذكر كيف دخلت البيت الأبيض مع زوجها الرئيس جون كيندي وكان عمرها ٣١ عامًا فقط وخرجت منه حزينة مقهورة بعد اغتيال زوجها، وكان عمرها ٣٤ عامًا.

وقد أظهرت جاكلين في الأيام الثلاثة التي فصلت حادث الاغتيال عن الجنازة الرسمية، شجاعة واحترامًا للنفس جلبا لها إعجابًا عالميًا منقطع النظير، واستمرت جاكلين تمثل ضمير الشعب الأمريكي ومحط إعجابه وكذلك شعوب العالم الأخرى. إلا انه بعد سنوات من ذلك أنزلها الشعب الأمريكي من عرش محبته وإعجابه بعد أن تزوجت امبراطور سفن نقل البترول الملياردير اليوناني أوناسيس. ولم يغفر لها المواطن الأمريكي هذا التصرف الذي كان بمثابة طعنة من جانب زوجة أحد أكثر الرؤساء في التاريخ الأمريكي شعبية وإعجابًا. ويحاول الكتاب أن يجد الأعذار لهذه الخطوة من جانب جاكلين، فقد نشأت في أسرة فقيرة وظلت طيلة حياتها تخشى الفقر بشكل هستيري ولذلك وجدت في عرض أوناسيس فرصة كبيرة للاستمرار في حياة راغدة ومليئة بالأضواء كان زواجها من كيندي قد وفره لها.

وتتناول المؤلفة حياة الطفلة جاكلين وكيف تزوجت أمها للمرة الثانية من رجل ثري لكن هذا الغني لم ينعكس على حياة جاكلين، ويعود الكتاب مرة أخرى إلى جاكلين النجمة والشخصية العالمية ليقول: إن سحرها وجمالها ووداعتها الظاهرة كانت تخفي شخصية حادة للغاية.

لقد انتهت سنوات الشهرة والمجد لجاكلين مع وفاة أوناسيس لكن أضواء هذه الشهرة كانت تحيط بها من حين لآخر، فقبل كل شيء كانت السيدة الأمريكية الأولى، بل أجمل سيدة أولى في التاريخ الأمريكي الحديث وبقيت رمزًا لفترة اشبه بالرومانسية عاشتها أمريكا والعالم في الستينيات من القرن العشرين.

□ □ □

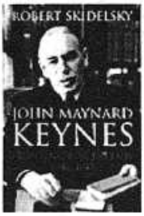
عــــــروض
مــــوجــــزة

John Maynard Keynes: Fighting for Britian 1937- 46

(جون مانيارد كينز.. القتال من أجل بريطانيا ١٩٣٧-١٩٤٦)

Robert Skidelsky

Macmillan, 2000, 624PP., £25.00



أمضى مؤلف هذا الكتاب روبرت سيكدلسكى ٢٠ عامًا فى جمع مادة موضوعه وهو سيرة حياة الاقتصادى البريطانى الشهير جون مانيارد كينز صاحب كتاب «النظرية العامة فى النقود» والذى أحدث انقلابًا فى عالم الاقتصاد منذ ثلاثينيات القرن العشرين بحيث أصبح المؤرخون الاقتصاديون يتحدثون عن الثورة الكينزية.

وسبق للمؤلف أن أخرج مجلدين من السيرة الذاتية لكينز وكان المجلد الأول بعنوان «خيانة الآمال» وصدر عام ١٩٨٣، وهو يتحدث عن إسهام كينز الأساسى حتى عام ١٩٢٠، والذى يتركز حول بحثه الضخم: «الآثار الاقتصادية للسلام بعد الحرب العالمية الأولى» والذى انتقد فيه الشروط المجحفة التى تم فرضها على ألمانيا محذرًا من أنها لن تستطيع الوفاء بهذه المتطلبات.

وقد أطلق المؤلف على هذا المجلد «خيانة الأمانة» لأنه صدر فى وقت عادت فيه الأفكار الاقتصادية الكلاسيكية «دعه يعمل.. دعه يمر» للانتشار فى عهد مارجريت تاتشر فى بريطانيا ورونالد ريجان فى أمريكا، واعتبر المؤلف ذلك خيانة لأفكار كينز. والمؤلف الثانى صدر عام ١٩٩٢ فهو بعنوان «الاقتصادى كمنقذ» ١٩٢٠-١٩٣٧.

أما هذا المجلد الثالث والأخير فيتناول إسهام كينز الأكبر وهو «النظرية العامة فى النقود»، والتى دعا من خلالها إلى ضرورة توسيع دور الدولة فى الإنفاق على المشروعات العامة للقضاء على البطالة. ويؤكد كينز فى هذا الصدد أن المشكلة مع الاقتصاديات الكلاسيكية هى أنها تفتقد وجود نظرية للطلب الفعال وهو خطأ قاتل والنتيجة أن نظام اقتصاد السوق معرض للانهيار والوقوع فى كساد مزمن. كما يتناول ظروفه الصحية حيث إن معظم الفترة التى يغطيها هذا المجلد كانت بمثابة صراع بين كينز وبين المرض الذى نجح فى النهاية فى هزيمة اقتصادى غير عادى كان ملء السمع والبصر وترك بصمة شديدة الأثر على اقتصاد العالم.

□ □ □

Iraq under Siege

(العراق تحت الحصار)

Antony Arnof

South end Press,Canada, 2000



كتاب العراق تحت الحصار (الآثار القاتلة للعقوبات والحرب) من الكتب التى تحظى بأهمية فائقة لسببين رئيسيين. أولهما: أهمية الموضوع الذى تناوله وخطورة ونتائج آثار الحصار الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والبيئية والسياسية بعد عشر سنوات من فرضه.

وثانيًا: لأهمية ومكانة مجموعة الأكاديميين والكتاب والأدباء والإعلاميين والموظفين الدوليين وأعضاء جمعيات ناشطة الذين شاركوا فى تحريره باعتبار أكثرهم شخصيات غربية لها نشاط بارز، لذا جاءت مقالاتهم قوة فى الحجة والمنطق ومدعمة بأرقام وشهادات شهود عيان، عاشها بعض هؤلاء مع العراقيين فى مواقع المؤسسات الصحية والخدمية، كما جاءت مفندة لمبررات ودوافع الحصار وفضحًا لطيش السياسة الأمريكية والبريطانية تجاه العراق والمنطقة.

فى أحد فصول الكتاب مقابلة مع دنيس هاليدى المنسق الأسبق لأنشطة الأمم المتحدة فى العراق والذى استقال من عمله احتجاجًا على استمرار الحظر على العراق. ذكر هاليدى فى معرض إجابته عن أسئلة الإعلامى ديفيد بارسيمين أنه لم يكن هدف برنامج النفط مقابل الغذاء مطلقًا حل الأزمة الإنسانية، لقد وضع لإيقاف التدهور. لقد صمم هذا البرنامج على غرار ما تقوم به الحكومة العراقية، إذ أن لديهم برنامج توزيع الغذاء المستقل لذوى الدخول الثابتة واليتامى والأرامل.

وفى رده على سؤال عن استخدامه مصطلح (إبادة) فى وصف العقوبات قال إنه بالتأكيد يصلح استخدامه عندما نجد الآلاف يموتون شهريًا بمجموع يتراوح بين مليون ومليون ونصف خلال التسع سنوات الماضية، فإذا لم تكن هذه إبادة لا أعرف إذن بالضبط ما هى الإبادة؟ وأضاف لا تحضرنى كلمة أفضل منها عندما تمارس الإبادة كل يوم فى المدن العراقية.

وفى فصل آخر كتب (روبرت فسك) عن الحرب الخفية فقال: تظل فضلات قنابل الحلفاء من اليورانيوم الناضب فى التربة عبر رمال جنوب العراق بدون علاج، إلا أنه فى بريطانيا تبذل الحكومة جهودًا جمة لحماية مواطنيها من آثار اختبار مثل هذه الأسلحة. وقد شك الأطباء العراقيون منذ أمد طويل من أن الأطفال الذين يعانون من السرطان فى جنوب البلاد التقطوا المرض من جراء استخدام الحلفاء اليورانيوم عام ١٩٩١ بنسبة أربعة أضعاف عما كانت عليه سابقًا.

وفى الفصل الأخير الذى كتبته شارون سميث المنسقة الوطنية لحملة جمع التوقيعات للمطالبة بإنهاء الحصار والناشطة فى معارضة حرب الخليج تقول: توفى أكثر من مليون عراقى أغلبهم من الأطفال نتيجة لعقوبات الأمم المتحدة ضد العراق، وبعد أن تشير الكاتبة إلى فشل الحملة الجوية التى قامت فيها القوات الأمريكية والبريطانية ضد العراق فى أواخر عام ١٩٩٨، تنتقد الصمت الذى يخيم على الإعلام الأمريكى وقالت إن هذا لا يثير الدهشة إذا ما عرفنا الدور الذى لعبته وسائل الإعلام الأمريكية خلال حرب الخليج.

□ □ □

The Keys of Egypt: The Race to Read the Hieroglyphs

(مفاتيح مصر.. السباق لقراءة الهيروغليفية)

Lesley and Roy Adkins

Harpercollins, 2000, 335PP., £16.99



عام ١٧٩٨، كان حاسمًا فى تاريخ الصراع الفرنسى الإنجليزى، فقد قرر قادة فرنسا ما بعد الثورة إلغاء إصرار بلادهم الطويل الأمد على غزو إنجلترا وبدلاً من ذلك غزو مصر، واستهدف هذا التحرك إعطاء فرنسا مجالاً فى الشرق والوقوف ضد الطموحات البريطانية، وخاصة فى الهند.

لكن الحملة لم تكن كما هو معروف عسكرية فقط، بل كانت ثقافية، فقد قال أحد مساعدى نابليون بونابرت قائد الحملة: إننا ذاهبون لاكتشاف مصر القديمة والمعاصرة. وخلال القرن التاسع عشر زاد الاهتمام بمصر وكانت حصيلة الاهتمام كتاب «وصف مصر» الذى جمع فيه علماء الحملة معلومات غير مسبوقة عن مصر فى شتى المجالات. ويتناول الكتاب قصة اكتشاف حجر رشيد وفك رموزه على يدى العالم الفرنسى فرانسوا شامبليون، ويتطرق إلى حياة شامبليون والصراع الإنجليزى الفرنسى للسيطرة على الحجر.

ويناقش الكتاب القول بأن مصر منذ ذلك التاريخ أصبحت معروفة للعالم الأوروبى، رغم أن متخصصين فى علم المصريات أشاروا إلى أن مصر قبل ذلك لم تكن مجتمعًا مغلقًا على نفسه، بل هناك من زار مصر من الأوروبيين وتحدث عنها.

والكتاب واحد من عشرات الكتب التى تصدر سنويًا فى دول العالم عن مصر وحضارتها الفرعونية بشكل خاص، وهى كتب تلقى رواجًا شديدًا بين القراء نظرًا للاهتمام الشديد بعلم المصريات فى الغرب.. وقد أسست جامعات عديدة منذ زمن طويل أقسامًا لعلم المصريات بها. وهناك دوريات عديدة تصدر فى لندن ونيويورك وباريس وغيرها عن علم المصريات والآثار المصرية.

□ □ □

Lincoln

(لنكولن)

Jan Morris

Penguin, 2000, 216PP., £7.99



ليس هناك أشهر من الرئيس الأمريكى إبراهام لنكولن فى التاريخ الأمريكى. وتضعه عديد من استطلاعات الرأى على رأس قائمة أهم الزعماء الأمريكيين فى التاريخ، وقد أضاف اغتيال لنكولن، الذى يُعرف فى التاريخ بأنه محرر العبيد فى أمريكا، مزيدًا من السحر والجاذبية إلى هذا الزعيم الجمهورى الذى تردد اسمه كثيرًا الشهر الماضى خلال الحملة الرئاسية الانتخابية، وذلك على ألسنة زعماء الحزب الجمهورى.

وهذا الكتاب هو سيرة ذاتية أمينة كتبها جين موريس، تناولت فيه شخصية لنكولن وأسلوبه فى التعامل وتشير إلى أنه خلال الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة فى بداية ستينيات القرن التاسع عشر كان لنكولن قائدًا عسكريًا متحجر القلب ليس لديه أى رحمة. وقد زارت المؤلفة مسقط رأس لنكولن وتحدثت عن الأماكن التى عاش فيها، كما تحدثت عن زوجته التى وصفتها بأنها كانت سليطة اللسان بشكل غير عادى.

ويورد الكتاب نص نصيحة من إبراهام لنكولن إلى جندى كان طوله يتجاوز طول الرئيس الأمريكى الراحل مع أن لنكولن كان يتمتع بطول كبير جدًا.

يقول لنكولن: تجنب تعاطى الكحول والحلوى وعندما تنام يجب أن يكون رأسك أكثر انخفاضًا من مكان صدرك.

ورغم أن الكتاب قليل الصفحات، إلا أنه يقدم المعلومات بشكل طريف كما لو كان حديثًا وديًا عن زعيم شهير للغاية فى التاريخ الأمريكى.

□ □ □

قـــــراءات جـــــديدة

اقتصاد وتجارة

الصهيونية تلتهم العرب

محمد دويدار

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف نشأة المشروع الاقتصادى الصهيونى، وكيف تطور هذا المشروع وفق مخطط شديد الدهاء، ومع بروز فكرة الشرق أوسطية، اكتسب المشروع الاقتصادى الصهيونى أبعادًا أكثر خطورة وأوسع مدى، تهدد العرب ربما فى وجودهم.

■■■

The Business of Books

(تجارة الكتب)

André Schiffrin

Verso, 2000, 181pp., $23.00

كتب أندريه شفرين الناشر المرموق هذا الكتاب ليروى قصة صعود وسقوط دار نشر «بانثيون» المتخصصة فى الأدب والسياسة، والتى انضم إليها عام ١٩٦٢ وأدارها حتى أزيح عنها بفعل مناورات الشركة الأم عام ١٩٨٩. وقد عمل والده أيضًا فى مجال النشر فى باريس، حيث أنشأ سلسلة الكلاسيكيات الفرنسية «بلياد»، ثم باعها إلى دار نشر «جاليمار».

يعبر شفرين الآن عن قلقه إزاء مستقبل عالم النشر بسبب منافسة الإنترنت وبسبب سيطرة عدد محدود من العمالقة الكبار على السوق وهم لا يهتمون سوى بالكتب الأكثر مبيعًا.

ولكنه أيضًا لا يغفل الأمل الذى يبعثه تعدد دور النشر الصغيرة المستقلة، ومن بينها الدار التى يمتلكها الآن «نيوبرس».

■■■

Salula: The World of Secondhand Clothing and Zambia

(سالولا: عالم الملابس المستعملة وزامبيا)

Karen Tranberg Hansen

University of Chicago Press, 2000, 298pp., $22.50(Pb)

قدرت الأمم المتحدة قيمة صادرات العالم من الملابس المستعملة عام ١٩٩٥ بما يقرب من ١,٤ مليار دولار، وتذهب ربع هذه الصادرات إلى منطقة جنوب الصحراء فى قارة أفريقيا. وفى أوائل التسعينيات مثلث صادرات الولايات المتحدة من الملابس المستعملة ثامن أكبر صادراتها إلى المنطقة.

تقول المؤلفة والباحثة الأنثروبولوجية فى الكتاب إنه حتى نهاية القرن التاسع عشر كانت تجارة الملابس المستعملة تجارة كبيرة فى الغرب أيضًا، ولكن واردات الدول النامية الرخيصة أنهت الحاجة إلى هذه التجارة.

ويزدهر فى زامبيا هذا النوع الغريب من التجارة الدولية والذى يتهم أحيانًا بتدمير الصناعة المحلية. ويصف الكتاب كيف تصبح الملابس التى يتخلص منها الناس فى الغرب هى الطريقة الوحيدة أمام أفراد الطبقة المتوسطة فى زامبيا للحفاظ على مظهر لائق فى ظل تدهور دخولهم.

بيئـــــة

التلوث الضوضائى وإعاقة التنمية

حسن أحمد شحاتة

القاهرة: الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٠

صارت الضوضاء أحد أشكال التلوث التى تؤثر بقوة على صحة الإنسان وقدراته وإنتاجيته، وهى بذلك تمثل معوقًا حقيقيًا للتنمية. المؤلف يناقش الظاهرة مستندًا إلى ما انتهى إليه الفقهاء من النهى عن كل ما من شأنه إلحاق الأذى بالإنسان وتقويض العمران.

■■■

Hotspots: Earth's Biological Richest and most Endagered Terrestrial Ec-oregions

(مناطق ساخنة: أكثر مناطق الأرض ثراء بيولوجيًا وأكثرها تعرضًا للخطر)

Russell A. Mittermeier and Norman Myers

University of Chicogo Press,2000, 432pp., $65.00

المناطق الساخنة هى تلك المناطق القليلة نسبيًا فى الأرض التى تتميز بثرواتها الحيوانية والنباتية الكبيرة. وهذا الكتاب حدد ٢٥ منطقة فى العالم ينطبق عليها ذلك التعريف. وعلى الرغم من أن مجموع مساحتها لا يتجاوز ١,٤٪ من مساحة الأرض، إلا أنها تحتوى على ٦٢٪ من أنواع الحيوان و٦٥٪ من أنواع النبات الموجود فى الكوكب كله. وتقع هذه المناطق فى جنوب ووسط أمريكا وفى أفريقيا وآسيا وفى بعض الجزر، وفى المناطق القوقازية من روسيا.

يحذر العلماء المشاركون فى هذا الكتاب من أن هذه المناطق الطبيعية سوف تصبح مجرد ذكرى مع نهاية العقد الأول من القرن الجديد بسبب المخاطر الشديدة التى تتعرض لها كل يوم.

تاريخ وآثـار

أراضى فلسطين بين مزاعم الصهيونية وحقائق التاريخ

هند أمين البديرى

القاهرة: جامعة الدول العربية، ٢٠٠٠

يؤكد الكتاب خطأ المزاعم الصهيونية التى تقول: إن الفلسطينيين باعوا أراضيهم لليهود، ترد المؤلفة على هذه المزاعم بالأرقام، وتشير إلى خاصية نفسية مهمة تحول بين الفلاح وبيع أرضه مهما كان الثمن.

■■■

أسفار العهد القديم فى التاريخ

توماس تومسون

ترجمة: عبد الوهاب علوب

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

يفند المؤلف أباطيل ومزاعم اليهود حول العهد القديم، وجميعها مما حرفه الأحبار والسياسيون الذين أرادوا أن ينسقوا تاريخ فلسطين ليؤكدوا أنهم هم أصحاب الأرض والحق فيها.

■■■

مصر من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر

ريمون فلاور

ترجمة: سيد أحمد الناصرى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

يغطى المؤلف حوالى ١٧٢ عامًا من تاريخ مصر الحديث، وهى فترة شديدة الخصوبة، إذ يؤرخ عادة لتاريخ مصر الحديث بقدوم نابليون إلى مصر وهبوطه على شواطئ الإسكندرية فى عام ١٧٩٨، وقد مثلت الحملة الفرنسية صدمة حقيقية للثقافة التقليدية التى كانت سائدة آنذاك، كما أنها فتحت آفاقًا واسعة أمام المصريين تمكنوا عبرها، ومن خلال طموح محمد على باشا أن يجادلوا ثقافة العصر، كما أن فترة عبد الناصر هى الأخرى، شهدت صعود وانكسار أحلام القومية العربية فى التحرر والتخلص من التبعية والتعبير عن رؤية مستقلة بعيدًا عن التحالفات، وحين رحل عبد الناصر، أصر خلفه «السادات» على سياسات بديلة، ربما إلى حد التناقض.

■■■

The Prime Minister: The Office and it's Holders Since 1945

(رئيس الوزراء: المنصب وشاغلوه منذ ١٩٤٥)

Peter Hennessy

Penguin, 2000, 720pp., £25.00

يؤرخ المؤلف بيتر هنسى لكل من شغل منصب رئيس الوزراء فى بريطانيا منذ عام ١٩٤٥. ويقوم بتقييم كل منهم حسب معيار الفعالية التنظيمية. ويشغل المكانة الأولى بالنسبة لبيتر هنسى كل من «كلمنت أتلى» و«مارجريت تاتشر» ويليهما كل من «إدوارد هيث» و«تونى بلير» ثم تشرشل وكالاهان.

تراجم وسيـر

جوانب من سياسة الملك عبد العزيز

خيرية قاسمية

الرياض: دار الملك عبد العزيز، ٢٠٠٠

يعرض الكتاب لسيرة مؤسس المملكة العربية السعودية، والسياسة التى اتبعها حتى تحققت وحدة شبه الجزيرة العربية وبرزت السعودية على خريطة العالم.

■■■

زويل أمير الكيمياء

هشام الحديدى

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

كان فوز أحمد زويل بجائزة نوبل فى الكيمياء حدثًا مصريًا وعربيًا لافتًا، فأن يفوز مصرى للمرة الثانية بجائزة نوبل بعد نوبل الأدب التى حصل عليها نجيب محفوظ فهذا إنجاز كبير، وأن تكون نوبل الثانية فى العلوم، فهذا إنجاز أهم، وهذا الكتاب لا يتوقف عند زويل عالم الكيمياء، وإنما يتناول زويل الإنسان، متتبعًا خطواته حتى وصوله إلى أعلى قمة علمية.

■■■

سعيد النورس.. رجل القدر فى حياة أمة

أورخان محمد على

القاهرة: دار الفضيلة، ٢٠٠٠

كان سعيد النورس صوفيًا وحركيًا فى آن معًا، وأتباع حركته فى تركيا يعدون بالآلاف، وقد لعبت الحركات الصوفية فى تركيا دورًا مهمًا فى الإبقاء على الإسلام فى تركيا برغم سياسات أتاتورك وثورته العلمانية، وكانت النورسية، أحد أهم هذه الحركات.

■■■

جوانب أخرى من حياتهم

مجموعة من المؤلفين

ترجمة: أشرف الصباغ

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

يعرض المؤلف لجوانب خفية فى حياة خمسة من أهم المبدعين الروس هم إيفان جونتشاروف وألكسندر بوشكين، ومكسيم جوركى، وفلاديمير مايكوفيسكى، وفالانتين راسبوتين، وهى جوانب تكمل الصورة الإبداعية لهؤلاء المبدعين.

■■■

مرشد المترجم

محمد عنانى

القاهرة: دار لونجمان، ٢٠٠٠

يضم الكتاب بين دفتيه خبرة المترجم وهو أستاذ فى اللغة والأدب الإنجليزى، مارس الترجمة للمسرح والشعر من الإنجليزية وإليها، وهو يقدم هنا خلاصة هذه الخبرة النظرية والعملية للدارسين والمحترفين فى مجال الترجمة.

■■■

مقـــاومة

ترجمة: أنطوان أبو زيد

لندن: دار الساقى، ٢٠٠٠

عن قصة حياة سهى بشارة، وحياتها داخل المعتقل، كيف عاشت سنوات عشرا من الحزن والإجهاد والعذاب، كيف قُدِّر لها أن تحلم على صوت المدافع والقتل.

■■■

Dora Maar: With and Without Picasso: A Biography

(دورا مار: مع أو بدون بيكاسو: سيرة حياة)

Mary Ann Cows

Thanves & Hudson, 2000, 224pp., £24.95

استمرت العلاقة بين دورا مار وبيكاسو عشر سنوات، وأشهر ما يذكره العالم لدورا مار هى لوحة «المرأة الباكية» التى رسمها بيكاسو وتحمل وجهها.

هذا الكتاب يروى قصة حياتها منذ أن ولدت فى باريس لأب كرواتى يعمل مهندسًا معماريًا عام ١٩٠٧، ثم احترافها التصوير الفوتوغرافى، وعلاقتها بجورج بتاى، وأخيرًا علاقتها ببيكاسو التى ما أن أنهاها بيكاسو من أجل امرأة أخرى، حتى أصيبت دورا بانهيار عصبى وعاشت فى

قـــــراءات جــــــديــدة

عزلة كاثوليكية بعد أن كانت يسارية متعصبة.

وفي المزاد الذي أقيم بعد موتها عام ١٩٩٧، وجدت في حوزتها متعلقات كثيرة وغريبة لبيكاسو من بينها قطعة قماش عليها آثار بعض قطرات من دمائه.

رواية وأدب

إذا الأيام أغسقت
حياة شرارة
عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر

ثمة حياة أشبه بالكابوس، يعيشها الناس في العراق، حيث وطأة الضغوط الداخلية والخارجية، معتقلات وحصار وتضييق، تتوق النفس الحرة أن تتحرر منه وأن تنهي عذابات الخوف والصمت وإن بالموت البطيء أو بالانتحار، هذا بعض ما تقوله له هذه الرواية.

■■■

تطفل ميريل ستريب
رشيد الضعيف
بيروت: رياض الريس، ٢٠٠٠

بعد روايته التي حققت نجاحًا كبيرًا في العالم الماضي «ليرننغ إنجليش»، تأتي هذه الرواية التي يشرح فيها المؤلف عالم العلاقات الجسدية، والاضطرابات النفسية الناشئة عنها من خلال بطل روايته.

■■■

بنات.. بنات
جمال حسان
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

ترصد الكاتبة في روايتها تغيرات عديدة طالت المجتمع المصري، وانعكست بالضرورة على شريحة مهمة منه هي الفتيات، فترصد أحلامهن وتحولاتهن من خلال أسرة تنتمي إلى الطبقة الوسطى.

■■■

Die Brucke Vom Goldenen Horn
(جسر الهلال الذهبي)
Emine Sevgi Ozdamar
Kiepen Heuer & Witsch, 2000, 333pp., DM 19.90

الرواية تلقي الضوء على حياة العمال الأتراك في ألمانيا والصراع القيمي بين الشرق والغرب. يدور زمنها ما بين عامي ١٩٦٦ و١٩٧٥. أما الجسر الذي يذكره العنوان فيصف جسرًا يقع في اسطنبول يصل بين الجانب الأوروبي من المدينة والجانب الآسيوي، الذي تعيش فيه عائلة بطلة الرواية. وتعيش البطلة سنوات ما بين برلين وباريس وتشترك في تمرد الستينيات والسبعينيات، ولكنها تظل تنظر إلى الجانب الآسيوي من اسطنبول باعتبار أن تآلفها معه هو الذي سيحررها. هي لا تخون وطنها، وإنما تجبره على الاعتراف بشرعية الذات التي اكتشفتها في نفسها.

■■■

The Hiding Place
(المخبأ)
Trezza Azzoparch
Picador, 2000, 282pp., £14.99

انضمت هذه الرواية لقائمة الروايات المرشحة لنيل جائزة بوكر في الأدب لهذا العام، وهي تدور حول مهاجر مالطي يعيش ويتزوج في وايلز. راوية القصة إحدى بناته الست، واللاتي عانين من إدمانه للقمار ويتناول الجزء الثاني من الرواية الحياة المؤلمة التي عاشتها كل فتاة منهن. الجدير بالذكر أن الرواية تحمل شيئًا من السيرة الذاتية، حيث إن المؤلفة ابنة لمهاجر مالطي وأم من وايلز، كما أن لديها ست أخوات.

سياســـة

أحزاب المناقصة
نديم محسن
بيروت: دار الجديد، ٢٠٠٠

تبدو لبنان حالة فريدة من حيث التنوع الديني بالذات، وهو ما فرض عليها تركيبة خاصة فيما يتصل بتداول السلطة والمناصب في أجهزة الحكم، وقد كانت الحرب الأهلية اللبنانية التي استمرت ما يزيد على ٢٠ عامًا تعبيرًا عن خلل أو عدم رضا في هذه الفسيفساء الغنية. وهذا الكتاب عن السياسة في لبنان، والأحزاب ذات الغطاء «العقائدي»، والتي باتت تلعب دورًا مهمًا في المسيرة اللبنانية.

■■■

فلسطين.. كشف المستور فيما آلت إليه الأمور
هالة العوري
القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠

تشير المؤلفة إلى حقيقة يدركها العرب عن أسباب قيام دولة إسرائيل، التي وضعت لبناتها خطوة خطوة قبل أكثر من قرن، والعرب غافلون عن هذا التخطيط لا يتحركون، وإذا تحركوا فبصيحات جوفاء وعبارات إنشائية لا تتجاوز التنديد والاستنكار والشجب.

■■■

قضايا خاسرة من الإسكندرونة إلى البلقان ومن عمان إلى الشيشان
رياض نجيب الريس
بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٠

رؤية صحافية تحليلية ونقدية لقضايا عديدة، يقدم فيها المؤلف تصوراته للأخطاء والخطايا، ويطرح ما يراه ممكنًا من حلول، فهل كان ممكنًا ألا تصل الأمور في بعضها إلى ما وصلت إليه من تردٍ؟ يجيب المؤلف بالإيجاب.

■■■

مثقفو المشرق العربي من درايفوس إلى جارودي
حازم صاغية
بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٠

محاولة لاستكشاف الذات العربية عبر مثقفيها أو المتحمسين لأفكارها، التي يرى المؤلف أنها تنطوي على بعض العنصرية وسوء الفهم والتشكك غير المبرر في كثير من الأحيان في نوايا الآخر وأهدافه، حتى وهو يمد يدًا للمساعدة.

■■■

هاربون بمليارات مصر
عادل حمودة
القاهرة: دار الفرسان، ٢٠٠٠

يفتح المؤلف الملفات السرية والشخصية لأشهر الهاربين بأموال القروض التي هي في الأساس أموال الشعب المصري، وبين من يسلط عليهم الأضواء: رامي لكح وعلية العيوطي ومحمود وهبة وأشرف السعد وهدى عبد المنعم ومصطفى البليدي وآخرون.

■■■

هل يشكل انتشار الأسلحة النووية عامل ردع
إدريس خليل وآخرون
الرباط: أكاديمية المملكة المغربية، ٢٠٠٠

يقوم مفهوم الردع على توازن القوى دون استخدامها، سواء كانت هذه القوى عسكرية أم لا، ويمثل انتشار الأسلحة النووية وبقاؤها في يد أطراف بعينها، خللاً كبيرًا في موازين القوى، وهكذا يبدو سؤال المؤلف مشروعًا عما إذا كان امتلاك الأطراف كلها للأسلحة النووية يمثل عامل ردع أم لا.

شعـــــر

تحية الرجل المحترم
سامر أبو هواش
بيروت: دار الانتشار العربي، ٢٠٠٠

هذا هو الديوان التالي للشاعر، وفيه يذهب أعمق مما ذهب إليه في ديوانه الأول، وما يميز قصائده هنا اعتماده على السيرة والذاكرة والصورة والتفاصيل والأفكار الشخصية التي تمثل إجمالاً مكونات القصيدة عنده.

■■■

حورية العاشق
علي عبد الله خليفة
عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

ديوان جديد للشاعر يغلب عليه الطابع الرومانسي، وبحثًا عن ومضات حب مضيئة وسط أمواج واقع بالغ القسوة.

طعــــــــام

The Cambridge World History of Food
(كتاب كمبريدج عن تاريخ الطعام في العالم)
Kenneth F. Kiple, Kriemhild Ornelas (editors)
Cambridge UP, 2000, 1958 pp., 2Vol. $150.00

هذان المجلدان هما نتاج سبع سنوات من البحث والكتابة والتحرير من جانب أكثر من ٢٠٠ مؤلف، لإخراج ما سيعده كل من علماء الاجتماع والمؤرخين والاقتصاديين وأيضًا المتذوقين المرجع الرئيسي لتوسيع معلوماتهم وتعميق معرفتهم بكل ما يتعلق بتاريخ الطعام في العالم.

ومن ضمن الرسائل التي يحملها الكتاب ما مؤداه أن اختراع الزراعة منذ ١٠,٠٠٠ سنة كان أسوأ حدث أصاب معدة الإنسان، حيث قلت القيمة الغذائية لطعامه منذ ذلك الوقت، لأن ما كان يحصل عليه الصيادون في عصور سابقة كان يفوق في قيمته الغذائية وفي سعراته الحرارية أضعاف ما تقدمه الخضروات والبقوليات ومنتجات الألبان التي وفرتها الزراعة. كذلك يبين الكتاب أثر استحداث الأكل في المطاعم والذي بدأ في منتصف القرن السابع عشر في فرنسا على اختراع التركيبات المختلفة لأصناف الطعام للحصول على الجديد دائمًا. كذلك يشرح تميز القرن العشرين بعامل التسويق والإعلان الذي كان ذا تأثير حاسم على ما يتم تناوله من غذاء في العالم كله. إلى جانب عوامل أخرى مثل التركيز على جمال الجسد النحيل وأثر ذلك على شيوع منتجات الريجيم، وثورة الستينيات التي نادت بالعودة إلى الطبيعة، وأخيرًا العولمة وسلاسل مطاعم الأكل السريع.

■■■

How to Cook Without a Book: Recipes and Techniques Every Cook Should Know by Heart
(كيف تطبخ بدون كتاب: وصفات وأساليب يجب على كل طباخ أن يحفظها عن ظهر قلب)
Pam Anderson
Bantam Doubleday, 2000, 290pp., $25.00

تعتقد بام أندرسن أن الاعتماد المتزايد على كتب الطبخ والوصفات الجاهزة لإعداد الوجبة الرئيسية يوميًا أمر غير عملي على الإطلاق، لذلك يركز كتابها على كيفية إعداد وجبة متكاملة بالمكونات المتاحة في أي يوم من الأيام بدون حاجة لشراء المزيد أو التسوق. كما تبين الطرق الواحدة التي يصلح تطبيقها لإعداد أنواع عديدة ومتشابهة من الطعام.

■■■

Pickled, Potted and Canned: The Story of Food Preserving
(مُخلل ومَحفوظ ومُعلب: قصة حفظ الطعام)
Sue Shephard
Headline, 2000, 368pp., £15.99

يؤكد هذا الكتاب مقولة أن الحاجة أم الاختراع. فما نعرفه اليوم من سلمون مدخن وطماطم مجففة ومربى وحتى الفواجرا (كبد الأوز) جاء من الحاجة لحفظ الطعام الطازج لحين استهلاكه في أوقات الافتقار. ويبدأ تاريخ حفظ الطعام بالاستخدام البدائي للملح والشمس، ثم تطورت التقنيات إلى أن وصلت للتدخين،

قـــــراءات جـــــديدة

ثم التبريد. وتربط المؤلفة بين النكهة التي تميز طعام الشعوب المختلفة وبين أساليب الحفظ التي يستخدمونها. فالبهارات التي تميز طعام جنوب شرق آسيا في الأصل كانت تستخدم في تجفيف الطعام المحفوظ. كما أن النكهة الحمضية أو اللاذعة لطعام شمال أوروبا وشرقها ناتجة عن عمليات التخمير الشائعة هناك. كذلك تروي المؤلفة التواريخ المحددة التي اخترعت فيها أساليب الحفظ الحديثة. ففي ١٨١٠ مثلاً اخترع ثلاثة مهندسين بريطانيين أسلوب التعليب، الذي بفضله أصبح من الممكن تعليب اللحم البقري المفروم واللبن المكثف والفول المطبوخ. وفي نهاية العشرينيات من القرن العشرين اخترع أمريكي من بروكلين أسلوب التبريد أو التثليج الميكانيكي. كذلك تشرح دور الحرب العالمية الثانية في إحداث ثورة في الطعام الذي يجهز فوريًا والذي يسهل حمله، ومن أطرف الرواد في هذا المجال جنديان أمريكيان اخترعا طريقة للحصول على الآيس كريم في طائرتهما الحربية.

علوم وتكنولوجيا

الإعجاز الإلهي في أجهزة المناعة والمقاومة في جسم الإنسان

محمد السيد أرناؤوط

القاهرة: دار الفضيلة، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف حركة هذه الأجهزة أتوماتيكيًا في جسم الإنسان، وهي أجهزة لديها قدرة فائقة على استشعار أي جسم غريب وإبعاده، وتبني أسلوب المقاومة الملائم، وهذا دليل قوي على عظمة الخالق وقدراته.

■■■

الأسلحة البيولوجية والكيمائية بين الحرب والمخابرات والإرهاب

عبد الهادي مصباح

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

يرى المؤلف أن الأسلحة البيولوجية من أقوى أسلحة الدمار الشامل، وهذه الأسلحة يطلق عليها، قنبلة الفقراء الذرية، وهي متاحة لدول العالم النامي التي لا يتاح لها إنتاج قنابل ذرية أو هيدروجينية.

المؤلف يناقش دور هذه الأسلحة وتاريخ استخدامها وعلاقة المخابرات والإرهاب بها.

■■■

المعلومات وتكنولوجيا المعلومات على أعتاب قرن جديد

محمد فتحي عبد الهادي

القاهرة: الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٠

تمثل المعلومات قوام المجتمع المعاصر، مما يجعل الحديث عن أسس مجتمع المعلومات وركائز الإستراتيجية العربية للمعلومات، وأخلاقيات المعلوماتية في المكتبات ودور مراكز المعلومات، مهمًا للغاية في هذه المرحلة، وهذا ما يركز عليه الكتاب.

فكـــر

هل أنتم مخطئون ضد الحريم

فاطمة المرنيسي

الرباط: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠

تطارد المؤلفة حلقات تاريخية من تجني الاستشراق، ومن الفهم المغلوط لعلاقة الرجل والمرأة في المجتمعات الشرقية التي تلصق خطأ سوء فهمها إلى تعاليم دينية، وتحيل الرغبة الذكورية في السيطرة والاستبداد إلى قوانين لأفكاره منها.

■■■

مصر.. التنوير عبر ثقب إبرة

رفعت السعيد

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠

لا يبدو أن ثمة اتفاقًا حول معنى التنوير بين التيارات السياسية والمثقفين في مصر، فالبعض يراه زائفًا لا يعكس سوى استلاب تجاه الغرب، فيما يرى آخرون - ومنهم المؤلف - أن أعداء التنوير من الظلاميين والمتأسلمين يحولون دون تحول الاجتهادات التنويرية الحقيقية إلى واقع يعيشه الناس.

■■■

الأمة والدين في الشرق الأوسط

فريد هاليداي

ترجمة: عبد الإله النعيمي

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

لأن منطقة الشرق الأوسط كانت مهبطًا للديانات والرسالات السماوية، فإن هذه الديانات تفاعلت بقوة مع مجتمعات الشرق الأوسط، بحيث صار الارتباط بينهما عروة لا تنفك، وأثر على مفهوم الأمة وعلى طبائع الأديان معًا.

■■■

هوامش صحفية

عبده بورجي

صنعاء: منشورات ٢٦ سبتمبر، ٢٠٠٠

مقالات صحافية تتناول اليمن سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، وهي مقالات سبق نشرها تعليقًا على الأوضاع اليمنية.

فكر ديني

استخدام الرسول للوسائل التعليمية

حسن بن علي البشاري

قطر: مركز البحوث والدراسات، ٢٠٠٠

يعرض المؤلف للوسائل التي استخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم لتوضيح الحكمة من فرض عبادات بعينها، عبر الاستدلال بآيات من القرآن الكريم والحديث الشريف.

■■■

آفاق حضارية للنظرية السياسية للإسلام

محمد بحر العلوم

لندن: معهد الدراسات العربية والإسلامية، ٢٠٠٠

مقالات عن الدور الحضاري للإسلام عبر التاريخ، وكيف بنى المسلمون مدنهم الحضارية ومجتمعاتهم التي استرشدت بأسس المدنية في الإسلام، وفي هذا كله لم يكن الإسلام بعيدًا عن الديمقراطية وحقوق الإنسان.

■■■

اليهود بين القرآن والتوراة

عبد الرحمن غنيم

دمشق: دار الجليل، ٢٠٠٠

ورد ذكر اليهود في القرآن والتوراة، وقد جاء ذكرهم بما يبين حقيقتهم ودوافعهم وسلوكهم في المجتمعات التي عاشوا فيها، وهو ما تؤكده الحوادث المعاصرة.

■■■

صناعة القرار السياسي في الخلافة الراشدة

محمد بغداد

الجزائر: منشورات الجاحظية، ٢٠٠٠

تمثل الخلافة الراشدة النموذج الراقي الوحيد بعد دولة النبي، فهل يمكن تكرار هذا النموذج بحذافيره كما يريد البعض اليوم؟ المؤلف يؤكد استحالة ذلك ويطرح مبرراته.

■■■

Islam: A Short History

(الإسلام: تاريخ متحضر)

Karen Armstrong

Modern Library,2000, 144pp., $19.95

آخر كتاب يصدر لكارين آرمسترونج مؤلفة كتاب «محمد» «والقدس» و«المعركة من أجل الله». وفيه تروي آرمسترونج قصة الإسلام منذ نزول الوحي على النبي محمد، ثم التطور الذي لحق بالديانة الجديدة حتى تحولت إلى امبراطورية سياسية شملت فارس. كذلك تروي آرمسترونج السياق التاريخي الذي حدث فيه انشقاق السنة والشيعة وبقية الفرق. كما تتناول التاريخ الأحدث للإسلام منذ حروب الصليبيين والتتار وحتى الاستعمار الأوروبي وإلى الحاضر. وهي تضع المد الأصولي الإسلامي المعاصر في سياق أنه جزء من ظاهرة عالمية.

■■■

Reason, Freedom, and Democracy in Islam: Essential Writings of Abdolkarim Soroush

(العقل والحرية والديمقراطية في الإسلام: الكتابات الأساسية لعبد الكريم سوروش)

Mahmoud Sadri (Editor)

Oxford University Press, 2000, 272pp., $29.95

برز في السنوات الأخيرة عبد الكريم سوروش باعتباره أحد أهم قادة الفكر الإسلامي التجديدي. يقدم هذا الكتاب لأول مرة بالإنجليزية مقدمة نقدية لأهم أفكار سوروش التي تدمج الفكر الإسلامي الديني مع الفلسفة الحديثة، بالإضافة إلى مقابلة معه تكشف عن سيرته الثقافية. كما يقدم الكاتب آراء سوروش في أمور مثل حتمية التغيير في الدين، وضرورة الحرية في الاعتقاد، وتوافق الإسلام مع الديمقراطية.

فنـــون

انشطار التاج

محمد أحمد محمد

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٠

مسرحية تدور أحداثها في أواخر عهد رمسيس الحادي عشر (آخر ملوك الأسرة العشرين). والذي استمر حكمه ٢٧ عامًا، والذي انتهى بموته عصر الرعامسة، وقد قفز جندي مغمور إلى سدة الحكم، لتبدأ مرحلة جديدة في حكم مصر.

■■■

Global Interests: Renaissance Art Between East and Eest

(مصالح عالمية: فن عصر النهضة بين الشرق والغرب)

Lisa Jardine and Jerry Brotton

Cirnell UP., 2000, 224 pp., $39.95

يتناول تاريخ الفن من منظور اقتصادي، حيث يربط الرأسمالية الدولية والمصالح التجارية التي كانت سائدة في الفترة ما بين ١٤٥٠ و ١٥٥٠ بفنون عصر النهضة. فمثلاً لوحة «السفراء» الشهيرة لهانز هولباين كان المراد بها تزكية الفرنسيين في تنافسهم مع التجار البرتغاليين في أفريقيا والعالم الجديد.

الكتاب ملئ بمثل هذه الأمثلة التي تحاول البرهنة على أن الطموحات التجارية والمصالح الكونية لدى الأوروبيين كانت وراء تميز فن عصر النهضة بمؤثرات من الثقافات الأفريقية والصينية وغيرها.

نقـــد أدبي

التخيل والسلطة.. في علاقة الرواية الجزائرية بالسلطة السياسية

علاء سنقوقة

الجزائر: منشورات الاختلاف

يلاحظ المؤلف، أن الخطابات السياسية عملت في النص الروائي الجزائري بآليات متشابهة، حيث سيطر الإلغاء والعنف المعنوي والتشويه المتعمد للآخر في هذا الخطاب، ويقدم المؤلف نماذج تطبيقية على صحة افتراضه.

■■■

محمود تيمور رائد الأقصوصة العربية

فتحي الإبياري

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

عاش تيمور في بيئات متعددة، شعبية وريفية وأرستقراطية، وسافر إلى أوروبا، حيث تعرف على أفكار جديدة ظهرت في كتاباته، وهذا الكتاب عن حياة هذا الأديب الرائد وإنتاجه الفكري والأدبي.

■■■



Le MERIDIEN
EGYPT
جميل
أن تقضى ٣ ليالى
فى لندن..
الأجمل
أن تكون مجاناً ..
مع متعة الإفطار
و السحور المتميز
فى جميع فنادق
مريديان مصر..
يمكنك الفوز بتذكرتين
و ٣ ليالى إقامة لفردين
مجاناً فى مريديان جروفنر
هاوس بلندن
PEPSI
EGYPTAIR
مصر للطيران
Le MERIDIEN
GROSVENOR HOUSE
Le MERIDIEN
EGYPT
CAIRO: (202) 362 1717
HELIOPOLIS: (202) 290 5055
PYRAMIDS: (202) 383 0383
MAKADI BAY: (065) 590 590
هكذا تكون الضيافة
CAIRO • HELIOPOLIS • PYRAMIDS • MAKADI BAY • SHARM EL SHEIKH

كتاب
الزاوية

المسحراتى

٣ـ نفس ترياق

مسحراتى ينادى فى الأحياء
منقراتى من الألف لليـاء
صرف القسيمه على بسيمه وعلاء
والمكوجى بيكوى هدوم العيد
والبيت دا هو مقبل على الزغاريد
والصاجه رايحه وجايه بالمواعيد
ريحة المخابز من هنا لبولاق
والسهرانين فى الحى منتشرين
حتى الساعاتى منوَّر البتارين
وأنا دورى نمرة أربعة وعشرين
فى محل الأسطى سيد الحلاق
ويامد رجلى عترت فى القصاقيص
دا ترزى بدله وجاره ترزى قميص
قفطانى الأخضر أسعد الأزياء
وجناحى الأخضر لو أمرته يطير
دا أنا ألف ليلة وجلّة الأساطير
يا عمّ يا اللى بتدرس الأشياء
والطفل دا اللى فى قلبى لسّه حاويه
يرجع يغنىء الفانوس وَحَويه
أبوك صغر يا ابنى يعنى خاوية
أصل الكريم رمضان نَفَس ترياق

رسائل
الكتب
وجهات نظر

العرب والأصول والأعراق!

استوقفنى فى العدد التاسع عشر من «وجهات نظر» ما ورد «حول نسب الرئيس الراحل حافظ الأسد».. كما لفتنى من قبل الجهد الذى يبذله المهندس الزراعى محمود فردوس العظم فى تحقيق جمهرة النسب لابن الكلبى للوصول فى نسب الرئيس فى النتيجة إلى «أنه من العرب الأقحاح» دحضًا لما جاء فى تلخيص يوسف القعيد لكتاب بتريك سيل أن جد حافظ الأسد ليس عربيًا، بل من أصول تركية.

وأيا ما كان المراد من وراء ذلك وكان المطلوب.. فالعرب لا يقيمون الحكم ولا أقاموه قط على العرق وعلى الأصول.. كانت الأصول دليلهم إلى المضمون فى عصورهم الحيوية: «لسنا وإن كرمت أوائلنا يومًا على الأنساب نتكل».. إذ كانت العرب ترى فى النسب مرقاة لعلو الهمة واصطفاء الشمائل وتسامى الأخلاق. فتمسك المرء بانتسابه لقبيلة دون أخرى ما هو إلا انتساب لما لها وعرف عنها وسجله شعراؤها من سجايا وصفات تميزها وتتفاخر بها. ومن هنا كان اعتقاد «الجاهليين» أن من لا نسب له أو المشكوك فى نسبه أو «الأعجمى» سيان، لا يمكن أن يرقى إلى هذا المستوى إلا بالتشبث بالـ«مثل» وإرادة تنظيم هذا التشبث. إذ ما كان يعيب الفرد من القبيلة يعيبها. ومن هنا حرص القبيلة على ألا يتصعلك أحد منها.

وهناك مثلان: أحدهما فى الجاهلية والثانى فى الإسلام، واضحان، يشيران إلى أن مضمون النسب هو المرقاة إليه، لا مجرد النسب: فعنترة العبسى لم يتبوأ المقام الذى يستحقه، بالوراثة لو كان صريح النسب إلا بعد أن أثبت بالعمل جدارته به.

ولم يلحق معاوية بن أبى سفيان ـ وهو خليفة ـ روح بن زنباع، أخاه سفاحًا، بنسبه، إلا بعد أن ظهرت جدارته فى القيادة وبالتالى أهليته بالنسب. فالعمل هو محتوى حياة المرء، مضمونها، وهو معيار التقدير. وهذا هو جوهر الإسهام الذى يقدمه العرب فى الإسلام. كان عمل الفرد ينبئ به فينذب لما هيئ له، فكثيرًا ما نرى فى العشيرة الابن الأحق، من حيث مكانه فى النسب، يتولى الشئون المعاشية، فى حين يتقدم غيره للقيادة والعلاقات العامة.. وهو أمر واضح لا تخطئه العين فى سيرة من لايزالون يعيشون عيشة العشائر حتى الآن، فالأمير فواز الشعلان لم يكن كبير أولاد الشعلان إلا أنه كان دائمًا نائبًا منتخبًا إلى البرلمان. والشيخ فارس، الأخ الأكبر، الذى ارتضى البقاء فى البادية وانصرف لشئون العشيرة فيها.

ولقد شدد الإسلام على خاصية العرب هذه: العمل، فلم يعتبر الإيمان مستكملاً ومكتملاً إلا بها. فإننا لا نجد آية فى القرآن الكريم تدعو إلى الإيمان وتحض عليه إلا مقترنة بالعمل الصالح.. وكاد الإسلام أن يجعل من سوء فعلة «أبو رغال» فى خيانته للعرب، بقيامه بمهمة الدليل لجيش أبرهة إلى الكعبة، سنة يرجم قبره بالحجارة، قاربت شعائر الدين، وكان عمر بن الخطاب، ثانى الخلفاء يقول: «لست معلمكم إلا بالعمل».

وهاهنا، لعمرى، مصدر التمسك بالـ«سنة» فى الإسلام، أى بالقدوة فى العمل، وليس بالتقليد الجامد كما آلت إليه الأحوال.

وكان الأقوياء من حكام الإسلام، القادرون على الالتزام بالكلمة ومضمون الكلمة، حريصين على هذا المعيار فى التطبيق الإسلامى ويقفون صراحة وبقوة ضد استغلال العمل، الذى راحت تجنح إليه بعض القوى المتنفذة منذ أيام الخليفة عثمان. نعثر على ملامح ذلك فى سيرة الإمام على. ففى رسالة له إلى عامله «قرظة بن كعب» قال: أما بعد، فإن قومًا من أهل عملك أتونى فذكروا أن لهم نهرًا قد عفى ودرس، وأنهم إن حفروه واستخرجوه عمرت بلادهم وقووا على كل خراجهم وزاد فئ المسلمين قبلهم.. وسألونى الكتابة إليك لتأخذهم إليك بعمله، وتجمعهم لحفره والإنفاق عليه. ولست أرى أن أجبر أحدًا على عمل يكرهه، فادعهم إليك. فإن كان الأمر فى النهرعلى ما وصفوا، فمن أحب أن يعمل فمره بالعمل، والنهر لمن عمل دون من كرهه، ولأن يعملوا ويقووا أحب إلى من أن يضعفوا والسلام». وكان شعار بعض الحركات الثورية التى جاءت فى أعقاب تردى الإسلام والحكم العربى فيه: «من يعمل يأكل ومن لا يعمل لا يأكل».

فى عصور الحيوية تلك من التاريخ العربى لم يكن الذهن مخزن ألفاظ وكلمات وصيغ. كانت الكلمة تعبر عن كامل الشخصية وكانت الشخصية متماسكة. كان المرء يلتزم تمام الالتزام بالقول، يقوده إلى المخاطر: «وقلت لها وقد طارت شعاعًا من الأبطال ويحك لن تراعى». ثبت لمجرد أن تذكر بيت هذا الشعر فكسب المعركة. وواجه المتنبى الموت وصمد له لمجرد تذكيره بقول قاله، فارتد يواجه مصيره.

حينئذ كان لفظ العرب المشتق من الإعراب وهو البيان، أخذًا من قول العرب الرجل أعرب عن حاجته إذا أبان والثيب تعرب عن نفسها.. فى زمن لم يكن كامل الشخصية فيه ينفصل عن اللغة. فهى واللغة المعبرة عنها واحد، ولعل هذا هو عين ما عناه الرسول «عليه الصلاة والسلام» وهو أفضل من عبر عن العروبة فى عصورها عندما بلغه أن أحدهم يعرض بأعجمية بعض المسلمين.. لأصولهم العرقية فيطلب أن ينادى بالناس الصلاة جامعة ثم يصعد المنبر فيقول: «أيها الناس.. إن الرب واحد والأب واحد.. وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، إنما هى اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربى»، ولعل هذا هو ما يعنيه التزام الصلاة بالعربية ووجوب عدم ترجمة القرآن إلى غير العربية.

رسائل وجهات نظر الكتب

ولا غرو فالعروبة التى تميزت بالعرب وتميزوا بها لم تكن بالشكل ولا بالعرق، بل بالمعانى والشيم.. بالعمل بمحتوى لسانها ومضمونه المكتمل بالإسلام، الذى أنضج أسمى ما كان بلغه العرب فى جاهليتهم وعممه وشمله، كسائر قيمه فصارت مفاهيمه الجديدة مفاهيم المجتمع الإسلامى العربى الواحد الموحد المنسجم لا يختلف عن هذا مضمون رسالة أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وهو من خير من عبر عن وجهة نظر العرب فى وجه تلك النزعات الأعجمية التى كانت ترمى إلى التعريض بمكانة العرب، وهى الرسالة الشهيرة برسالة الجاحظ إلى الفتح بن خاقان عرب قحطان العاربة وعدنان المستعربة، واستمر التوفيق فى إطار هذا المفهوم لدى المسلمين غير العرب حتى القرن الحادى عشر، فقد كان البيرونى المنحدر من أصل فارسى (٩٧٣ - ١٠٤٨) يقول: «ديننا والدولة عربيان توءمان.. وكم احتشدت طوائف من التوابع فى الباس الدولة جلابيب العجم فلم يتفق لهم فى المراد سوق»، ورغم أنه خدم فى الدولة الغزنوية وهى من أصول غير عربية إلا أنه لم يغير موقفه ولم يتغير وهو القائل: «إنه لأحب إلى أن أهجى بالعربية من أن أمدح بالفارسية» (انظر: مبادئ الإسلام: أبو الأعلى المودودى - القاهرة، دار الأنصار، بلا تاريخ ص ٤٧ - ٤٨).. إلخ.

ثم لدواع شتى داخلية وخارجية تكاثرت فى الناس حالات العجز عن التوفيق بين العمل والقول وكثرت الأحاديث التى تصف عذاب العلماء الذين لم يوفقوا عملهم على علمهم أو فعلهم على قولهم، اقتبسها وأوردها دانتى فى جحيمه وخلاصتها فى الأصل العربى على ما ذكره المرحوم عمر فاخورى فى (آراء غربية فى مسائل شرقية) إن هؤلاء العلماء العاجزين «يدورون فى جهنم بلا انقطاع كحمار الرحى ويراهم تلاميذهم الذين عرفوهم ويطلون عليهم من الجنة فيدورون معهم قائلين: ما آل بكم إلى هنا وأنتم الذين علمتمونا كل شيء؟ ولماذا أنتم فى النار ونحن لم ندخل الجنة إلا بما علمتمونا؟» (دار الكاتب العربى، بيروت ١٩٥٥).

لنتذكر للحق وللتاريخ، أن التعريفات القومية كانت من أهم ما يشغل بال الشباب فى المشرق العربى على الأخص فى أعقاب الحرب العالمية الأولى. شباب ناشئ غير متزود بثقافة قومية - تراثية، تترنح ثقته فى مناخ جديد كل الجدة، تهب عليه فيه رياح نجاح ثورة أكتوبر وبروز قيام أحزاب موالية لها فى أقطار العالم من جهة وهجمة غربية استعمارية شرسة على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية من جهة أخرى، وثورات محلية فاشلة وغياب الأقلام القومية، أو تكاد تطل برؤوسها على استحياء، وليس فى الساحة حزب قومى عربى واحد..! يرافق ذلك كله تيارات إسلامية تستمد أفكارها من وحدة إسلامية مفترضة، وكل جهة من هذه الجهات تشكك لحسابها فى «تعريفات» القومية المتفتحة الآخذة بالتفكك من روابط امبراطورية عثمانية دامت أربعمائة عام!

فى زحمة نشوء الأحزاب القومية فى المشرق العربى كان التساؤل المهم القلق: من هو العربى؟ ولم يخطر ببال أحد أن تكون من صفات هذا الإنسان نقاء العرق، خصوصًا بعد معرفة سلوك جنوب أفريقيا ومعرفة صفات دولة إسرائيل التوراتية، وبعد أن تكشفت فى البلاد العربية الأحداث عن شخصيات ووجوه سياسية مشكوك فى صفاء أصولها العرقية قدمت وتقدم للقضية العربية ما يشير إلى أنها أكثر التزامًا بها من كثيرين من أولئك الذين يرفلون فى جلابيب اللباس العربى ويدعون الانتماء للأصول العربية. وأصبح المعيار هو العمل ومدى اقتران القول بالفعل.

ذوقان قرقوط - سوريا

«وجهات نظر» والمغرب

بحثت فى المكتبات وأكشاك بيع الصحف والمجلات فى مدينة «الرباط» عن عدد شهر نوفمبر الماضى من مجلة «وجهات نظر»، إلا أننى لم أجده كما تعودت، فلعل المانع خير، مع ملاحظة أن المجلة تحظى باهتمام كبير وإقبال من جانب القراء المغاربة.

عبد القادر بن عبد الله
الرباط - المغرب

● نعتذر لعدم تمكن القارئ العزيز من الحصول على نسخة من عدد نوفمبر الماضى من «وجهات نظر» لكننا نود إبلاغه أن هذا العدد جرت مصادرته فى المغرب.

المحرر

استدراك

وقعت بعض الأخطاء المطبعية فى مقال د. جلال أمين المنشور فى العدد الماضى من «الكتب.. وجهات نظر» تحت عنوان «إعادة تفسير السقوط السوفيتى والانتصار الأمريكى»، نصوب منها فيما يلى ما قد يؤدى إلى تغيير فى المعنى المقصود من الكاتب:

جاء فى العامود الثالث من صفحة ٢٠ «العولمة الاجتماعية» وتصويبها «الديمقراطية الاجتماعية». كما جاء فى العامود الثانى من الصفحة ٢١ فى عنوان فرعى «العولمة عصر الجماهير الفقيرة» وتصويبها «الجماهير الغفيرة».

كتاب الزاوية

المسحراتى

٤ - حبوا الوطن

مسحراتى منقراتى أنادى
كل الولاد فى بلادى
أنادى بنتى ايناس
ألاقى خدى انباس
أنادى ابنى حسن
ألاقى صدرى اتحضن
عايز أهادى ولادى
بغنوه أجمل غنوه حبوا الوطن
حبوا الوطن فى الغيط أبو الفدادين
وفى حصة العربى ودرس الدين
حبوا الوطن
حبوا الوطن فى الجبهة والميادين
يوم الجهاد الكل مجتهدين
حبوا الوطن
وتعملوا من قبل ما تقولوا
حبوا الوطن بالحق واشقوا له
لولا العرق ماكانش نور الجبين
حبوا الوطن
حبوا الوطن فى المطرح الدافى
الأم تسقيك الحنان صافى
والأب ما يحبش يشوفك حزين
حبوا الوطن

الجمود السياسى وانتحال الديمقراطية

شهد العالم مع العقد الأخير من القرن العشرين، ألوانًا من التجارب الحديثة فى الديمقراطية. انتشرت فى بعض المناطق بخطى أسرع من مناطق أخرى، وبالأخص فى منطقة شرقى أوروبا.. التى انهارت النظم الشمولية فيها بمجرد انهيار النظام السوفيتى وحلت محلها نظم ديمقراطية توعًا. وفى بعض دول أمريكا اللاتينية والأسيوية التى تأثرت بالنموذج الأمريكى تأثرًا شديدًا. ولم يكن نصيب العالم العربى من هذه التطورات الديمقراطية غير النزر اليسير. حيث طغى الجمود الفكرى الذى اجتاح العالم العربى فى موجات متعاقبة على الأوضاع السياسية. فظلت حركة التقدم السياسى مرهونة بالقدرة على التوفيق بين العقل والنقل، بين الإيمان بحرية الفرد والسعى الدائم للمحافظة على تماسك الجماعة واستقرارها، بين الاجتهاد والتجديد من ناحية، والجمود على الموجود من ناحية أخرى.

وإذ لم تنجح معظم المحاولات التى شهدها العالم العربى للخروج من هذه الدائرة المفرغة. فقد عبرت موجة الديمقراطية الحديثة فى أواخر القرن العشرين من فوق رأس العالم العربى، مخلفة وراءها كثيرًا من الفقاعات والرغاوى التى تصنع زبدًا لا غناء فيه ولا جدوى منه. وشُبّه للشعوب العربية فى بعض الحالات أنها دخلت بوابة الديمقراطية، حين انتحلت بعض أشكالها ورسومها وأسمائها، دون أن تتشبع بقيمها، وتستوعب غاياتها وفلسفاتها، وضاعت حرية الفرد وأهدرت ملكاته وقدراته الإنسانية، بين طاعة الأمير والخضوع للمؤسسة الدينية.. فأصبح من الصعب بل من المستحيل فى كثير من الأحيان إقامة مؤسسات سياسية مستقلة ثابتة الأركان واضحة المعالم، تضع مصلحة المجتمع فوق مصلحة الحاكم، وشرعية العقل فوق شرعية النص.

بل إن عددًا غير قليل من الشعوب العربية لم ينل شيئًا حتى من أكثر أشكال الديمقراطية بدائية، ولم يقترب منها إلا كما يقترب الظمآن من السراب. وانتهى بعضها إلى الخضوع إلى لون من أكثر ألوان الطغيان قسوة ووحشية. فلم تنجح كل ضغوط العالم الخارجى، ومؤثراته الساكنة والمتحركة، فى أن تخلص هذه الشعوب من براثن حكام وضعوا أنفسهم فى مرتبة الألوهية، واستغلوا أحدث أدوات العصر فى إحكام قبضتهم على شعوبهم والتخلص من معارضيهم دون رحمة. وفى معظم الأدبيات الحديثة التى تتعرض لأحوال الديمقراطية فى العالم، يكاد لا يوجد ذكر للعالم العربى وما يجرى فيه من ممارسات وأنشطة شبه ديمقراطية.. فسجل الفشل الديمقراطى فى العالم العربى، سجل حافل بالجرائم والخذلان والنكسات.

فلئن كانت الديمقراطية - فى أبسط تعريفاتها - هى الوصول إلى السلطة بالوسائل السلمية، عن طريق انتخابات حرة، نزيهة، شفافة، محوطة بالضمانات التى تكفل سلامتها.. فإن من الصعب تطبيق هذه المعايير على معظم الأوضاع فى العالم العربى. وقد جرت فى بعض البلدان العربية أخيرًا انتخابات برلمانية توافرت لها بعض الشروط، وعجزت عن تحقيق بعضها الآخر.. مثال ذلك الانتخابات التى أجريت فى الكويت والجزائر وفى لبنان ثم أخيرًا فى مصر، وقد يبدو من السابق لأوانه فى الوقت الراهن استخلاص نتائجها كاملة ومدى تأثيرها على تطور الأوضاع الديمقراطية على المدى الطويل. فالحاصل حتى الآن هو أن أيًا من هذه البلاد لم تبرأ العملية الانتخابية فيها من الشوائب ومن أوجه القصور الفادحة. ومازالت المثالب التى تحول دون تحقيق تمثيل حقيقى كامل للشعب بجميع قواه وتياراته السياسية الرئيسية تضفى على التجارب البرلمانية فيها ظلالاً قاتمة، تحول دون تداول السلطة بين الأحزاب بطرق سلمية، وتحول دون إيجاد آلية مضمونة للاستخلاف فى رأس النظام، بغير تدخل أو مساندة أو مباركة من السلطة العسكرية.

ومع ذلك فلا يمكن القول بأن الشعوب سئمت أو يئست أو كفّت عن المطالبة بالديمقراطية.. بل يمكن الادعاء بقدر كبير من الصحة أن معظم الأنظمة السياسية فى العالم العربى قد وصلت إلى مرحلة الأزمة. تتساوى فى ذلك الأنظمة التقليدية الملكية الوراثية، والأنظمة الجمهورية ذات الأشكال البرلمانية أو الشبيهة بها. ويبدو مثيرًا للاستغراب أن الأزمة المستحكمة فى جميع النظم السياسية القائمة فى العالم العربى، ترجع بالدرجة الأولى إلى عدم قدرتها على استيعاب كل أو معظم القوى السياسية والاجتماعية المختلفة معها أو التى استجدت على الساحة.. وهى تتخذ من ذلك سببًا للجوء إلى اجراءات استثنائية، أو لتبرير انتهاج أشكال من الديمقراطية الناقصة، بحجة تعبئة الطاقات لمحاربة أعداء الحرية والديمقراطية.. متناسية أن أنظمة الحكم الحديثة عالجت هذه الإشكالية بالالتزام المطلق بتحقيق توازن دقيق ومُحكم بين الحرية والقانون.. باعتبارهما أساس الديمقراطية.

وعلى العكس من ذلك فقد نجحت الأنظمة السياسية الثلاثة التى تحيط بالعالم العربى وتتداخل معه فى دوائر من التماس المباشر، فى تحقيق قدر أرفع من الأداء السياسى المتميز، وفى تطوير معطياتها السياسية نحو قدر أكبر من المرونة. ففى تركيا ذات النظام العلمانى تتخذ المبارزة مع التيار الدينى أشكالاً ودرجات تتراوح بين الاستيعاب والمواجهة. وفى إيران أبدى النظام الجمهورى حيوية شديدة فى تمثيل القوى السياسية الصاعدة على مستوى البرلمان ولم يلجأ إلى أساليب القمع والتزوير للحيلولة دون بروز قوى معارضة. وفى إسرائيل تحتدم التناقضات الحادة بين اليمين الدينى المتعصب واليسار الليبرالى، ثم تنفرج بمرونة بالغة تضع مصلحة إسرائيل وأمنها وتفوقها فوق كل اعتبار دون أن تفقد وجهها الديمقراطى، مهما تكن التحفظات فى تعاملها العنصرى مع الفلسطينيين العرب داخل إسرائيل.

ما الذى حال حتى الآن دون فتح أبواب الاجتهاد لتحريك حالة الجمود الديمقراطى والتجديد السياسى فى العالم العربى؟ وما هى جوانب القصور التى ساعدت على إغلاق الباب فى وجه جميع القوى السياسية بدون استثناء، والإبقاء على نخبة حاكمة أعطت لنفسها الحق فى أن تنوب عن الجميع وتفرض استمرارها بالقوة الجبرية؟ ولماذا تتقدم التجارب الديمقراطية فى معظم الحالات العربية خطوة ثم تتقهقر إلى الوراء خطوتين؟

لقد ظل الخوف من التيار الإسلامى هو الهاجس المفزع الذى أقض مضاجع النخبة الحاكمة وأعاقها عن اتخاذ الخطوات السليمة فى الاتجاه الصحيح. وبدلاً من العمل على احتواء هذا التيار واستيعابه وتحجيمه بالطرق السياسية فى إطار ديمقراطى ليبرالى يلزم الجميع، ظل التهديد باحتمال تسلل هذا التيار تحت ستار «التقية» لتخريب التجربة الديمقراطية من الداخل، كابوسًا مزعجًا تذكيه المؤسسات الأمنية، وتضخمه القوى الحزبية العاجزة عن النزول إلى القواعد الشعبية.

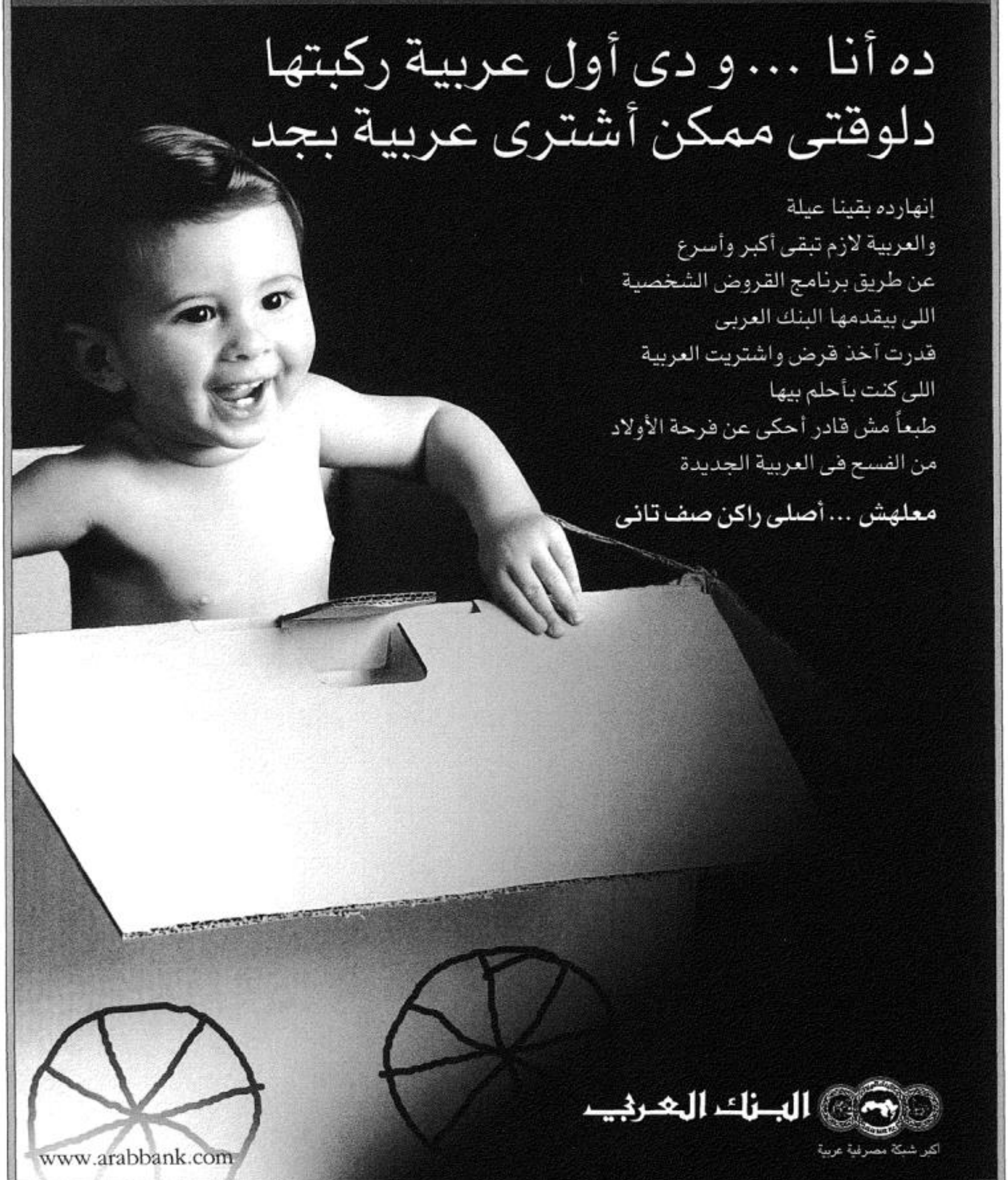
ونَجُمَ عن هذه الرؤية غير الواقعية، أن ازدادت النخبة الحاكمة استئثارًا بالسلطة، وإقصاءً لأية عناصر جديدة تسمح بالتداول والتغيير، وإغلاقًا لأبواب الاجتهاد والتجديد السياسى.. وكانت النتيجة الحتمية لذلك هى إضعاف المجتمع المدنى وإحكام الحصار حوله بسلسلة من الأغلال القانونية التى أوهنت القدرة على الحوار وحق الاختلاف. وتلاشى دور النقابات المهنية وازداد عجزها تحت وطأة التدخلات الأمنية والخلافات الحزبية. ومن ثم فقدت قطاعات شعبية واسعة أى رغبة فى ممارسة العمل السياسى والمشاركة فى تحمل المسئولية. وهو ما دعا كثيرًا من المفكرين الغربيين إلى القول أن الأمم الشرقية عرفت الدولة ولم تعرف المجتمع المدنى بمفهومه الحديث.

وتولّد عن هذا العجز بعض الحلول والاتجاهات البديلة فى مجالات الإعلام.. فأعطيت الأحزاب السياسية صحفًا تنفس فيها عن معارضتها وانتقاداتها.. ثم حلت ديمقراطية القنوات الفضائية محل الممارسات الديمقراطية الحقيقية.. وأصبح من السهل أن تمارس القوى السياسية حريتها، سواء عن طريق الصحف، أو عن طريق الانغماس فى مكلمات ومجادلات وحوارات فضائية، تستنفد الطاقات، وتمنح الإحساس بالرضى الوقتى والإشباع الذاتى والاستسلام إلى الأمر الواقع.

من هنا بدت الانتخابات البرلمانية الأخيرة فى مصر محاولة تجريبية جادة لتصويب الأوضاع، وتجديد النظام السياسى، وتهيئة الفرصة لانفتاح ليبرالى على الأوضاع المتغيرة فى العالم المحيط بنا. واعتبرت مبادرة الإشراف القضائى الذى أمرت به المحكمة الدستورية العليا بمثابة خطوة حذرة إلى الأمام. يمكن قياس نتائجها فى غمار الممارسة العملية للبرلمان القادم، الذى ضم - على مضض من النخبة الحاكمة - معظم إن لم يكن كل ألوان الطيف السياسى من اليمين واليسار والإسلاميين وغير الإسلاميين. ربما ليس بالنسب الحقيقية التى تمثلها فى الشارع السياسى، ومع قدر من التدخل المحكوم الذى يضمن عدم إفلات الزمام داخل البوتقة. فهى أشبه بتجربة معملية قد تنجح وقد تفشل. تحددت شروطها سلفًا واختارت النخبة الحاكمة أن تضع لها سقفًا لا تعلو عنه.. بحيث يمكن لو نجحت أن تأخذ التجربة مداها بعد خمس سنوات قادمة، أو يوضع المريض فى «قميص المجانين» مرة أخرى.

وعيب مثل هذه التجارب التى يغلب فيها التوجس والحذر المفرط على الاقتحام والمبادرة أن نتائجها تظل محصورة كامنة تحت السطح. تؤتى أكلها بصعوبة بالغة وقد تموت الشجرة قبل أن تثمر. ولكن تبقى أهميتها أنها قد تشجع الأحزاب والقوى السياسية المتعددة على المضى قدمًا فى بناء قواعدها، وربما تدفع بالتجربة إلى آفاق الديمقراطية الحقيقية، وتتغلب على مخاوف الذين يكرهون التغيير ويتوجسون من عواقبه. فلا أحد ينتظر الخائفين والمترددين فى عالم اليوم!

سلامة أحمد سلامة


ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخذ قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
اكبر شبكة مصرفية عربية
www.arabbank.com